سلمان العودة

إشراقات قرآنية



جزء عم (١)

الإسلام اليوم

إشراقات قرآنية



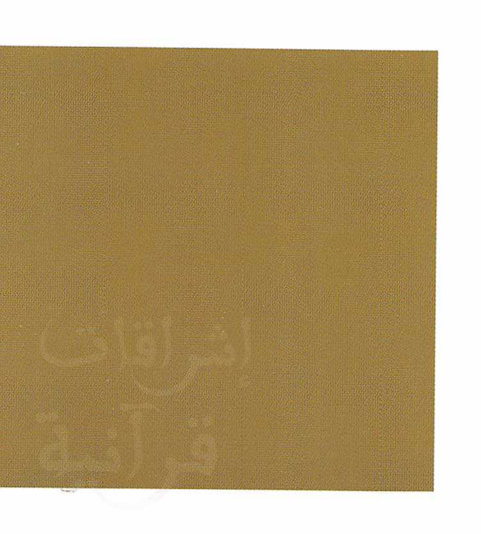
salman_alodah

آيات "جزء عم" على وجازة ألفاظها وقصرها، بديعة المعاني، رائقة الألفاظ، حاوية من دقائق الإعجاز ما يبهر العقول، ويأخذ بالألباب.

وإنني لأشعر بانشراح وأنس عند الوقوف على هذه الآيات وتدبر معانيها، وتكرار النظر فيها، وأجد لذلك لذة ليست لغيرها.

إن عامة سور هذا الجزء هي أول ما خوطبت به البشرية من كتاب الله عز وجل، وقضايا هذه السور هي قضايا الوجود الإنساني كله، كما أن سور هذا الجزء القصيرة هي ما يحفظه أغلب المسلمين ويقرؤونه في صلواتهم.

ولذا رأيت البداءة في تلقي إشراقات القرآن بـ "جزء عم".



الإسلام اليوم

للنشر والإنتاج

المملكة العربية السعودية

الرياض ص.ب. 28577 الرمز : 11447

هاتف : 012081920 فاكس : 012081902

www.islamtoday.net



إشراقات قرآنية

« جزء عم »

(١)

إشراقات قرآنية

« جزء عم »

سلمان العودة

ح مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، ١٤٣٣ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العودة، سلمان بن فهد
إشراقات قرآنية. / سلمان بن فهد العودة، الرياض ، ١٤٣٣ هـ
٤٤٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ١ - ٦ - ٩٠٣٥٩ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - التفسير، الحديث ٢- القرآن - جزء عم - تفسير
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٣/٨٢٤٨
رقم الإيداع: ١٤٣٣/٨٢٤٨
ردمك: ١ - ٦ - ٩٠٣٥٩ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الإسلام اليوم
إصدارات الإسلام اليوم
الطبعة الأولى - رمضان ١٤٣٣هـ
الرياض:
هاتف: ٠١٢٠٨١٩٢٠
فاكس: ٠١٢٠٨١٩٠٢
بريدة:
هاتف: ٠٦٣٨٢٦٤٦٦
فاكس: ٠٦٣٨٣٠٠٥٣
جوال: ٠٥٥٥٨٦٦٠٤٤
ص.ب: ٢٨٥٧٧ - الرمز: ١١٤٤٧
info@islamtoday.net
www.islamtoday.net

للتواصل مع المؤلِّف:

 @salman_alodah

 /SalmanAlodah

salman@islamtoday.net

 www.islamtoday.net/salman

 www.youtube.com/drsalmantv



إشراقات قرآنية

«جزء عم»

سلمان بن فهد العودة

الجزء الأول

من «سورة النبأ» إلى «سورة البلد»

بالإضافة إلى «سورة الفاتحة»

الإسلام اليوم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفُسِنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعدُ:

فإن المتأمِّل في القرآن الكريم يجد أن سياق آياته في غالبها مما يسهل فهمه على الناس، يفهمه الشاب والشيخ والمتعلِّم والأُمِّي والذَّكي وغير الذَّكي.

وفي الوقت ذاته تجد في الآيات من دقيق المعاني ولطيفها ما لا يدركه إِلَّا الخواص، وهذا إعجاز للقرآن الكريم؛ فالعامِّيُّ يفهم ما يحتاجه، والمتخصِّص يجد ما يغنيه ويشبع تطلُّعَه.

وكلما مر القارئ على آية أو سورة تجدَّد له بالتأمُّل والتدبُّر من الأسرار واللطائف ما لم يكن لديه من قبل.

وكلما مر جيل وحدثت للناس معارف جديدة لم يكونوا يعلمونها من قبل، وجدت أن القرآن يستوعبها، لجهة عدم وجود ما يخالفها، أو كون بعض الإشارات تدل عليها.

ومنهج القرآن في ذلك إرشادي، يقوم على دعوة الناس إلى المعرفة والاكتشاف والضرب في الكون وإعمال العقول والانتفاع بخيرات الأمم، ولا يصلح أن يتحوَّل ذلك إلى الإغراق في ربط منجزات العلم التفصيلية بنصوص الكتاب.

ونحن نعيش مع آيات «جزء عم» نجدها على وجازة ألفاظها وقصرها، بديعة المعاني، رائقة الألفاظ، حاوية من دقائق الإعجاز ما يُبهر العقول، ويأخذ بالألباب.

وإنني لأشعر بانشراح وأُنْس عند الوقوف على هذه الآيات وتدبُّر معانيها، وتكرار النظر فيها، وأجد لذلك لذَّة ليست لغيرها؛ **ولذلك أحببتُ أن أضع بين يدي القارئ الكريم تنبيهات ينبغي مراعاتها عند تدبُّر القرآن والتأمُّل في معانيه:**

الأول: إذا وقفت أمام آية من آيات الكتاب الكريم، وخفي عليك إعجازها وبلاغتها وأسرارها، فإياك أن يذهب بك الظن إلى أن هذه الآية ليس فيها أسرار، ولكن:

وعادةُ النَّصلِ أن يُزْهَى بجوهرِه   وليس يعملُ إلا في يَدَيْ بطلِ

فربما يكون عجزُ العقل حالَ دون إدراك هذه الآية وأسرارها، وربما يكون تكرار القراءة أو سماعها من قارئ حسن الصوت سببًا في قدح زِناد التدبُّر.

الثاني: أن الله تعالى جعل في القرآن ألوانًا من الأسرار، منها ما يتعلق باللغة، ومنها ما يتعلق بالتشريع، ومنها ما يكون إعجازًا علميًّا، ومنها ما يكون إعجازًا

تاريخيًّا، أو أخلاقيًّا..

والله تعالى قد وزَّع المواهب بين الخلق، فمِن الناس مَن يطرب لجوانب البلاغة والإعجاز اللفظي، ويستنبطها وتروق له؛ ولذلك يشعر بتجاوب مع هذا النوع من الإعجاز، ومنهم مَن تكون اهتماماته علمية بحتة، فهو يبحث عنها، ومنهم مَن تكون ميوله روحانية، فيأنس حين يجد الله في القرآن يخاطب عباده ويعرِّفهم بنفسه مباشرة، ويخاطب رسله وأنبياءه ويكشف للخلق حياتهم وسرَّهم ومصيرهم.

والله قد جعل القرآن منهلًا يَرِدُه الخلقُ كلُّهم فيَسَعُهم، وكل إنسان يجد فيه بغيته وطلبته إذا كانت طِلْبَةَ حق؛ ولذلك فالواردات والخواطر الصحيحة على الذهن، لا بد أن توجد أصولها متضمنة في القرآن الكريم.

والقرآن ليس كتاب جيل فحسب، بل هو كتاب الأمة كلها والتاريخ كله، فلم يحتو على معلومات موغلة في الغرابة ولو كانت صحيحة؛ لئلا تكون فتنة لِمَن لم يكتشفها، ولا تزال كشوف العلم ومستجداته تُزِيد القارئ فيه فهمًا وبصيرة وغوصًا على أسراره بما لم يقع لأجيال سبقت.

والإنسان يُؤتى من قِبَل ضعف قواه وملكاته وقدراته؛ ولذا كان كمال العلم البشري دعوة إلى الإيمان بالله، وكان الأئمة يعتنون بالتدبر والفهم والغوص على أسرار القرآن.

وقلما تجد عالمًا مشهورًا إِلَّا وصنَّف في التفسير، وبعض ذلك نقل وتكرار، أو جمع مرشَّح أو غير مرشَّح.

وبعضهم يعتني بجانب لا يعتني به غيره، كما تجد البلاغة والإعجاز اللغوي، في «الكشاف» للزَّمخشري، وكتب عبد القاهر الجُرْجاني، و«التحرير والتنوير» للطاهر ابن عاشور.

ومنها ما يهتم بالأحكام الفقهية، ويطيل النفس في آياتها، كالقرطبي، وابن العربي، والشنقيطي.

ومنها ما يهتم بالإشارات الدقيقة الروحانية والصوفية، ومنها قدر طيب انتفع به علماء كثيرون، كابن تيمية وابن القيم، وقدر محل تردد، ومنها ما هو تحريف للكلم عن مواضعه.

واهتم المعاصرون بالإعجاز العلمي، وسبق إليه الأستاذ فريد وجدي، ثم طنطاوي جوهري، ثم د. مصطفى محمود، و د. زغلول النجار، والشيخ عبد المجيد الزنداني، و د.عبد الله المصلح، وغيرهم، وقد تعاطاه بعضهم بنَفَس معتدل، وحصل من بعضهم تكلُّف في إقحام بعض المعاني، وربطها بالقرآن الكريم.

الثالث: أن من المعاني اللطيفة ما يدركه مَن يتكلم العربية وهي لغته، بخلاف مَن تعلَّمها وتكلَّمها، فإنه يفوته كثير من صور التدبر؛ لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ومن شكر نعمة الله هذه أن يُقْبِل صاحب اللغة العربية على القرآن الكريم، ويستدرك هذه المعاني اللطيفة التي قد تفوت على غيره.

الرابع: من ألطاف القرآن الكريم ما يقع في النفوس وتُشرق به القلوب ويُعْجِز الألسنةَ الإفصاحُ عن معانيه، حتى يكون القارئ حين استقبال هذه الموجات العالية من الإيمان والمشاهدة غير راغب في تدوينها أو الحديث عنها؛ لأن ذلك يقطع حبل تسلسلها واتصالها، ولأن اللغة لا تستوعبها؛ ولذا قال النِّفَّري: «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة»[1]. وباليقين وقع للأنبياء ثم الصحابة ثم أكابر المحققين والمؤمنين الراسخين ومَن دونهم من ذلك ما لا يخطر على بال.

---

(١) ينظر: «المواقف والمخاطبات» للنفري (ص٥١).

ولذا فالقرآن هو أعظم أدلة الوجود والوحدانية والإيمان، وعلى الداعية والمحاور والمدافع عن حقائق التوحيد أن يعمِّق صلته به؛ إذ ليس الإيمان معنى عقليًّا صرفًا كالمسائل الرياضية، بل هو حجة عقلية وضرورة قلبية وحياتية ومعرفية قد يضعفها الجدل فيها، إلَّا ما دعت إليه الحاجة لتثبيت إيمان أو إقامة حجة أو رد شبهة عارضة.

ولا يزال المتأمِّل في كتاب الله عز وجل يتلقَّى أنواعًا من المعاني العظيمة التي تُشرق لها النفس وتحيا وتطمئن.

ولذا رأيتُ أن أتلقَّى هذه الإشراقات، مستعينًا في ذلك بجهد السابقين من علماء الأمة في تفاسيرهم المشهورة المعتمدة.

ورأيتُ البداءة بـ «جزء عم»؛ فإن عامة سور هذا الجزء هي أول ما خُوطبت به البشرية من كتاب الله عز وجل، وقضايا هذه السور هي قضايا الوجود الإنساني كله، كما أن سور هذا الجزء القصيرة هي ما يحفظه أغلب المسلمين ويقرؤونه في صلواتهم.

كما أني رأيتُ أغلب المفسرين إذا وصلوا إلى هذا الجزء، وهو آخر جزء في القرآن، لا يكون عطاؤهم كما كان عندما شرعوا في التفسير من أول جزء.

وقد كانت البداءة بهذه الإشراقات في دروس ألقيتُها، وكان للإلقاء والتفاعل مزيته، ثم أعدتُ كتابتها واجتمعت عليها، وكان للتأمُّل والاستغراق مزيته الأخرى.

ثم ها هو الجهد بين يديك، سائلًا الله أن يسلكني وإياك في سلك أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يجعلنا ممن هداهم الله بهذا القرآن للتي هي أقوم وأنالهم به كريم البُشرى بأن لهم أجرًا كبيرًا.

وإنني أَطْمَحُ من قرَّاء هذا الكتاب إلى التواصل معي عبر وسائل الاتصال؛ لتوصيل أي ملحوظة أو اقتراح أو نقد أو تعديل؛ فهذه التغذية الراجعة، هي دومًا من مصادر فرحي وسعادتي، وهي تُسْهِم في تطويري ذاتيًّا، مثلما تُسْهِم في تطوير الكتاب وتحسينه، والشكر لكل مَن يقتطع جزءًا من وقته لقراءة الكتاب، أو يضيف جزءًا آخر لكتابة تعديل أو تصويب وإرساله إليَّ.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

سلمان العودة

١ رمضان ١٤٣٣هـ


@salman_alodah

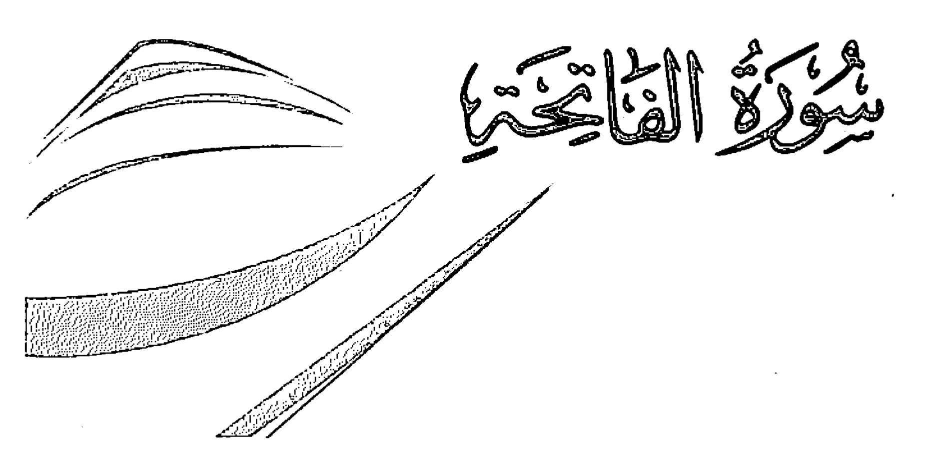
/SalmanAlodah

salman@islamtoday.net

www.islamtoday.net/salman

www.youtube.com/drsalmantv

○ ○ ○


سورة الفاتحة

سورة الفاتحة[1]

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ١-٧].

---

(١) هذه السورة وإن كانت ليست من «جزء عم»، إلا أنه لكثرة قراءة المسلم لها في صلواته، وحاجته إلى معرفة معانيها؛ كانت البداءة بتفسيرها، كما فعل بعض العلماء، ومنهم الشيخ محمد بن عثيمين في تفسيره لـ«جزء عم»، والشيخ محمد الأشقر في «تفسير العشر الأخير».

* سورة الفاتحة: سورة عظيمة، يقرؤها المسلم في اليوم الواحد بعدد ركعات الصلوات؛ لقوله ﷺ -كما في «الصحيحين» من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه-: «**لا صلاة لمَن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»[1].

وقد ذكر الشرّاح أن معنى الحديث: أن يقرأ بها في كل ركعة من صلاته، فدل هذا على عظيم شأن السورة، وجليل قدرها، وأنه ينبغي تأمل معانيها، فلحكمة بالغة شرع الله تكرارها في الصلوات من بين جميع سور القرآن وآياته.

* تسمية السورة:

لهذه السورة أسماء كثيرة، وكثرة أسمائها تدل على عظيم قدرها[2]:

١ - **«سورة الفاتحة»**، فقد سماها النبي ﷺ: **«فاتحة الكتاب»**، كما في حديث عبادة رضي الله عنه المتقدم؛ وذلك لأنها أول ما يُقرأ من القرآن، فهي أول سورة مكتوبة في المصحف، وإن لم تكن أول سورة نزلت، ولهذا سمَّاها النبيُّ ﷺ: **«فاتحة الكتاب»**[3].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٧٥٦)، و«صحيح مسلم» (٣٩٤).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (١/ ١٥٦)، و«إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص ٦٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ١٨٢)، و«بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (ص ١٢٨-١٢٩)، و«الإتقان» (١/ ١٨٧-١٩١)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٣١).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ١٩٣)، و«تفسير مقاتل» (١/ ٣٣)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٥)، و«تفسير الطبري» (١/ ١١١)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٣١).

٢- «أم القرآن»، وهكذا سمَّاها النبيُّ ﷺ، فقال: «أم القرآن هي السبع المثاني، والقرآن العظيم»[١]؛ لأن معاني القرآن ترجع إلى مضمونها؛ فهي شاملة للمعاني الكلية، والمباني الأساسية التي يتكلم عنها القرآن.

٣- «السبع المثاني»، كما في الحديث المتقدِّم؛ وذلك لأنها سبع آيات تُقرأ مرة بعد مرة، وسُمِّيت بـ«المثاني»؛ لأنها شاملة لمجملات المعاني المفصَّلة فيما سواها.

٤- «القرآن العظيم»، فقد سمَّاها بذلك النبيُّ ﷺ، فقال: «هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[٢]. وكما في الحديث المتقدِّم أيضًا.

٥- «سورة الحمد»[٣]؛ لأنها بدأت بحمد الله عز وجل في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٦- «الصلاة»، كما في الحديث القدسي: «قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. قال: مجَّدني عبدي. -وقال مرة: فوَّض إليَّ عبدي- فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٧٤) من حديث أبي سعيد بن المعلَّى رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١/ ٤٥)، و«معاني القرآن» للنحاس (١/ ٤٧)، و«سنن الدارقطني» (٤/ ٣١٠)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٢٦)، و«تفسير الرازي» (١/ ١٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١١٢)، و«تفسير الخازن» (١/ ١٥).

(٤) أخرجه مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فسمَّاها: «الصلاة»، إما لأنها ذكر ودعاء؛ فإن السورة فيها دعاء وتبتُّل إلى الله بأعظم مطلوب وهو الهداية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾، فسُمِّيت السورة ببعض أجزائها، وبعض معانيها، وهو الدعاء.

والدعاء في اللغة يسمى: «صلاة»، كما قال الله عز وجل: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ [التوبة: ١٠٣]، يعني: ادع لهم[1].

وقد قال الأعشى:

تقولُ بنتي وقد قَرَّبْتُ مُرتحِلًا   يا ربِّ جنِّبْ أبي الأوصابَ والوجعا

عليكِ مثل الذي صلَّيْتِ فاغتمضي   نومًا فإن لجنب المرء مُضْطَجَعَا[2]

يعني لك من الدعاء مثل الذي دعوت به لي.

أو سميت بذلك لأنه لا تصح الصلاة إلاَّ بها؛ فهي ركن في الصلاة.

إلى غير ذلك من الأسماء التي تدل على عظمة هذه السورة، وجليل قدرها، ووجوب العناية بها.

ويكفي في شرفها أنه لا يكاد يوجد مسلم في الدنيا إلَّا ويحفظها، حتى إن الإنسان أول ما يدخل في الإسلام، وينطق بالشهادتين يحفظ سورة الفاتحة قبل غيرها؛ حتى تصح بها صلاته، ولو أن الإنسان اقتصر عليها في الصلاة لصحت صلاته، فما زاد عنها فهو نفل مستحب، وليس بواجب[3].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٦٥٩)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٢/ ٤٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٦٨)، و«تفسير الخازن» (٢/ ٤٠٤)، و«البحر المحيط» (٥/ ٤٩٩)، و«تاج العروس» (٣٨/ ٤٣٧) (ص ل و).

(٢) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص١٠١).

(٣) ينظر: «بدائع الصنائع» (١/ ١١١-١٦٠)، و«المدونة» (١/ ١٦٣)، و«المجموع» (٣/ ٣٤٩)، و«المغني» (١/ ٢٩١-٣٣٣)، و«فقه العبادة» للمؤلف (٢/ ١٧٦).

* عدد آياتها: سبع آيات بلا خلاف، ومَن لم يعد ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ آية، فقد عدَّ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية[1].

* والسورة مكية على قول الأكثرين، وهو مروي عن علي ﷺ، والحسن، وأبي العالية، وقتادة.

وقيل: مدنية. وهو قول مجاهد، ومروي عن أبي هريرة ﷺ، وعطاء بن يسار، والزُّهري.

ورُوي القولان عن ابن عباس ﷺ.

وقيل: نزلت مرتين، مرةً بمكة ومرةً بالمدينة؛ ولذلك سُمِّيت: مثاني.

وقيل: نزل نصفها بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة. وقال ابن كثير عنه: «وهو غريبٌ جدًّا».

والأظهر ما رجَّحه كثير من الأئمة أنها مكية؛ لأن الله تعالى مَنَّ على الرسول ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]. والمراد منها: فاتحة الكتاب، وسورةُ الحجر مكية بالإجماع، فلم يكن يَمُنُّ عليه بها قبل نزولها، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حُفظ أنه كان في الإسلام قطُّ صلاةٌ بغير ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾. يدلُّ على هذا قوله ﷺ: «لا صلاةَ لمَن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[2]. وهذا خبرٌ عن الحكم، لا عن الابتداء[3].

---

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ١٣٩)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٠١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٧٥٦)، و«صحيح مسلم» (٣٩٤).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٣٥)، و«تفسير السمرقندي» (١/ ١٥)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص ١٣٩)، و«الكشاف» (١/ ١)، و«تفسير البغوي» (١/ ٧٠)، و«زاد المسير» (١/ ١٧)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١١٥)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٠١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١/ ١٦٧)، و«روح المعاني» (١/ ٣٥)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٣٥).

* ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١]:

اختلف أهل العلم هل «البسملة» آية من الفاتحة؟ أم آية من القرآن؟ أم آية من كل سورة؟

وكل سورة في القرآن تبدأ بـ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، إلا سورة التوبة[1].

* وفي هذه السورة خاصة قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٢-٣]: فأعاد هذين الوصفين العظيمين لله تعالى.

وفي هذه السورة ذُكر لله خمسةٌ من أسمائه الحسنى، وهي: «الله»، «الرب»، «الرحمن»، «الرحيم»، «الملك».

١ - الله:

وهو الاسم الأعظم لله عز وجل على قول بعضهم، فهو أكثر الأسماء ترددًا في القرآن والسنة، وعلى ألسنة المخلوقين بمختلف لغاتهم وألسنتهم، ولأنه الاسم الذي تُنسب الأسماء الأخرى إليه، فيقال: «الله الملك، الله الخالق، الله العليم... »، ولا يشاركه في هذا الاسم غيره؛ فلم يتسمَّ به أحد قط، ولهذا قال سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[2] [مريم: ٦٥].

«الله» الذي تأله القلوب، أي: تحن إليه، وتشتاق إلى لقائه، وإلى رؤيته، وتأنس بذكره، وكان النبي ﷺ يقول في دعائه: «**وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك..**»[3].

---

(١) ينظر: «التمهيد» (٢/ ٢٢٨)، (٢٠/ ٢١٥)، و«الاستذكار» (١/ ٤٥٧-٤٦٢)، و«المغني» (١/ ٣٤٤-٣٤٥)، و«المجموع» (٣/ ٣٣٤-٣٤٠)، و«مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٠٥-٤٤٣)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ١٦٥-١٦٩).

(٢) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص ٤٣-٥٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي (٣/ ٥٤)، وابن حبان (١٩٧١).

ومن معاني لفظ الجلالة: «الله» أنه الذي تحار فيه العقول، فلا تحيط به علمًا، ولا تدرك له من الكُنْه والحقيقة إلا ما بيَّن سبحانه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ولا تعلم كيفية ذاته سبحانه، ولا تحيط به؛ وإذا كانت العقول تحار في بعض مخلوقاته في السماوات والأرض، والبر والبحر، فكيف بذاته جل وعلا؟! فالعقل يرتد كليلًا حسيرًا عن إدراك ذات الله جل وعلا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

وفي حديث الشفاعة يقول الرسول ﷺ: «.. **فأستأذن على ربي، فيُؤذنُ لي، ويُلهمني محامدَ أحمدُهُ بها، لا تحضرُني الآن، فأحمدُهُ بتلك المحامد، وأَخِرُّ له ساجدًا..**»[1].

فأخبر أن الله يعلِّمه من المحامد ما لا يعلمها الآن، ويفتح عليه من العلم به آنذاك ما لم يكن لديه من قبل.

ومن معانيها: أنه الإله المعبود المتفرِّد باستحقاق العبادة؛ ولهذا جاء هذا الاسم في الشهادة؛ فإن المؤمن يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله»، ويقول: «الله أكبر».

أطلق هذا الاسم العلم الذي هو أصل لكل الأسماء الأخرى؛ إظهارًا للاعتقاد أنه لا معبود بحقٍّ إلا هو: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[2] [الحج : ٦٢].

٢- الرب:

فهو ربُّ العالمين، ربُّ كل شيء وخالقه والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته وكل مَن في السماوات والأرض عبد له، في قبضته، وتحت قهره.

٣- الرحمن:

«الله» و«الرحمن» من الأسماء الخاصة به جل وعلا، لا يشاركه فيها غيره، ولهذا قال

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص٥١-٥٢).

سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠].

أما الأسماء الأخرى، فقد يُسمَّى أو يُوصف بها غير الله، كـ «الرحيم»، و«السميع»، و«البصير»، كما قال سبحانه عن نبيه ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وكما قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

والاسم يدل على صفة الرحمة لله وعظمتها وتقديمها، حتى ورد في «الصحيح» أن الله خلق مائة رحمة، أنزل منها رحمة في الدنيا، وادخر باقيها ليوم الحساب(١).

وجعل كتابه رحمة، وأرسل رسوله رحمة، وقال: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وبدأ كتابه العزيز بهذا الاسم تأكيدًا على استشعار الرحمة في العبادة وفي التعليم وفي الدعوة وفي الدعاء، وأن مَن خرج منها إلى أن يكون مغضوبًا عليه، فبسبب إمعانه في الغي وإعراضه عن الله.

٤- الرحيم:

وهو مثل «الرحمن» في أصل الاشتقاق، واختلفوا في الفرق بينهما:

فقيل: «الرحمن»: رحمة عامة بجميع الخلق، و«الرحيم»: رحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقيل: إن اسم «الرحمن» بالنظر إلى وجود الصفة، وأما «الرحيم» فبالنظر إلى متعلَّقها في الخلق، يعني: حصول أثرها في الخلق برحمته تعالى لهم، أشار إليه الإمام ابن القيم(٢)، فالله هو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما(٣).

والأقرب أن ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ على وزن (فَعْلان) صيغة مبالغة، تدل على الامتلاء

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٤٦٩)، و«صحيح مسلم» (٢٧٥٢).

(٢) ينظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٢).

(٣) ينظر: «زهرة التفاسير» (١/ ٥٣)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص ٥٥-٦٤).

والتناهي في التحقق بالصفة، وأما ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فهي بصيغة (فَعِيل) التي تدل على التكرار ، وأن هذه صفة دائمة، فـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أدل على المبالغة في تحقق الصفة، والتناهي في عظمها، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أدل على المبالغة في تكرارها ودوامها.

وهاهنا ينبغي أن نتأمل سرًّا من أسرار تكرار هذين الاسمين، فإن الإنسان إذا أراد أن يقرأ، أو يدخل أو يخرج أو يأكل أو يخطب أو يتكلم قال: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وقد ورد: «**كلُّ أمر ذي بال لا يُبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم**»- وفي رواية: بـ«الحمد لله» - **فهو أبتر، أو أقطع، أو أجذم**»[1]. والمعنى: ناقص البركة.

لكن من المعلوم أن العبارة تقال هكذا: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فلم يقل أحد من الناس قط: «بسم الله المنتقم الجبار»، أو: «بسم الله العزيز الحكيم»، مع أن هذا حق؛ وإنما يقال: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وفي هذا إشارة إلى قوله عز وجل في الحديث القدسي: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[2].

على الإنسان ألّا يقنط من رحمة الله، مهما أسرف على نفسه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر : ٥٦]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف : ٨٧]؛ ولهذا كان اليأس من رحمة الله، والأمن من مكر الله من صفات الكافرين.

وهكذا ينبغي للإنسان أن يتشبَّث أبدًا بطلب رحمته جل وعلا، وأن يعلِّم الناس

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٨٧١٢)، و«سنن أبي داود» (٤٨٤٠)، و«سنن ابن ماجه» (١٨٩٤)، و«صحيح ابن حبان» (٢)، و«سنن الدارقطني» (١/ ٤٢٧-٤٢٨)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (١/ ٧-٢٢)، و«إرواء الغليل» (١-٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الثقة برحمته سبحانه.

وكثيرًا ما كان النبي ﷺ يعلِّم أصحابه الرجاء فيما عند الله، وأن تكون ثقة الإنسان بالله وبرحمته أعظم من ثقته بعمله؛ فإن عمله قد يداخله الرياء والعُجْب، أو لا يكون على وفق ما شرع رسول الله ﷺ، فيُرَدُّ على صاحبه، لكن يكون اعتماد العبد على رحمة الله جل وعلا، قال ﷺ: «لن يُدخِلَ أحدًا عملُه الجنةَ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله منه بفضل ورحمة»[1].

وهكذا ينبغي أن يُدعى الناس والعصاة بخاصة إلى الله عز وجل بتذكيرهم برحمته، مع تذكيرهم بعقوبته، فالله عز وجل يقول: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

قدَّم المغفرة والرحمة على العذاب، وجعلها صفة له، بينما عبَّر في الآية الأخرى عن عذابه بأنه أليم، ولم يصف نفسه بالمعذِّب أو الباطش أو المعاقِب.

بعض الدعاة يفيضون في الحديث عن الوعيد والتشديد والتخويف والترهيب، إلى درجة تُحدِث أثرًا عكسيًّا، وهو تقنيط العصاة من روح الله ورحمته، فيتملكهم اليأس، ويفقدون الأمل، فيتشبثون بما هم عليه من المعاصي، ويستغرقون فيها، أما فتح أبواب الرجاء في القلوب فأسلوب قرآني عظيم يواجهك في مطلع أول سورة في القرآن الكريم، حتى إن الإنسان الذي يريد أن يتكلم عن النار سيقول في أول حديثه: «بسم الله الرحمن الرحيم»، والذي يريد أن يتكلم عن الحدود الشرعية سيبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، ومَن يريد أن يتحدث عن الكفر والتكفير يستهل حديثه بـ«بسم الله الرحمن الرحيم».

فينبغي أن يُعطى هذا الحديث قَدْرَهُ عند الناس، ويُذكَّروا دائمًا بأن يتعلقوا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣، ٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨٦١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

بـ «الله»، «الرحمن»، «الرحيم»؛ وهذه الأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى، وهي «الله»، و«الرب»، و«الرحمن»، فاسم «الله» متضمن لصفات الألوهية، واسم «الرب» متضمن لصفات الربوبية، واسم «الرحمن» متضمن لصفات الجود والبر والإحسان.

فالربوبية من الله لعباده، والتأليه منهم إليه، والرحمة سبب واصل بين الرب وبين عباده، فبرحمته أرسل رسله، وأنزل كتبه، وبها رزق عباده وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة[1].

٥- المالك:

* ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]:

أي، يوم يُدان الناس بعملهم، ويجازون به خيرًا أو شرًّا، فبعدما اعترف لله قائلًا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ زاد الاعتراف قوة وثباتًا بأن أثنى على الله سبحانه بصفاته وأسمائه: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وفي قراءة سبعية[2]: (ملك يوم الدين) بالقصر بلا مد[3]؛ وكلاهما جائز أن يُقرأ به في الصلاة.

وقد استفتح السورة بالحمد، وهو: الثناء على المحمود بإفضاله وإنعامه، أما المدح فهو: الثناء عليه بصفات الجلال والجمال والكمال.

إذًا؛ فالحمد ثناء على الله تعالى بما أنعم عليك، وما أعطاك، فإذا قيل: إن فلانًا حمد

---

(١) ينظر: مقدمة «مدارج السالكين».

(٢) أي: من القراءات السبع المتواترة، وهي قراءة نافع وغيره.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ١٤٩)، و«المصاحف» لابن أبي داود (ص ٢٣٣)، و«السبعة في القراءات» (ص ٦٤)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص ٤٦)، و«الكشاف» (١/ ١١)، و«تفسير الرازي» (١/ ٢٠٤)، و«النشر في القراءات العشر» (١/ ١١)، و«إتحاف فضلاء البشر» (ص ١٥)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١/ ٨-١٣).

فلانًا. فمعناه أنه شكره على إحسان قدمه إليه، لكن إذا قيل: مدحه. فلا يلزم أن يكون مدحه بشيء قدمه، بل قد يكون مدحه مثلًا ببلاغته وفصاحته، أو بجماله، أو بقوته.

وعليه، فالمدح أعم من الحمد؛ لشموله الثناء بصفات الجمال والجلال والكمال مطلقًا؛ فالحمد فيه معنى الشكر، ومعنى الاعتراف بالجميل.

وعبَّر ابن القيم عن ذلك، فقال: «الإخبار عن محاسن الغير، إما أن يكون إخبارًا مجرَّدًا من حب وإرادة، أو مقرونًا بحبه وإرادته، فإن كان مجرَّدًا عن الحب والإرادة، فهو المدح، وأما الحمد، فهو إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه»[(١)].

والحمد يتضمن الاعتراف، والاعتراف فيه معنى عظيم؛ لأنه إقرار من العبد بتقصيره وفقره وحاجته، واعتراف لله بالكمال والفضل والإحسان، وهو من أعظم ألوان العبادة؛ وقد يعبد الإنسان ربه عبادة الـمُدل الـمُعْجَب بعمله؛ فلا يُقبل منه؛ لأن الإعجاب لا يتفق مع الاعتراف والذل؛ فلا يدخل العبد على ربه من باب أوسع وأفضل من باب الذل والانكسار؛ بل هذا هو معنى العبادة المذكور في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، تقول العرب: هذا طريق معبَّد، يعني: مذلَّل تطؤه الأقدام[(٢)]؛ فمن أعظم معاني العبادة: الذل له سبحانه.

كان النبي ﷺ كثير الاعتراف لله تعالى على نفسه، فكان يقول: «**اللهمَّ اغفرْ لي ذنبي كُلَّهُ؛ دِقَّهُ، وجِلَّهُ، وأَوَّلَهُ وآخِرَهُ، وعلانيَتَهُ وسِرَّهُ**»[(٣)].

حتى قول: «اللهم اغفر لي». فيه معنى الاعتراف على النفس بالذنب والنقص، والاعتراف لله تعالى بأنه هو الغفور الرحيم.

ونقيض الاعتراف هو الإنكار والجحود، والذنب الذي كفر به إبليس هو

(١) ينظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٩٣).

(٢) ينظر: «تاج العروس» (٨/ ٣٤٠) (ع ب د).

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الجحود؛ فإبليس يعرف ربه، ويدعوه ويحلف به، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]، ويؤمن بيوم القيامة: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ص: ٧٩]، ولكن ذنبه هو الجحود والاستكبار عن الطاعة والعبادة، وهكذا قال عز وجل عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤].

فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تبرَّأ من هذا كله، وكأن أول ما تدل عليه هذه الكلمة: أن العبد وهو واقف يقول: أعترف بأنني عبد محتاج، فقير، ذليل، مقصِّر، وأنك الله ربي المنعم المتفضِّل، فهذا فيه معنى الحمد، إذ إن العبد يحمد ربه على فضله عليه في دينه، ودنياه.

* ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]:

هذه الآية فيها أعظم المعاني؛ وهو الإقرار بالعبودية، وهذا أصل التوحيد، الذي بُعث به الرسل، كما في قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [هود: ٢٦].

والشرك في الألوهية من أخطر ألوان الشرك الذي بُليت به الأمم كلها؛ لأن قضية الربوبية - وهي الاعتراف بالله خالقًا ورازقًا - أمر تقر به الفطر والنفوس، وإن كان يحتاج إلى ترسيخ وتذكير؛ لأنه يستلزم الإيمان بالألوهية وصرف العبادة لله.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فيه تقديم للضمير، إشارة إلى التخصيص؛ يعني: لا نعبد إلَّا إياك، ففيها حصر وقصر.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فيه إثبات الاستعانة بالله، ونفي الاستعانة عمَّن سواه، يعني لا نطلب إلا عونك؛ فلا نستعين بغيرك، ولا نستغني عن فضلك، فمن الناس مَن يستعين بغير الله، ومنهم مَن قد يستعين بالله وبغيره، وهؤلاء لم يحققوا ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وهذه الآية هي التي بين الله وبين عبده، فمن العبد الدعاء والعبودية، ومن الله العون والقوة، حتى على العبادة، إذ ليس للعبد قدرة على تحول أو فعل إلا إذا استمد من ربه واعتصم به، ولهذا كان من قول أهل الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

* ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]:

من معانيها:

١- ثبِّتنا حتى لا ننحرف أو نزيغ؛ لأن الإنسانَ يكون اليوم مهتديًا، وغدًا من الضالين، أي: ثبِّتنا على الصراط المستقيم صراط الذين أنعمتَ عليهم.

٢- قوِّ هدايتنا، فالهداية درجات، والمهتدون طبقات؛ منهم مَن يبلغ درجة الصِّدِّيقيَّة، ومنهم مَن يكون في أدنى درجات الإسلام، وبحسب ذلك تكون منازلهم في الجنة، وبحسب هدايتهم يكون سيرهم على الصراط؛ فإن لله تعالى صراطين: صراطًا في الدنيا، وصراطًا في الآخرة، والأمن على الصراط الأخروي، هو بقدر الاستقامة على الصراط الدنيوي.

والصراط الدنيوي هو طريق الله، كما في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]، وهو بطاعة الله فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه.

وصراط الآخرة هو الجسر المنصوب على متن جهنم، وهو دحض مزلة، يمشي الناس فيه بقدر أعمالهم، فمنهم مَن يمر كالبرق، ومنهم مَن يمر كالريح، ومنهم مَن يمر كأجاود الخيل، ومنهم مَن يمر كالراكب، ومنهم مَن يمشي تارة ويعثر أخرى[1].

---

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. ينظر: «صحيح البخاري» (٧٤٣٩)، و«صحيح مسلم» (١٨٣).

وعليه فـ ﴿ ٱهۡدِنَا﴾ أي: زِدْ إيماننا وعلمنا؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤]؛ فالعلم من الإيمان، وكلما ازداد العبد التزامًا بالصراط المستقيم، ازداد علمه، قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]؛ فزيادة الإيمان هي زيادة ثبات على الصراط المستقيم؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: ١٧]؛ وكقوله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ [الكهف: ١٣].

وقد كتب الإمام الهروي «منازل السائرين إلى الحق المبين»، ثم شرحه ابن القيم في «مدارج السالكين»، وهو تفصيل لمنازل الناس ومقاماتهم في سلوكهم إلى رب العالمين.

٣- جَدِّد هدايتنا؛ إذ «إن معنى الصراط المستقيم: أن يفعل العبد في كل وقت ما أُمر به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا يفعل ما نُهي عنه، وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أُمر به في ذلك الوقت وما نُهي عنه، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور، وكراهة جازمة لترك المحظور، فهذا العلم المفصَّل والإرادة المفصَّلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد، بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإرادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم»[1].

وبصفة عامة، فالعبد يحتاج إلى هذه الهداية في جميع ما يأتي ويذر: من أمور قد أتاها على غير الهداية، فهو يحتاج إلى التوبة منها، وأمور هُدي إلى أصلها دون تفصيلها، أو هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو يحتاج إلى إتمام الهداية فيها، وأمور يحتاج أن يحصل له من الهداية في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمور هو خال عن اعتقاد فيها، فهو يحتاج إلى الهداية فيها، وأمور لم يفعلها، فهو يحتاج إلى فعلها على وجه الهداية،

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٣٧).

وأمور قد هُدي إلى الاعتقاد الحق والعمل الصواب فيها، فهو محتاج إلى الثبات عليها، إلى غير ذلك من أنواع الهدايات، فلما كان العبد محتاجًا إلى هذا كله، فرض الله عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله مرات متعددة في اليوم والليلة[1].

ولتحقيق الهداية لا بد من:

١- معرفة الموقف الصحيح، وماذا يريد الله ورسوله منه في هذه المسألة، وما هو الصواب والأصح له في هذه القضية.

٢- العمل وفق هذه الرؤية عن طريق وجود إيمان قوي في قلب العبد يحدوه إلى العمل.

فحين يقول العبد: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فهو ينادي ربه ويسأله قائلًا: يا ربنا، دُلَّنا على ما تحب وترضى في كل ما يواجهنا من أمور الحياة، ثم قوِّنا وأعنَّا على العمل بهذا الذي عرفناه، والذي دللتنا عليه وعلَّمتنا إياه.

وسر الانحراف يرجع إلى فقد أحد هذين الأمرين: العلم والعمل، والوقوع في ضدهما، وهما:

١- الجهل: فإن الإنسان قد توجد عنده الرغبة في عمل الخير، ولكن يجهل الطريقة لتحصيله، فيسلك طرقًا غير موصِّلة، ويجهد نفسه فيها بغير طائل، وكم من إنسان يسير بسرعة هائلة نحو هدفه، فيكتشف في نهاية المطاف أنه كان يسير في الاتجاه المعاكس، وأنه كان يسرع ويمعن في البعد عن ذلك الهدف!

وكم من المسلمين مَن يجتهد ويتعب في أعمال غير مشروعة، وهو يظن أنه ممن يحسنون صنعًا، وذلك بسبب قلة العلم، فحين يقول العبد: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فهو يسأل ربه أن يعلِّمه ويَدُلَّه، فلا يبقى في ضلال الجهل متخبطًا على غير بصيرة.

---

(١) ينظر: «الصلاة» لابن القيم.

٢- الهوى: فقد يرتفع الجهل بالعلم؛ فيكون الإنسان عالمًا، ولكن ليس لديه العزيمة التي تجعله ينبعث للعمل بهذا العلم، فيترك الواجب أو يرتكب المحرَّم عامدًا مع علمه بالحكم؛ لضعف الإيمان، وغلبة الشهوة وتعجل المتعة الدنيوية.

* ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]:

هذا تأكيد للمعنى السابق وتفصيل له، ولذلك أعاده سبحانه هاهنا؛ لأن القرآن مثاني، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، يعني يعاد معناه مرة بعد أخرى.

فقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ نسب الصراط للذين حازوا الهداية التامة ممن أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، فهم الذين سلكوه ولزموه وماتوا عليه، ومَن سلكه من بعدهم فقد تأسَّى بهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠].

قوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾:

المغضوب عليهم: هم الذين عرفوا الحق وتركوه، قال الله: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، ومنهم اليهود الذين عرفوا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وفي الحديث المرفوع: «**اليهودُ مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضلالٌ**»[(١)].

ولكن الغضب ليس محصورًا في اليهود؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ [النساء: ٩٣]، وقال

(١) أخرجه الطيالسي (١١٣٥)، والترمذي (٢٩٥٣/ م، ٢٩٥٤) من حديث عدي بن حاتم ﷺ.

ﷺ: «مَن اقتطع مالَ امرئ مسلم بيمين كاذبة، لقي الله وهو عليه غضبان»[1]. وقال أيضًا: «مَن حلف على يمينِ صبرٍ؛ يقتطع بها مال امرئ مسلم، هو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان»[2]. وفي قصة الثلاثة من بني إسرائيل: الأبرص والأقرع والأعمى، قال: «إن الله قد رضي عنك وسخط على صاحبيك»[3].

فالمغضوب عليهم من اليهود أو غيرهم: لم يهتدوا إلى الصراط المستقيم، وسبب عدمِ هدايتهم هو: الهوى، فهم يعلمون ولا يعملون.

وقدَّم الله تعالى المغضوب عليهم على الضالين؛ لأن أمرهم أخطر، وذنبهم أكبر، فإن الإنسان إذا كان ضلاله بسبب الجهل، فإنه يرتفع بالعلم، وأما إذا كان بسبب الهوى، فإنه لا يكاد ينزع عن ضلال.

فمَن كان عالمًا أصلًا، ولكنه لا يعمل ولا يؤمن، يقابل كل حجة تقال له بالإعراض، فهو مثل المدخِّن الذي صار معنيًّا بموضوع التدخين؛ يقرأ عنه ويتابع التقارير والأخبار؛ حتى حصل على ثقافة ممتازة عن التدخين وخطره ومحتويات السيجارة، ولديه القدرة على إلقاء محاضرة عن التدخين، ولكنه يدخِّن، فما هي الحيلة في هذا الإنسان؟ إن قضيته ليست فقدان العلم، ولكنها فقدان الإرادة والعزيمة على الفعل.

ولهذا جاء الوعيد الشديد في شأن مَن لا يعمل بعلمه، حتى قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: «يُجاءُ بالرجل يوم القيامة، فيُلقى في النار، فتَنْدَلِقُ أَقْتابُهُ في النار، فيدور كما يدور الحمارُ برحاه، فيجتمعُ أهلُ النار

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧١٨٣)، ومسلم (١٣٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
ويمين الصبر هي التي يحبس الحالف نفسه عليها.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عليه فيقولون: أيْ فلانُ، ما شأنك؟! أليس كنتَ تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟! قال: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[1].

فهذا الإنسان عالم يعرف المعروف والمنكر، بل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولكنه لا يعمل؛ ولهذا كان بهذه المثابة من العذاب.

أما الضالون، فهم الذين تركوا الحق عن جهل وضلال، وربما طرأ عليهم بعد ذلك العناد والإصرار والتعصب، ومنهم كثير من النصارى الذين كذَّبوا عن جهل وضلال، ومع أن المثل يُضرب بأهل الكتاب، إلا أنه كما قال حذيفة ﷺ: «نِعْمَ الإخوةُ لكم بنو إسرائيل، إنْ كانت لكم كلُّ حُلْوَة، ولهم كلُّ مُرَّةٍ، والله لتَسْلُكُنَّ طريقَهم قدر الشِّراك»[2].

فلا يحسن أن يكون سوق المثل صارفًا عن النظر في أنفسنا معشر هذه الأمة، علماءَ وحكامًا ودعاةً وعامةً، أين أصبنا وأين أخطأنا، وأين هُدينا وأين ضللنا، أما تزكية النفس باللسان والإمعان في الحال التي عليها الإنسان دون بصيرة ولا مراجعة ولا تقوى، فليست من خصال المهتدين.

إننا الآن أمام ثلاث طرق:

الأول: الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وطريقتهم مشتملة على العلم بالحق والعمل به، يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [الصف:٩]، يعني: العلم النافع، والعمل الصالح.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٠)، والمروزي في «السنة» (٦٥)، والطبري في «تفسيره» (٨/ ٤٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١١٤٣) (٦٤٣٠)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٠١٢)، والحاكم (٢/ ٣١٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٥٠)، (٤/ ١٧٩).

الثاني: طريق المغضوب عليهم، مَن يعرفون الحق ولا يعملون به.

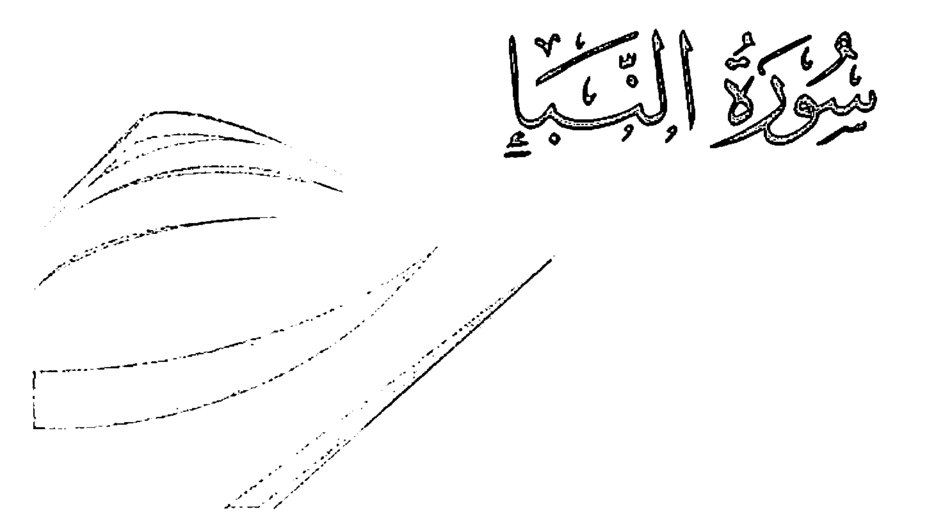
الثالث: طريق الضالين الذين يعملون بغير علم، ولهذا قال ابن عُيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن فسد من علمائنا، ففيه شبه من اليهود، ومَن فسد من عُبَّادنا، ففيه شبه من النصارى»[1]. لأنهم يعبدون الله على جهل وضلال، والله أعلم.

ونحن في كل قراءة للفاتحة نسأل الله أن يسلك بنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم، وأن يجيرنا من طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين.

○ ○ ○

(١) ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٧٩)، و«مجموع الفتاوى» (١/ ١٩٧)، (١٣/ ١٠٠)، (١٦/ ٥٦٧)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ٢٤)، و«بدائع الفوائد» (٢/ ٣٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١٣٨)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ٨٢١)، (١٩/ ٤٢).

سُورَةُ النَّبَإِ



سورة النبأ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا
نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا
شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا
وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ
أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ
كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا
﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾
إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا
يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ
وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا
قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ [النبأ:١-٤٠].

* تسمية السورة:

١- التسمية الأشهر لهذه السورة: «**سورة النبأ**»[١]؛ لقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النبأ:٢].

٢- وسُمِّيت في بعض المصاحف، وفي «صحيح البخاري»: «**سورة ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾**»[٢]؛ للآية الأولى فيها.

٣- وسُمِّيت: «**سورة ﴿عَمَّ﴾**» في بعض المصاحف والكتب[٣].

٤- وسمَّاها بعض العلماء: «**سورة التساؤل**»[٤]؛ أخذًا للمصدر من الفعل في قوله تعالى: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾.

٥- وتُسمَّى «**سورة المعصرات**»[٥]؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٦٩٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٨٢)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ٨٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٤) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٦٢)، و«جامع البيان في القراءات السبع» (٤/ ١٦٨٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٥) ينظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص ٢٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

ﵟٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗاﵞ [النبأ: ١٤].

وقد كتب الشيخ محمد عبد الله دراز كتابًا سماه: (النبأ العظيم) ودوَّن فيه من معاني الربانية في القرآن ما يثلج الصدور.

* عدد آياتها: أربعون آية، أو إحدى وأربعون آية، على خلاف بين علماء العَدِّ[1].

* والسورة مكية بإجماع أهل التفسير، حكاه ابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، والألوسي، وابن عاشور، وغيرهم[2].

* ﵟعَمَّ يَتَسَآءَلُونَﵞ [النبأ:١]:

ﵟعَمَّﵞ: كلمة مركبة من حرفين، هما: «عن»، و«ما»، فأُدْغِمت النون في الميم، وحُذِفت الألف؛ لدخول حرف الجر «عن» على «ما»، والمعنى: عن أي شيء يتساءلون؟

وهذا تساؤل عن التساؤل: عن ماذا يتساءل هؤلاء القوم وعلامَ يختلفون؟!

* ﵟعَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِﵞ [النبأ: ٢]:

أي: عن الأمر الهائل المُفْظِع، والحدث الكبير الذي وقع على العقول والقلوب والأسماع وقعًا عظيمًا غير هَيِّن، فهم يتساءلون عنه في مجالسهم ونواديهم وأسواقهم وأسفارهم.

وقوله تعالى: ﵟعَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِﵞ يحتمل أن يكون استكمالًا للسؤال، أي: عن ماذا يتساءلون؟ هل يتساءلون عن النبأ العظيم؟

---

(١) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٦٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

(٢) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٢٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٧)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٤١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥).

أو يكون الأول سؤالًا والثاني جوابًا، والمعنى: أن الله تعالى سأل -وهو أعلم-: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، ثم أجاب بأنهم يتساءلون: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن الموضوع خطير، وكفاه أن الله تعالى سمَّاه نبأً عظيمًا.

هل كان تساؤلهم تساؤل الإنسان الجادِّ الباحث عن الحقيقة، يختارها، ثم يُؤْثِرها، ويضحِّي في سبيلها؟ أم تساؤل العابث الذي يريد التشغيب والتسلية والتندُّر؟ أم تساؤل الإنسان المُكذِّب الذي اتخذ قرارًا بالتكذيب قبل أن يسمع الخبر، وإنما يطرح بعض الأسئلة والشبهات حتى يصرف الناس؟!

وقد جاءت أقوال في النبأ العظيم:

١- القرآن[1]، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص:٦٧-٦٨]، فالقرآن نبأ عظيم.

٢- النبي ﷺ[2]؛ لأن القرآن أُنزِل على شخص رسول الله ﷺ، وبه صار نبيًّا، وقد نُبِّئ بـ (اقرأ)، وأُرْسِل بـ (المدثِّر)، وكان يقول: «إني نذيرٌ لكم، بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ»[3].

٣- البعث[4]؛ لأنه من أعظم ما جاء به النبي ﷺ، وكان هذا بالنسبة لهم أمرًا مُستغرَبًا، كما قال قائلهم:

حياةٌ ثم موتٌ ثم نَشْرٌ   حديثُ خرافةٍ يا أُمَّ عمرو[5]

وهذه الأقوال كلها حق، وقد يعمُّ المعنى ما هو أشمل وأوسع، وهو أمر الإسلام

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦)، «الدر المنثور» (١٥/ ١٩٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦)، «الدر المنثور» (١٥/ ١٩٠).

(٥) ينظر: «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» (ص ١٣٠) منسوبًا إلى ابن الزبعرى.

والنبوة والوحي والغيب والآخرة والحساب والجزاء.. فهي عندهم نبأ عظيم يختلفون حولها ويتساءلون.

* ﴿ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ [النبأ:٣]:

والاختلاف هنا يَحتمِل أمرين:

١- أنه الاختلاف بين المُكذِّبين والمُصدِّقين، وهذه سنة الله سبحانه وتعالى في العباد: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [النمل:٤٥].

٢- أن يكون الاختلاف في تشخيصهم للرسول ﷺ، ووصفهم إياه، فمنهم مَن قال: ساحر. ومنهم مَن قال: مجنون. ومنهم مَن قال: يريد الدنيا. ومنهم مَن قال: شاعر، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ [الطور:٣٠-٣١].

ذكر تعالى تساؤلهم واختلافهم، وسمَّى الموضوع الذي تساءلوا واختلفوا حوله بـ﴿ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، وهذا يقودنا إلى قضية التساؤل والاختلاف والاهتمام، وكيف يجب أن يكون؟

١- الموضوع؛ بمعنى هل يستحق هذا الموضوع أن يتساءل الناس حوله أو يختلفوا؟!

والذي ينبغي في ذلك أن يُراعَى صدق الموضوع، فيكون جديرًا بأن يبحثه الناس، أو يختلفوا حوله، أو يتساءلوا عنه.

ولو نظرتَ إلى واقع الناس اليوم، بل المسلمين، بل بعض خاصتهم من الفقهاء وطلبة العلم والدعاة؛ لوجدتَ كثيرًا مما يشتغلون به من الأنباء والحوادث والقضايا، لا يستحق هذا الجهد.

وهذه مشكلة تتصل بقصور وخلل في الجانب التربوي؛ فإن الكثير من المعارك والصراعات تدور حول أشخاص أو مسائل وقتية على حساب ما هو أهم، بل حياة المسلمين اليوم أصبحت موبوءة بانشغالات، لا تنفعهم في دينهم، ولا تقرِّبهم إلى الله، ولا تصفِّي قلوبهم، ولا تنفعهم في دنياهم، بحيث تحقِّق لهم التقدم المدني والحضاري، بل هي أفكار وصراعات ومعارك، ولا يريدون أن يتخلَّصوا منها، وهي تشعرهم بالنشوة وتخلق لهم شعورًا طيبًا بالإنجاز وهزيمة الطرف المقابل والاحتشاد الوقتي حول قصة وهمية أو موقف صغير يتم تضخيمه بتكرار الحديث عنه؛ حتى يصبح منفوخًا أو سرابًا يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

ولا يلتفت العاقل بعد سنة أو عشر ليتساءل: ماذا جنى وأفاد من الخروج من موقعة أو غزوة للولوج في أخرى؟ مع ما يصاحب ذلك من تغير النيات وقسوة القلوب والعجز عن الإنجاز الحق والبناء والتشييد، وقد تكون المسألة مرتبطة من وجه آخر بخلل في التفكير ورعاية الأولويات وفقه الموازنات والمقادير.

٢- الاعتماد على المصادر الصادقة، وليس على شائعات أو ظنون أو وسائط مشكوك فيها؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾، وقبلها قال: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، فهل سمعوا كلُّهم كلام الرسول ﷺ مباشرة؟

كلا، بل كان بعضهم يصل به الحال أن يضع في أذنه القطن، حتى لا يسمع النبي ﷺ؛ فيصيبه شيء من أثره وفعله في القلوب[1].

إن بعض الناس يعتمدون في حكمهم وتصورهم للأمور على وسائط ونَقَلَةٍ يقع منهم التحريف والتدليس والتشويه، ويفقدون حياديتهم واتزانهم وبحثهم عن الحق

---

(١) ينظر: «طبقات ابن سعد» (٤/ ٢٣٣-٢٣٤)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٥٦١، ١٥٦٢)، و«تاريخ دمشق» (٢٥/ ١١، ١٣)، و«أسد الغابة» (٣/ ٧٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٤٥).

لصالح أمر سبق أن قرروه واعتقدوه.

والواجب أن يعتمد الإنسان في تلقِّيه على منهج سليم ونقل مصدَّق، أي: آيات قرآنية ظاهرة الدلالة، أو أحاديث نبوية صحيحة مُحْكَمة، ليست ضعيفة ولا مردودة ولا متشابهة، أو وثيقة واضحة فيها يُحكى ويُنْسَب لزيد أو عبيد، لا تكون مزوَّرة ولا محرَّفة.

٣- **قضية الدليل والحجة**، سواء أكان دليلًا عقليًا، مثل استدلالات القرآن على البعث بخلق الإنسان وبإحياء الأرض بعد موتها، أو كان شرعيًّا بإثبات حكم أو نفيه، أو كان منطقيًا أو حسيًّا... إلخ.

أما الإِلْف والعادة، أو الموروث، أو قول فلان من الناس، فهذا كله ليس بدليل، وإنها ينبغي أن يكون الدليل على نمط ما في هذه السورة، فمثلًا قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٦-٧]، فهذا نقل صادق قطعي؛ لأنه من الله، ولكنهم لا يؤمنون بالله، وهو دليل عقلي أيضًا؛ لأنهم يشاهدونه بأعينهم، ولا يملكون نفيه أو نسبته لغيره، إذ لم يَدَّعِ أحدٌ أنه فعل ذلك.

٤- **الفهم**، حيث إن كثيرًا من الناس يعادون أشياء أو أفكارًا، ولو سألت أحدهم: ما الموضوع؟ لَحَارَ في جوابه.

وقد يكتب أحدهم نقدًا لفكرة أو مسألة لم يفهمها جيدًا، أو كان سمعها ممن حرَّف ودلَّس، فبنى حكمه على تصور خاطئ، كما قال المتنبِّي:

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا وآفتُه من الفهمِ السَّقيمِ[1]

ولذلك كان العلماء يعتنون في أبحاثهم بتحرير محل النزاع، وهو بيان محل الخلاف، بعد بيان ما هو متفَق عليه مما لا يقبل خلافًا، فيكون سبب الاختلاف هنا:

---

(١) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٢٣٢) وشرحه المنسوب للعكبري (٤/ ١٢٠).

عدم فهم أحدهم للآخر؛ فيتكلم أحدهم عن مسألة، ويتكلم الآخر عن مسألة أخرى، كما يقول أحدهم:

أقولُ له سعدًا فيسمعُه حمدًا   وينطقُه زيدًا ويكتبه بكرَا

وقد يسمع أحدهم خلافًا، ليس لديه تصور واضح عنه، فينزع إلى أحد الطرفين، دون تحقيق ولا نظر، بل لأول بادرة في ذهنه، أو لأن أحدهم يتكلم بطريقة تعجبه وتناسبه.

٥- المقصد، وأهمية التجرُّد وسلامة الإرادة وحسن النية.

وكم من جدل وحوار بدأ بنية طيبة، ثم تحول مع الزمن إلى وسيلة للانتصار والغلبة، وجرِّ نواصي الخَلْقِ وكسر أذرعتهم وإذلالهم، أو إظهار التفوق والسيطرة، وقد قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

كم هو عدد الذين يتساءلون ويتجادلون بحيادية دون غرض، يبحثون عن الحق بصفاء وتجرد، وأنَّى وجدوه أخذوه!! ومَن كان كذلك فإنه يُوَفَّق للخير، وحتى لو لم يُصِبْ في مسألة ما، إلَّا أنه أصاب حسن النية، فهو مأجور؛ لصدق مقصده واستفراغ وسعه في طلب الحق وعدم الصدود عنه.

* ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤-٥]:

١- ﴿كَلَّا﴾ عند جمهور أهل اللغة كلمة زجر وردع[1]، وهو يعني أن هؤلاء المتسائلين لم يكونوا أهل تحرٍّ وبحث عن الحق، وإنما تساءلوا تساؤل المكذِّب أو الملبِّس أو المشوِّه أو المُعرِض، ولهذا عاتبهم الله تعالى في مطلع البيان.

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفرَّاء (٥/ ٢٢٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٢).

٢- ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تكرار، والتكرار من أجل التوكيد(١).

ولا يعني ذلك أنه ليس هناك معنًى آخرُ، وإن كان التوكيد نفسه هو معنى من أعظم المعاني؛ لأنه دعوة إلى منح الأمر أهمية مضاعفة.

وقد قال بعض المفسرين: إن ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾: عذاب الدنيا، و﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾: عذاب الآخرة(٢).

وعذاب الدنيا حصل لهم في معركة بدر، حينما قُتِلوا وسُحِبوا إلى القَلِيب، وأُتبِعوا لعنة، ويوم القيامة بئس الرِّفْد المرفود.

وأجود منه أن يقال: إن ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أنهم سيعلمون في الدنيا، أي: كثير منهم أن الله تعالى سينصر دينه ويعزُّ رسوله ﷺ، وأن مكة -التي هي يومئذ قلعة من قلاع الوثنية- سوف يرثها القومُ الذين هم الآن مستضعَفون بمكة، حتى إن بلالًا رضي الله عنه يصعد على الكعبة ويؤذِّن، وقد علموا هذا ورأوه عيانًا بعد سنين.

وأن ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أمر الآخرة، وما يقع فيه من ثواب المؤمنين والمطيعين بالجنة، ومن عقاب العاصين بالنار ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٧-٨٨]، والآية الكريمة في سورة (ص) تشبه الآية الكريمة الواردة في هذه السورة (عم)، أي: سيعلمون نبأ الإسلام، ونبأ القرآن، ونبأ النبي ﷺ، وما سيكون له من رفعة الشأن وظهور الدين وكسر شوكة أعدائه، ثم يعلمون عندما يبعثون صدق ما أخبر به، وأن الميزان هناك ليس ميزانهم المادي، بل ميزان قسط يثقل فيه أمثال صُهيب وبلال وعمّار وسلمان وسُمَيَّة رضي الله عنهم، ويطيش أكابر المجرمين وزعماء المكذِّبين، كأبي جهل وأبي لهب وساداتهم الذين ماتوا على الكفر.

---

(١) ينظر: «الصناعتين في الكتابة والشعر» (١/ ١٩٣)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٤٣٨)، و«همع الهوامع» (٢/ ٥٩٤).

(٢) ينظر: «البرهان» للزركشي (٤/ ٢٨٢).

و﴿ ثُمَّ ﴾ تُستخدم للترتيب الزمني، بمعنى عطف المتأخِّر على المتقدِّم، كما هنا لأنهم سيعلمون في الدنيا، ثم يعلمون في الآخرة.

٣- السِّرُّ وراء تهديد الله لهم بقوله: ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ هو أن التهديد سوف يصنَعُ في قلوب بعضهم الإيمانَ، والتهديد بذاته لا يجعل الإنسان يؤمن، وإنما يجعله ينظر إلى الموضوع بجدية، وكأنه يقول لهم: انظروا.. تفكَّروا.. تدبَّروا.. تأمَّلوا: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ [الطارق:١٣-١٤]، إنه جدٌّ لا لعبَ فيه.

إذًا التهديد يرقى إلى تحفيزهم وحملهم على أن يتأمَّلوا، ويتدبَّروا، وينظروا، كما قال سبحانه في الآيات الأخرى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ ﴾ [سبأ:٤٦].

وكثير من المسلمين اليوم عزبوا وغفلوا عن آيات القرآن التي تدعو إلى التفكر والتعقُّل والبحث المتجرِّد والنظر، بل ظن بعضهم أن الدين ينافي استخدام العقل، وأصبح العقل مسبَّة عند آخرين، وربما كان ذلك بسبب الخلط بين العقل والهوى.

وهنا تجد أن التهديد المبطن ليس هو الأسلوب الأوحد ولا الأول الذي جاء في القرآن، فهناك التعليم والترغيب وإثارة الأسئلة، وتحريك العواطف.

ومن أعظم الخطأ أن يعتمد الناس والمربُّون والآباء والدعاة على أسلوب التهديد والتخويف، وكأنه الوحيد في الباب أو الأسبق، بينما الحديث عن الرحمة وزرع الثقة بالمستهدفين وإعطاء الأهمية لهم هي خير ما يقودهم إلى الحق، وإنما يكون التهديد والترهيب في أحوال؛ منها:

١- أن يكون أسلوبًا ضمن أساليب أخرى يكمِّل بعضها بعضًا.

٢- أن يكون لقوم أفرطوا وأمعنوا في الإهمال وعدم المبالاة وترك الانصياع، و«آخر الدواء الكَيُّ».

٣- أن يكون في حالات خاصة يحتاج المرء فيها إلى تحريك الخوف لترك معصية أو مخالفة شهوة.

ثم انتقل الأمر بعد ذلك إلى سرد الأدلة والحجج والبيِّنات، ومخاطبة العقل بالتأمل والبحث في الكون وأسراره.

* ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ:٦-٧]:

١ - السياق استفهام يحفِّز العقول على التفكير، والمعلومة قد تُقدَّم للإنسان جاهزة فيأخذها تقليدًا، أو لا يلتفت إليها بالكلية، فإذا جاءت مصوغة في قالب سؤال، كانت دعوة إلى المشاركة في صياغة الجواب وتوظيف القدرة الذهنية واستحضار المعلومة السابقة.

٢- لم يقل: (ألم نخلق الأرض)، وإنما قال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ ﴾، والله خلقها ولم تكن مهادًا، ثم جعلها مهادًا بعد ذلك.

فالمهد والبسط جاء متأخِّرًا، ويعزِّز هذا قولُه تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات: ٣٠]، فقوله: ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: بعد خلقها دُحِيَت، وبُسِطَت، ومُهِّدت، وجُعِلَت قابلة للحياة.

٣- ظاهر السياق في سورة النازعات أن الأرض خُلِقَت قبل السماء؛ لأنه لما قال: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٢٧-٢٩]، والليل والضحى يكون في الأرض؟!

ففي هذه الآية إشارة إلى أن خلق الأرض كان سابقًا، وهكذا هنا، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴾، أي: خُلِقَت أولًا، وكانت غير ممهَّدة، ثم بعد ذكر خلق السماء عاد السياق إلى الأرض ليبيِّن جعلها مهادًا، وفي سورة النازعات: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات:٣٠].

الأرض مهد للإنسان، وهي في مقام الأم الرَّؤوم، كما قال الشَّابيُّ:

وقالــت لِيَ الأرضُ لـمَّـا سألْـت ... أَيَا أمُّ هـل تكـرهينَ البَشَـرْ؟!

أبـــاركُ في النَّاس أهلَ الطُّمـوح ... ومَن يستلذُّ ركوبَ الخَطَــرْ

ومَن يتهيَّـبْ صعــودَ الجبـــال ... يعِشْ أبدَ الدَّهرِ بين الحُفَــرْ[1]

٤- في الآية إشعار بالبعث؛ لأن هذه الأرض التي هي مهاد لهم وهم أحياء، هي أيضًا مهاد لهم وهم أموات؛ حيث يُدفَنون فيها، ثم يُبعَثون منها، ولهذا سمَّاها الله تعالى مستودَعًا، تُودَعُ أجسادُهم وعظامُهم فيها، ثم تؤدِّي ما استُودِعَت، فهذه إشارة تمهيدية غير واضحة تهيِّئ العقل لقبول ما بعده، وهذا من لطيف العلم، كما يقول بعض أهل العلم لما تكلموا عن موضوع الخمر وتحريمه، قالوا في قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧]، قالوا: هذا أول إيماءة غير مباشرة إلى منع الخمر؛ لأنه فرَّق بين السَّكَر والرزق الحسن، فجعل السَّكَر شيئًا مغايرًا للرزق الحسن، فهذا يهيِّئ النفوس لقبول ما بعده[2].

وهكذا هنا في قوله تعالى: ﴿مِهَٰدًا﴾، فكما أنه جعل الأرض مهادًا، فإنه جعل هذه الآية تمهيدًا لذكر البعث وما بعده.

٥- جعل الله الأرض مهادًا بالعيش فيها، والمشي عليها، والبناء، وجعلها مستعدة لتحمل تكاليف وجود البشر، كما ترى في رصف الطرقات وحفر الأنفاق والبناء الشاهق وأنواع الاستخدامات التي سخَّر الله الأرض لها.

وكلمة: ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ هنا تشمل الأرض كلها، ولكنه سبحانه وتعالى قال بعد ذلك: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾، والجبال من الأرض وإنما خصَّ الجبال؛ لأن لها مهمة

---

(١) ينظر: «ديوان أبي القاسم الشابي» (ص ٩١).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٢/ ١٤١)، «الدر المنثور» (٥/ ٤٦٧).

خاصة؛ وهي أن تكون أوتادًا للأرض، وهذه هي الآية الوحيدة التي وصف الله تعالى فيها الجبال بأنها أوتاد، ومِن معاني كونها أوتادًا: أنها تثبِّت الأرض، أن تتحرك وتميد، فهي تحفظ توازنها.

ومن إقحام المعاني الغريبة الاستدلال بالآية على أن الأرض ثابتة لا تدور، على أن الله تعالى قال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨]، وسواء كان هذا في الآخرة كما يدل عليه السياق، أو في الدنيا كما يدل عليه اللحاق ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، فهو يدل على أن الحواس قد يقع لها انخداع وترى الأشياء على غير حقيقتها، فالاستدلال بظواهر الحس على الحقائق العلمية مضلِّل.

* ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النبأ: ٨]:

١- اختلف السياق هنا عما كان عليه في الآية الأولى، حيث كان بصيغة الاستفهام: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾. ثم صار هاهنا خبرًا ماضيًا، وهو مقصود في تغيير رتابة السؤال؛ لأنه مع الطول يُؤْلَف فيحتاج إلى تنويع، كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:١-٢]، ولم يقل: (ألم نضع)؟

٢- في الآية إشارة إلى جواب السؤال؛ لأنه لما قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾، كان المعنى: قد جعلنا الأرض مهادًا، والجبال أوتادًا؛ ولذلك عطف عليه سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: أصنافًا وأنواعًا وأشباهًا، فهناك الذكر والأنثى، وهذا سرٌّ من أسرار الألوهية؛ لأن الزوجين نقيضان، فالذكر غير الأنثى، ومع ذلك فخَلْقُهما في غاية الحكمة والرحمة والإبداع؛ وما كان الرجل ليشعر بسعادة الحياة وهنائها لولا المرأة، ولا المرأة تشعر بكمال سعادة الحياة لولا الرجل، فجعل الله تعالى الأنثى تحنُّ للذكر، والذكر يحنُّ للأنثى، كما قال سبحانه: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١].

٣- أن قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ لا يدل على حصر الأزواج من الخلق على جنس الرجال والنساء، بل يشمل أجناسًا كثيرة من المخلوقات، ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، أي: في الألوان، وفي الأعداد، وفي الأحوال.

ومن ذلك: الغنى والفقر: ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾، يعني: غنيًّا وفقيرًا، وهذا فيه جانب الشكر والإحسان للغني، وجانب الصبر والرضا للفقير.. الصحيح والمريض.. القوي والضعيف.. المأمور والأمير.. العالم والجاهل.. الذكي والبليد.. إلى بقية ألوان الزوجية التي خلقها الله عز وجل.

وهذا التنويع موجِب للشكر لمَن فضَّله الله على غيره.

ومن الجانب الآخر هو مقتضٍ للصبر؛ فالإنسان إذا ابتُلِي بمصيبة، أو بآفة، أو بعاهة، أو بفقر، أو بمرض؛ عليه أن يصبر.

وهو مدعاة للإحسان: ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، إذ جعل الله تعالى بين العباد التعاون؛ لأن التعاون بين الضدَّين أحيانًا يُوجِد حالة من الانسجام في الحياة، ولا تستقيم الحياة إلا بهذا.

وكما هو مَدْرَجٌ إلى التكامل؛ فإن الحياة لا بد فيها من التكامل، فكل إنسان يتكامل مع الآخر، فهذا يبني، وهذا يصنع، وهذا يزرع، وهذا يتعلم، وهذا يفكِّر، وهذا يكتب، وهذا يقرأ، فمن خلال مجموع هذه الأعمال يوجد تكامل رائع في الحياة، وهو من أسرار الصنعة الإلهية.

ثم إن التعبير بصيغة الماضي هنا: ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ ﴾ إشارة إلى تقرير المسألة وبدهيتها ووضوحها للمخاطبين؛ لأن منهم مَن لا يتأمل السماء والأرض والجبال، لكن الزوجية قضية ضرورية يعايشونها في ذاتهم ويرونها فيمَن حولهم، فهي مما لا يحتاج إلى استدلال، بل هي نفسها دليل وحجة.

* ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ [النبأ: ٩]:

١- أضاف النوم إلى الناس، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾؛ لأنه لا يغني فيه أحد عن أحد، فكل إنسان يحتاجه، ولو أن في الناس مَن لا ينام مطلقًا، لشعر هذا الإنسان بالحرمان والنقص والعَطَب والخلل؛ فالنوم من الأشياء الضرورية لكل إنسان، فلا غنى عنه، ولا حياة لَمن حُرِمه.

وقد ذكر الأطباء مدة معينة- تختلف باختلاف الأجساد- إذا عاشها الإنسان دون نوم فإنه يموت؛ إذ لا بد لهذا الجسم أن يأخذ حقَّه من الراحة والاسترخاء، وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام ابن حزم في «طوق الحمامة»[1].

٢- لم يقل الله: (ليلكم)؛ لأنه سيأتي في الآية التي بعدها، ولأن الليل ليس خاصًّا بالإنسان، بل المخلوقات على الأرض يتلبَّسها الليل، حتى إن إحدى الشركات في اليابان وضعت مصابيح ضخمة في منطقة معينة تضيء الليل كله، فاكتشف المُزارع- بجانب هذه الشركة- أن زرعه تأثر بهذه الإضاءات الليلية، فرفع عليهم دعوى وكسبها، وتبيَّن أنه حتى النباتات وغيرها تحتاج إلى هذا الظلام الذي يلفها، أما النوم فهو للأرواح[2].

٣- يقول أهل اللغة: السُّبات هو: القطْعُ، أي: أن النوم يقطع حياة الإنسان الرتيبة[3]؛ لأن الإنسان في النهار يعمل ويكدح، وربما يصاب بأمراض جراء ضغوط العمل والحياة، وقد ينام المرء على تعب وعناء ويصحو على سكينة وراحة وهدوء وسعادة.

ومن معاني «السُّبات» أن النوم يأخذك بالقهر والقوة، حتى الجبابرة والسلاطين

(١) ينظر: «طوق الحمامة» (ص ٣٠٧).

(٢) ينظر: «دراسات قرآنية» للأستاذ محمد قطب (ص ١٥٩).

(٣) ينظر: «القاموس المحيط» (١/ ١٩٥)، و«لسان العرب» (٢/ ٣٦)، و«تاج العروس» (١/ ١٠٩٤).

يأخذهم النوم أخذًا، ثم يرمي بهم في مهاجعهم، حيث النَّفَس يتردد، بلا حسٍّ ولا إدراك، ولا يسمع أحدهم السؤال، ولا يردُّ الجواب، ولا يعي ما حوله، وهذه أعجوبة، أما كيف يتم النوم؟ فهو سرٌّ من الأسرار الإلهية.

٤- النوم نفسه يَخلُد فيه الإنسان إلى عالم آخر مستقلٍّ، فيه أحلام ورُؤى، وأحوال غريبة؛ فالنائم يسافر ويطير، ويكتب ويمضي عقودًا، ويهادن ويحارب، ويرى الموتى أحياء، والأشياء على غير مألوفها، وقد جعل تعالى النوم أَمَنَةً، كما قال: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]، حتى كان السيف يسقط من يد الصحابي من شدة النعاس، وخلال ثوانٍ يصحو، فإذا به قد استعاد قوته ونشاطه[1]، فالنوم يقطع عن الإنسان التعب والإجهاد والإعياء، ويعيد له قوته وحيويته، وكأنه يضخ فيه طاقة روحية جديدة.

والعلماء يسمون النوم: الوفاة الصغرى. أخذًا من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

٥- جعل الله تعالى النائم قابلًا للاستيقاظ من ذاته أو من غيره، بخلاف الحالات الاستثنائية، كما في قصة أصحاب الكهف: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١].

فمِن رحمة الله أن جعل النوم سُباتًا، يقبل أنك تقطعه، وتستيقظ وتذهب لحاجاتك ومقاصدك، فيكون النوم بقدر حاجة الإنسان.

٦- النوم ضرورة من ضرورات صحة البدن، ولا يزال العلماء يؤكِّدون أن الإنسان يدفع ثمن قلة النوم أو اضطرابه من صحته وحياته؛ بسبب الإجهاد،

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٢)، و«تفسير النيسابوري» (٢/ ٢٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٤/ ١٣٣).

وضعف التركيز، وهَرَم الذاكرة والنسيان، ويؤثِّر في الاستقرار العاطفي والنفسي، فيكون سببًا لسرعة الانفعال والغضب، كما يؤثِّر على خلايا المخ، ولهذا فعلى الإنسان أن يأخذ القدر الكافي من النوم، وهو يختلف من شخص لآخر، ولكن غالب الناس يحتاجون ما بين ستٍّ إلى ثمانٍ ساعات، من أجل المحافظة على حيويتهم وقوتهم ونشاطهم، وتجنب التعرض للأزمات النفسية أو القلبية، وإذا قسمها الإنسان بين الليل والقيلولة كان أنفع، وهو ما كان يفعله النبي ﷺ.

ونوم الليل أفضل من نوم النهار، وبعض العلماء يقولون: إن نوم ساعة واحدة في الليل أفضل من نوم ساعتين في النهار؛ لأن الليل مناسب بهدوئه وصفائه للاسترخاء، وأخذ قسط من الراحة، واسترخاء ساعة في الليل يعادل نوم نصف ساعة حتى لو لم يستطع أن ينام!

* ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ:١٠]:

١- قوله: ﴿لِبَاسًا﴾ أي: للأرض، فهو أشبه ما يكون بالثوب أو الجلباب الذي تلبسه الأرض.

وهو لباس للإنسان ذاته، يمنحه قَدْرًا من الاسترخاء وهدوء الأعصاب، وأكثر الناس لا يجدون الراحة إلا في الليل، ففيه من لحظات الأنس، والسمر، والجلسات الممتعة ما ليس في النهار.

٢- وصف الله الليل بالسَّكَن ووصف العلاقة الزوجية بالسَّكَن ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الروم:٢١]. والمرأة أشبه بالليل، سترًا وروحانية وعاطفة، والرجل أشبه بالنهار ظهورًا وتجليًا ودأبًا واحتمالًا، وفي الحياة تناسق رائع بين مهمات الرجل ومهمات المرأة، وطبيعة كل منهما، فالزوجية تتجلَّى في الليل والنهار، وفي السماء والأرض، كما تتجلَّى في الذكر والأنثى؛ ولذا أقسم الله بذلك في مواضع كما في سورة الليل.

والليل غالبًا ملتقى الحياة الزوجية ومستراحها بعد الفراق والعناء والسبح

الطويل مع الناس.

٣- ذكر القرطبي في «تفسيره» أن بعض المغفَّلين قالوا: ما دام الليل لباسًا، فللإنسان أن يصلِّي فيه وهو عُريان؛ لأن الليل بحدِّ ذاته يغني عن اللباس(١). وهذا من أقوال أهل الغفلة، فكون الليل لباسًا فيه معانٍ متعدِّدة، لكنه لا يغني عن اللباس الحسِّي الذي امتنَّ الله به على الناس، كما قال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقد جاء عن النبي ﷺ: «الله أحق أن يُستحيا منه»(٢).

٤- من معاني: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ أن الناس ينقطعون في الليل غالبًا عن الخروج من منازلهم، ويأوون إلى بيوتهم أو حقولهم ويجتمع شملهم على طعامهم وشرابهم ونومهم، فتكون المساكن كاللباس لهم.

وبعض الناس عكسوا الحال، فجعلوا الليلَ نهارًا، والنهارَ ليلًا، على أن غالب الناس من الأمم المختلفة يهجعون أول الليل إلى مضاجعهم ويأوون إلى بيوتهم، ويقومون مبكرين إلى أعمالهم ومصالحهم.

حين يشرق الصباح يصحو الكون ويتهيَّأ ليوم جديد، فلتكن روحك متطلعة لهذا الصباح الجميل، قانعة راضية متفائلة بعطاء الله الكريم، داعية بالخير للعباد.

* ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ [النبأ:١١]:

١- قال: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، ولم يقل: (والنهار معاشًا)؛ لأن الآيات قصيرة، فلو قال: (والنهار معاشًا) فإن الآية تكون قد اختُزِلت كثيرًا.

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠٣٤، ٢٠٠٤٠)، والبخاري معلقًا، كتاب الغسل، باب من اغتسل وحده في الخلوة (١/ ٦٤)، وأبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٦٩)، وابن ماجه (١٩٢٠)، والحاكم (٤/ ١٧٩) من حديث بَهْز بن حَكِيم عن أبيه عن جده ﷺ.

وفيه بيان أن الاستفهام في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ هو تقريري للإثبات؛ ولذا عقَّب عليه بفعل ماضٍ يدل على حصول الفعل، وعلى الفاعل وهو الله تعالى.

٢- في الآية تكرار التذكير بالنعمة واستحضارها؛ لأن كثيرًا من الناس بسبب الإلف ينسون هذه النعم، فهذه الشمس التي تشرق عليهم كل يوم ثم تغيب، لا يدركون قيمتها؛ لاعتيادهم عليها، وكذلك مَن يعيشون في المناطق الخضراء الممطرة، لا يلفت نظرهم ما فيها من الجمال الأخّاذ مما يلفت نظر غيرهم، وكذلك أهل الصحراء والرمال أو السواحل والبحار..

٣- ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فيه تأكيد الردِّ على مَن لا يؤمنون بالصانع سبحانه من الدهريين والطبائعيين، كالمانوية الذين يجعلون آلهة للنور وآلهة للظلام... فالآيات تدحض هذه المقولة، وتبين أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، وأنه خلق النور والظلام، كما قال المتنبِّي:

وكم لظلامِ الليلِ عندكَ من يدٍ تخبِّر أن المانِويَّةَ تكذِبُ[1]

٤- أن أقرب ما يكون من معنى كلمة: ﴿مَعَاشًا﴾ أنه ظرف لطلب العيش، والتصرف في شؤون الرزق، وهذا ظاهر كما هو حال أكثر الأمم والشعوب.

* ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢]:

١- البناء يدل على القوة: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]، و«الأيد» هنا: القوة، فالله تعالى هو الذي بنى الكون كلَّه، ومن ذلك السماء ﴿فَوْقَكُمْ﴾، شيء ترونه وتشاهدونه في عُلوِّه وشموخه، والبناء كلما ارتفع وعلا فإنه يدل على قدرة الصانع، وفي القديم كان الناس يتفاخرون بالمباني الشامخة العظيمة، ولا زالوا يتفاخرون بالعمائر الشاهقة، وناطحات السحاب، والمباني الضخمة، ولذلك جاء السياق في القرآن الكريم يمتنُّ عليهم، ويذكِّرهم بالقدرة الإلهية في بناء السماء العالية

(١) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٤٦٦)، وشرحه المنسوب للعكبري (١/ ١٧٨).

التي لا يتصوَّرون سعتها وأبعادها، والإنسان يرى النجوم حوله تلمع، لكنه لا يدري أنها ذرات في مجرات تسبح في فضاء واسع لا يحيط به إلا الله.

وهذا ليس بحديث خرافة وتخرص، بل هو صنع الله العظيم، والإنسان أحيانًا لا يستطيع أن يستوعب هذه العظمة بعقله، وإن كان العلماء المتخصِّصون يُدرِكون شيئًا مُذهِلًا، وبخاصة المختصين في علم الفلك، إذ يشاهدون من خلال المكبِّرات هذه القبةَ الزرقاءَ، ونجومها وشموسها وأقمارها ومجرَّاتها، أشياء هائلة تُذهِل العقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦].

٢- ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾: المراد: السموات السبع، وصفها سبحانه بكونها ﴿شِدَادًا﴾؛ لكونها قوية مُحْكَمة مُحَصَّنة، بحيث لا تستطيع الشياطين ولا البشر أن يصلوا إليها؛ فإن كل إمكانيات البشر وقدراتهم وحديثهم هو ما دون السماء الأولى، وإلا فالسماوات التي بناها الله تعالى فوق ذلك، لا يصل إليها علم البشر ولم يحيطوا بها علمًا، وكذلك النجوم.

٣- عامة البشر يؤمنون بأن فوقهم سبعَ سماواتٍ، وهذا مألوف لدى البشر، وموروث ثقافي عند معظم الشعوب، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥].. في مواضع أخرى مشابهة.

والآية وما شاكلها دلالة على أن فوقنا سبع سماوات، وأنها طِباق -أي: بعضها فوق بعض- وهذا هو المقصود في الآية، وهو الذي عليه جمهور المفسرين[١].

وقال الشيخ الطاهر ابن عاشور: يجوز أن يُراد بالسبع: الكواكب السبعة المشهورة بين الناس يومئذ، وهي: زُحَل والمشتري والمريخ والشمس والزُّهرة

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٥٦).

وعُطارد والقمر.

وقال: وهذا المحمل هو الأظهر؛ لأن العبرة بها أظفر؛ لأن المخاطَبين لا يرون السماوات السبع، ويرون هذه السيَّارات ويعهدونها دون غيرها من السيَّارات التي اكتشفها علماء الفلك من بعد[1].

والأقرب هو ما ذهب إليه الجمهور أن المقصود سبع سماوات، كما في مواضع أخرى كثيرة في القرآن الكريم، وكون الناس لا يعرفونها بالرؤية؛ فإن الله تعالى يعرِّفهم بها، ويحتج عليهم بالقدر المعروف والمشهور منها.

وأيضًا: فإن القرآن الكريم هو احتجاج على الناس في كل زمان ومكان، وفي العصور السابقة لم يكن عندهم إلمام ومعرفة بهذه المَجرَّات الهائلة، والمدارات الفلكية المُذهِلة، وهذا البعد الذي تدور منه الرؤوس، وكلما تقدَّم العلم، زاد فَهم الناس وتعمَّق لبعض الألفاظ ودلالاتها.

وأمام البشر فرص ضخمة لمزيد من الكشوف الفلكية والاستدلال على وجود العوالم العليا، وها هم علماء الفلك قاموا أخيرًا بطرد الكوكب (بلوتو) من المجموعة الشمسية، ليصبح عدد كواكب المجموعة الشمسية ثمانية.

* ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ:١٣]:

١- ذكر الشمس دليل على أن المقصود السماوات السبع وليس الكواكب؛ لأن الشمس هي أحد النجوم السبعة، فالأقرب أنه بعدما ذكر السماء ذكر بعض ما في السماء، وهي الشمس.

٢- لم يذكر اسم الشمس اكتفاءً بما هو معلوم، وسمَّاها سراجًا؛ لأنها تضيء الكون، فهي مصباح ضخم هائل أكبر من الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة، كما يقول الفلكيون، ومع ذلك يراها الرائي بسبب بعدها بهذا الحجم الصغير، وهي

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣).

معلقة في الفضاء لا يمسكها إلا الله بسننه ونواميسه التي تجري في سائر الأفلاك.

٣- الوهَّاج: المتوقِّد، ففي الشمس إنعام آخر بالإنضاج والحرارة، والحرارة هي إحدى النعم العظيمة في الكون، والتي تسهم في حفظ الحياة والإنسان والنبات وتحقيق البيئة المتوازنة.

* ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾ [النبأ: ١٤]:

هذا له علاقة بالشمس؛ لأن الشمس هي أحد أسباب تبخُّر ماء البحر؛ ليكون مطرًا وغيثًا.

١- ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾.. ﴿ وَأَنزَلْنَا ﴾.. ﴿ وَبَنَيْنَا ﴾ صياغات تشعر بتمام القدرة وكمال التصريف الإلهي وراء كل شيء، فهذه الأشياء العادية التي يمرُّ بها الناس وهم عنها معرضون، ينبغي أن ينظروا فيها بروح أكثر حيوية، وأكثر إيمانًا، وأكثر استحضارًا لقدرة الخالق المبدِع الرحيم الكريم سبحانه.

٢- قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا ﴾ إشعار بأن كل قطرة تنزل من السماء هي بقَدَر: ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر:٢١]، وهي رحمة وحكمة، وكل شيء بحسبان؛ ولذا يقول العلماء: إن كمية المطر النازل إلى الأرض هو بقدر كفاية الناس، فهو موزون ومخزون، ولكن العبث البشري يؤثِّر على المطر كما يؤثر على البحر وعلى اليابسة وعلى البيئة كلها، وهو جزء من الفساد في الأرض الذي نهى عنه القرآن وشنَّع على مرتكبيه.

٣- اختُلِف في تفسير ﴿ ٱلْمُعْصِرَٰتِ ﴾ على أقوال[1]:

الأول: الرياح.

الثاني: السماء.

الثالث: وهو قول الأكثرين: السحب.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١-١٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ١٩٣-١٩٦).

٤- في الآية تشبيه بليغ؛ لأن «المعصر» عند العرب هي الجارية قُبَيْل بلوغها، أي: آن لها أن تحيض ولم تحض بعد، فيقال: هذه جارية مُعْصِر، شبَّه السحاب هنا بالجواري، فانظر إلى هذا التشبيه، يخلع على السحاب روح الحياة، وما لها لا تكون حية، ومنها ينزل الغيث الذي يُحيي الله تعالى به الأرض بعد موتها، والسحب ورد وصفها بالجارية في موضع آخر من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴾ [الذاريات: ٣].

٥- في قوله: ﴿ ثَجَّاجًا ﴾، وصف المطر بأنه ثجَّاج، أي: يُصَبُّ صبًّا بدفق وقوة، وفيه دليل على الحكمة الإلهية في تصريف الكون، وتحريكه، ولذلك تُسمَّى الأرض بالكوكب الأزرق، لأن أكثر من (٧١٪) من مساحتها ماء.

وهذا الماء يصعد من البحر إلى السماء ثم يعود إلى الأرض، ويقال: إن ما ينزل من المطر كل سنة، يكاد أن يكون متساويًا، ويُروى حديث: «**ما عامٌ بأمطرَ من عامٍ**»[(١)]. فهذه حكمة الله سبحانه وتعالى، أنه يُنزِلُ من هذه السماء الماء الثجاج الذي يُصَبُّ بقوة.

٦- قوله: ﴿ ثَجَّاجًا ﴾ فيه معنى الكرم، والعطاء الذي يُصَبُّ على العباد صبًّا، ومع أنه محسوب، وكل قطرة بإرادة الله، إلا أنه عطاء جزيل، وهذا أقوى ما يكون

---

(١) أخرجه العقيلي (٣/ ٢٢٨)، وابن حبان في «الثقات» (٨/ ٤٦٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٢٠٨)، وابن مردويه -كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢/ ٤٦٤)- والبيهقي (٣/ ٣٦٣)، والذهبي في «ميزان الاعتدال» (٣/ ١٢٦) من حديث ابن مسعود ﷺ مرفوعًا، وقال الذهبي: «منكر... غريب جدًّا».
وأخرجه الفسوي (٣/ ٣٧٧)، وابن أبي الدنيا في «الرعد» (٧٦)، وابن وضاح في «البدع» (٧٦/ ٢٢٩)، والطبري (١٤/ ٤٠)، (١٧/ ٤٦٩)، والعقيلي (٣/ ٢٢٨)، وابن أبي زمنين في «أصول السنة» (١٠)، والداني في «الفتن» (٢١٣، ٢١٤)، والبيهقي (٣/ ٣٦٣) موقوفًا، ورجَّحه غير واحد. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤١٣١، ٤٤٦٠).

حجة على الناس، فهم يرون الأرض يابسة، ثم إذا نزل عليها المطر: ﴿ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج:٥]، والعرب خاصة يعلمون هذا؛ لأن حياتهم تقوم غالبًا على الرعي والمطر والغيث، فيمتنُّ الله تعالى به عليهم.

* ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾ [النبأ:١٥-١٦]:

١- قوله تعالى: ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ﴾ إشارة إلى الحركة التدريجية في النبات، فالنبات لا يأتي دفعة واحدة، لكن يتكون شيئًا فشيئًا، وقد ذكره الله تعالى في آية أخرى فقال: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا﴾ [الأنعام: ٩٩].

٢- ﴿حَبّٗا﴾ الحبُّ هو القمح والحنطة والشعير، وغير ذلك مما يأكله الناس، والغالب أن الحبَّ يكون أقواتًا للناس، مع أن الحيوان يستفيد منه أيضًا، لكن الله تعالى بدأ به؛ لأنه يعتبر من الضروريات التي لا غنى للإنسان عنها.

٣- ﴿وَنَبَاتٗا﴾ المقصود بالنبات ما يكون أخضر، فيشمل طعام الإنسان من الخضراوات والبقول، ويشمل طعام الحيوان من الأعلاف وغيرها.

٤- ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾ وهذه من الأشياء التحسينية التجميلية للحياة، وتدخل فيها الفواكه، والجنة هي البستان الذي تكثر فيه الأشجار، ولهذا وصفها بقوله: ﴿أَلۡفَافًا﴾، أي: ملتفٌّ بعضها فوق بعض.

٥- حينما يرى الإنسان مظاهر الإبداع في خلق الكون يجد عجبًا، ولذلك فإن الزُّرَّاع هم أكثر تديُّنًا وصلاحًا واستعدادًا لقبول الحق والفطرة ممن يتعاملون مع الآلة؛ لأن الذي يتعامل مع الأرض حرثًا وزرعًا، ويراقب الصنعة الإلهية بشكل مباشر، يرى آثار هذه الصنعة والإبداع، فيقوى إيمانه ويزيد تواضعه، في حين أن الذي يتعامل مع الآلة يتعامل مع شيء من صنع الإنسان؛ ولذلك يغلب عليه النظر إلى إنجاز الإنسان وإبداعه ويذهل أن مبدِع الإنسان هو الله جل وعز، فهو خالق عقله وقدرته وإمكاناته، وهو خالق الأمم والحضارات والأكوان، ومسخِّر الآلة

والمادة وواضع نواميسها وقوانينها.

٦- ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ إشارة إلى ملحظ الجمال، وهو مقصود في صنع الله تعالى، ففي السماء تلحظ القوة والشدة، والبعد والارتفاع، كما تلحظ الجمال في النجوم المتلألئة، وكأنها تتناجى في هذا الليل المظلم، ولو نظر الإنسان إليها عبر المكبِّر، أو في الصور الوثائقية أو العروض الفضائية؛ أو التقنيات ثلاثية الأبعاد؛ لرأى شيئًا يذهل ويدهش.

وهذا كله مما امتنَّ الله به على عباده في هذه الدار، وسخَّره لهم، ورزقهم إياه، وجعل به قوام الحياة إلى أجل مسمًّى، وعلى المرء أن يحسن الانتفاع به، ولا ينشغل به عما هو أهم وأعظم.

* ولذا يتوقف السياق وينتقل إلى موضوع جديد، ليقول: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴾ [النبأ: ١٧]:

وعادةً ما يعقد الله تعالى المقارنة بين إحياء الأرض بالنبات، وبين إحياء الإنسان بالبعث، وهذا كثير كما في سورة (ق)، والأنعام، ويونس، والحج.

وفي هذا السياق تجد الشيء ذاته، لما ذكر المطر، وأنه يحيي به الأرض بعد موتها، ويجعل منها جنات ألفافًا؛ ناسب أن يبين أنها جنات عابرة تذبل وتموت، وعلى الإنسان أن يستعد لجنات الآخرة، ولذا ذكَّرهم بالبعث وخروجهم من قبورهم، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴾.

لِمَ سمَّاه: يوم الفصل؟

١- لأنه حقٌّ لا ريب فيه، ومَن كذَّب به فهو في ضلال بعيد، ولهذا قال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾ [الطارق:١٣-١٤]، أي: لقولٌ حقٌّ، وليس بالكذب والهزل، فهو اعتقاد يقيني قطعي لا تردد فيه من جهة النقل ولا ريب فيه من جهة العقل.

٢- لأنه يَفْصِل بين الناس فيما كذَّبوا به، فيوم الفصل هو الذي ينهي جدلهم ونزاعهم؛ لأنه يفصل القضية بالحق الذي يرونه بأعينهم، وينتقل هذا من كونه خبرَ وحيٍ إلى كونه شهادةَ عينٍ.

٣- لأن الله تعالى يَفْصِل فيه بين العباد في مظالمهم وحقوقهم، ويقتصُّ لبعضهم من بعض، والعدل المطلق لا يُرى إلا إذا وُصلت فصول الحياة بعضها ببعض، والحياة الدنيا ليست هي الفصل الوحيد للحياة، بل هي الفصل الأول فحسب، وفي الآخرة الفصل الأكبر والأخير والدائم.

ومن الطريف أن الله سماه هنا: «فصلًا» بل هو ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ والألف واللام قد تدخل على الاسم لتدل على الاستيعاب والأهمية الجوهرية، وكأنه لا «فصل» إلا هو.

وحينما تنظر للدنيا متصلة بالآخرة فسوف ترى العدل المطلق للحق سبحانه، فلن يهمل الظالمين، ويغفل عنهم، ويترك المظلومين بلا نصرة، فهناك في عَرَصات[1] القيامة تتكامل فصول العدل الإلهي المطلق، فربما رأيتَ الرجل الظالم الطاغية يموت بعد أن أسرف في طغيانه وظلمه وتعديه وتمتَّع متاعًا واسعًا دون أن يناله شيء من عقوبة الظلم والطغيان في الدنيا، وربما رأيت الرجل مبتلى بالقهر والحرمان وتسلط الظلمة عليه فيموت ولم يقتص ممن ظلمه، فهل هذا مما يناقض العدل الإلهي؟!

كلا! لأن فصول القصة لم تنته عند حدود الدنيا، فثمة جنة ونار وحساب وعقاب، فيأتي يوم الفصل لتُسْتكْمَل فيه الأمور، ويُقتصَّ فيه لبعض الناس من بعض، وتكتمل الحكمة الربانية التي لا يراها الناس أحيانًا في هذه الدنيا.

وربما سُمِّي فصلًا؛ لأن الأمور تحسم فيه، وثم نهايتان وطريقان، هما الجنة والنار، أما في الدنيا فثَمَّ آلاف الطرق والمذاهب والأفكار والنظريات والأعمال والخيارات.

---

(١) مفردها: عَرْصَة، وهي كل موضع واسع لا بناء فيه.

وقوله: ﴿مِيقَـٰتًا﴾ لها عدة معانٍ:

١- أن له وقتًا محدودًا، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:١٠٤]، وقد اختصَّ الله بعلمه، فلم يبلِّغ به مَلَكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسَلًا، فهذا من العلم الذي لا يحيط به إلا الله، ومَن ادَّعى أنه يعلم ميقات يوم الفصل فقد كذب.

وكل الحكايات والأقاويل التي تنشر في الصحف والأفلام والمواقع، وكل الرؤى والتوقعات والحسابات بقيام الساعة ونهاية العالم باطلة: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

٢- أنه اليوم الموعود الذي واعد الله فيه عباده بالفصل بينهم ومحاكمتهم.

وإذا كان يوم الفصل ميقاتًا، فهذا يعني أنه لا جدوى من استعجاله؛ لأنه مؤقَّت بوقت معلوم عند رب العالمين، لا يتقدم ولا يتأخر لرغبة أحد: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى:١٨].

ومن لوازم كونه ميقاتًا، أنه حق فلا تكذِّبوه؛ لأن الله تعالى أخبر به، وبيَّن أن له وقتًا وضروبًا عنده سبحانه.

وفيه تصبير للمكلومين والمعذَّبين في الدنيا والمقهورين المستبطئين؛ لأن من عادة الإنسان إذا علم أن أمامه موعدًا مضروبًا محدَّدًا، كان أقرب إلى الاطمئنان والسكينة.

ثم ذكر الله تعالى بعض وقائع هذا اليوم، فقال:

*** ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]:**

الإنسان هو المقصود الأول من خلق الكون والحياة والبعث؛ ولذا بدأ السياق في الحديث عنه مباشرة.

والحساب والجزاء والسؤال هو لك شخصيًّا، فلا تحسب للآخرين حسابًا، ففي يوم القيامة يهتمُّ كلٌّ بنفسه، حتى الرسل والأنبياء يقول الواحد منهم: «نفسي.. نفسي». وينسى الإنسان أهله وقرابته، ويفر من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه.

والنفخ في الصور هو للحياة، و«الصور» هو بوق أو قرن يُنْفَخ فيه[1]، لكن هيئته وشكله وطوله وعرضه وصفته مما لم نُحِطْ بعلمه، فنحن نؤمن بأن ثَمَّ صورًا، وأنه يُنفخ فيه، وتشخيص صفة الصور أو طريقة النفخ، هي من الغيب الذي لم نحط به علمًا ولا طائل من البحث وراءها، ونتيجة لذلك تأتي الصيحة أو الرادفة أو الصاخَّة أو الطامَّة التي يُبْعَث الناس بها من قبورهم، والإنسان عندما يتخيَّل نعيم الجنة أو عذاب النار، أو ما يجري يوم القيامة، تمرُّ بذهنه خواطر وصور مما يعرف، لكن عليه أن يدفعها، ويدرك أن ما خطر بباله شيء، وما عند الله شيء آخر مختلف، لا سبيل إلى إدراكه، فلا تحاول، ولا تضيِّع جهدك ووقتك وإمكانياتك، بل اصرفها في النافع.. في العلم.. في الإصلاح.. في العمل.. في الخير.. في الدعوة.. في المصالح الدينية أو الدنيوية، أما الرجم بالغيب والظنون والتخيلات في أمور أخروية، فهذا لا جدوى من ورائه.

ولاحظ تسارع السياق: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾، حيث عبَّر بالحرف «فـ»، فبمجرد ما يُنفخ فيه يحشر الناس إلى ربهم أفواجًا.

وقوله: ﴿ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾، أي: جماعات، بعضهم مع بعض، كل أمة تأتي مع نبيِّها، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء:٧١]، فكل أمة تُدْعَى إلى كتابها، وتُدْعَى مع نبيِّها، المؤمنون مع المؤمنين، والكافرون مع الكافرين؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير:٧]، أي: قُرِنت مع أشباهها، فأهل الإيمان مراتب، وأهل الكفر والنفاق مراتب، ويوم القيامة طويل يقع فيه اختلاط الناس

(١) ينظر: «مختار الصحاح» (ص٣٧٥)، و«النهاية» (٣/ ١٢٢)، و«تاج العروس» (١/ ٣٠٨١).

وتمايزهم شيئًا فشيئًا، حسبما تدل عليه النصوص المختلفة الواردة في السياق.

* ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾ [النبأ:١٩]:

١- هذا مما يقع بعد انبعاث الناس ومجيئهم أفواجًا: ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾، أي: شُقِّقت ومُزِّقت، ﴿ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾ تتنزل منها الملائكة إلى الأرض للمهمّات التي انتُدِبوا إليها.

٢- السَّماء وإن كان من مقاصدها أنها سقف للأرض، إلا أنها ليست مقصورة على هذه المنفعة، فهي عالم آخر وبناء مستقل، ولهذا عبَّر بالبناء، وكما عبَّر عنها في آية أخرى بكونها: ﴿ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء:٣٢]، ولم يقل: (سقفًا حافظًا)، وإنما ﴿ مَّحْفُوظًا ﴾، أي: عما دونه، فقصارى ما يستطيعه الإنسان هو أن يلاحظ هذه السماء على هيئة السقف، وأما ما وراءها فهو محفوظ لا يستطيع البشر أن يلاحظوه إلا بإذن ربهم.

فالسماء في ذلك اليوم على شدتها وقوتها ومتانتها تشقق، وتكون أبوابًا لنزول الملائكة.

* ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبأ:٢٠]. وقال في آية أخرى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير:٣]:

وهذه إحدى أحوال الجبال؛ أن يأذن الله لها أن تسير بمفردها، وتسير سيرًا سريعًا، حتى إنها تمرُّ مرَّ السحاب، قال سبحانه: ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾، وقد ورد عن الجبال سبع صفات في القرآن الكريم، منها هذه الصفة.

ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل:٨٨]، وتكون كالعهن، وكالهباء، وتزول كما في قوله سبحانه: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه:١٠٧].

وكأن هذا يقع بالتدريج خلال هذه السنين المتطاولة التي يشملها اسم «يوم الفصل»، وهذا أحسن من النظر إلى تلك الأحوال باعتبارها مترادفة، فالقول باستقلال كل لفظ بمعنى خاص أولى من حمل بعضها على بعض، وأمكن في الإفادة.

* ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبأ:٢١]:

١- حين تقرأ هذه الآية المؤكَّدة بـ ﴿إِنَّ﴾ تشعر أن ما سبقها من علامات وتغيرات لم يكن إلا تمهيدًا لهذه الحقيقة المرعبة المخيفة.

وإذا كان تلك الآيات الممهِّدة تثير الفزع من النفخ في الصور، ومجيء الأمم كلها جماعات، وتشقُّق السماء، وتسيير الأرض، فكيف حين تُرى النار وهي تترصَّد وتتربَّص بمَن وُعدت بهم.

٢- والمرصاد هو الذي يقف في الطريق يترصَّد[1]، ولهذا قال في سورة الفجر: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤]، فلو أن إنسانًا يمشي في طريق وهو يعرف أن أحدًا يترصَّد له فيه ليوقع به، كيف يكون حاله؟ سوف يحذر ويتوقَّى كلَّ ما يريب، وهذا السياق إنما يقال؛ لأن المقام مقام وعيد للمكذِّبين والمتسائلين باستخفاف عن النبأ العظيم، وإلا فالأصل في صفات الرب تعالى الرحمة واللطف والبر والجود والكرم والعفو والصفح، ولا يقع في أسمائه الحسنى إلا كل جميل، كما هو مقرر معلوم مبسوط في بابه.

٣- وكونها ﴿مِرْصَادًا﴾ يدل على أن الناس كلهم سوف يمرُّون عليها: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]، وذلك أن الصراط منصوب على متن جهنم، فالناس يمرُّون عليه جميعُهم؛ المؤمنون والأنبياء والمرسلون، وسائر البشر، لكن منهم مَن يمرُّ كلمح البصر، ومنهم دون ذلك، ومنهم مَن يمشي ويعثر، ومنهم مَن يسقط ويهوي[2].

---

(١) ينظر: «فتح الباري» (٨/ ٧٠٢).

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٧٤٣٩)، و«صحيح مسلم» (١٨٣) من حديث أبي سعيد ﷺ.

وبدأ بذكر جهنم؛ لأنها في الطريق إلى الجنة بسبب أن السياق تهديد للمكذِّبين.

* ﴿لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ:٢٢]:

١- تخصيص بعد عموم، وهذا اللفظ يُطلَق على الكفار، الذين كفروا بالله، وجحدوا آياته، وعصوا رسله، واتبعوا أمر كل جبار عنيد، واسترسلوا وراء المغريات والشهوات واللذَّات، فيتوعَّدهم الله سبحانه وتعالى بأن جهنم أُعدت لهم.

٢- التعبير بـ «الطغيان» إشارة إلى سبب التعذيب، وهو الاستكبار والتعاظم الذي يحول دون قبول الحق، ويكون سببًا في العدوان على الخلق وازدرائهم، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «**لا يدخل الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرة من كِبر**». قال رجل: إن الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟ قال: «**إن الله جميلٌ يحب الجمال، الكِبرُ بَطَر الحق وغَمْطُ الناس**»[1]. وفي موضع آخر قال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٦٠]. وناسب مقابلة الكبر بالإهانة والتعذيب.

٣- والمآب هو المرجع، فمهما طال الزمن أو قصر، فمرجعهم ومصيرهم إليها، كما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٨]، والعادة أن الإنسان ربما يتعب في سفر، ثم يؤوب إلى بيته وأسرته فيجد الراحة والأنس، ويزول عنه العناء والتعب، فكيف إذا كان مردُّ الإنسان هو العذاب، ولعل هذا من معاني قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٨-٩].

٤- المسلمون الذين يعصون الله تعالى، ما شأنهم؟ يغفر الله تعالى لمَن يشاء منهم، ويعذب مَن يشاء، ورحمته سبحانه سبقت غضبه، ولكننا نعلم بمقتضى النصوص الشرعية المتوافرة أن من المسلمين مَن يُعذَّب، ثم يخرج من النار برحمة أرحم الراحمين، أو بشفاعة المرسلين، أو بغير ذلك من الأسباب التي أذن بها رب العالمين.

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

* ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴾ [النبأ:٢٣]:

﴿ لَّٰبِثِينَ ﴾: أي: ماكثين، والأحقاب جمع حِقْب، والحقب أو الحقبة، قال بعضهم: سبعون سنة. وقال آخرون: سبعون ألف سنة، وفي الآية لم يحدِّد مدَّتها، ومن هنا قال جمهور المفسرين: إن المقصود بالأحقاب: الدهور التي لا نهاية لها[١].

وقال آخرون: إن السياق دليل على أنهم يمكثون فيها مددًا طويلة، ولكن لها أمد تنتهي إليه، ولذلك اختلف أهل السنة: أتفنى النار أم لا؟

أما الجنة: فلا خلاف في بقائها أبد الآبدين، وهذا محل إجماع أهل الإسلام[٢].

وأما النار: فقد ذكر شارح «الطحاوية» عند قول الإمام الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان». قولين لأهل السنة:

الأول: أن النار باقية، وأصحابها من الكفار والمشركين باقون فيها أبدًا، وأما الموحِّدون فيخرجون منها، وهذا مذهب الأكثرين.

القول الثاني: أنه يخرج منها أهل الإيمان، ثم تبقى فترة ثم يأذن الله تعالى بزوالها وفنائها.

واستدلوا على ذلك بالآية الكريمة المذكورة آنفًا؛ لأن التحديد بالأحقاب دليل على التوقيت، كما استدلوا بقوله تعالى في سورة هود: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود:١٠٧].

وقالوا: إن الخلود من معانيه: المكث الطويل، وهو معروف في اللغة، والمعنى: خالدين فيها ما دامت موجودة.

وابن القيم رحمه الله في بعض كتبه يميل إلى هذا القول، وفي «شرح «العقيدة

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٧٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٠٠).

(٢) ينظر: «مراتب الإجماع» (ص١٧٣).

الطحاوية» ذِكرُ هذا القول عن عمر بن الخطاب ﷺ، وهو مروي عن ابن مسعود ﷺ، والحسن البصري، وجماعة من السلف، ويُنسب إلى ابن تيمية، وذكر الشيخ رشيد رضا هذا القول، وأطال فيه النفس مقرِّرًا مؤيِّدًا[1].

فهو قول معتبر ضمن أقوال أهل السنة، وليس قولًا منكرًا يُوصم صاحبه بالتضليل أو التكفير أو التبديع أو يُدعى إلى الملاعنة أو المباهلة، كما يقع من بعضهم بسبب التعصب والاستغراب.

* ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ [النبأ:٢٤]:

١ - «البرد» هو البرودة، أي: ضمن الحرارة، وذلك أنهم في حر شديد ونار، فهم يتمنَّون البرودة فلا يذوقونها، لأن الإنسان إذا شعر بشدة الحرارة تمنَّى البرودة، وإذا شعر بشدة البرودة تمنَّى الحرارة واللهب، وفي الحديث مرفوعًا عن خَوْلة بنت قيس ﷺ: «ابنُ آدم إن أصابه البردُ قال: حَسِّ. وإن أصابه الحرُّ قال: حَسِّ»[2].

ومن الطريف أن أعرابيًّا اشتد عليه البرد حتى كاد يهلك ثم وجد نارًا يستدفئ بها فقال: اللهم اكتبها لي ولوالدي!

ومن معاني البرد: النوم:

قال الشاعر:

فإن شئتِ حرَّمتُ النساءَ سواكمُ   وإن شئتِ لم أَطْعَمْ نُقاخًا ولا بردا[3]

---

(١) ينظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (١/ ٢٨٥) فما بعدها، و«حادي الأرواح» (ص ٢٤٨)، و«الرد على من قال بفناء الجنة والنار» لابن تيمية (ص ٧٤)، و«رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار» للصنعاني، و«تفسير المنار» (٨/ ٥٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٣١٦)، وابن حبان (٢٨٩٢)، والطبراني (٢٤/ ٢٣١) (٥٨٩). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٥٧٨).

(٣) ينظر: «الحيوان» (٥/ ١٦)، و«الفاخر» (ص١٧)، و«الصحاح» (١/ ٤٥٦)، و«لسان العرب» (٢/ ٣٢٠) منسوبًا إلى عبدالله بن عمرو بن عثمان العَرْجي.

والنُّقَاخ هو الماء.

والبرد، قيل: هو النوم، وهو قول مجاهد وبعض السلف، وهو معروف في اللغة[1]؛ وذلك لأن الإنسان في النوم أبرد منه في اليقظة، وكذا إذا مات برد جسمه.

فلا برودة تخفِّف عنهم من لهب النار، ولا يذوقون الماء البارد، ولا يذوقون حتى النوم الذي يخفف عنهم، أو ينسيهم، أو يعطي أجسادهم بعض البرد.

٢- وقوله: ﴿وَلَا شَرَابًا﴾، نفى البرد، ثم نفى الشراب؛ لأن عادة المرء أن يحب الشراب باردًا، فإذا نفى البرد لم يكن إلى البرودة إليهم من سبيل بوجه من الوجوه، ثم عقب بنفي الشراب كله بارده وغير بارده، إلا ما استثناه في الآية بعدها.

* ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ:٢٥]:

«الحميم» هو: الماء الحار، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]، فإذا غلي الماء سُمِّي حميمًا.

ومنه: الحَمَّام؛ لأنهم كانوا يتطهَّرون ويتنظَّفون بالماء الحارِّ، فسمَّاه هنا حميمًا.

ومنه: الحمَّى أيضًا، فهم يشربون هذا الماء الحميم الحارَّ المغلي، الذي يقطِّع أمعاءهم ويمزِّق أجوافهم[2].

والغسَّاق: قيل: هو الشراب النتن.

وقيل: البارد شديد البرودة، الذي يعذِّبهم ببرودته[3].

ولا مانع من اجتماع الأمرين، فيكون الغسَّاق شرابًا باردًا منتنًا يشربونه، عقوبة

(١) ينظر: «القاموس المحيط» (١/ ٣٤١)، و«مختار الصحاح» (ص ٧٣).

(٢) ينظر: «الصحاح» (٥/ ١٨٣)، و«تاج العروس» (٣٢/ ١١).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٥١)، و«تفسير الماتريدي» (٨/ ٦٤١)، و«معجم ديوان الأدب» (١/ ٣٢٩)، و«تاج العروس» (غ س ق) (٢٦/ ٢٥٢).

على ما كانوا يتلذَّذون به في الدنيا مما حرَّم الله تعالى من ألوان المطاعم والمشارب والشهوات.

* ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ: ٢٦]:

فهو جزاء عادل، موافق لنوع العمل، وليس فيه زيادة في العقوبة بل هو مكافئ للإجرام، وفي جزاء المؤمنين قال: ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ [النبأ:٣٦]؛ أي: أنه فضل من الله تبارك وتعالى، وليس مقابلًا لأعمالهم، بل هو فوقها.

ولهذا لا يمكن أن يدخل أحد النار وهو يقول: أنا مظلوم. بخلاف الدنيا، ربما كثير من الناس لا يحسُّ بخطئه، أو لا يريد أن يعترف، أو يُظلم وتضاعف عليه العقوبة، ربما يُعاقَب ويُسْجَن ويُعذَّب ويُقتَل بحق، وهو يصيح: مظلوم! مظلوم! حتى قال الشاعر:

لن يدخلَ السجنَ إنسانٌ فتسألهُ: ما بالُ سجنِك؟ إلا قال: مظلومُ

أما في الآخرة، فهذا مُنْتَفٍ، فلا يوجد أحد يُعاقَب وهو يقول: لا أستحق هذا، كما قال سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك:١٠-١١].

وهذا من كمال العدل الإلهي، حتى إن الجوارح تشهد على الإنسان وليس الملائكة فحسب، ولا الديوان المسطور الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

* ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ [النبأ:٢٧]:

هذا بيان لكمال الحجة عليهم، وعظم الذنب الذي اقترفوه، وأنه لا ذنب أعظم من الحَوْبِ الذي وقعوا فيه، وهو جحود الخالق والكفر به وتكذيب أنبيائه ورسله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ [النبأ:٢٧-٢٨]، وهم ﴿ كَانُواْ ﴾ في الدنيا لا ينتظرون البعث وما بعده، وجمع بين الفعل الماضي والمضارع:

﴿كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، أي: لم يكونوا يرجون حسابًا، وما من حجة أقيمت عليهم في إثبات الجزاء والنشور إلا قابلوها بالاستكبار والرفض، ولذا أعرضوا عنه ولم يضعوه في اعتبارهم ولم يدرجوه في حسابهم، وكانت غايتهم الحياة الدنيا، وبهذا اختل ميزانهم.

وقوله: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ عبَّر بـ«الرجاء»، وهو يُطلَق على ما يحب الإنسان، أي: أنهم لم يكونوا يرجون الجنة، والرضوان، ولهذا لم يكونوا يفعلون الطاعات؛ لأن الذي يرجو لا بد وأن يفعل الطاعة، وكأن في ذلك إشارة إلى أن أصل كفرهم ترك الطاعة والتوحيد والإيمان، وهو أعظم من الوقوع في المعصية.

* ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ:٢٨]:

انتقل من التعبير بالمضارع إلى التعبير بالماضي، فقال: ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ للإشارة إلى أن تكذيبهم كان حاسمًا جازمًا لا تراجع فيه ولا تردد، وكان سريعًا لم يسبقه بحث ولا تأمل ولا تفكير.

و«الآيات»: جمع آية، وهي نوعان:

١- الآيات الكونية الدالة على الله، وهذا من جنس قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ:٦-١١]، وكثير من المشركين زمن النبي ﷺ كانوا يقرُّون بتوحيد الربوبية بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، فتكذيبهم بها عدم تحققها في نفوسهم وعدم الالتزام بمقتضى ما يقولون بألسنتهم من الإيمان المجرد بالإله الخالق.

٢- الآيات الشرعية، فكذبوا بوحي الله، ومن ذلك: التكذيب بالقرآن، والعربيُّ إذا قرأ القرآن عَرَفَ بعربيته إعجازَ القرآن الكريم في بلاغته وفصاحته وسحر بيانه.

فهؤلاء كذَّبوا بالآيات كلها، عقليها ونقليها، مسطورها ومشهودها، ولذا استوعب تكذيبهم الآيات كلها. ولهذا قال: ﴿كِذَّابًا﴾، والكِذاب معناه: تكذيبًا، فهو مصدر، لأن المعنى: كذبوا بآيات الله، ولكنه صيغة (كذابا) أبلغ من (تكذيبًا)، مرة بعد أخرى، وكلما وُجِد في قلوبهم شيء من الميل أو التصديق قاوموه ودافعوه.

وهذا التكذيب بآيات الله جعلهم لا يؤمنون بيوم الحساب، ولا يعملون له، ولا يرتدعون عن المعاصي.

* ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبأ:٢٩]:

﴿وَكُلَّ﴾ مفعول به منصوب على تقدير: (وأحصينا كل شيء)، وفي الآية الأخرى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس:١٢]، أي: في كتاب حافظ.

و﴿وَكُلَّ﴾: من ألفاظ العموم؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر:٥٣]، كل صغير من الأفعال والأقوال والخواطر التي في القلب والنيات والمقاصد مُحصًى عند الله ومسطور.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

ويدل لفظ: «كل» على استيعاب ما عمل هؤلاء الناس وما لم يعملوا، فهو مكتوب.

والمقصود بـ «ما لم يعملوا»؛ أي: كل ما تركوا مما هو واجب عليهم أن يعملوه، وربما دخل فيه ما هموا به ثم أعرضوا عنه، أو عجزوا عن فعله، فيكتب لهم ما تركوه لله، ويكتب عليهم نية ما تركوه عجزًا.

والكتابة هنا هي الحفظ والضبط والتسجيل الدقيق، وهي وثيقة يُبنى عليها

الحساب والثواب والعقاب، كما يبنى عليها الترك لما لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب.

فقوله: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴾ يشمل المفعول والمتروك من المعاصي والطاعات.

وهو عموم لا يدع مجالًا للتوقع بأن ثَمَّةَ شيئًا لم يشمله هذا العموم.

واختلف العلماء فيما يكتبه الملك؟

فقال الحسن وقتادة ومجاهد: يكتب كل شيء. وقال ابن عباس -في إحدى الروايتين عنه- وعكرمة: يكتب ما فيه ثواب وعقاب.

وظاهر الآية الأول، ويؤيِّده قوله تعالى في سورة (ق): ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

وقيل: يكتب عليه كل ما يتكلم به، فإذا كان آخر النهار مُحي عنه ما كان مباحًا، مما لا يتعلق به أجر ولا وزر، والله أعلم(١).

وقوله: ﴿ أَحْصَيْنَٰهُ ﴾ الإحصاء يدل على الضبط الدقيق، فهو مُحْصًى معروف؛ لأن الله تعالى عليم بكل شيء، ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه:٥٢].

والضمير -النون- في قوله: ﴿ أَحْصَيْنَٰهُ ﴾ يعود إلى الله سبحانه وتعالى، فهو يعلمه، وأيضًا بواسطة ملائكته الكتبة الحافظين، الذين قال الله عنهم: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

وغالب ما تأتي النون فيما يكون للملائكة تكليف فيه، كالموت والعلم والمعية والنصر.

ثم قال: ﴿ كِتَٰبًا ﴾، أي: ليس فقط علمًا، وإنما هو مكتوب أيضًا؛ لأن عند الله

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ١١)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٩٨)، و«تفسير ابن رجب» (٢/ ٣٠٢).

تعالى كتابًا لكل إنسان يخصه، ويُزاد فيه يومًا بعد يوم، ويُكْتَب فيه الخير والشر، وهذا نطق به القرآن الكريم، كما قال سبحانه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء:١٣]، وهو الكتاب الذي يقول الله تعالى عنه: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف: ٤٩]، يرون الكتاب من بعيد، قبل أن يأخذوه، فهم منه مشفقون.

فهنا قال: ﴿ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴾ أي: مكتوبًا أو كتابةً، ولا يمنع أن يكون ذلك مدونًا بأعلى صيغ التوثيق التي لا تدع لقائل مقالة، ولهذا قال في آخر السورة: ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [النبأ:٤٠].

وإذا كان البشر بإمكاناتهم القليلة استطاعوا أن يوثِّقوا ويضبطوا حركات الإنسان وأعماله من خلال وسائل التقنية والكاميرات الدقيقة المبثوثة في كل مكان، فتُصوِّر الحركات والسكنات وتُسجِّل الأصوات وهي في غاية الخفاء والضآلة، فكيف بقدرة الخالق العظيم جل وتعالى التي لا تُعَدُّ ولا تُحَدُّ؟!

فثَمَّ شريط شاهد على ما يعمله الإنسان يعرض عليه يوم القيامة.

* ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ:٣٠]:

أي: ذوقوا بدايات العذاب، فما تجدونه ما هو إلا عينة لما هو أشد؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الواقعة:٥٦]؛ أي: البداية التي تُقدَّم للضيف.

وهذا دليل على أن العذاب يزيد، أي: سوف نزيدكم عذابًا؛ لأن العذاب الجديد يضاف إلى العذاب الأول، فالعذاب الأول نال من الإنسان، من جلده ومن نفسه، فإذا جاء العذاب الجديد كان مضافًا إلى الأول، فهو عذاب بعد عذاب، إضافة إلى أنه قد يكون من معاني الآية: أن العذاب يزيد، فيكون العذاب الثاني أشد من العذاب الأول.

وقوله: ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ أقوى مما لو قال: (فسوف نزيدكم عذابًا)؛ لأن فيه نفيًا وإثباتًا، فهو نفى أن يزيدهم شيئًا آخر؛ أي: لن نزيدكم رحمة وعفوًا ومغفرة

ونعيمًا، وإنما سوف نزيدكم عذابًا فحسب.

وبينما القوم يتألَّمون بالمعاناة والعذاب الذي هو جزاء لأعمالهم، تنتقل السورة إلى الفريق الآخر وما له من النعيم:

* ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ:٣١]:

١- بدأ بـ ﴿إِنَّ﴾ المؤكِّدة، إشارة إلى عظمة هذه الحقيقة، والمتَّقِي هو مَن اتقى الكفر بالإيمان، فلكل مؤمن قدر من التقوى يزيد بقدر ما عنده من الإيمان والوازع؛ ولهذا يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، فكل مؤمن له حظٌّ من هداية القرآن؛ لأن أول مراتب التقوى هي الإسلام، وهناك مراتب للتقوى أعلى تصل إلى مرتبة الإحسان والكمال.

وقد سُئل أحد السلف عن التقوى؟ فقال: «هل أخذتَ طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعتَ؟ قال: إذا رأيتُ الشوكَ عدلتُ عنه أو جاوزتُه أو قصُرتُ عنه. قال: ذاك التقوى»[1].

فالمتَّقِي كالذي يمشي في حقل ألغام، يحذر أن يضع قدمه إلا في مكان آمن، فهكذا المتقي لا يضع رجله أو يده أو عمله إلا حيث يعلم أنه لا حرج عليه، والتقوى لا تعني العصمة، وكان ابن المعتز يقول:

خلِّ الذنوبَ صغيرَها ... وكبيرَها ذاك التُّقى

واصنع كماشٍ فوق أر ... ضِ الشوكِ يحذرُ ما يرى

لا تحقرنَ صغيرةً ... إن الجبالَ من الحَصَى[2]

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٤٢)، و«أدب الدنيا والدين» (ص ٩٨)، و«الزهد الكبير» للبيهقي (٩٦٣)، و«تفسير البغوي» (١/ ٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٦١)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٦٤)، و«الدر المنثور» (١/ ١٣١).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١/ ١٤٢)، و«شعب الإيمان» (٦٩١٩)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٦٤).

قال سبحانه: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، والمتقون هم مَن ذُكِر بعد هذه الآية إلى قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فالمتقي عنده أوبة كلما وقعت منه زلة، وهذا لا ينافي التقوى، والمؤمن يخطئ ويتوب ويستغفر.

٢- قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى أنهم علموا أن كل شيء سيُحصَى عليهم، فتركوا ما لا يُرضي الله قَدْرَ استطاعتهم، فهم مؤمنون بقوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾، وكانوا يرجون الحساب ويخافون العذاب، وبهذا تميزوا عن الطائفة الأولى.

٣- ﴿مَفَازًا﴾: المفاز: السلامة، وكفى بها فوزًا؛ لأنه لـمَّا ذكر وعيد المشركين قال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ولذلك كان الأنبياء في ذلك الموقف يطلبون السلامة، ويقولون: «اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»[1].

* ولكن الله تعالى بفضله وكرمه وعَدَهَم بما هو أعظم من ذلك وخير: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ:٣٢-٣٤]:

و«الحدائق»، وهي الأشجار العظيمة، والجنة سُمِّيت بذلك؛ لما فيها من الأشجار الملتفَّة، التي تجن وتغطي ما دونها، وقوله: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾، باللغة التي نعرف؛ لأن هذا قصارى ما يمكن أن يصل إليه الإدراك، والإنسان عندما يقال له: ﴿حَدَآئِقَ﴾. يتبادر إلى ذهنه ما يراه في الدنيا، وعندما يُذْكَر له الأعناب يتبادر إلى ذهنه ألوان العنب وأشكاله وطعومه المختلفة التي يعرفها ويتذوَّقها.

و«ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء»، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[2]، وقال

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» (٣، ٨)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٨٨).

سبحانه: ﴿ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ [البقرة:٢٥]، وقال: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]، وفي الحديث الصحيح أخبر ﷺ أن الجنة: «**فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلبِ بَشَرٍ**»[١].

﴿ وَأَعْنَٰبًا ﴾ لم يقل: (وعنبًا)، كما في قوله: ﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ [عبس: ٢٨]، بل قال: ﴿ وَأَعْنَٰبًا ﴾، إشارة إلى كثرتها وتنوُّعها، فهي ضروب وألوان وأشكال، وذلك لأن آية «عبس» هي امتنان على أهل الدنيا، فذكر العنب مفردًا، أما في الجنة، فجاء لفظ «الأعناب» مجموعًا؛ إشارة إلى اتساع أنواعه بقدر عظيم عما هو في الدار الدنيا.

﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾: «الكواعب» جمع: كاعب، وهي الفتاة التي تفلَّك أو تكعَّب ثديها، أصبح مثل الكعب، أي: مثل كعب الإنسان في استدارته وفي شبابه، وفي نضجه وتصلُّبِه، فالله تعالى ذكر المرأة كأجمل وأكمل ما تكون في مرحلة بلوغها وفتوَّتها وعنفوان شبابها.

وأعمار أهل الجنة هي ثلاث وثلاثون سنة[٢]، أي: في مرحلة اكتمال الشباب.

و«الأتراب» جمع تِرْب، أي: المتشابهات في السن، فسِنُّهن واحد[٣].

فعندما تكون نساء الجنة كواعب جميلات، وأترابًا في سِنٍّ واحد، فهذا يعني أن الحب والمودة ستكون لهن في درجة واحدة، فلا توجد واحدة منهن في نفسها أن غيرها تُحَبُّ أكثر منها أو أنها أجمل منها، بل كلهن في جمال واحد، وسن واحد، والميل لهن واحد، وأيضًا هنَّ كواعب أتراب فيما بينهن، وعادة النساء عندما يكون سِنُّهن واحدًا أن يكون بينهن شيء من الأُنْس، وهذا متعة للنساء المتقيات بكونهن

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٤٤، ٤٧٨٠)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٤، ٢٨٢٥).

(٢) كما في حديث أبي هريرة ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما: أخرجه أحمد (٧٩٣٣، ٨٥٢٤)، والترمذي (٢٥٤٥).

(٣) ينظر: «المزهر» (١/ ٣٤٢)، و«لسان العرب» (١/ ٢٢٧)، و«تاج العروس» (٢/ ٦٨).

الكواعب الموصوفات بالجمال والحسن والنعيم، لأنه قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ يشمل الذكور والإناث.

وقد يكون قوله: ﴿أَتْرَابًا﴾، أي: مع أزواجهن، وهذا مُلاحَظ أن سِنَّ الرجل وسِنَّ المرأة واحد في الجنة، وهذا أدعى لكمال المتعة وحسن المعاشرة في الجنة.

وقد يُستغرَب: لماذا يذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن مثل هذه المتعة؟

وهذا من المغالطة؛ لأن من أعظم ما يُفتَن به الإنسان في الدنيا التعلق بالمرأة، وحتى مَن يستشكل هذا يعرف حقيقة نفسه وكيف يعاني من ضغط الميل النفسي والجسدي، إن كان تقيًّا يعاني من مدافعة الشهوة، وإن كان فاجرًا فهو يعاني من ملاحقة صنوف الإشباع وتبعاته المرهقة، وهو مما جبل الله عليه البشر، وهو من أعظم ألوان النعيم والمتعة في الدنيا والآخرة، وقد جمع الله تعالى لهم أنواع النعيم بالمجالس والبيوت وبالمطاعم والمشارب وبالمناكح والمَلَذَّات.

فإن قيل: فماذا للنساء؟

فأقول: لهن أن الله تعالى قال فيهن: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧].

وهن شريكات في سائر النعيم المفصَّل، بما في ذلك رؤية الله تعالى وسماع كلامه، وسائر المتع والمباهج المعنوية والحسية المسوقة في الكتاب العزيز.

وقد يقول قائل: لماذا للرجل أكثر من امرأة في الجنة؟

فأقول: هذا من حكمة الله، أن المرأة عادة أحادية العاطفة، إذا أحبَّت شخصًا فلا ترى في الدنيا إلا هذا الإنسان، ولهذا لو تزوَّج عليها زوجها وجدت في قلبها ألمًا عظيمًا وإن صبرت، ولا تجد في نفسها ما يجده الرجل من التطلع وإمكانية وجود الحب لأكثر من امرأة، فإن مسارات العاطفة عنده قابلة للتعدد.

وكثير من الرجال يحب امرأته ويقصر نفسه عليها، وهذا حسن، ولعله أدعى للألفة، وأبعد عن المشكلات وأجدر أن ينشأ الأولاد في جو من الأنس والألفة والصفاء، لكن المقصود أن طبيعة الرجل العاطفية تختلف عن المرأة؛ ولهذا وصفهن الله بقوله: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٦].

فالمرأة قاصرة الطرف على زوجها لا ترى إلا حسنه وجماله، ولا تستمتع إلا به ومعه، ولا تطمح في نظرها إلى سواه.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾: وهذا نعيم آخر مع السمر، والمجالس الجميلة، والخضرة، والمآكل والمشارب، والزوجات الحسان الجميلات، والكأس لا يُذكَر في القرآن إلا ويُراد به الخمر، وهذا معروف في لغة العرب، فإذا قال: «شربت كأسًا» ولم يميز، فهو يعني الخمر.

وقوله: ﴿دِهَاقًا﴾ لها معانٍ، منها:

١- «الملأى المتابعة» عند أكثر المفسرين، وملء الكأس يُعَدُّ من كرم الساقي.

٢- «الصافية»، كما يقول الصاحب بن عبَّاد:

رقَّ الزجاجُ ورَقَّتِ الخمرُ   فتشابها فتشاكلَ الأمرُ
فكأنها خمرٌ ولا قدحٌ   وكأنها قدحٌ ولا خمرُ[1]

وكما يقول محمد إقبال:

كمثلِ الكأسِ تُبْصِرُها دِهاقًا   وليس لأجلِها صُنِعَ الشرابُ

فهنا اجتمع صفاء الخمر وصفاء الكأس، فهذا من أجود وأحسن ما يكون، وعادة ما يمدح العرب الخمر المعتقة القديمة، التي أُتقِن صنعها، فالله تعالى يذكر للمؤمنين هذه الخمر التي هي: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات:٤٦]، فيجتمع لهم

---

(١) ينظر: «خاص الخاص» (ص ١٦١)، و«يتيمة الدهر» (٣/ ٣٠٤)، و«وفيات الأعيان» (١/ ٢٣٠).

كل ألوان اللذة في الجنة[1].

* وجرت العادة أن مثل هذه المجالس تشتمل على صنوفٍ من النعيم واللذَّة والحدائق والبساتين، والنساء الجميلات، والمآكل والمشارب والمطاعم، والأصوات الجميلة بالغناء وغيره، ولما كانت هذه المجالس لا تخلو غالبًا من غوائل السكر بالخمر؛ من التشاتم والسباب والبطش والاعتداء، عقَّب الله على هذه الآية ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ بما يميِّز مجالس الخمر في الجنان عن مجالسها في الدنيا، فقال سبحانه: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴾ [النبأ:٣٥]:

فعندما يشربون لا تذهب عقولهم، كأهل الدنيا، بل يتمتعون بالخمر دون أن يفقدوا لذَّاتهم وكمالاتهم النفسية: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات:٤٧]، فلا تغتال عقولَهم، ولا تذهب بألبابهم، فيدوم لهم نعيم المعرفة والرضا بالله والفرح برحمته والرجاء في مزيد فضله، مع نعيم الشرب والسماع ولذة العين والنظر.

وقوله: ﴿ لَغْوًا ﴾: «اللغو»: هو الكلام الزائد الذي لا فائدة فيه: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القصص:٥٥].

﴿ وَلَا كِذَّابًا ﴾ إشارة إلى الكلام السيئ، وفي هذه الآية تلميح إلى ما كانوا عليه في الدنيا، وأن من أعظم صفاتهم حفظَ اللسان، فهم يتكلمون في الدنيا بالكلام النافع المفيد، الذي إما أن يكون ذكرًا لله، أو علمًا نافعًا، أو إحسانًا إلى عباد الله، أو تسلية مؤمن، أو تطييب خاطر، أو دفاعًا عن حق، أو ردَّ خطأ، فليسوا من أهل اللغو الذين يكثُرُ فيهم الهرج والمرج والقيل والقال، وليسوا من أهل الكلام الباطل الذين يتزيَّنون بالأباطيل والألاعيب والأكاذيب، ولهذا جُوزوا في الجنة بذلك، و«**الجزاء من جنس العمل**».

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٣١٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٨٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٠٧).

و«الكِذَّابُ» هو التكاذب فيما بينهم، أن يكذِّب بعضهم بعضًا، فيقول هذا لهذا: كذبت. أو يكذب بعضهم على بعض، وهذا كله ليس في الجنة، وفيه إشارة إلى أن ضبط اللسان من أعظم الأسباب التي يتخذها العبد إلى ربه سبيلًا لنيل مرضاته.

* ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ [النبأ:٣٦]:

بخلاف أولئك الذين قال فيهم: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾، وهذا دليل على أن هذا من الله تعالى للمؤمنين فضل، ومنه سبحانه بالنسبة للكافرين عدل، وهو ﴿ جَزَآءً ﴾ أي: أن ثَمَّةَ عملًا لهم في الدنيا فجُوزوا عليه بالجنان، وهو مصداق لقوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]؛ أي: بسبب عملكم في الدنيا، وليس المعنى أنهم لم يجازوا إلا بأعمالهم، بل أعمالهم سبب لنيل الرحمة، والرحمة لا حد لها، فجوزوا بالحسنة عشرًا وثماني عشرة وعشرين وخمسًا وعشرين وسبعًا وعشرين وخمسين وسبعمائة وأضعافًا كثيرة لا يقدر قدرها إلا الله.

﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾، بيان لمصدر الجزاء. أي: من عند الله، فهو سبحانه المجازي.

وفيه دليل على الفضل والعطاء، ولهذا قال: ﴿ عَطَآءً ﴾، فليس هو محض جزاء لهم، بل لو جُوزوا بأعمالهم ما وصلوا إلى هذا، وربما استنفدت أعمالهم النعم التي أُعطوها في الدنيا، ولهذا قال: ﴿ عَطَآءً ﴾، أي: فضلًا وتكرُّمًا من الله تعالى.

ومن معاني ربوبيته سبحانه: رحمته بخلقه ومجازاته لهم؛ ولهذا لم يذكر هذا بالنسبة للكافرين؛ لأن المقام مقام توبيخ وتقريع وتخويف.

﴿ عَطَآءً حِسَابًا ﴾: جاء في مواضع أنهم أُعطوا بغير حساب، كما قال: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠].

فيقول أهل اللغة: إن ﴿ حِسَابًا ﴾ هنا ليس معناه: أنهم حوسبوا على أعمالهم وجوزوا عليها، وإنما: ﴿ عَطَآءً حِسَابًا ﴾، أي: عطاءً كبيرًا بغير عَدٍّ ولا إحصاء، فيُعطى

ثم يُعطى ثم يُعطى، حتى يقول: «حسبي.. حسبي..». أي: يكفي، فيُعطى حتى تنقطع مسألته، كما في حديث جابر ﷺ: «فلما رأى أن ليس لهم حاجةٌ تُركوا»[1].

وأهل الجنة كلما تطلعت نفوسهم لشيء تحقق لهم بفضل الله تعالى عليهم، فلهم كل ما تمنوا، لا مثنوية ولا رجعة ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ [ق:٣٥]، أي كل ما يريدون، قصورًا، أو أفلاكًا.. أو كواكب، أهلًا.. مالًا.. ولدًا.. كل ما يخطر على البال، وما لا يخطر عليه أيضًا؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق:٣٥]، أي: ما لم يشاؤوا ولم يخطر ببالهم، وقال هنا: ﴿ عَطَآءً حِسَابًا ﴾.

أن ينعَّم المرء في الدنيا مائة سنة بصحة وهناء وعيش رغيد ومال وفير وزوجة حنون وذرية صالحة، يشعر بالسعادة في مأكله ومشربه ونومه وحديثه وسفره وإقامته، ويستمتع بلحظاتها، فهذا عطاء لا يقاومه شكر، ولا يقدَّر بثمن، فكيف بنعيم الجنة السرمدي؟!

وكيف لا يكون العطاء بهذا القدر وهذا الفضل والرحمة، وهو عطاء رب السماوات والأرض، فهو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء، وعطاؤه كلام، وأمره كلام، وعقابه كلام: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، هذا معنى كون عطائه كلامًا، ومَنْعِه كلامًا، فإذا أراد شيئًا قال له: ﴿ كُن ﴾ فكان، فهو يخلق لهم بكلامه ما يتنعَّمون به.

* ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ:٣٧]:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقها ومدبرها وهي مسخَّرة بأمره تسخيرًا جبريًّا لا حيلة لها فيه ولا ثواب.

﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ وما فيهما من إنس وجن، وخلق وبشر، وملائكة، ونجوم..

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

وغيرها، ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾، أي: ما بين السماء والأرض، فهو مالكه وخالقه ومدبره.

وقرأ عاصم، وابن عامر، وغيرهما: ﴿ رَبِّ ﴾ بكسر الباء؛ لأنها بدل من قوله: ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ في الآية السابقة، وقرأها الجمهور بالضم «ربُّ» على أنها ابتداء[1].

ثم قال سبحانه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾، اختار هذه الصفة؛ لأنها مناسبة ولائقة بمقام الرحمة بالمؤمنين وجزائهم.

وفي هذا الاختيار توبيخ للكافرين؛ لأن هؤلاء إذا كانوا هلكوا وعُوقبوا -مع أن الذي عاقبهم هو الرحمن- فمعناه أنه لم تُجْدِ فيهم طرائق الخير وأسبابه وأبوابه وتمحَّضوا للشر والكفر والعدوان، فلا يهلك على الله تعالى إلا هالك.

﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أي: في ذلك الموقف، لا يستطيع الناس مخاطبة الله عز وجل؛ لأن المقام مقام هيبة وجلال ترتعد منه الفرائص ويخافه الناس حتى الأنبياء والملائكة.

* ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨]:

صار الوصف للمشهد كله، فالخلق قيام لرب العالمين، إنسهم وملائكتهم، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين:٦]، ويشي هذا برهبة الموقف وعظم شأنه وهول مشهده.

وفي ﴿ ٱلرُّوحُ ﴾ أقوال:

١- أنه جبريل عليه السلام، كما في موضع آخر في قوله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ [القدر:٤].

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٢٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ٨٦)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٧٠)، و«حجة القراءات» (ص ٧٤٧)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٢٧٣).

٢- المقصود بالروح: كل ذي روح من الإنس والجن.

٣- أن يكون خَلْقًا من خلق الله عز وجل، الله أعلم به.

والأقرب هو العموم، فيدخل جبريل والملائكة وغيرهم، ويكون المقصود بالروح هنا: المخلوقات ذوات الروح مما نعلم وما لا نعلم، فهي تقوم أيضًا، وهذا أنسب للسياق؛ لأن المقصود أصلًا بالبعث والمحاسبة هم أولئك المخلوقون العقلاء المكلفون، والله أعلم.

وبذا يكون ذكر الروح تأسيسًا وليس تأكيدًا أو ذكرًا خاصًّا.

وكل ذي روح يقوم، والملائكة يقومون صفوفًا بعضهم خلف بعض.

﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ يفيد أن في ذلك المشهد الرهيب صمتًا مُطْبِقًا، بخلاف عادة الناس فإنهم إذا احتشدوا في منتدياتهم ومجالسهم وساحاتهم تسمع منهم الضجيج والصياح، لكن في ذلك الموقف: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه:١٠٨]، وكما في قوله: ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [طه:١٠٣].

وقوله: ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴾، لها ثلاثة معانٍ:

١- لا يتكلمون إلا همسًا فيما بينهم.

٢- لا يتكلمون مطلقًا، وذلك في بعض مواقف القيامة، فهم حينًا يتهامسون، وحينًا يتوقفون حتى عن الهمس.

٣- أنهم لا يخاطبون الله عز وجل، ولا يتكلمون إليه.

﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾، وهم الرسل وغيرهم من الشافعين.

وقد اشترط تعالى الرضا والإذن، فقال: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨]، ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه:١٠٩]، فهنا قال: ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أي:

ورضي له قولًا، وهو سبحانه يعلم أن هؤلاء الذين أذن لهم بالكلام لا يقولون إلا صوابًا، مثل شفاعة سيدنا محمد ﷺ في فصل القضاء بين الناس، والشفاعة في بعض المؤمنين أن لا يدخلوا النار، والشفاعة في بعض مَن دخل النار أن يخرجوا منها، والشفاعة في أهل النار أن يُخَفَّف عنهم من عذابها، والشفاعة في بعض أهل الجنة أن تُرْفَع درجاتهم ومنازلهم فيها.. إلى غير ذلك مما هو خير وثواب يحبه الله عز وجل.

* ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ:٣٩]:

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ إشارة إلى عظمة ذلك اليوم، الذي هو اليوم الحق، خلافًا لمن كذَّب به، فهو حق لا مرية فيه، يبيِّن صدق ما جاء به المرسلون.

واليوم الحق خلافًا لأيام الدنيا، فهي لعب ولهو، وأشبه ما تكون بالباطل، لقصرها وسرعة تصرمها ونسيان أفراحها وأتراحها، وتحولها من صفة إلى أخرى.

اليوم الحق الذي يُفْصَل فيه بين الناس، ويُقْتَصُّ لبعضهم من بعض، حتى في أصغر الأمور وأحقرها.

قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ فيه إشارة إلى أن سلوك الطريق الصحيح مرهون بإرادة الإنسان ومشيئته، ولهذا فلا وجه لأن يحتجَّ أحد بقَدَر الله على المعاصي، فإنه ما عصى اللهَ أحدٌ، ولا ترك طاعة إلا وهو يعمل ما تملي عليه نفسه، وتحفِّزه إليه رغبته وشهوته وميله، فالإنسان يجد ضرورة في نفسه أنه يُقْدم على الأشياء التي يحبها ويترك الأشياء التي يكرهها، وهذا هو الأمر الذي يُحاسَب عليه الإنسان في الآخرة، وهو لا يدري ما المقدور إلا بعد أن يفعل ما فعل، والقدر ليس قسرًا للمكلَّف على ما لا يحب، بل هو إذن الله للعبد أن يفعل أو لا يفعل، ولو شاء الله لقسر الناس على ما يريد ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام:١٠٧]. ولكنه لم يفعل، بل تركهم وإرادتهم الحسية الضرورية في عمل الآخرة كما هي في عمل الدنيا سواء بسواء.

وقال: ﴿ٱتَّخَذَ﴾، ولم يقل: (أخذ)؛ لأن ﴿ٱتَّخَذَ﴾ أقوى، وهو دليل على الاستمرار، وعلى أن الإنسان كدح حتى شقَّ له طريقًا إلى ربه، وكلمة ﴿ٱتَّخَذَ﴾ تستعمل في مادة اللغة على الأمر المعتاد المتكرر كاستعمال الآنية والملابس والإماء والفرش والمواضع والبساتين ونحوها، فكأن المعنى هنا أنه كرر العبودية بصيغها المتعددة حتى صارت سجية وطبعًا، ومع تراكمها الزمني سهلت عليه، وذل لها قلبه ولسانه وجوارحه، وذهبت عنه مع الزمن وتقادم الأيام دواعي الشهوات ونوازعها، ومواضع الشبهات والتباساتها، فآمن عقله وقلبه وجوارحه، والله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم.

و«المآب» هو الطريق والمرجع والمنهج الذي يسلكه.

* ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

آية خاتمة جامعة لأول الحديث وآخره، يتكلم تعالى بضمير المعظِّم لنفسه، المعظَّم من عباده: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾، والإنذار هو التعليم على سبيل التحذير والتخويف، وهو واضح في هذه السورة، بذكر النار وعذابها وهول الموقف، وقدَّمه لتقدمه في السياق ولطبيعة الحال التي نزلت فيها السورة؛ حيث كان النبي ﷺ يواجه التكذيب والعناد بمكة.

وكيف يكون هذا العذاب قريبًا؟

١- يجوز أن يكون المعنى أن يوم القيامة أجل معدود، وميقات معلوم، إلا أنه قريب بالقياس إلى سرعة أيام الدنيا: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر:١]، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء:١].

٢- أو يكون قريبًا باعتبار أن المقصود عذاب الدنيا؛ لأن الله أنذرهم عذاب الدنيا والآخرة، كما وقع لهم في بدر وفتح مكة، وهذه كانت للمخاطبين أنفسهم

وليس لجنسهم، كما قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

٣- ومن معاني كونه قريبًا: أنه مرهون بالموت، فإن الإنسان إذا مات قامت قيامته.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ بعينه ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، والمقصود: ما عمل، وما سمعت أذنه، وما مشت إليه قدمه، وما فاه به لسانه، وهو جارٍ على لغة العرب في التعبير باليدين، والمقصود: الجوارح.

وقوله هنا: ﴿يَنظُرُ﴾ يعزِّز ما رجَّحناه أن المرء يوم القيامة يرى صورته وهو يعمل أو يقول، وهي مسجلة كما وقعت، تُرى وتُسمع وتُدْرك بما لا يدرك في الدنيا.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ إشارة إلى أن أصل الوعيد للكافرين، وأن المؤمن بمنجاة من ذلك كله، وإن عُذِّب في ذنب ما إلا أن مَرَدَّه بإذن الله إلى رحمة الله ورضوانه، ولهذا قال هنا: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾، وفي قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِي﴾، إشارة إلى بُعْد هذا الأمر، وأنه صار مجرد أمنية!

وقد يجوز أن يكون المعنى: أنه يتمنى ذلك إذا رأى الحيوانات والوحوش قد استحالت ترابًا، حين يقال لها: «كوني ترابًا»، فتكون ترابًا، بعدما يُقتَصُّ لبعضها من بعض -كما قاله بعضهم[1]- فيتمنى مصير الحيوانات وهو تحوُّلها إلى تراب، ويحتمل تمنِّي أنه لم يُخلق؛ لأنه مخلوق أصلًا من التراب، أو لم يبعث بعدما هلك، كما قال: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة:٢٧].

وكلا المعنيين قريب، والله أعلم.

○ ○ ○

(١) ينظر: «العظمة» لأبي الشيخ (٣/ ٨٢١)، و«المستدرك» (٢/ ٣١٦)، (٤/ ٥٧٥)، و«البعث والنشور» للبيهقي (ص ٣٣٦)، و«السلسلة الصحيحة» (١٩٦٦).

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

سورة النازعات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا (١) وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا (٢) وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا (٣) فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا (٤)
فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا (٥) يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ (٦) تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ (٨)
أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ (٩) يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ (١١)
قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ (١٣) فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ (١٤) هَلۡ أَتَىٰكَ
حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (١٥) إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (١٧) فَقُلۡ هَل
لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ (١٩) فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ
(٢١) ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ
وَٱلۡأُولَىٰٓ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ (٢٦) ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمۡكَهَا
فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠) أَخۡرَجَ مِنۡهَا
مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا (٣١) وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا (٣٢) مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ (٣٣) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ
(٣٤) يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ
(٤٠) فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ (٤١) يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ (٤٣)
إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ (٤٤) إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا (٤٥) كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ
ضُحَىٰهَا (٤٦) ﴾ [النازعات:١-٤٦].

* تسمية السورة:

١- اسمها: «**سورة النازعات**»، وبعضهم يزيد الواو، فيسميها: «**سورة** ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾»[1].

٢- وقد يسمِّيها بعضهم بأسماء باعتبار ألفاظٍ لم تَرِد إلَّا فيها، كـ: «**سورة الساهرة**» [النازعات:١٤]، أو: «**سورة الطامَّة**»[2] [النازعات:٣٤].

* عدد آياتها: ست وأربعون آية عند أهل الكوفة، وخمس وأربعون آية عند الجمهور[3].

* وهي مكية بإجماع المفسِّرين، كما ذكر ابن عطية والقرطبي وابن الجوزي والقاسمي وابن عاشور وغيرهم[4].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٠١)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٨٧)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩).

(٢) ينظر: «جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٤٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٦٩٢)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩).

(٤) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٩٠)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٤٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٣٩٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٤٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩).

* ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا﴾ [النازعات:١]:

هذا قَسَمٌ من الله بـ «النازعات»، وقد اختلف المفسرون في تحديد معناها على أقوال:

فمنهم مَن قال: هي الملائكة، ومنهم مَن قال: هي سكرات الموت، ومنهم مَن قال: هي الوحوش، ومنهم مَن قال: هي النجوم، إلى غير ذلك من الأقوال المبثوثة في كتب التفسير.

والمختار أن «النازعات» وغيرها وما عُطِف عليها من المُقْسَم به في هذه السورة ترجع إلى شيء واحد، ولعلها «الملائكة»، كما هو قول ابن عباس وابن مسعود وجماعة من السلف وأئمة التفسير[1].

أقسم الله تعالى بها على أحوال متعدِّدة، فأول ما أقسم به: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا﴾ أي: الملائكة تنزع أرواح الكفار بقوة وشدة.

وقوله: ﴿غَرْقًا﴾ أي: أنها تستغرق في النزع مثل صاحب القوس، فالملائكة تنزع أرواح الكفار من كل أطرافهم؛ فإن روح الكافر تتفرَّق في جسده، فيجمعها الملائكة وينتزعونها كما يُنتَزَع السَّفُّود من الصوف المبلول، فتُنْزَع من أطرافهم نزعًا شديدًا، ولذلك يُقال لحالة الموت: إنها حالة النـزع، أي: الوقت الذي تُنْزَع فيه روحه من بدنه.

* ﴿وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا﴾ [النازعات:٢].

و«الناشطات» هي الملائكة أيضًا، حينما تنشط أرواح المؤمنين فتقبضها برفق ورحمة ولين، فتسيل روح المؤمن كما تسيل القطرة مِن فم السقاء، وكما قال النبيُّ ﷺ:

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/٥٧)، و«تفسير البغوي» (٥/٢٠٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/٤٣٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/٢٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/١٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/٦١).

«**المؤمنُ يموتُ بعَرَقِ الجبينِ**»[1]؛ لأن الملائكة تنزع روحه برفق وتبشِّره: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

* ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ [النازعات: ٣].

وهي الملائكة تَسْبَح بين السماء والأرض، فتصعد بأرواح المؤمنين أو غيرهم، أو تنزل لقبض مَن حانت منيَّته من العباد، أو تنزل بالوحي، أو تنزل بأمر الله عز وجل.

وقد ذكر الله أن للملائكة أجنحةً، كما في قوله: ﴿أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر:١].

* ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النازعات:٤]:

من هنا اختلف السياق وانتقل من كونه قَسَمًا إلى كونه عطفًا، فـ«السابقات» هنا تابعة للسابحات، وهي الملائكة تَسْبح بين السماء والأرض، والسَّبْح يدل على السرعة، مما ناسب أن يعطف على ذلك السَّبْقِ في قوله: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾، فالملائكة سَبقت بني آدم بالإيمان: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وسَبقت بالوحي إلى الأنبياء، وسَبقت بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

* ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات:٥]:

أجمع المفسرون على أن المقصود بالمدبِّرات هنا: الملائكة؛ فهي تدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض بإذن ربها؛ فمنهم مَن يكون مُوكَلًا بالقَطْر، ومنهم مَن يكون مُوكَلًا بالوحي، ومنهم مَن يكون مُوكَلًا بقبض الأرواح، ومنهم مَن يكون مُوكَلًا بالحفظ، ومنهم مَن يكون مُوكَلًا بالأخذ والعقاب.. إلخ.

وفي قوله: ﴿وَالسَّابِحَاتِ﴾.. ﴿فَالسَّابِقَاتِ﴾.. ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ﴾» تسلسل طبيعي

(١) أخرجه الطيالسي (٨٤٦)، وأحمد (٢٢٩٦٤)، والترمذي (٩٨٢)، وابن ماجه (١٤٥٢)، والنسائي (٤/ ٦)، والحاكم (١/ ٣٦١) من حديث بُريدة ﷺ.

في بيان شيء من وظائف الملائكة، فهي تَسْبَح بين السماء والأرض وتسبق؛ لأنها من أمر الله، وتدبِّر ما كُلِّفت به، وهذا أحد أسباب اختيارنا لهذا القول، وهو أن المقصود بالقسم كله الملائكة، للأسباب الآتية:

١- إجماع المفسرين على أن المقصود بقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ الملائكة، فكذلك ما قبله؛ لأن حمل قسم على معنى وحمل الآخر على معنى مختلف، لا يخلو من بُعد وتكلُّف.

٢- أن السورة كلها تتعلق بالدار الآخرة والبعث والجزاء والنشور، وأول مراحل الدار الآخرة هو الموت، فكان مناسبًا أن يكون القسم مبدوءًا بـ«النازعات» ثم «الناشطات» إشارة إلى بداية مرحلة الدار الآخرة، وإنما فَصَل الله تعالى في أول السورة بين «النازعات» و«الناشطات» للفرق بين حالة قبض أرواح المؤمنين وحالة قبض أرواح الكافرين، وأنهما مختلفتان لا تستويان، وكأن في ذلك إشارة إلى أنه من بداية انتقالهم من الدار الدنيا إلى الدار الأخرى يبدأ الفرق يتضح ويظهر جليًّا، فهؤلاء تُنْزَع أرواحُهم بقوة وشدة، وأولئك تُنْزَع أرواحهم برفق ولين، وتُنشط نشطًا.

* ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات:٦-٧]:

وهنا لا نجد جواب القَسَم في السياق، ولا في اللفظ، لكنه موجود في المعنى، وهو يتعلق بالراجفة والرادفة والبعث، فيكون معنى القسم: لتُبْعَثُنَّ أيها الناس، إذ البعث واقع لا محالة.

وهذا القسم فيه قوة؛ لأن الله سبحانه وتعالى إذا أقسم بشيء فهذا دليل على أنه شيء عظيم، ينبغي أن تلتفت إليه الأنظار، وعندما يكون القسم بأشياء جديدة يسمعها لأول وهلةٍ، فإن هذا يهزُّ الإنسان هزًّا، خاصة إن كان ممن لديهم ذائقة عربية صافية، فيلتفت لهذا القسم ويصغي، باحثًا عن الموضوع، لكنه يفاجأ بأن السياق تجاوز موضوع المقسم عليه، وترك التصريح بجواب القسم، وانتقل بالإضراب إلى

موضوع آخر، فقال: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾، فهذا يُحدِث في القلب تطلُّعًا إلى البحث، ويأتي الجواب أن المُقْسَم به محذوف معروف، وتقديره هو البعث وعودة الأرواح إلى أجسادها، كما دلت عليه الأقسام ذاتها.

وهذا يدل على عظمة موضوع البعث، وأنه من أركان الإيمان، وهو الفارق بين الإيمان والكفر، فإن الإنسان إذا آمن بالبعث اعتدل الميزان عنده، وسعى لإصلاح آخرته، كما يسعى لإصلاح دنياه.

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾: الراجفة هي النفخة الأولى، وهي الظرف الذي يقع فيه البعث، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ [المزمل:١٤]، فهي صوت مُزَلزِل مُجلجِل قوي، الله تعالى أعلم بكُنْهِه، من أثره تحصل زلزلة الأرض، وموت الكائنات، وتغيُّر نظام الحياة المألوف.

﴿ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴾، وهي صيحة أخرى بينهما ما شاء الله تعالى من السنين، والرادفة فيها إحياء الناس بعد موتهم، وإعادة الأرواح إلى الأجساد، وقيام الناس لرب العالمين.

* وهذه الحقيقة جديرة أن تغيِّر من حياة المرء الذي يؤمن بها، وتضيف بعدًا جديدًا لحساباته ومقاييسه، وتؤثِّر في مواقفه وخياراته، ولهذا قال سبحانه هنا: ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [النازعات:٨] أي: يوم البعث، وجاءت القلوب هنا مُنكَّرة ﴿ قُلُوبٌ ﴾؛ إشارة إلى عدم الاستغراق، أي: ليست كل القلوب كذلك، وإنما ثمة قلوب واجفة وهي قلوب الكافرين.

والتعبير بالجمع يدل على كثرة هذه القلوب، وأنها ليست قليلة.

﴿ وَاجِفَةٌ ﴾ أي: خائفة قلقة، كما وصفها بقوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر:١٨].

* ﴿ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴾ [النازعات:٩]:

لم يقل: (أبصارهم)، وإنما قال: ﴿ أَبْصَـٰرُهَا ﴾، أي: أبصار تلك القلوب، وهذا فيه معنى لطيف، وهو: أن السمع والجوارح مرتبطة بالقلب، فبمجرد ما ترى الإنسان تعرف غالبًا كثيرًا مما يخفي قلبه، كما يقول الشاعر:

والعينُ تعرفُ من عَيْنَيْ محدِّثِها إن كان من حزبِها أو مِن أعاديها(١)

وكما تقول لإنسان: إني أقرأ في عينيك أنك خائف أو متردِّد، وكثيرًا ما يمكن معرفة الصفات الأساسية عبر قراءة الملامح الأولى للإنسان، حين نشاهده لأول وهلة.

ومشهد الأبصار الخاشعة مناسب لمشهد القلوب الواجفة، فما دامت هذه القلوب واجفة قلقة خائفة مرعوبة، فإن هذا يظهر في الأبصار جليًّا، وثَمَّ فرق بين إنسان ثابت البصر قويه، وآخر زائغ العين، قلق لا يستقرُّ على حال، كما قال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الشورى: ٤٥].

والتعبير بلفظ: ﴿ خَـٰشِعَةٌ ﴾ له معنى خاص، فلم يقل: (ذليلة)، وإن كان المعنى مقاربًا، لكنه عبَّر بـ ﴿ خَـٰشِعَةٌ ﴾؛ لأن هؤلاء كانوا في الدنيا يُطْلَب منهم الخشوع لله، فيُعْرِضون ويستكبرون: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات:٣٥]، وربما كان لهم صولجان وسلطان وبأس وقوة، وكانت تخشع منهم النفوس وتخشاهم، فيوم القيامة يصوِّرهم الله تعالى بهذا المشهد المَهِين، وهو أن قلوبهم واجفة، وأبصارهم خاشعة منكسرة، نقيض ما كانوا يظهرون عليه من القوة والبطش في الدنيا، وفي حال مثل التي كانوا يذيقونها الناس من التخويف والإرعاب!

* ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴾ [النازعات:١٠]:

وهذا المقال يقولونه والله أعلم في الدنيا.

---

(١) ينظر: «غرر الخصائص الواضحة» (ص ٥٨)، و«فاكهة الخلفاء» (ص٢٦١).

فبعد أن صوَّر لنا الله هذه اللمحة السريعة والصورة العابرة عنهم وهم في موقف القيامة، أراد أن يقارن ذلك بما كانوا عليه في الدنيا، حينما كانوا ينكرون ويجحدون.

والتعبير بالفعل المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ يدل على التكرار، فهم كثيرًا ما يجادلون في شأن البعث والنشور، فكلما دُعوا إلى التوحيد والإيمان بالبعث استكبروا، وقالوا: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي: هل سوف نُردُّ إلى الحافرة؟

و﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾: إما الحياة الدنيا، كما تقول العرب: رجع فلان إلى حافرته. يعني: إلى ما كان عليه في حالته الأولى. فلو أن إنسانًا كان على فساد، ثم صلح، ثم رجع إلى ما كان عليه، فإنك تقول: (فلان رجع إلى حافرته)، أي: إلى حالته الأولى.

أو هي الأرض، تُسمَّى الحافرة؛ لأنها تُحفَر بأقدام الخلق في مشيهم وركضهم وسعيهم، وفي ذلك إشارة إلى العمل والدأب في الدنيا، فهم يقولون: هل سوف نعاد إلى الأرض مرة أخرى[1]؟

* ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات:١١]:

هذا يؤكِّد أن مساق كلامهم في الدنيا؛ لأنهم لو كانوا في الآخرة لما قالوا ذلك؛ لأنهم قد كانوا عظامًا نخرة ثم بُعِثوا، ولذلك يقولون: ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ أي: في المستقبل بعد الموت، وهم يؤمنون بالموت، إذا لا أحد إلا وهو يؤمن بالموت، أي: إذا بَلِيَت أجسادُهم، ولم يبقَ إلا العظام المتآكلة، وحتى العظام تَبْلَى، ولكنهم يتحدَّثون عما يشاهدون من آثار الموتى، فهم بقولهم هذا مستبعدين البعث، وينسون أن الروح مما لم يشهدوا ولم يقفوا له على فناء!

فإذا بلي الجسد بقيت الروح ثم تعود مرة أخرى في الدار الآخرة بإذن ربها.

---

(١) ينظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» (١/ ٣٦٠)، و«أساس البلاغة» (١/ ١٩٩)، و«الجمهرة» (١/ ٥٩٣)، و«تاج العروس» (ح ف ر) (١١/ ٦٤، ٦٨، ٦٩).

* ﴿ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ [النازعات:١٢]:

ظاهر هذا القول الاستهزاء والسخرية.

وهنا نلاحظ أنه تعالى عبَّر في هذه الآية بـ﴿ قَالُواْ ﴾، ولم يعبِّر بـ (يقولون)؛ لأن قولهم هذا ليس من الحجج التي يكرِّرونها، ولكنها نتيجة حجتهم التي كانوا ينازعون بها، فناسب أن يورده بالفعل الماضي.

* ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [النازعات:١٣]:

فيه إشارة إلى أن الأمر يسير، ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات:١٤]، أي: لا يحتاج الأمر إلى معالجة وجهد؛ لأن أمره: ﴿ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة:١١٧]، فإعادة خلقهم في الآخرة لا يحتاج إلى ما كانت عليه نشأتهم أول مرة بأن يكون أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة، ويظلَّ تسعة أشهر في بطن أمه، ثم يولد... إلخ، بل الأمر: ﴿ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾، أي: على ظهر الأرض أحياءً بعدما كانوا في بطنها أمواتًا.

* ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات:١٤]:

و«الساهرة» على قول الجمهور: الأرض. وبعضهم يقول: هي أرض الشام. والصواب أنها الأرض كلها[1].

واختيرت هذه المفردة دون غيرها، إشارة إلى أن الأرض التي سيُبْعَثون عليها غير أرض الدنيا، في تضاريسها وطبيعتها، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَٰوَاتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨]، فمعنى كونها «ساهرة» أي: ممتدة ليس فيها جبال ولا مرتفعات ولا منخفضات، كما قال تعالى: ﴿ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٢٦)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٤)، و«روح البيان» (١٥/ ٣٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٧٣).

قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه:١٠٥-١٠٧]، أي: يمشي فيها السَّراب، فيرى الناس الأرض كالسَّراب؛ لامتدادها واتساعها.

* ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ [النازعات:١٥]:

هذا خطاب للنبي ﷺ، وقد أتاه هذا الحديث مرارًا، وقصة موسى عليه السلام هي أكثر قصص القرآن، حتى قال بعض المفسرين(١): كاد القرآن أن يكون كله حديثًا عن بني إسرائيل؛ لشدة الشبه بين دعوة موسى عليه السلام ودعوة سيدنا محمد ﷺ، وللمعركة التي علم الله أنها سوف تكون في آخر الزمن بين الأمة المسلمة وبين الصهاينة ومن وراءهم.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ ﴾ معناها: «قد أتاك»، فهو سؤال للتقرير، فيه تذكير بالقصة، وقد سمَّاه الله تعالى حديثًا، إشارة إلى أنه خبر حقيقي، واختار الله تعالى قصة موسى عليه السلام لأمرين:

١- تسليةً للنبي ﷺ؛ لأنه كان يعايش أهل الكفر في مكة، فهي دعوة لاقتباس العبرة والدرس.

٢- تلويح وتلميح للمشركين بمكة أن سيصيبهم مثل ما أصاب الذين من قبلهم إن لم يعتبروا.

* ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات: ١٦]:

ذُكِرَت قصة موسى عليه السلام مختصرة في هذه السورة، والاختصار يتطلَّب ذِكْرَ الأمر المهمِّ في السياق، وهذا من أسرار التكرار في القرآن، فإن القصة تُكَرَّر، وفي كل موضع يُذْكَر ما يناسب السياق، فهنا الله تعالى لم يذكر أول قصة موسى، وإنما

---

(١) ينظر: «تفسير ابن عرفة» (١/ ٣١٣)، و«في ظلال القرآن» (١/ ٦٦، ٢٦١)، (٣/ ١٣٢٨)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٠/ ١١٢).

بدأ من وقت نداء الله لموسى عليه السلام فقال: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾، والله تعالى نادى موسى، وسمع موسى نداء ربه، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:١٢]، وقال: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٤-١٦].

ولك أن تتصور إنسانًا من خلق الله يتيه في الصحراء، ثم يجد النار، فيذهب إليها كي يظفر منها بقبس يهتدي به في الطريق هو وزوجه، فيفاجأ أن الله تعالى يمنحه قبسًا يهديه، ويهدي به مَن شاء من عباده إلى خيري الدنيا والآخرة، ثم يخاطبه ربه جلَّ وعزَّ مباشرة.

كما وقع التكليم مرة أخرى، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، ولتكرار التكليم لموسى سُمِّي بـ «الكليم».

و﴿طُوًى﴾: اسم الوادي على القول الصحيح، وقيل غير ذلك(١).

وقد وصفه الله عز وجل بأنه «مقدَّس»، أي: مطهَّر، ولذلك اختاره محلًّا للنداء.

وهذا الوادي يوجد في سَيْناء، قريبًا من مصر، أي: بين مصر وفلسطين.

وهو بقرب جبل الطُّور.

* ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [النازعات:١٧].

«فرعون» واحد الفراعنة، وهي أمة حكمت مصر أزمنة متطاولة، ويقال: إن

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٦٧)، (٣/ ٣٨٨)، و«تفسير الطبري» (١٦/ ٢٨)، (٢٤/ ٧٩)، و«تفسير الرازي» (٢٢/ ١٩)، (٣١/ ٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ١٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٧٥).

«إخناتون» هو أول مَن تَسمَّى بفرعون، والملك الذي خاطبه موسى ودعاه يُسمَّى فرعون أيضًا.

وفي القرآن ما يدل على أن الفراعنة ليسوا وحدهم الذين حكموا مصر قديمًا، كما في قصة يوسف ﷺ، حيث سمَّى الله تعالى حاكم مصر بـ «الملك»، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف:٥٤]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف:٧٦]، فكان يُسمَّى بـ «الملك»، ولم يكن يُسمَّى بـ «الفرعون».

واختلف المؤرِّخون وعلماء الآثار في تحديد اسم «فرعون» الذي أُرْسِل له موسى ﷺ، والكثيرون منهم يقولون: إنه يُسمَّى: «رمسيس الثاني».

وموريس بوكاي في كتابه: «القرآن والتوراة والإنجيل في العلم الحديث»، رجَّح أن فرعون المرسَل إليه موسى هو «ابن رمسيس الثاني»، والمشهور: أنه «ابن رمسيس الثاني»[(١)].

ويقال: إن جثة فرعون الذي أُرسل إليه موسى ﷺ هي الموجودة اليوم في المتحف المصري في القاهرة، وهي محنَّطة بطريقة تحفظ الجثة تمامًا، حتى إنك ترى الأظفار والشعر، وترى الجسد كله كاملًا غير منقوص، ويقول بعضهم: إن هذه الجثة فيها كسور في العظام من غير أن يكون فيها جروح في الجلد، مما يدل على أن الكسر كان بسبب ضغط الماء، وقد ذكر الله سبحانه في ذلك آية معجزة، فقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس:٩٢]، فبعدما أغرقه البحر، وأماته الله تعالى، قذفه البحر إلى الشاطئ، فأخذه أتباعه من بعده وحنَّطوه، وبقي بأمر الله؛ ليكون لمَن خلفه آية.

---

(١) ينظر: «قصة الحضارة» (٢/ ١٨١)، و«أوضح التفاسير» (ص٤٦٨)، و«التفسير الوسيط» (٥/ ٣٤٢)، (٧/ ٢٦٧)، (١٠/ ٣٧٤)، (١٢/ ٢٧٨).

وكلمة «فرعون» هي كلمة مركَّبة من لفظين: الأول هو: «فر»، ومعناه: القصر أو المبنى الفخم. والثاني: «عون»، ومعناه: العظيم، فيكون معنى «فرعون»: عظيم القصر، وهو مكان سكن فرعون.

وقد وصف الله تعالى فرعون في هذه الآية بالطغيان، والطغيان هو مجاوزة الحد بأمرين:

١- عصيان الله عز وجل؛ لأن الطغيان تمرُّد على الله تعالى وكفرٌ به، ويكفي من كفره ادعاء الألوهية.

٢- استعباد الناس.

والطغيان تمرُّد على الله وظلم لعباد الله.

* ومع أن فرعون قد طغى، إلا أن الله علَّم موسى عليه السلام الأدب في الدعوة، فقال له: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات:١٨].

وجملة: ﴿ هَل لَّكَ ﴾ أسلوب من أساليب التلطُّف والتأدُّب.

﴿ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ إشارة إلى أن هذا أمر يخصُّك أنت وحدك، والله تعالى قال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٤]، ولكن في هذه الآية تحديدًا ذكر تعالى أنه رتَّب لموسى هذا القول اللين، فأمره أن يقول لفرعون: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾، يعني: أن تكون زاكيًا طاهرًا، فعرض عليه الأمر الأول الذي هو في مصلحته، وفيه زكاة قلبه وطهارته بالمعاني الفاضلة، وفي عقله وفي ضميره، وفي وجدانه وحياته.

* ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات:١٩]:

ولم يذكر اسم الله تعالى هنا، وإنما قال: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾، يعني: إلى خالقك وموجدك؛ لأن الفطرة تهدي إلى الله، وتدلُّ على الخالق الموجِد المبدِع سبحانه؛ ولأن الفراعنة

كانوا يعتقدون أنهم من نسل الآلهة.

وهكذا كان فرعون هذا يزعم أنه ابن للإله، ولهذا خاطبه موسى عليه الصلاة والسلام بهذا الخطاب فقال: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ يعني: الذي خلقك ورزقك وسواك وعدلك.

وقول موسى: ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ نقض لمفهوم الربوبية المزيف الذي كان ينتحله الفرعون وحاشيته، وتأسيس لمفهوم جديد يقوم على التوحيد والعبودية والفصل الحاسم بين الخالق المعبود وبين المخلوق الخاشع المتذلِّل.

وقوله: ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ دليل على أن العلم الحقيقي ثمرته الخشية، ولا خير في علم لا يورث الخشية.

* وطَوَى الله تعالى كثيرًا من القصة، فقال: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات:٢٠]، أي: العصا أو اليد التي فيها العبرة، وقصتها معلومة وردت مفصَّلة في مواضع من القرآن.

* ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ [النازعات:٢١]:

فيه إشارة إلى سرعة التكذيب، وفيه دلالة على مبلغ الكِبْر في نفس فرعون، مع أنه مستيقن بصدق موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] والطغيان يفضي بصاحبه إلى رد الحق والاستكبار عنه.

﴿وَعَصَىٰ﴾ العصيان: نتيجة طبيعية مرتَّقبة للتكذيب برسالات الله.

* ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ [النازعات:٢٢-٢٣]:

التعبير بـ: ﴿يَسْعَىٰ﴾ إشارة إلى بذل غاية الوسع في التخطيط والكيد وللقضاء على هذه الدعوة التي تهدِّد سلطانه وملكه، وإلى الاستعجال والسرعة نتيجة الشعور بالخطر، ولهذا قال: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾، يعني: حشر السَّحَرة، كما قال تعالى في الآية

الأخرى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾[الأعراف:١١١]، فحشرهم من كل الأنحاء في اجتماع عامٍّ، وجمع الناس وناداهم وصاح فيهم بدعوى الإلهية.

* ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]:

وقد ذكر بعض المفسرين أن معنى هذا القول على خلاف ظاهره، أي: أنه كان يقول: أنا سيدكم.. أنا حاكمكم.. أنا الذي تجب عليكم طاعتي، وقد أشار الرازي إلى شيء من هذا المعنى[1].

والأرجح -والله أعلم- أن قوله: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ على ظاهره، ولا يعني بالضرورة ادعاء أنه مبدع الكون وخالقه، لكن كان يعتقد أن له نسبًا إلى الآلهة.

ومثل هذا الاعتقاد كان منتشِرًا في الأمم الوثنية، كاليونان والرومان وغيرهم؛ ولهذا لما اعتنق قسطنطين النصرانية حرَّفها وخلط فيها بين الألوهية وبين البشرية، فاعتقدوا أن في بعض البشر شيئًا من خصائص الألوهية.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إن فرعون كان منذ أربعين سنة يقول لهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:٣٨]»[2].

ولكي يظهر للناس صدقه، فإنه خاطب هامان بقوله: ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص:٣٨].

والتعبير بالظن كان كلامًا خاصًّا، وإلا فهو يعلن للناس بتصريح مشبع باليقين: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص:٣٨]، لكنه قال في الأخير بعد أن استتبَّ له الأمر: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾، وهذه أشنع كلمة قالها.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (١٤/ ٣٤١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٣٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٥).

وعند نشوة الطغيان والتكبر كان أمره أقرب ما يكون إلى الزوال، وهذه سنة الله تعالى في الظالمين.

* ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٥]:

الفاء تدل على التعقيب، وقوله: ﴿نَكَالَ﴾ أي: عقابًا مُنَـكِّلًا يعتبر به المعتبرون، و﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ هي: الدار الآخرة، وإنما قدَّمها؛ لأن عقابها أطول وأشد، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، ﴿وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ هي: الدنيا؛ لأن عقابها مهما طال فهو يسير، ففرعون غرق في الماء، وكان هذا عقابه وعقاب مَن معه، وهذا اختيار ابن كثير وجماعة[١].

أما الطبري رَحِمَهُ اللهُ فيرى أن المقصود بـ ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ هي الكلمة الآخرة، وهي قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ﴿وَٱلْأُولَىٰٓ﴾: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، وهذا له وجه، وأولى منه ما قاله مجاهد: إن المقصود بقوله: ﴿ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: أخذه الله عقوبة الأول والآخر من أعماله[٢].

وهذا معروف في أساليب العرب، فيقولون على سبيل التهديد والوعيد: يا فلان، إذا عاقبتك فسوف أعاقبك عقوبة الآخرة والأولى من أعمالك، يعني: على كل عمل عملته وأسلفته من الأخطاء والذنوب.

* ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٦]:

أي: في نهاية حال فرعون عبرة لقريش إن كانوا يعتبرون ويخشون مثل هذا المصير أن يحلَّ بهم، ففرعون كان أقوى منهم، وهم يعلمون مصيره، وقد كان في قريش مَن سُمِّي بفرعون هذه الأمة، فكان من وعيد الله وتهديده إياه أن قال في شأنه: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ [العلق:١٥].

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٣٣).

وهذه بعض العبر التي تضمَّنتها القصة:

١- في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾، إشارة إلى أهمية الاعتبار بالحوادث، وأن يعتبر الإنسان بتاريخ الأمم السابقة؛ فإن التاريخ يعيد نفسه، والحاضر هو نمط الماضي، والمستقبل هو نمط من الحاضر، والتاريخ يخلو غالبًا من القفزات والمفاجآت، فهو يمضي وفق سُنَّة وناموس، فمَن عرف هذا الناموس من خلال استقراء أحداث الماضي استطاع أن يوظِّفه بإصلاح الحاضر وبناء المستقبل.

ولهذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:٤٤]، وقال سبحانه: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر:٢]، فأثنى الله تعالى على مَن يعتبرون ويفيدون من مثل هذه العبر والآيات، وكما قال الشاعر:

فمَن وعَى التاريخَ في صَدْرِه أضـافَ أعمـارًا إلى عُمْـرِه

وقال آخر:

اقرؤوا التاريخَ إذ فيهِ العِبَـرْ ضلَّ قومٌ ليس يدرونَ الخبر

وما أكثر الذين يقرؤون كتب التاريخ قراءة التسلية وحب الاطلاع، دون قراءة الاعتبار والاتعاظ الكاشفة للنواميس والسنن الإلهية، أو أن يقيسوا أنفسهم عليها، كأفراد أو جماعات أو دول.

٢- يقول تعالى عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦]، ومع ذلك خاطب موسى وهارون في دعوتهما له، فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

وفي هذا السياق قصة شهيرة، وهي أن واعظًا جاء إلى أحد الخلفاء، فقال له: إني ناصحك، فمُشدِّد عليك في النصح. فقال له: رويدك؛ لستَ بخير من موسى، ولستُ بشرٍّ من فرعون، وقد بعثه الله إليه وأمره بالرفق، فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾.

ومن الحقائق المؤسفة أن في خطاباتنا الدعوية شيئًا من القسوة والتعنيف، وثَمَّ خلط بين مفهوم القوة ومفهوم القسوة، فبعض الدعاة يأخذون بصور من القسوة، ويرون أنها من صور القوة في الحق، كالصلف والاندفاع، والتهجم على المخالف أو التسرع في تصنيفه والحكم عليه، وهذا ليس من القوة في شيء، كما أن الهدوء واللين ليس ضعفًا، و«**الشَّديد الذي يملك نفسه عند الغضب**».

فالهدوء في لغة الخطاب، وفي التدرج، وفي البحث عن الأساليب التي تكون مدعاة للقبول أمر مطلوب، وهو من أسباب الاستجابة، كما يقول سليمان التَّيْمِيُّ: «ما أغضبتَ أحدًا فقَبِلَ منك»[1].

ويقول تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهكذا ينبغي للداعية أن يستخدم اللين في دعوته.. الابتسامة.. الكلمة الطيبة.. تحمُّل ما يصدر من الناس من الانفعال أو ردود الأفعال.. والتدرج بحيث يهيئ نفسه أن هذا الذي يستمع لنصحه لا يحتمل الاستجابة جملة واحدة، فيحتاج الأمر إلى التدرُّج والترقِّي، دون مساسٍ بكرامته، أو تبكيت أو تقريع، بل تحفيز المرء على قبول النصح مع الحفاظ على إنسانيَّته وكرامته ومكانته.

وقد كان أبو سفيان ﷺ رجلًا حديث عهد بإسلام، ومع ذلك فإن النبي ﷺ من باب الحفاظ على شخصيته، وأن يشعر أن الدين لم يرزأه شيئًا[2] قال يوم الفتح: «**مَن دخلَ دارَ أبي سفيانَ فهو آمنٌ**»[3]. مع أن الناس ليسوا بحاجة إلى الخروج لدار أبي سفيان؛ لأن مَن دخل داره فهو آمن، لكن من باب تشجيعه على تغيير موقفه التاريخي

---

(١) ينظر: «التبصرة» لابن الجوزي (٢/ ٣٠٥).

(٢) أي: لم ينقصه شيئًا.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الرافض للإسلام.

فإياك إياك أيها الداعية أن تظن أن دعوة الإنسان تستوجب إذلاله وتحقيره وتجريده من كرامته ومكانته، ولا بد من بيان أن حقيقة التوبة والإنابة إلى الله لا تستدعي أن يفضح الإنسان نفسه أمام الخلائق، ولا أن يفتح لهم صفحات الماضي؛ ليظهر لهم توبته من كل خطيئة، بل يكفيه أن يجعل الأمر بينه وبين ربه.

يقول الشاعر:

ولو أنَّ فرعونَ لما طغى ... وقال على الله إفكًا وزورا

أنابَ إلى الله مستغفـرًا ... لما وجـدَ اللهَ إلا غـفــورا[1]

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٦٤]، فرحمة الله تعالى واسعة، والداعي يُعتَبر دليلًا أو دلاَّلًا يدلُّ الناس على الطريق، وليس مُقَنِّطًا من رحمة الله، أو مُنَفِّرًا عن الصراط المستقيم.

٣- قضية الطغيان: قد أشار الغزالي وابن القيم وغيرهما إلى أن النفس البشرية غالبًا ما تتشرَّب من منـزع الفرعونية إن لم يعالجها صاحبها[2].

بل أقول -عن مشاهدة ومراقبة للنفس-: إن مداخل التفرعن والأنانية والطغيان عند الإنسان تحتاج إلى تتبعها بالمناقيش، ولو أن الإنسان جاهد نفسه زمنًا طويلًا ثم غفل عنها قليلًا، لوجد في نفسه ركامًا من معاني التعاظم والطغيان، ولو كانت متسترِّة، وبعضها يتضخم تحت ستار التدين والزهد والاحتساب.

---

(١) ينظر: «المنتخب من معجم شيوخ السمعاني» (ص ٨٨١) منسوبًا إلى أبي بكر محمد بن يحيى الصولي.

(٢) ينظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٧٠)، و«الفوائد» لابن القيم (ص ٧٤)، و«مدارج السالكين» (١/ ٢٢٤).

وكثير من ألوان الطغيان وإن كانت خفيفة، إلا أنها لطيفة المدخل، وتتسلَّل إلى النفوس كما يتسلَّل الهواء، وكما يتسلَّل النوم إلى عين المُجْهَد، حتى تتمكَّن من القلب، فيصبح الإنسان مُعْجَبًا بنفسه متكبِّرًا متعاظِمًا، فمرة يتعاظم بعلمه، كما قال تعالى: ﴿ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [غافر:٨٣]، ومرة يتعاظم بماله، كما قال تعالى عن قارون: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص:٧٨]، ومرة أخرى بجاهه ومنصبه أو بنسبه أو بجماله أو بمنطقه، أو بشخصيته أو بصلاحه.

وكثرة مسارب العجب[1] والغرور والكِبْر إلى النفس تتطلَّب من صاحبها مراجعة دقيقة ومعالجة دائمة لنفسه.

٤- في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات:٢٦]. إشارة إلى سُنَّة الله سبحانه وتعالى في الطغاة، فإن الله تعالى جعل من حكمته الصراع في أهل الدنيا، وأن هؤلاء الطغاة -من أمثال فرعون- هم العائق الأكبر في وجه الأنبياء والمصلحين، ومن الملاحَظ أن موسى عليه السلام لم يُبعَث إلى فرعون وهامان وقارون فحسب، بل بُعِث إلى بني إسرائيل كذلك، وإنما خصَّهم الله تعالى بذكر، كما في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ ﴾ [غافر:٢٣-٢٤]؛ لأن هؤلاء الطغاة صادروا حقوق الناس، وصادروا الأرض فجعلوها ملكهم، وصادروا المال فحازوه لهم، وصادروا حرية البشر فجعلوهم عبيدًا لهم، بل صادروا حتى عقولهم.

والمتأمِّل في حياتنا اليومية يلاحظ نوعًا من المصادرة، ويجده كثيرًا في وسائل الإعلام، فكثير منها تُمارِس وصاية ومصادرة لعقول الناس، بل وتستخفُّ وتستهين بها، وإن كانوا يتظاهرون أن عندهم قَدْرًا من الواقعية والموضوعية والحياد، ولهذا جعل الله تعالى الحكمة في مقارعة هذا الطغيان ومقاومته سرًّا في ابتلاء المؤمنين.

---

(١) المراد: مداخله.

٥- أهلك الله تعالى فرعون بالغرق، ولكن ظلَّ الحكم في مصر للفراعنة من بعده، وامتد الحكم الفرعوني لمصر طويلًا، حتى قيل: إنه قد تعاقب على الحكم عشرون أسرة من الأسر الفرعونية.

وفي هذا حكمة ربانية؛ فهؤلاء الناس على رغم ما هم فيه من الطغيان والظلم، إلا أن الله أذن لهم بالبقاء والاستمرار بعد هلاك فرعون؛ لأن الحكمة الإلهية والناموس الكوني يقتضي ذلك، وسنة الله لا تحابي أحدًا، ولا تسير وفق هوى الناس، وإنما هي حكم ونواميس يجب أن يفقهها الإنسان ويفهمها.

ولا شك -مع ذلك- أن هلاك فرعون، ونجاة بني إسرائيل من بطشه مدعاة للسرور والفرح، ولذا لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء، فقال لهم: «ما هذا اليومُ الذي تصومونه؟». فقالوا: هذا يومٌ عظيمٌ أنجى اللهُ فيه موسى وقومَه، وغرَّق فيه فرعونَ وملأَه، فصامه موسى شكرًا، فنحن نصومه. فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحقُّ وأولى بموسى منكم». فصامه رسول الله ﷺ، وأمر بصيامه[1]، فنحن نصومه لله تعالى شكرًا.

فمِن حقِّنا أن نفرح بهلاك الطاغية، ولو كان هذا شيئًا جزئيًّا.

وبعض الناس محرومون من هذه المشاعر؛ لأنهم لا يعبؤون بالمكاسب الجزئية، ونحن نقول: أعطِ نفسَك فرصةً أن تفرح بما تحقَّق من الخير، واندفع من الشر، وأحسِن الظن، أما أن يظلَّ الإنسان لا يفرح إلا بتحقُّق الخير من جميع الوجوه، وزوال الشر من جميع الوجوه، ففي هذا شيء من الخيالات البعيدة التي لا يسندها الواقع.

* ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧]:

وعَطْفُ هذه الآية على ما سبق فيه مناسبة ظاهرة، وهي أن فرعون لما تعاظم

(١) أخرجه البخاري (٣٩٤٣)، ومسلم (١١٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

في نفسه، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] جاءت هذه الآية مبيِّنة لجانب من جوانب عجز الإنسان مهما طغى وتجبَّر.

وجواب هذا السؤال معروف، فمَن ذا الذي يستطيع أن يقرن نفسه بخلق السماوات والأرض؟!

فلو ذهبت إلى آثار الأمم الماضية من الفراعنة واليونان والرومان والإغريقيين والآشوريين وغيرهم، لوجدت من آثارهم شيئًا مدهشًا وعظيمًا، لكن ما نسبة هذا الذي رأيت من حيث عظمته وقوته إلى ما تشاهده في ملكوت السموات والأرض؟! وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾، أي: أقوَّتُكم أشدُّ وأجسامكم أمتن وأقوى أم السماء؟

و«السماء» تُطلَق على كل ما علا وارتفع[1]، وقد يكون المقصود: هذه القبة التي فوقنا، فيكون في هذا إشارة إلى مجرَّاتها ونجومها وأقمارها وشموسها وأفلاكها الضخمة الهائلة.

والإنسان عاجز عن أن يحيط بأبعادها ونجومها ومجرَّاتها، فضلًا على أن يقيس نفسه بها، ولهذا قال: ﴿بَنَىٰهَا﴾، أي: أن هذا الوصف للسماء إشارة إلى قوتها وإحكامها، فإذا كان هؤلاء البشر يبنون هياكل ومعابد، وقبورًا وأهرامات، فالله تعالى قد بنى هذه السماء العظيمة.

* ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات:٢٨]:

و«السَّمْك»: السقف، فالله تعالى رفع سقف السماء، وسوَّاها، أي: جعلها مستوية ليس فيها شقوق، كما قال سبحانه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣].

يقول ابن تيمية رحمه الله: «إن في هذا دليلًا على كروية الأرض والسماء؛ لأن عدم

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (س م و) (١/ ٢٩٠)، و«تاج العروس» (س م و) (٣٨/ ٣٠١).

التفاوت والتسوية إنما يكون في الجرم المدوَّر الذي يستوي، بخلاف ما إذا كان مربَّعًا أو مستطيلًا أو مسطَّحًا أو ما أشبه ذلك، فإنه لا يُوصَف بأنه مستوٍ؛ لأن فيه أشياء تختلف عن غيرها، وفيه زوايا وأطراف وغير ذلك»[1].

* ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات:٢٩]:

قوله: ﴿ وَأَغْطَشَ ﴾ أي: أظلمه، فجعله شديد الظلمة، والليل هنا هو الليل الذي يراه الناس على الأرض، ولكن مصدر الظلمة والنور الشمس التي هي في السماء، ولذا قال الله تعالى: ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾، والضحى هو نور طارئ؛ بسبب الشمس، والظلمة سببها غياب الشمس، أي: عدم وجود مصدر للنور، ولو لم يوجد مصدر للنور لكان الكون مظلمًا.

* ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النازعات:٣٠]:

أي: بعد خلق السماء، وقد اختلف العلماء في أيِّهما خُلق أولًا؛ السماء أم الأرض، فذهب جمع إلى أن السماء خُلِقت أولًا؛ استدلالًا بهذه الآية، وذهب آخرون -وهو الأرجح- إلى أن الأرض خُلِقت أولًا، ثم خُلِقت السماء، ثم دُحيَت الأرض بعد خلق السماء، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت:٩-١١].

وهذه الآيات تدل على أن الأرض خُلِقَت أولًا في يومين، ثم بارك فيها وقدَّر فيها أقواتها، ثم استوى إلى السماء، وهذا مذهب ابن عباس رضي الله عنهما[2]، مع أن الآيات

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٥٠)، (٦/ ٥٦٥)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ٢٨٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٤٦٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ١٧٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦-٤٧)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٣٨٤).

تحتمل، والسياق لم يأت ليقرِّر مسألة فلكية ويقطع بها، بل ليوجِّه نظر الإنسان للتأمل والاعتبار والتواضع والشكر.

و«الدحو» هو: البسط والتهيئة، أي: جعلها مدحوَّة مهيَّأة مُعَبَّدة مذلَّلة؛ ليعيش الناس عليها، ويمشوا ويركبوا ويبنوا ويزرعوا... فلو أن الأرض كانت صخرية لمات الناس جوعًا وعطشًا، ولو كانت مضطربة تميل؛ لما أمكن للناس أن يبنوا عليها.

وقد جعل الله قشرتها صالحة للسُّكنى، وصالحة للنبات، وأودع في باطنها خيرات مكنوزة من الماء وغيره، وجعلها كرة معلقة في الفضاء، والذي يمسكها هو الله سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النحل:٧٩]، فهو الذي يمسك السماوات والأرض: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر:٤١].

* ومن معاني «الدحو»: أن يُضمن باطن الأرض الخيرات الكثيرة، ولهذا قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٠-٣١]، وغالب ما يحتاجه الإنسان هو: الماء والمرعى -أي: الطعام والشراب-، ولهذا نجد في سياق نعيم أهل الجنة ذِكْر هاتين النعمتين، وما أكثر ما نقرأ في القرآن قوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ففي قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ إشارة إلى نعمة الزرع والرزق، وفي قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إشارة إلى نعمة الماء.

* ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٢]:

وهذا معدود من دحو الأرض وضبطها، أي: أن الله تعالى جعل الجبال لها أوتادًا تثبتها، فالجبل بالنسبة للأرض كالوتد بالنسبة للخيمة، وحتى مع حركة الأرض فهي تجعل حركتها منتظمة غير قلقة، حتى أن الإنسان لا يحس بها.

فكل جبل مغروس متجذر في باطن الأرض؛ ليحفظ توازنها، فلا تميل ولا تضطرب، إضافة إلى كونها مصدرًا من مصادر الرزق، حيث تشتمل على المعادن

وغيرها مما ينتفع الناس به.

* ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [النازعات:٣٣]:

هذه الآية تكررت مرتين، مرة هنا، ومرة في «سورة عبس»، لكن هنا لها سياق، وهناك لها سياق آخر، ففي «سورة عبس» ذكرها الله تعالى بعد آيات في تعداد مفردات من الرزق في قوله: ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٧-٣٢]، بخلاف السياق هنا فلم يكن تعدادًا لمفردات الرزق، وإنما هو لفت الأنظار إلى سنن الله تعالى في الكون والحياة، وكأنه إشارة إلى أن هذه الأرزاق لو لم يكن معها سنن إلهية تحفظها لما انتفع بها الإنسان.

أو أنها هي محصلة سنة إلهية لطيفة كان من جرائها بقاء الرزق وتنوعه وتجدده بقدر حاجة البشر.

* ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [النازعات:٣٤]:

﴿ ٱلطَّآمَّةُ ﴾ هي الشيء العظيم الذي يعمُّ ويغطِّي، وهي شيء مرعب مفزع لا أعظم ولا أهول.

تجد هذا المعنى في إيقاع الكلمة ووزنها، كما هو ظاهر، والمقصود: القيامة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[1].

والتعبير بهذا الوصف أبلغ مما لو قال: (فإذا جاءت القيامة)؛ لأنه جاء بوصف جديد مضافًا إلى الحقيقة نفسها، وهي أن القيامة مرعبة مفزعة.

* ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ [النازعات:٣٥]:

والتذكر يكون بعد انقطاع بذهول أو نسيان أو موت، وهذا التذكر يكون عند رؤية القيامة والبعث، كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٦٢٢)، (١٢/ ٢٠٥)، و«الدر المنثور» (٨/ ٤١٢).

ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [يس:٥٢].

وهناك أمر آخر وهو: أن الإنسان يتذكر ما سعى حين يُعرَض عليه الحساب ويُناقَش؛ فإذا جحد شيئًا شهد عليه سمعه وبصره ويداه ورجلاه بما كان يكسب، ويجدها في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، فيتذكر ما سعى حين شهادة الجوارح عليه، وحين الحساب، وحين يؤتى الكتاب.

وهذا التذكر هو للإنسان مطلقًا، على أن من الناس مَن يتذكر ما يزيد سروره وسعادته؛ لأنه تذكر أشياء محمودة يحبها الله ويرضاها، ومنهم مَن يتذكر ما يؤلمه ويخيفه من الجرائم والجرائر، وقد ذكر النبي ﷺ قصة ذلك الرجل الذي تاب؛ فيقرِّره الله تعالى بذنوبه الصغار، ويترك عنه الكبار، وهو يقرُّ بها، ولا يستطيع أن ينكر منها شيئًا، حتى إذا بشَّره الله بأنه قد أبدلها له حسنات؛ لأنه تاب إلى الله منها، وهو في ذلك الموقف يقول: ربِّ، قد عملتُ أشياء لا أراها هاهنا. ثم ضحك ﷺ حتى بدت نواجذه[1].

* ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ [النازعات:٣٦]:

والمقصود هنا الكافر، كما قال تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفًا ﴾ [الكهف:٥٣]، وكما أن الكفار يرون النار، فإنها هي أيضًا تراهم، قال تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴾ [الفرقان:١٢]، وكذلك المؤمنون يرون النار، لكنها ليست رؤية الفزع والخوف والرعب، وإنما رؤية الطمأنينة في أن الله تعالى نجَّاهم منها، ولم يجعلهم يعملون عمل أهلها.

* ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ [النازعات:٣٧]:

مثل فرعون، كما تقدم: ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [النازعات:١٧]، وفيه تعريض بالطغاة في مكة الذين كانوا يحاربون دعوة النبي ﷺ.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٩٠).

* ﴿ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النازعات:٣٨]:

أي: استحب الحياة الدنيا على الآخرة، وقدم شهواته على مرضاة الله، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، وهذا يُظهر سرَّ الطغيان؛ فإن الإنسان يتعلق بالدنيا وزينتها وزخرفها ومتاعها، ويُؤثِر المشهود على الموعود، ويُؤثِر الفاني على الباقي.

* ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات:٣٩]:

أي: مردُّه ومصيره ومنتهاه إلى النار.

* ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات:٤٠]:

وهي إشارة إلى مشروعية أن يُعبد الله ويُتقرَّب إليه خوفًا من النار، كما يُتقرَّب إليه حبًّا له سبحانه، والإنسان لا يعبد الله بالحب وحده، ولا بالخوف وحده، بل يعبده بالحب والرجاء والخوف، وآيات القرآن تشهد لهذا، وتدل على مشروعية أن يفعل المرء الطاعة، ويحذر المعصية؛ خوفًا من الوعيد، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٤].

وقوله: ﴿ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ إما أن يكون المقصود خاف من ربه سبحانه وتعالى، فاستحضر عظمته ومشاهدته له، فكفَّ عن المعصية، ومَن همَّ بالمعصية، فتركها؛ خوفًا من الله، كتبت له حسنة كاملة، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قالت الملائكةُ: ربِّ، ذاك عبدك يريدُ أن يعملَ سيئةً- وهو أبصرُ به- فقال: ارْقُبُوه، فإن عملها، فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها، فاكتبوها له حسنةً؛ إنما تركها من جَرَّايَ[١]»**[٢].

(١) قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (٢/ ١٤٨): «بالمدِّ- يعني: جرائي- والقصر، لغتان، معناه: من أجلي».

(٢) أخرجه البخاري (٤٢)، ومسلم (١٢٩).

فعلامة الخوف من الله أن يترك العبد المعصية حيث لا يراه إلا الله عز وجل، ولا يجوز أن يكون الله تعالى أهون الناظرين إليك.

وإما أن يكون المقصود من ذلك الخوف من مقام الله تعالى يوم الحساب، فإنك ستُوقَف بين يديه، وسيسألك ويحاسبك، فما هو جوابك؟ وما هو قولك؟ وقوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾، إشارة إلى وجود الهوى في النفس، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن اللهَ كتبَ على ابنِ آدمَ حظَّه مِن الزنا، أدركَ ذلك لا محالةَ، فزنا العينين النظرُ، وزنا اللسانِ المنطقُ، والنفسُ تتمنى وتشتهي، والفرجُ يصدقُ ذلك أو يكذِّبُه**»[1]. وليس النهي في أن يقع الهوى في نفس الإنسان؛ فإن كل إنسان سَوِيٍّ يقع عنده الهوى، ولكن المشروع أن ينهى نفسه عن الهوى، وعن الاسترسال معه، والعمل بمقتضاه.

* وفي ذلك إشارة للفضلاء من أصحاب محمد ﷺ الذين خافوا مقام ربهم، وآثروا ما عنده على شهواتهم وتحمَّلوا الأذى في سبيله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤١]، وشتان ما بين المصيرين؛ فالمؤمنون مصيرهم إلى جنة عرضها السماوات، والأرض خالدين فيها أبدًا، لا يبلى شبابهم، ولا يزول نعيمهم، وأولئك في نار تلظَّى، يتمنى أحدهم راحة يوم فلا يجدها، أو نومًا فلا يجده، أو تخفيفًا فلا يظفر به.

* ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٢]:

بعد ما أُخبروا عن المصيرَيْن إذا بهم يسألون عن الساعة: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي: متى رُسُوُّها؟ و«الرُّسُوُّ» عادة ما يكون للأشياء الكبيرة، مثل قوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٢]، وهكذا السفينة يقال عنها: ترسو، ولا يقال: رسا القارب؛ لصغره.

والمقصود بالسائلين هنا هم كفار مكة، فقد كانوا يسألون عن الساعة ويقولون: متى هي؟ وهو سؤال استعجال وتكذيب وسخرية.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

أما اليهود والنصارى، فقد كانوا يسألون النبي ﷺ عن الساعة، لكن سؤالهم كان سؤال تعجيز.

وكذلك بعض المسلمين كانوا يسألون، ولكن على جهة الاستعداد، فعن أنس ﷺ، أن رجلًا من أهل البادية أتى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله، متى الساعةُ؟ قال: «ما أعددتَ لها؟». قال: حبُّ الله ورسوله، قال: «أنت مع مَن أحببتَ»[1].

أناس يتساءلون اليوم عن وقت قيام الساعة، ويحاولون أن يحدِّدوا موعدها من خلال علم النجوم والسِّحر والكهانة والحسابات الفلكية، أو يحاولون الوصول إلى تحديد نهاية لهذا الكون.

وبعضهم يحاول ذلك باعتماد الرؤى والأحلام والظنون، ووُجِد مَن يحاول ذلك بتأويل النصوص القرآنية.

والقرآن يحسم ذلك كله بما لا مجال معه للتردد أو التأويل.

* ﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴾ [النازعات:٤٣]:

أي: ليس هذا إليك، وليس لك علم به، فلا تلتفت إليهم، ولا تُجِبْهم؛ لأن هذا من علم الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه:١٥].

* ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾ [النازعات:٤٤]:

أي: منتهى علمها، وهذا معنًى واضح ومناسب للسياق، أي: أن الذي يعلم متى تقوم الساعة هو الله وحده.

أو أنَّ أمْرَ الساعة إلى الله، فهو الذي يقيمها، وهو الذي يقدِّرها متى شاء، فهي من أمره ومنه وإليه.

وليست مهمتك أن تخبر الناس متى الساعة، ولا أن تجيب عن سؤالهم عنها، وإنما

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩).

شأنك أن تحدِّثهم عن أشراطها، وتحُثهم على الإيمان بها والاستعداد لها، كما في حديث جبريل ﷺ: «قال: فأخبِرْني عن الساعةِ؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائلِ. قال: فأخبِرْني عن أمارتِها؟...»[1]. يعني: علاماتها الصغرى والوسطى والكبرى.

* ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٥]:

قرأ الجمهور (مُنذِرُ)، وقُرِئت (مُنذِرٌ) بالتنوين[2]، أي: مَن يخشى الساعة فيؤمن بها ويستعد لها، ولا يتخذ الكلام في الساعة لهوًا وعبثًا.

* ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦]:

«العشيَّة»: تُطلَق على ما بين زوال الشمس إلى غروبها، و«الضحى»: من طلوع الشمس إلى وقت الزوال، أي: كأن مقامهم في الدنيا كوقت العَشِيِّ أو الضحى في قصره، وسرعة تقضِّيه.

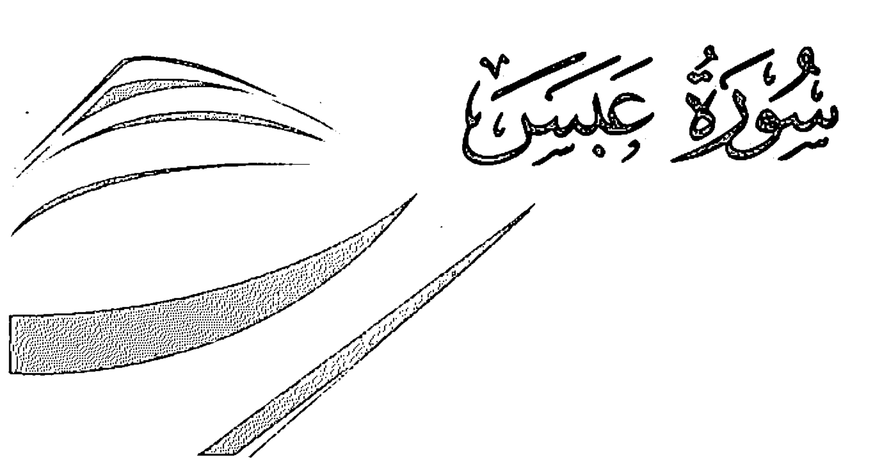
وذكر عنهم في آيات أخرى أنهم يقولون: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون:١١٣]. ومرة: «عشرة أيام». ومرة: «ساعة من نهار». قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وقال: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:١٠٣-١٠٤]. وإنما اختلفت إجاباتهم؛ تبعًا لاختلاف ما لبثوا وعمَّروا في الحياة الدنيا، فمنهم مَن قال: «لبثنا عشرة أيام»، وأعقلهم وأكثرهم خبرة ومعرفة قال: «لبثنا يومًا»، وبعضهم قال: «إنما هو بعض يوم»، وبعضهم قال: «إنما هي عشية أو ضحاها»، أو يكون ذلك لاختلاف تقديراتهم وحساباتهم وظنونهم، والله أعلم.

○ ○ ○

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩، ١٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، ومسلم (٨) من حديث عمر ﷺ.

(٢) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٢٨٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٥).


سُورَةُ عَبَسَ

سورة عبس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ
﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾
وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾
مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ
﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ
﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا
ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾
وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾
وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ
﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ
ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [عبس:١-٤٢].

* تسمية السورة:

١- اسمها الشهير في كتب التفسير والحديث: «سورة ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾»، أو: «سورة ﴿ عَبَسَ ﴾»[١].

ولم يذكرها السيوطي في «الإتقان» ضمن السور التي لها أكثر من اسم[٢].

٢- غير أنك تجد في المصادر أسماء أخرى للسورة مُقْتَبَسة من بعض مدلولاتها ومضامينها، وقد سُمِّيت: «سورة ابن أم مكتوم»؛ بالنظر إلى سبب النزول، وسماها آخرون: «سورة الأعمى»، وسماها بعضهم: «سورة الصاخَّة»، وذكر العيني لها اسم: «سورة السفرة»... إلى غير ذلك من الأسماء[٣].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٠٥)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٥٨٧)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٨٩)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٢٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٠٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥١٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

(٢) ينظر: «الإتقان» (١/ ١٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٨٧)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٦٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤١)، و«عمدة القاري» (١٩/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

* عدد آياتها: أربعون آية، وقيل: إحدى وأربعون، وقيل: اثنتان وأربعون[1].

* وقد نزلت بمكة اتفاقًا، ويظهر أنها من أوائل السور المكية؛ لأن عبد الله ابن أم مكتوم ﷺ من السابقين إلى الإسلام[2].

* سبب نزولها:

أما سبب نزول هذه السورة، فهو أن النبي ﷺ كان مشغولًا بدعوة الأكابر من قريش، كعتبة وشيبة ابني ربيعة، فجاءه ابن أم مكتوم، وهو أعمى، فكان ينادي النبي ﷺ ويقول: يا رسول الله، علِّمني مما علمك الله. فكأن النبي ﷺ وجد في نفسه عليه، فعبس وتولَّى عنه؛ لأنه مشغول بهؤلاء القوم الذين كان يرجو إسلامهم، وذلك موقف عابر وخاطر طائر، لم يكن له استقرار ولا ثبات.

وهي تربية ربانية تأخذ بالألباب، أن يحدث هذا بسبب موازنة وترجيح نبوي بين المصالح المتعارضة، فينزل عليه الوحي الذي اعتاد أن يكون له مسليًا معزِّيًا مصبِّرًا، فإذا به يحمل عتابًا على عبوسه وتولِّيه عن هذا الأعمى، هو مشهد مليء بالدروس.. دروس في الدعوة.. دروس في الصبر.. دروس في التواضع.. دروس في حساب المصالح والمفاسد.

* شخصية ابن أم مكتوم ﷺ:

عبد الله ابن أم مكتوم ﷺ، اسمه: عمرو، أو عبد الله، وعمرو أشهر، وأمه عاتكة، واشتُهِر بهذا اللقب: «ابن أم مكتوم»، وهو قريب لخديجة زوج النبي ﷺ، ومن المسلمين الأوائل.

---

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٦٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٠)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٣٩٩)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٥١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٠١).

وقد يكون النبي ﷺ وَكَله إلى ما عنده من الدين والسابقة، وهذا الرجل تاريخه طويل مشرِّف، حتى إنه كان من أول المهاجرين -بعد مصعب بن عُمير رضي الله عنه- إلى المدينة، ولما جاء- كما يقول البراء رضي الله عنه-: سأله أهلُ المدينة: ما فعلَ أصحابُك الذين مِن بعدك؟ قال: هم أولاء على أثري، سيأتون من بعدي.

قيل: إنه استُشهِد في معركة القادسية، رضي الله عنه(١).

* ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ [عبس:١]:

أي: كلح وقطب وتجهَّم وجهه، والمقصود: النبي ﷺ قطعًا من دون شك.

﴿ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ أي: أعرض ببدنه.

فالعبوس يكون بالوجه، والتولِّي يكون بالبدن.

عاتب اللهُ رسولَه ﷺ على لمحة العبوس التي ظهرت في تقاسيم الوجه، ولم يقع منه ﷺ غير هذين الأمرين؛ العبوس والتولِّي عن الأعمى.

ذلك لأن مقام النبوة عظيم، لا ينبغي أن يكون فيه مثل هذا، وفيه دليل على التفات الإسلام منذ أيامه الأولى إلى الفقراء والضعفاء والمساكين، ولهذا لما سأل هرقل أبا سفيان: «أشرافُ الناسِ يتَّبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم»(٢).

وقد وقع للإمام الرازي -صاحب «التفسير الكبير» - زلة في تفسير هذه السورة، فذكر أن ما فعله ابن أم مكتوم كان معصية؛ لأنه أتى النبي ﷺ يسأله وهو مشغول بدعوة كبراء قريش، وإن ما فعله النبي ﷺ كان سائغًا أن يفعله.

ثم حاول بهذا أن ينفك من الإشكال، فذكر أن الله تعالى عاتب النبي ﷺ، إما

---

(١) ينظر: «الاستيعاب» (٣/ ١١٩٩)، و«تهذيب الكمال» (٢٢/ ٢٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٦٤-٣٦٥)، و«الإصابة» (٧/ ٣٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنه.

لأنه التفت لهؤلاء بحكم القرابة، أو أنه أعرض عن ابن أم مكتوم بحكم العمى[1].

وهذا تأويل رديء، وهو افتعال لمشكلة لا لزوم لها في الآيات، فإن العتاب واضح مصدره وسببه.

والأقرب أن أساس العتاب من الله سبحانه للرسول ﷺ هو زيادة الحرص منه ﷺ على هداية هؤلاء القوم الذي حمله على الإعراض عن الأعمى والعبوس في وجهه.

والإنسان كلما علا قَدْره، وزادت منزلته، كان العتب عليه يَرِد في أصغر الصغائر؛ لأنه محل الكمال والجلال.

وكان دافعه ﷺ شدة الحرص على هداية القوم، وتوقُّع الخير الكثير من وراء إسلامهم، وعادة ما يترتب على مثل هذا أن يكون الداعية منهمكًا منشغلًا، فربما أرجأ أمر الأَتْباع الموثوقين أو وَكَلَهم إلى ما عندهم من الإيمان.

ومَن مارس الدعوة أو التعليم يقع له ذلك كثيرًا؛ فالإنسان العادي إذا أفرط في الانشغال، أو تكاثفت عليه الأعمال، وملأت خاطره؛ فإنه لا يكون مع زوجته ومع أهله ومَن حوله على حال الانسجام والرضا والطواعية، وربما علاه شيءٌ من التوتر والانفعال.

وفي هذا تأكيد على القاعدة الشرعية المعروفة التي هي: «عدم ترك الأمر المعلوم للأمر الموهوم»، يعني: المصلحة المُحَقَّقة لا تُتْرَك لمصلحة متوقَّعة، وكذلك الأمور المؤكَّدة لا تُترَك لما هو أقل تأكيدًا منها، والمصلحة العظمى لا تُترَك للمصلحة الصغرى.

ويتحصَّل من مثل هذا الموقف دروس عديدة وفوائد كثيرة، منها:

١ - العناية بالمقبِل أكثر من الْمُعرِض؛ لأن له سابقة ومبادرة، والإعراض عنه

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٥٢-٥٣).

ربما يفضي إلى صدوده أو انتكاسه.

٢- دعوة المسلمين مقدَّمة على دعوة الكفار.

صحيح أننا مؤتمنون أن ندعو الناس كلهم إلى الإسلام، ونقيم الحجة عليهم: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، لكن -من حيث الترتيب فقط- أيهما أولى: دعوة المسلمين إلى التمسك بدينهم والتفقه فيه، أم دعوة الكفار إلى الدخول في الإسلام؟

الذي يظهر لي أن دعوة المسلمين إلى التمسك بدينهم أولى وأهمُّ، وهذا لا يعني أبدًا التقليل من أهمية وجود مَن يتخصَّصون في دعوة الكفار، وإقامة الحجة عليهم.

٣- دعوة المهتدين وتعليمهم في الجملة أولى من دعوة المنحرفين الضالِّين البعيدين، وهذا لا يعني التقصير في دعوة المفرِّطين، فيجب أن يكون في المسلمين مَن يتخصص بدعوة الشاردين والمبتعدين وأسرى الشهوات والشبهات، حتى ولو تخصَّص أناس في هذا لم يكن كثيرًا، ولكن في مقام المقارنة الصرفة، نقول: توجيه المهتدين والمقبِلين على الخير في مجالس العلم والذكر أولى من ذلك، وهذا من حيث المفاضلة العامَّة، ولا يعني ذلك الإزراء بحق أحد من هؤلاء.

ربما تكون هذه المقارنات موهمة، أو تستخدم في غير سياقها، وإنما أردت التفصيل في حال وجود شخص واحد - على سبيل المثال- متردِّد بين هذا وهذا، ولا يمكنه التوفيق بينها، لا وقته ولا جهده يسمح بذلك، فلا بد له من اختيار أحد الطريقين، فالأفضل له كقاعدة عامة دعوة المسلمين، ودعوة المقبلين بصفة أخص.

٤ - تحديد ما بوسع الإنسان أن يفعله، والمقصود بذلك الواقعية في أمر الدعوة؛ وهذا يوجب تحديد الأهداف ووضوحها وواقعيتها.

من الشباب مَن يفكر في واقع الأمة ومشكلاتها، ويغرق في هذا إلى درجة تعميه عن الحلول الممكنة وعما بوسعه أن يعمله من الأعمال المستطاعة التي تخفِّف المعاناة

ولو جزئيًّا.

عليك أن تفكِّر في الأشياء المقدورة، وبدلًا من أن تقول: متى يتغير واقع الأمة. قل: ماذا عليَّ أن أعمل؟ كيف أستطيع أن أستثمر طاقاتي ومواهبي؟ يمكنك أن تتعلَّم أو تُعلِّم، أو تكون خطيبًا ناجحًا، أو كاتبًا، أو شاعرًا، أو أديبًا، أو داعيةً، أو إداريًّا موفَّقًا، أو أستاذًا أو مُبدِعًا...

* ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس:٢]:

هذا شروع في بيان السبب المباشر، وإلا لم يكن النبي ﷺ عبس بسبب الأعمى فحسب، فهو صاحبه وحبيبه قطعًا، وله سابقته وإسلامه، ووصف الله تعالى الرجل القادم بالأعمى، ولم يذكر اسمه، بل ذكر عاهة مكروهة عند بعض الناس.

وهنا تساؤل: لماذا وصف الله عبد الله ابن أم مكتوم بالأعمى، وليس بوصفٍ آخر؟

كان هذا لبيان عذر الرجل، وأنه لم يكن يرى المشهد ولم يلحظ انهماك النبي ﷺ في دعوة أولئك الملأ، وهو مزيد عتاب للنبي ﷺ، وكأنه يقول: الرجل معذور بالعمى؛ والعمى سبب للتخفيف فيما هو فوق ذلك.

ربما يظن ظان أن الإسلام وهو في بداية ظهوره لن يفيد من رجل أعمى كإفادته من الرجل البصير القوي كامل الحواس، ولذا جاء العتاب مُعْلَنًا يُتلى في آيات محكمات في كتاب مقدَّس إلى يوم القيامة، ولو أراد الله لجعله عتابًا يُسِرُّ به جبريل إلى النبي ﷺ من غير أن يعلم بذلك أحد، ولكنه أراد أن يكون قرآنًا متلوًّا تعلمه الأمة قاطبة؛ ليكون درسًا لها كلها أن الإيمان والتقوى إذا أشرقت في قلب فقد تحقق بذلك المقصود الأعظم من الرسالة، أيًّا كان هذا القلب، وأن مصالح الدنيا وحساباتها يجب أن تتأخر في هذا المقام ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١].

وفي هذه الآيات دلالة على أن القرآن وحي الله، بلَّغه الرسولُ ﷺ إلى الأمة كما تلقَّاه، لم يُخفِ منه شيئًا، ولم يزِد فيه، ولو كان من تأليف النبي ﷺ لما كانت فيه مثل هذه الآيات.

هذا العتاب لم يأتِ من أحد من البشر، بل من رب العالمين، والمسلم متعبَّد بحفظ هذه الآيات وتلاوتها وتعليمها للناس، كما هو متعبَّد بأن يحفظ ويتلو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤]، وكلا الأمرين فيه حرج؛ فقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ فيه مدح وتزكية مما يحمل الخصوم على أن يتهموه بأنه تقوَّل القرآن؛ لما فيه من تزكية نفسه.

وقوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ فيه حرج من جهة المؤاخذة على هذا الموقف وكشف ما لابسه من كراهية نفسية لما جرى، ولكنه حرج أذهبه تبشير ربه له بأنه قد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر.

وهنا النبوة والصدق في التبليغ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة:٦٧]، يعني: لو كتمت آية أو لفظًا أو حرفًا لم تكن مبلِّغًا لرسالة الله عز وجل، تقول عائشة رضي الله عنها: «لو كان محمدٌ ﷺ كاتمًا شيئًا مما أُنزِل عليه؛ لكتم هذه الآية: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب:٣٧]»[1].

وهذا عتاب أعظم وأبلغ في شأن زواجه ﷺ بزينب، وكشفٌ عن شيء كان يخفيه في نفسه، والله تعالى يقرِّر إبداءه وإعلاءه ليسمعه التابع الموافق والكافر واليهودي والمنافق.. ليسمعوا جميعًا خطاب الله العظيم لمصطفاه ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٠)، ومسلم (١٧٧).

وهو شيء عظيم حقًّا، ولو أن أبًا عاتب ابنه، أو قائدًا عاتب متبوعه بمثل هذا، لكان حريصًا على تجاوز الموقف ونسيانه وكتمانه أو التشكيك فيه.. فكيف والخطاب من رب العالمين من فوق سبع سماوات، وفي ظروف وأحوال صعبة ومخاطر محدقة!

وقد جاء الخطاب في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ بضمير الغائب، مع أن النبي ﷺ هو المخاطَب به، وفي عتاب الله إياه في سورة الأحزاب جاء العتاب بخطاب مباشر: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

وفي هذا أسرار لطيفة، يظهر منها:

١- عدم مفاجأة النبي ﷺ بالخطاب والعتاب؛ لأن مخاطبة الغائب أولى من مخاطبته في البداية وجهًا لوجه، وهذا يدل على أن البداية هذه أخفُّ وألطف مما لو قال له: (عبست وتوليت) ففي العتاب تدرج وترقٍّ، بدأ بمخاطبة الغائب: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، ثم انتقل إلى خطاب الحاضر: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس:٣]، وعلى هذا يكون الأمر أخف.

٢- أن هذا العبوس والتولِّي أخفُّ من أن يُوصف بالذنب، وإنما هو خلاف الأولى، ومع ذلك عاتبه فيه ربه؛ لأنه ليس من مألوف أخلاق النبي الكريم ﷺ، فجاء الخطاب بصيغة الغائب للإشارة إلى أن ذلك الحدث كان استثناء بالقياس لأخلاق النبي ﷺ.

٣- التعبير بالغَيبة يجعل المعنِي به كأنه يراه واقعًا من غيره، وهذا أبلغ في تصوير المشهد وملاحظة ما فيه من مخالفة ما هو الأولى في حقه.

٤- جاء الخطاب بالغَيبة متسقًا مع فعل النبي ﷺ مع عبد الله ابن أم مكتوم، فهو ﷺ قد أعرض عنه وتولَّى، فجاء الخطاب فيه شيء من الإعراض في المخاطبة المباشرة إلى خطاب الغَيبة، ولكنه لم يدُم طويلًا، ولذا جاء بعد هاتين الآيتين خطاب مباشر

للرسول ﷺ، فقال تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ [عبس:٣]، فهو عتاب المحب لحبيبه ﷺ، وهو دليل على عظمته ﷺ، وقوة احتماله، ورباطة جأشه، كما أنه دليل على أهمية المراجعة والتصحيح، وأن قوة الإنسان وكماله ليست بالادِّعاء، ولا بالشهرة، ولا بالاسم، ولا بالنسب، وإنما هي بدأب الإنسان وصبره ومواصلته في تطلُّب الكمال وتدارك العثار.

* ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ [عبس:٣]:

يحتمل أن تكون الآية استفهامًا؛ يعني: ما يدريك لعل هذا الرجل الذي أعرضت عنه، ولم تُجِبْه، لعله يتزكى. و«لعل» من الله واجبة.

وفي الآية ثناء على عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه، بأنه من المتزكِّين الأوائل، شهد له بذلك ربه جل وعلا، والنبي ﷺ عندما أعرض عنه إعراضة خفيفة وهو منشغل بما يظن أنه أهم، ترتَّب عليه أن الله تعالى من فوق سبع سماوات يُنزل شهادة لعبد الله ابن أم مكتوم في وحي يُتلى أنه ﴿ يَزَّكَّىٰٓ ﴾، فهذه بركة سيدنا محمد ﷺ، كما قال في الحديث في آخر عمره، قال ﷺ: **«اللهمَّ إني اتخذتُ عندك عهدًا لن تخلفنيه، فأيما مؤمن سببتُه أو جلدتُه، فاجعلْ ذلك كفارةً له يومَ القيامةِ»**[1].

فكان من بركة ذلك العبوس أن تنزل تزكية الرجل من السماء، وأن يخلِّد الله ذكره والثناء عليه في قرآن يُتلى إلى يوم القيامة.

وفي الآية إشارة إلى أنه وإن كان أعمى البصر، فهو مُبصِر بقلبه، ولذلك سيتزكَّى ويذكَّر.

* والفرق بين قوله: ﴿ يَزَّكَّىٰٓ ﴾، و﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ [عبس:٤]:

أن الأول ﴿ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ إشارة إلى الأعمال الصالحة من البر والمعروف والخير

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والصلاة والذكر والتقوى والإيمان وكل عمل صالح.

أما قوله: ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ فقد تكون إشارة إلى الانزجار عن الذنوب والمعاصي، وهذان هما الركنان الأساسيان للرسالة: فعل الطاعة وترك المعصية، ففعل المعروف وترك المنكر، وقد أجمع العلماء على أن الرسل كلهم بُعِثوا بأمرين:

١- تحصيل المصلحة.

٢- دفع المفسدة.

فكل ما أمر الله تعالى به فهو مصالح ينبغي تحصيلها، وكل ما نهى الله تعالى عنه فهي مفاسد ينبغي دفعها وإبعادها قَدْرَ المستطاع.

ولذلك انتفع الناس بهذا التعليم الرباني، فكان النبي ﷺ شديد القرب من أصحابه الضعفاء والفقراء ويرحب بهم: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف:٢٨].

وفعل هذا أصحابه من بعده، والأئمة والعلماء، حتى قيل: إن الفقراء في مجلس سفيان الثوري كانوا كالملوك في تكريمهم واحترامهم، وتوقيرهم وتقديرهم، والإقبال عليهم[١].

هذه هي النبوة، ليست مُلْكًا ولا سلطانًا، ولا فخرًا ولا رياءً، وإنما تواضعًا لله واهتمامًا بالناس وبضعفائهم، ولا يعني هذا قصد إهانة الأكابر، فليس هذا مطلوبًا، ولا هو من المروءة، بل يُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَّه.

ولم يعاتب الله نبيَّه ﷺ على مجرد الإقبال عليهم ودعوتهم، وكان واجبًا عليه أن يدعو الأكابر كما يدعو المستضعفين، وإنما العتاب في ازدراء الضعفاء والفقراء

(١) ينظر: «الجرح والتعديل» (١/ ٩٧)، و«المجالسة» (٧/ ٧٧) (٢٩٥١)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٦٥)، و«تاريخ الإسلام» (١٠/ ٢٣٠).

والإعراض عن دعوتهم.

* وهنا لم ينتهِ العتاب، بل قال سبحانه: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴾ [عبس:٥]:

أي: عن الحق وقبوله، وهذا هو ما يُذمون به، لا أن يكونوا كبراء وسادةً وأغنياء في قومهم، فالغنى في ذاته ليس بمذموم، كما أن الفقر في ذاته ليس بممدوح.

* ﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ [عبس:٦]:

﴿ تَصَدَّىٰ ﴾ معناها: تَصْدُد، وأُبدلت الدال الثانية حرف علة؛ «تصدَّى»، يعني: تصَدَّد إليه، أي: تلتفت وتتوجَّه إليه وتدعوه، وحاشاه ﷺ أن يكون طامعًا في أموالهم أو جاههم، وإنما كان يطمع في إسلامهم؛ لأن بإسلامهم يسلم أتباعهم، وهو دليل على شدة حرص النبي ﷺ على هداية الناس حتى المعرِضين منهم.

* ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ [عبس:٧]:

أي: إذا قمت بالواجب وبلَّغْتَه الدعوة ثم لم يُقبل فليس عليك من وزره شيء: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٥٢].. ليس عليك تبعته بعد أن أقمت الحجة، وأديت واجب البلاغ.

* ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ [عبس:٨-٩]:

وهذه شهادة أخرى لعبد الله ابن أم مكتوم بأنه يخشى الله، وهي من بركة النبي ﷺ، فلولا هذا العتاب لربما لم يتلُ في القرآن هذه التزكية العظيمة.

* ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس:١٠]:

ولكن بأي شيء تلهَّى عنه رسولُ الله ﷺ؟ كان يتلهَّى بدعوة الأكابر، فهو قد صدَّ عن دعوة إلى دعوة أخرى، ومع ذلك يعاتبه ربه في ذلك، فيتلقن الدرس ﷺ، وهذه هي العظمة والنبوة، وبمثل هذا وغيره صار النبي ﷺ سيد الأنبياء، وإمام المرسلين، فلا يُفتح باب الجنة لأحد قبله، وكانت أُمَّتُه خير الأمم، وأتباعه

خير الأتباع، وأصحابه خير الأصحاب، وهديه خير الهدي، وسيرته أفضل السير، فيؤدِّب الله سبحانه نبيَّه ﷺ بمثل هذا التأديب الرباني الواضح المُعْلَن الذي يُتلَى إلى يوم القيامة.

* ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس:١١]:

﴿كَلَّآ﴾: كلمة زجر وردع. يعني: لا تَعُدْ لمثل هذا.

١- وهذا درس للعلماء والدعاة والأفراد والجماعات في استيعاب الناس والتواصل معهم، بعيدًا عن حسابات الغنى والفقر والذكاء والنبوغ أو الضعف، فدعوة الإيمان والتزكية والطهارة لا يجوز أن تكون مربوطة بمصالح فئوية أو حزبية أو مكاسب عاجلة، بل هي فوق ذلك.

٢- ودرس في ضرورة قبول النقد والتصحيح والمراجعة، وأن لا يصرَّ الناس على تكرار تجارب فاشلة أو خاطئة، لمجرد أنها مألوفة أو متلقاة عن الشيوخ والقادة.

٣- ودرس للحكام: فهذا سيدهم محمد ﷺ يتلقى من ربه العتاب والتأديب، ويعلنه على الناس، ولم ينقص هذا من قَدْرِه؛ بل زاده رفعة وعظمة، فلِمَ يظنون أن نقد فعل فعلوه أو قول نطقوه أو سياسة جروا عليها هو ازدراء لهم أو بخس بحقهم؟

٤- وهي درس لعامة الناس وخاصتهم في التوازن، وعدم الانخراط في قراءة المصالح المادية البحتة، فالجانب الإنساني والأخلاقي هو من أهم المصالح وأولاها بالاعتبار.

٥- ودرس في قبول النقد والتدرب عليه وعدم التبرُّم منه، أو اعتقاد أن النقد يدمِّر الإنسان، بل الواقع يقول: أهميتك بقدر النقد الموجَّه إليك، فلا تقلق من النقد، والناس دائمًا يختلفون حول الأشياء المهمة والأشخاص المهمِّين والقضايا المهمَّة، أما مَن لا حضور لهم ولا تأثير، فهم يخطئون ويصيبون ويتنقلون ولا أحد يكترث لهم!

ولستَ بناجٍ من مَقَالــةِ طاعــنٍ ولو كنتَ في غـارٍ على جبلٍ وَعْـرِ
ومَن ذا الذي ينجو من الناسِ سالمًا ولو غاب عنهم بين خافِيَتَيْ نَسْرِ[1]

نَمْ قرير العين، وتأكَّد أن النقد جرعات تطعيم تقوِّي شخصيتك، وتشد أزرك، وامضِ بثقة وجرأة، ودَعِ الناس ينقدونك كيف شاؤوا، وعليك الاستماع له، والإفادة بما فيه من الحق، وإن وجدتَ شيئًا غير مقنع فارفضه ولا تبال به، ولا تقل: هذا حاسد، أو حاقد، أو شانئ، أو مُغرِض، أو مدفوع. فلا يصح في نهاية المطاف إلا الصحيح.

على أن النقدَ يجب أن يكونَ بأسلوبٍ عادلٍ صادقٍ راقٍ لَيِّنٍ، يقول عيسى عليه السلام: «لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، بل انظروا في أعمالكم كأنكم عبيد»[2].

يجب أن تكون متواضعًا بعيدًا عن التعالي، وعليك أن لا تجزم بصوابك فيما ليس فيه نص، ولو جزمت بصوابك فعليك أن تراعي الحكمة والموعظة الحسنة، والرفق واللين مع مَن تختلف معهم.

والضمير في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ ضمير المؤنث، وفي سورة أخرى جاء مذكرًا: ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ [المدثر: ٥٤]، والمعنى واحد.

ويحتمل أن يكون المراد به السورة كاملة، أو الموعظة التي في هذا السياق، يعني: هذا الجزء من السورة الذي عُوتب به النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون القرآن كله.

* ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ كأن ربنا سبحانه وتعالى يقول للنبي ﷺ: هؤلاء الناس الذين أعرضوا ولم يقبلوا منك ليس عليك من حسابهم شيء، فهذا القرآن إنما هو تذكرة وعظة:

---

(١) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١١٤٠).
وخافيتي النسر: هي الريش الصغار التي في جناحه، واحدتُها: خَافِيَةٌ.

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٩٨٦)، وابن المبارك في «الزهد» (١٣٥)، وابن أبي شيبة (٣١٨٧٩، ٣٤٢٣٠)، وأحمد في «الزهد» (٣١١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٥٨، ٣٢٨).

﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ [عبس:١٢].. ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٩٩]، فلا تحزن عليهم، ولا تقلق من إعراضهم، فقد أدَّيت ما عليك، ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨]، ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢].

* ﴿ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴾ [عبس:١٣-١٤]:

﴿ مُّكَرَّمَةٖ ﴾؛ لأنها من الكريم سبحانه، وتنـزَّل بها جبريل عليه السلام وهو مَلَك كريم: ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴾ [التكوير:٢٠-٢١]، على نبيٍّ كريم وهو محمد ﷺ.

وهي ﴿ مُّطَهَّرَةِۭ ﴾ أذن الله بتطهيرها ورِفْعتها، وأن لا يمسَّها إلا المطهَّرون، ومطهَّرة من الخطأ واللغو والباطل، وكل رجس معنوي.

* ﴿ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴾ [عبس:١٥-١٦]:

يعني: هي موضوعة ومحمولة بأيدي سفرة، و«السَّفَرَة»: جمع سافِر، وقد يكون من السِّفْر، وهو الكتاب، والسافر هو الكاتب.

ومنها: السفير الذي ينتقل بين فريقين للإصلاح.

قال وهب بن منبه: هم أصحاب محمد ﷺ.

وقد وردت صفتهم في الإنجيل بالقديسين.

وقال قتادة: هم القرَّاء. ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ [العنكبوت:٤٩].

وقال أكثر أهل العلم -كما نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره-: إن السفرة الكرام البررة هم الملائكة[1].

(١) ينظر: «مسند الدارمي» (٣٤١٢)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ٣٦٤)، (٢٤/ ١٠٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١١٨-١١٩).

وقد يشهد له حديث عائشة رضي الله عنها: «**الماهرُ بالقرآنِ مع السَّفَرةِ الكرامِ البَرَرةِ، والذي يقرأُ القرآنَ ويتتعتعُ فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران**»(١).

وبكل حال ففيه إشارة إلى الثناء على أصحاب محمد ﷺ؛ لأنهم حملة القرآن وحُفَّاظه، والثناء على قُرَّاء القرآن عبر العصور؛ فهم فهموه وعملوا بها يقتضيه.

وهو توكيد لحفظ الله تعالى لكتابه بتسخير السفرة الكرام البررة المعنيين بحفظه في السماء والأرض، خلافًا لأباطيل السَّحرة والمكذِّبين التي تطير بها الشياطين، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:٢١٠-٢١٢].

* ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس:١٧]:

هذا سياق جديد، فيه الانتقال من مشهد إلى آخر، وعلاقة هذا الموضوع بها قبله تتبيَّن مما يأتي:

١- إذا كان أولئك النفر: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والأخنس بن شَرِيق، وغيرهم من المستكبرين قد رفضوا دعوة النبي ﷺ، وتصدَّى النبي ﷺ لدعوتهم يوم جاءه عبدالله ابن أم مكتوم، فإن هذه الآيات تتضمن التوعُّد والدعاء عليهم، والدعاء من الله تعالى واجب؛ لأن الله تعالى بيده الأمر.

وهي إشارة إلى أن أولئك النفر ممن حقَّت عليهم كلمة العذاب، وأنهم لا يؤمنون، والله أعلم.

٢- السياق يقرِّر أن مهمة الرسل هي تبليغ الدعوة وإقامة الحجة، وأنه لا عذر لمَن بلغته الدعوة أن يتولَّى ويكفر، ولذا حقَّ عليه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، وإن كان صيغته صيغة الدعاء، إلا أن حقيقتها توبيخ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨).

للإنسان وزجر وتأنيب له، وأنه مستحق للموت ما دام أنه ليس في قلبه إيمان ولا حياة، فالموت أجدر به.

* ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس:١٨-٢٢]:

وهو تدرج إلى المجادلة معهم وإقامة الحجة عليهم.

وهؤلاء القوم المتحدَّث عنهم موصوفون بصفتين: الكفر، والكِبْر والتعالي عن قبول الحق.

فأقام الله عليهم الحجة فيما يتعلق بـ«الكفر» بالآيات، وأقام عليهم الحجة فيما يتعلق بـ«الكبر» بتذكيرهم بأصل الخلق، الذي خُلقوا منه، ولهذا جاء السياق بعد ذلك مباشرة: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾، فهذه الخلقة لا تهيئ الإنسان أن يتكبَّر أو يتعاظم.

على أن هناك خلافًا في المراد بالإنسان في قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ .. ﴾ فكثير من المفسرين يرون أن المقصود شخص بعينه، مثل عتبة، أو شيبة، أو الأخنس، أو عتبة بن أبي لهب... وهذا احتمال، ولكن السياق عام في جنس الإنسان، كما يُشعر بذلك قوله: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾؛ ولهذا ذهب آخرون إلى أن المقصود بالإنسان هنا: الجنس[1].

وهنا إيراد يحتاج إلى كشف، وهو أن المعهود في القرآن أن الله تعالى يرفع الإنسان ويكرِّمه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠]، فما معنى أن يأتي الآن السياق ليقول: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾، وأن يشير إلى هوان أصله ومهانته؟

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٠/ ٢١٩)، (٣١/ ٥٨)، و«اللباب في علم الكتاب» (١٢/ ٧٥)، (٢٠/ ١٦٠)، و«نظم الدرر» (٢١/ ٤٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٢٠).

والجواب: أننا إذا قلنا: إن المقصود «جنس الإنسان» فلا يعني ذلك الناس كلهم؛ لأن جنس الإنسان: فيهم الأنبياء، والعلماء، والصلحاء والدعاة... إلخ.

وإنما المقصود الإشارة لغالب الناس، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

ولا يلزم أن يكون المراد بالكفر الجحود والكفر الأكبر، وإنما يشمل هذا، ويشمل ما دونه من الكبائر التي لا تُخرِج من الملة، ولذلك فسَّرها الرازي والسعدي وغيرهما بأن المقصود هو كفر النعمة، أي: جحودها[١]. وفيه تناسب مع السياق حيث عدَّد نعمه على الإنسان بعد هذه الآية.

وكأن المقصود جنس الإنسان الكافر، وهذا المعنى محتمل وجيه.

وقوله: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ يحتمل معنيين:

١- أي: ما أشدَّ كفره وعناده كما تقول: ما أشد بياض هذا الشيء أو سواده.

ويكفي في شدة كفر الإنسان: إعراضه عن عبادة ربه سبحانه، مع أنه الذي أسبغ عليه نعمه وعرَّفه بآياته وصفاته وأظهر له عظمته وكبرياءه، ثم يذهب يعبد صنمًا.. أو حجرًا.. أو بقرة.. فلا شك أن هذا جدير بأن يوصف بشدة الكفر ويتعجب منه[٢]!

فيا عجبًا كيف يُعصى الإلهُ ... أم كيف يجحدُه الجاحدُ
ولله في كــلِّ تحريكــةٍ ... وفي كلِّ تسكينةٍ شاهـدُ
وفي كــلِّ شيءٍ لــه آيــةٌ ... تدلُّ على أنه الواحــدُ

٢- أن يكون قوله: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ استفهام، أي: ما الذي جعله يكفر؟ وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦]، أي: ما الشيء الذي

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٥٧)، و«تفسير السعدي» (ص ٩١١).
(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٤/ ٤٠)، و«تفسير المراغي» (٣٠/ ٤٤)، و«تفسير السعدي» (ص٩١١).

جعلك تكفر بالله عز وجل؟ وهذا مروي عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

وقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاء، ولكن حقيقته تشنيع وتقبيح لما يعمله الإنسان، وهو إن كان تأنيبًا، إلا أن المؤمن يستشعر فيه الحلم الرباني؛ لأن الله تعالى وهو يُعجِّب من فعل الإنسان، ويبيِّن استحقاقه للقتل واللعن، يصبر عليه ويحلم، ولا يعاجله بالعقاب: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥]، وفي الحديث عن النبي ﷺ: **«ما أحدٌ أصبر على أذًى يسمعُه من الله تعالى؛ إنهم يجعلون له ندًّا ويجعلون له ولدًا، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم»**[2].

وفي الأثر: «إني والإنسُ والجنُّ في نبإٍ عظيمٍ! أخلقُ ويُعبَدُ غيري، وأرزقُ ويُشكَرُ غيري»[3]. وفي الأثر أيضًا: «يا ابنَ آدمَ، خيري ينزلُ إليك، وشرُّك يصعدُ إليَّ!»[4].

ولو كان الأمر في يد واحد من أحلم البشر وأصبرهم لأباد كلَّ مَن يخالفه في الدين، أو في الرأي أو المَشْرب، وعاجلهم بالأخذ، وكان الشاعر أبو القاسم الشَّابي يقول:

أيُّها الشَّعْبُ ليتني كنتُ حطَّابًا ... فأهوي على الجذوعِ بفأسي
ليتني كنتُ كالسُّيولِ إذا سالتْ ... تَهُدُّ القبورَ رمسًا برمسِ
ليتني كنتُ كالرِّياحِ فأطوي ... كلَّ مَا يخنقُ الزُّهُورَ بنحسي[5]

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٩٧٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٦٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٣٧١).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٤٣)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٧٧، (٤/ ٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٨٩).

(٥) ينظر: «ديوان أبي القاسم الشابي» (ص١١٧).

* ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [عبس:١٨]:

هنا سؤال عن مادة الخلق، متجاوزًا السؤال عن الخالق والمخلوق، فذلك شيء معلوم مُسَلَّم به، فليس ثَمَّ أحد يقول: إنه غير مخلوق، حتى فرعون وهامان والنمرود وأبو جهل يعترفون بأنهم مخلوقون، والله سبحانه وتعالى ينقلهم من الأمر المعروف المتفق عليه إلى سؤال آخر وهو: «من أي شيء خُلقتم؟»، كما في الآية الأخرى: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور:٣٥-٣٦]، فهذه تُلامِس ضميرَ الإنسان وتحرِّكه: أنت مخلوق .. ومخلوق من ماذا؟

هل ادَّعى أحد أنه خالق يخلق كخلق الله؟

في قصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨]، هل كان النمرود يقصد أنه يحيي الموتى؟ كلا، وإنما يقصد أنه يأتي برجل مستحق للقتل فيعفو عنه، فذلك إحياؤه إياه، ويأتي بآخر لا يستحق القتل فيقتله، وهو نوع من التلاعب بالألفاظ والعبارات.

* أما الخالق الذي يُوجِد من عدم، ويحوِّل الجماد الهامد الرميم إلى حيٍّ متحرك، عاقل متكلِّم، واعٍ فاهم، فهو واحد لا شريك له، وهو الذي يخاطب الإنسان ويقول: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [عبس:١٩]، والنطفة هنا هي الشيء اليسير من ماء الرجل الذي خُلِق منه الإنسان(١)، فهل يتكبَّر وقد خُلِق من نطفة ضعيفة ليس لها قوام ولا وجود؟

والدفقة من المني فيها الملايين من الحيوانات المنوية، والإنسان مخلوق من حيوان

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٥/ ٥٨)، و«فتح القدير» (٤/ ٤٣٩).

منوي واحد من هذه الملايين، وهي مؤهَّلة من حيث الإمكان المجرَّد أن يُخلَق منها الملايين، لكن الله تعالى بحكمته يختار حيوانًا واحدًا منها، فيسبق غيره ويخترق البويضة ويتكوَّن منه الإنسان.

فلماذا يتكبَّر وهذه حقيقته؟! وكيف ينسى ربَّه، ويجحد فضله، وهو الذي رعاه منذ كان نطفة في رحم أمه حتى صار رجلًا بالغًا راشدًا؟

وفي السؤال تنشيط للعقل ولفت للأنظار، وهو أسلوب مجدٍ مع مَن كفرُهم كفرُ جهالةٍ لا كفر عناد وجحود.

﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ الفاء تدل على التعقيب، يعني: بعد الخلق جاء التقدير مباشرة.

ولقوله: ﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾، ثلاثة معانٍ، وكلها صحيحة:

١ - قدَّر أعضاءه، فجعل له عينين ولسانًا وشفتين، ولو اختلَّ فيه شيء من أعضائه لظهر فيه النقص والعجز والتشوه.

٢ - ﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾، يعني: في الأطوار التي يمرُّ بها؛ نطفة، ثم علقة، ثم مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة، ثم يكون إنسانًا سويًّا خلقًا آخر، ثم طفلًا، ثم فتى، ثم شابًّا، ثم كهلًا، ثم شيخًا، ثم هرمًا، وهي مراحل وتحولات في غاية الانسجام والانضباط، والحكمة والإبداع: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤].

٣- ﴿ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ أي: فسوَّاه.. في اعتدال قامته.. وسلامة أعضائه.. في جماله، حيث جعله في أحسن تقويم، وميَّزه عن الحيوانات والوحوش وغيرها[1].

* ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ [عبس:٢٠]:

﴿ ثُمَّ ﴾ تدل على التراخي؛ لأن فيه فاصلًا، والضمير في: ﴿ يَسَّرَهُۥ ﴾ عائد على

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٥٧)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير السعدي» (ص٩١١).

﴿ ٱلسَّبِيلَ ﴾، معناه: ثم يسَّر ﴿ ٱلسَّبِيلَ ﴾، وهذا الذي يسمِّيه النحويون الاشتغال، أي: ثم الله تعالى يسَّر السَّبيل، فالسَّبيل: مفعول به منصوب وهو الذي وقع عليه التيسير.

و﴿ ٱلسَّبِيلَ ﴾ له معانٍ:

١ - هو مَخْرَج الجنين من رحم الأم. وهذا المعنى مروي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة، ورجَّحه الطبري[(١)].

ولذا يقال في نواقض الوضوء: الخارج من السَّبيلين.

والمقصود أن الله تعالى يسَّر للإنسان السَّبيل للخروج من رحم الأم، وهذا له ارتباط بقوله: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [عبس:١٩]، وهو معنى جيد، وفيه إشارة إلى صبر الأم على خروج الجنين، فإنها تعاني كثيرًا، من حمله تسعة أشهر في رحمها، ثم المعاناة الأشد في الولادة وآلام الطَّلْق التي تشبه الموت.

إن خروج الإنسان من هذا المضيق وبهذه الطريقة آية وعبرة يجب أن لا ينساها، كما يجب ألَّا ينسى فضل الأم التي حملته وعانت، وقبله فضل الرب الذي يسَّر له السَّبيل.

٢ - أن يكون المقصود بالسَّبيل: طريق الخير والشر، الهدى أو الضلال، ولهذا شاهد في القرآن وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣]، وهذا قول مجاهد، واختاره الإمام ابن كثير[(٢)].

٣- يسَّر له معرفة المنافع والمضار، فإن الإنسان بطبعه حتى وإن كان طفلًا صغيرًا، يعرف شيئًا من مصالحه، يعرف كيف يرضع من لبن الأم، ثم كيف يتجنب الأشياء

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١٠-١١٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٢٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١١٢-١١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٢٣).

الحارة، وكيف يتجنَّب المخاطر، وإذا عَقَلَ بدأ يفكِّر في مصالحه التجارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها، فهذا من تيسير الله تعالى.

والأقرب أن هذه المعاني الثلاثة كلها مقصودة.

* ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾ [عبس:٢١]:

وهذا انتقال إلى مرحلة أخرى بعد مرحلة الجنين وبعد مرحلة الحياة الدنيا كما كان: ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة:٢٨].

وقال: ﴿ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾، ولم يقل: (فقبره)؛ لأن الذي يباشر دفنه في القبر هو إنسان مثله، وأما الله تعالى فهو يسخِّر له ويهيِّئ له القبر، كما قال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾ [المرسلات:٢٥-٢٦].

وقد علَّم الله الإنسان كيف يحفر الأرض ويدفن فيها الموتى، كما في قصة ابني آدم: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة:٣١].

وجعل الله تعالى من طبيعة الأرض ما يسهِّل ذلك، حتى إن بعض البلاد الصخرية أو الجزر يكون وجود المقبرة فيها من أصعب الأمور.

فالله تعالى «يُقبِر» بضم الياء، والإنسان «يَقبُر» بفتحها، قال الأعشى:

لو أَسْنَدَتْ ميتًا إلى صدرِها   قام ولم يُنْقَلْ إلى قابـرِ

حتى يقولَ النـاسُ لما رأوا   يا عجبًا للميتِ الناشرِ[1]

والقابر هو الذي يتولَّى القبر.

دلَّت الآية على أن الله تعالى شرع للمسلمين أن يدفنوا موتاهم، فيجب أن يحفروا لهم القبور وأن يدفنوهم، وبعض الأمم الأخرى، كالفرس وبعض الهنود كانوا يحرقون الأموات، ثم يرمون رمادهم في الأنهار أو الصوامع، ومنهم مَن يترك الموتى

(١) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص١٣٩-١٤١).

لجوارح الطير والسباع، وهذا كان موجودًا عند العرب، لا سيما إذا ماتوا في المعارك؛ لأنهم يفتخرون بذلك، حتى يقول الشَّنْفَرَى:

وَلا تَقبُروني إِنَّ دَفني مُحَرَّمٌ   عَلَيكُم وَلَكِن أَبشِري أُمَّ عامِرِ[1]

وأم عامر، هي: الضبعة؛ لأن الضبعة تأكل أجساد الموتى، وكان الفراعنة يقبرون عظماءهم في أبنية ومقابر عظيمة، ومنها الأهرامات المعروفة، واشتُهِروا بتحنيط الموتى، في حين أن الإسلام شرع لنا أن يُحْفَر للإنسان قبرٌ ويُدْفَن فيه، حتى لما مات النبي ﷺ قالت فاطمة ؓ: «يا أنس، أطابت أنفسُكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟».[2] فهذه سنة الله تعالى في عباده.

* ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس:٢٢]:

أي: إذا شاء الله تعالى بعثه، وهذا انتقال من المعلوم للمجهول، ومن المتفق عليه إلى محل الجدل والإقناع مع هؤلاء المعاندين المُعْرِضين، المكذِّبين بالبعث.

وإيراد الحرف ﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى أن البعث يأتي بعد زمان طويل مقرَّر في علم الله، وهم كانوا يستعجلونه ويقولون: ما رأينا أحدًا بُعِثَ بعد موته. فكان قوله: ﴿إِذَا شَآءَ﴾، تعليقًا للنشور بإرادة الله وأنه لا يستجيب لاستعجالهم.

ولو أن الناس كانوا يُبْعَثون على دفعات في هذه الحياة، لما كان ثَمَّةَ حكمة في الابتلاء بالإيمان، فاستبطاؤهم لا معنى له.

* ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس:٢٣]:

الأكثرون على أن معناها: إن الإنسان لم يؤدِّ ما عليه من حقِّ الله كاملًا، و«لمَّا» و«لَمْ» معناهما متقارب، ولكن «لمَّا» تفيد احتمال الحدوث في المستقبل القريب،

---

(١) ينظر: «البرصان والعرجان» للجاحظ (ص ٢٥٢)، و«جمهرة الأمثال» (٢/ ٣٠٥)، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (ص ٣٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٦٢) من حديث أنس بن مالك ؓ.

تقول: هممت ولمَّا. يعني: لم أفعل بعد، وربما أفعل قريبًا، أو قاربت الفعل.

يقول مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: «لا يقضي أحد أبدًا كلَّ ما افتُرض عليه»(١).

ومن المناسب لهذا المعنى قوله ﷺ: «لن يُدْخِلَ أحدًا منكم عملُه الجنةَ». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدَني الله منه بفضلٍ ورحمةٍ»(٢).

والعبد مهما اجتهد، لن يؤدِّي شكر نعمة الله تعالى عليه.

ويدخل في هذا: أن الإنسان لم يتدبَّر حقَّ التدبُّر، ولم يتفكر حقَّ التفكُّر، ولو تفكَّر في ملكوت السماوات والأرض، ونظر في نفسه؛ لأبصر آيات الله عز وجل، يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل:

إلهي رأيتُك.. إلهي سمعتُك..

رأيتُك في كلِّ شيء..

سمعتُك في كلِّ حيّ..

تعاليَت لم يبدُ شيءٌ لعيني..

تباركتَ لم ينبُ صوتٌ بأذني..

ولكنَّ طيفًا بقلبي يطل..

ومِن طيفِه كلُّ نورٍ يهل..

لقد رأى آيات الله، التي جعلته يعبده كأنه يراه، أو يحاول.

فالسبب في كفر الكافر: أنه لم يتدبَّر، ولو تدبَّر لعرف من أي شيء خُلق، وعرف ما أمر به.

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٨٠٦٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا المعنى مناسب لما بعده، وهو قوله سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس:٢٤]، أي: فليتدبَّر إذًا بالنظر إلى طعامه.

وفي الآية معنى آخر محتمل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم أجد للمتقدمين فيه كلامًا سوى هذا». أي: أن الإنسان لم يؤد ما أوجب الله تعالى عليه.

ثم قال: «والذي يقع لي في معنى ذلك والله أعلم، أن المعنى: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القَدَر من بني آدم ممن كتب الله له أن سيوجد منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كونًا وقَدَرًا، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم»(١).

وكأنه جواب لما يُثار من تساؤل: لماذا لم يُبْعَث الآن الأقدمون؟ فكان الجواب: لو شاء الله لأنشر الإنسان الآن، ولكن لم يشأ ذلك؛ لأن الإنسان: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: لم ينته ما أمر الله به قضاءً وقدرًا من خلق الناس، فقد أذن الله أن تأتي أجيال بعد أجيال، وأمم وقرون، حتى ينتهي الأمر، ويأذن الله تعالى بالبعث.

وهو معنى لطيف، وابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ وإن كان مفسِّرًا سلفيًّا إلا أنه لم يجد غضاضة أن يبتكر معنى للآية جميلًا صحيحًا، وتدل عليه نصوص أخرى، ولم يسبقه إليه أحد فيما يعلم.

وقد يظن بعض الناس أن الإتيان بالمعاني اللطيفة الجديدة والأسرار من الآيات خطأ، وليس الأمر كذلك، بل الأمر كما قال علماء السلوك: كما أن القرآن نزل على النبي ﷺ منجَّمًا، فكذلك قرَّاء القرآن تأتيهم أسرار القرآن ومعانيه منجَّمة، فكلما قرأ الإنسان تجدَّد له معنى لم يلحظه من قبل.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٣).

وقد نقل الرازي عن ابن فُورَك الأستاذ معنًى في الآية مختلفًا أيضًا، وهو أن الله تعالى لم يقضِ لهذا الإنسان الكافر ما أمره به من الإيمان، يعني: كلا لن يؤمن هذا الكافر؛ لأن الله لم يرد له أن يؤمن، ولم يقضِ له الإيمان، فالله أمره بالإيمان لكن لم يقضِه له[1].

وهذا المعنى صحيحٌ في ذاته، فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ [الأنعام:١٠٧]، ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:١١١]، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

لكن السياق لا يساعد؛ لأنه يبدو وكأنه يعطي الكافر العذر في كفره إذ لم يُقْضَ له ذلك.

* ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس:٢٤]:

انتقل السياق للحديث عن آيات الله في الآفاق، وهذا كثير: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:٥٣].. ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢١-٢٢]، فبعدما ذكر تعالى خلق الإنسان، انتقل إلى نوع آخر من الحجج والآيات الدالة على وحدانية الله سبحانه، ومن النعم والفضائل والكرامات التي أكرم الله بها الإنسان، فوجب على العبد أن يحمد ويشكر، ودعا إلى التأمُّل في شيء محسوس قريب تشتد الحاجة إليه وهو الطعام.

* ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ هو نظر واسع:

١- نظرةَ إيمانٍ واعتبار؛ لأن الإنسان إذا نظر في هذه المخلوقات النظرة قادته إلى الإيمان بخالقه سبحانه، وإدراك حكمته في الخلق ورحمته وكرمه وأسمائه الحسنى.

٢- نظرةَ امتنانٍ وشكر؛ لأنه إذا نظر إلى هذا الطعام شكر مَن أعطاه إياه.

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٥٦).

* ثم انتقل بعد الإجمال إلى التفصيل: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ [عبس:٢٥]، وجمهور القرَّاء يقرؤونها بكسر الهمزة: (إنا صببنا الماء صبًّا) فيكون هذا على سبيل الاستئناف، وأما قراءة عاصم فهي بالفتح: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾[1]، وهذا ما يسمِّيه النحويون: بدل الاشتمال.

والرابط بين قوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ وبين الطعام رابط ظاهر، والصبُّ: عادة يكون من الأعلى إلى الأسفل، والمقصود بالماء هنا: المطر.

و﴿صَبًّا﴾ مفعول مطلق، وهو دليل على قوة الصَّبِّ، والله تعالى تولَّى هذا الأمر بنفسه وذاته، كما توحي الآية.

وفي الآية صورة تخيلية، فكأنك ترى الأمطار تهطل بغزارة، تجتاز تلك المسافة بسرعة، فتستجيب الأرض، وتتشقَّق بالنبات، حتى إنك ترى الأرض يابسة هامدة شهباء: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥].

* ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس:٢٦]:

جاء التعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى النواميس الإلهية في هذه الحياة، فالنبات لا ينبت إلا بالماء بإذن الله، والأرض تحيا بالنبات، وبعضه مترتِّب على بعض، ترتيب النتيجة على السبب، ولو شاء الله لأنبت الزرع وأحيا الأرض بغير نزول المطر، ولكنها سنته.

وإشارة إلى الفاصل الزمني بعد نزول المطر وقبل خروج النبات، وهو يوضِّح معنى الآية في سورة الحج ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ٦٧٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٧٨)، و«حجة القراءات» (ص ٧٥٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢١)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٣١١).

مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج:٦٣] أنه لا يعني النبات الفوري.

* وقد ذكر تعالى ثمانية أنواع من النبات: ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا (٢٧) وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا (٢٨) وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا (٣٠) وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴾ [عبس:٢٧-٣١]:

ذكر «الحَبَّ»، وهو كل ما يُحصَد مثل القمح والبر والحنطة والشعير والأرز، وهي غالبًا ما تكون قوتًا للإنسان.

ثم «العنب»، وهو فاكهة معروفة، وهو مفيد للهضم، فإذا جُفِّف سُمِّي زَبيبًا، وكان العرب يجفِّفونه ويجعلونه قوتًا يأكلونه في غير موسمه، وله منافع كثيرة للبدن، وهو أحد الفواكه الثلاث التي هي ملوك الفواكه؛ العنب والرُّطب والتين، كما قال ابن القيم[1].

و«القَضْبُ» هو القَتُّ أو العلف، ويُسمَّى قديمًا الفصفصة، وهو ما تأكله الحيوانات، وبعض أهل العلم يقولون: إن القتَّ هو ما يُحْصَد مرة بعد أخرى، فكلَ ما يُحْصَد ثم ينبت مرة أخرى يسمى القضب أو القت.

و«الزيتون» معروف، وزيته نافع، وقد ذكره تعالى في مواضع من القرآن، وسمَّى الله تعالى بلاد الشام بلاد التين والزيتون بالبلاد المباركة.

و«النخل» معروف، ولم يقل: (زيتونًا وتمرًا)، وذلك لأمور:

١ - أن ثمرة النخل تتشكَّل على أنواع، فتبدأ بُسرًا، ثم رُطبًا، ثم تمرًا.

٢ - أن النخل لا تنحصر الإفادة منه في جني ثمرته، وإنما يُنتفَع من أجزائه كلها، حتى لا يكاد يُرمى منه شيء.

و«الحديقة» هي البستان، والغالب أن الحديقة تُطلَق على الأشجار الملتفَّة الكثيرة المحيط بعضها ببعض، ففيها ثمار وجمال في منظرها، يقول مجاهد في قوله: ﴿ وَحَدَآئِقَ

---

(١) ينظر: «زاد المعاد» (٤/ ٣٣٩-٣٤١).

﴿ غُلْبًا ﴾ أي: أشجارًا ملتفة. لكن أكثر أهل التفسير على أن ﴿ غُلْبًا ﴾: جمع أغلب، ويطلق على الأشياء المتينة(١).

و«الفاكهة» معلومة، أما «الأَبُّ» فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: هو الكلأ أو ما تنبت الأرض من الحشيش أو المرعى، وهي ألفاظ متقاربة. وسُمِّي «الأَبُّ» بذلك؛ لأن الناس يأُبونه، أي: يؤُمُّونه(٢).

وذكر الطبري في «تفسيره» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾، فقال عمر رضي الله عنه: «قد عرفنا الفاكهة، فما الأَبُّ؟! ثم أقبل رضي الله عنه على نفسه وقال: لعمرك يا ابن الخطاب، إن هذا لهـو التكلُّف»(٣).

وسُئل أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه عن هذه الآية بخصوصها؟ فقال: «أيُّ سماءٍ تظلُّني، وأيُّ أرضٍ تقلُّني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟!»(٤).

فهنا تجد الصِّدِّيق والفاروق وقفا عند «الأَبِّ» ولم يحدِّداه.

وابن عباس رضي الله عنهما حَبْر الأمة وترجمان القرآن عرَّفه، ونقله عنه مجاهد، كما سلف.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري»، كتاب بدء الخلق (٤/ ١٠٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٢)، و«فتح الباري» (٦/ ٢٩٦)، و«تغليق التعليق» (٣/ ٤٩٠)، و«الدر المنثور» (٨/ ٤٢١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٢٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٣).

(٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ٣٢٧)، وسعيد بن منصور (٤٣-تفسير)، وابن أبي شيبة (٣٠١٠٥)، والطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٥٩). وينظر: «الدر المنثور» (٨/ ٤٢١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠١٠٧)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٢٢٧)، وينظر: «تفسير سعيد بن منصور» (٣٩)، و«الدر المنثور» (٨/ ٤٢١).

وأما توقُّف أبي بكر وعمر ﷺ عند «الأبّ» وعدم تحديده فله احتمالان:

١ - أن تكون هذه الكلمة من الكلمات التي جاءت في القرآن، وليست على لغة قريش.

٢ - أن يكونا قد عرفا «الأَبّ»، لكن لأنه لفظ مشترك يُطلَق على أكثر من شيء فقد تردَّدا في تعيينه، هل المقصود بالآية المرعى والكلأ، أم المقصود به نبات آخر غيره؟

وهذا درس ينبغي أن تتفطن له، في عدم التكلف والتنقير والهجوم على المشتبهات دون علم، خاصة وأن السياق مفهوم، وهو في مقام تعداد النعم والامتنان بها على الخلق وشكرها، وليس أمرًا تعبديًّا ولا يتعلق بخصوصه تكليف من زكاة أو غيرها حتى يتوجب على المكلَّفين معرفته.

وتوقف الشيخين في تحديد معناه لم يمنع غيرهما من البيان؛ لأن المفردة من العلم قد توجد عند المفضول وتخفى على الفاضل.

وفي الآية إشارة إلى أن هذه النعم يشترك فيها الإنسان والحيوان، ولذا ذكر ما يخص الإنسان كالفاكهة، وما يخص الحيوان كالعلف، وما يشتركان فيه كالحب، مما يوجب الحذر أن يكون الأكل والتمتع هو قصارى ما يسعى إليه العقلاء.

يا خادمَ الجسمِ كم تشقى بخدمتِه لتطلبَ الربحَ فيما فيه خسرانُ
أقبِلْ على النفسِ فاستكملْ فضائلَها فأنت بالنفسِ لا بالجسمِ إنسانُ

ولذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ﴾ [محمد:١٢]، والذين آمنوا ألَا يتمتعون ويأكلون؟

بلى، ولكن الذين كفروا: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾، أما المؤمن فإنه يأكل باسم الله، وينتهي بحمد الله: **«إن اللهَ ليرضى عن العبدِ يأكلُ الأَكْلَةَ فيحمدُه**

عليها، أو يشربُ الشَّربةَ فيحمدُه عليها»[1]. ويتزوَّد ويتقوَّى بها على الطاعة.

* ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾ [النازعات:٣٢]:

وهذا يؤكِّد المعنى السابق، فهذه المذكورات بعضها للناس وبعضها للأنعام: ﴿ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ ﴾ [يونس:٢٤]. وكأن المعنى: كلوا وتمتعوا، وتذكَّروا أن هذا الأمر في حدِّ ذاته لا يرفع قيمة الإنسان، فليست قيمته بما يأكل أو يلبس، أو يملك، وإنما هي بأمر فوق ذلك بكثير.

وهي تلميح من طرف خفي إلى أن على الإنسان أن يبحث عن الكمال الإنساني، وأن يترفَّع عن مشابهة البهائم والأنعام التي لا هَمَّ لها إلا الأكل والشرب، ومع تمتعه بما أحل الله له عليه أن يفعل ذلك بطريقة شرعية مستحضرًا اسم الله وحمده، والتزام أحكامه، ومعرفة حقوق الجائع والمسكين وابن السبيل.

وأن يتذكَّر ألوانًا من النعم التي شُرِّف بها الإنسان وكُرِّم دون الحيوان، وهي نعمة العقل والتكليف والمعرفة والعبادة التي هي من أعظم أنواع المتعة: **«أرحنا بها يا بلال»**[2]. والآيات تحفيز للإنسان أن يلتفت إلى كل ذلك.

وفي هذا السياق من الآيات:

١- دعوة إلى التوحيد والاعتراف بالخالق الرازق تبارك وتعالى.

٢- دعوة إلى شكر الخالق الرازق، فالله تعالى حقيق بأن يُشْكر ويُحْمَد عليها.

٣- دلالة على البعث؛ وهذه الأرض التي كانت هامدة ثم شقَّها الله تعالى بالنبات كثيرًا ما تأتي في القرآن إشارة إلى البعث، وتنبيهًا إلى أن البعث يحاكي ما يقع في الأرض من خروج النبات.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٠٨٨، ٢٣١٥٤)، وأبو داود (٤٩٨٥، ٤٩٨٦)، والطبراني (٦٢١٥) من حديث رجل من الأنصار ﷺ.

* ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس:٣٣]:

بما أن الآيات السابقة تضمنت دعوة إلى التأمل والتوحيد والإيمان، ناسب أن يأتي بعدها تأكيد البعث، وهو نقل للمشهد من الدنيا إلى يوم النشور، و«إذا» كما هو معروف أداة شرط.

وقد ذكر الشيخ ابن عاشور[1] أن جواب الشرط قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس:٣٨]، وهذا عندي بعيد، والأقرب أن الجواب قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس:٣٤]، وكأنه قال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾، فذلك: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾، و﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار:١٩].

و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ هي: الصيحة، وهي من أسماء القيامة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[2]، وقد أُطْلِق يوم القيامة في القرآن حتى صار عَلَمًا عليه، وهو يوم النفخة.

و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: الصوت الذي يصخُّ الأسماع، وقد يكون معناه: تصيخ له الأسماع، وقد يقال: فلان يصيخ، يعني: ينصت للصوت، وهذا رأي الطبري والزمخشري وجماعة، أنه مأخوذ من الإصاخة، تقول: أصِخْ، يعني: أنصت واستمع.

وذهب آخرون إلى أن: ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ هي الصوت القوي الذي يصخُّ أو يصمُّ الأسماعَ بقوته[3]، ولا مانع من إرادة المعنيين، فالأمر قريب.

* والمعنى: فإذا جاءت القيامة بصوتها المجلجل القوي فذلك ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٦]، وورود التسلسل بهذه الصيغة فيه انتقال من القريب إلى الأقرب، فأخوه قريب، وأقرب منه أمه وأبوه، وأقرب منهما

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٧).

(٢) أخرجه الطبري (٢٤/ ١٢٤).

(٣) ينظر: «أساس البلاغة» (ص خ خ) (١/ ٥٣٩)، و«لسان العرب» (ص خ خ) (٣/ ٣٣)، و«تاج العروس» (ص خ خ) (٧/ ٢٩٠).

زوجته وبنوه، في حين أن في سورة المعارج كان التسلسل من الأقرب إلى الأبعد، حيث يقول تعالى: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾ [المعارج:١١-١٣].

وسبب فرار الإنسان من أقرب الناس إليه:

١- أنه مشغول بما يهمُّه، حتى الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يقول أحدهم: «نفسي نفسي»[١].

٢- يفرُّ منهم -كما قال قتادة- خشية المطالبة؛ لأن هؤلاء بحكم المخالطة والقرابة يكون بينهم حقوق، ولهذا قال قتادة: يفرُّ قابيل من هابيل[٢]؛ لأنه سوف يُمْسِك به ويقول: يا رب، سَلْ هذا فيمَ قتلني؟ وهكذا كل قاتلٍ يُسأل يوم القيامة: لماذا قَتَل؟

ذلك أنه إذا اشتد الخوف والقلق أصبح الإنسان يهتمُّ بنفسه أكثر مما يهتمُّ بزوجه أو ولده أو والده أو أخيه أو قرابته، ، ثم إن النتيجة المحصلة ليست أمرًا سهلًا يمكن أن يتحمله أحد عن أحد، أو يؤثر فيه مَن يحب ويعظِّم، فهي نهاية المطاف وخاتمة المسعى، والجنة أبدًا أو النار أبدًا.

وعبر بـ: ﴿ مِنْ ﴾، ولم يقل: (عن أخيه)؛ لأن سبب الفرار هو الأخ فيفرُّ منه بالذات؛ لأنه مشغول عنه، أو لأنه يخشى أن يطالبه، فسبب الفرار هو الأخ نفسه، أما لو قال: (عن أخيه)، فمعناه: أن يكون الإنسان في معركة مثلًا وفرَّ عن أخيه، أو عن زوجه، دون أن يقصدهم بالفرار.

* ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس:٣٧]:

لكل إنسان منهم شأن.. يشغله عما سواه، وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال:

---

(١) كما في حديث الشفاعة. أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٥)، و«حلية الأولياء» (٢/ ٣٤١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥١).

«يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ حفاةً عُراةً غرلًا[1]». فقالت عائشة: يا رسولَ الله، النساءُ والرجالُ جميعًا، ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ؟ قال ﷺ: **«يا عائشةُ، الأمرُ أشدُّ من أن ينظرَ بعضُهم إلى بعضٍ»**[2].

الخطب عظيم وأمامهم من الأهوال والكروب ما يشغلهم عن نظر بعضهم إلى بعض، ليس هذا الموقف بضع دقائق أو ساعات أو أيامًا، بل ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج:٤].

* ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس:٣٨-٣٩]:

بدأ بالفريق الأول؛ لأن السورة نزلت في شأن عبد الله ابن أم مكتوم من جهة، وحثَّ النبيَّ ﷺ على الاهتمام بالمؤمنين ولو كانوا من الضعفاء والمساكين والمستضعفين، وعاتب الله تعالى نبيَّه بشأن هؤلاء الكفار الذين استظهرنا فيما سبق من الآيات أنهم ممن كتب الله عليهم الشقاء، وعلم الله تعالى أنهم لا يؤمنون، وسجَّل عليهم ذلك، فكان الأنسب أن يبدأ بالمؤمنين؛ ليبشرهم بحسن مآلهم.

و«الوجه» قد يُراد به وجه الإنسان، وهو يُعَبَّر به عنه غالبًا تقول: فلان وجهه طيب. وأنت لا تقصد وجهه بالذات، لكن طِيْب معدنه وخلقه، وهي «مُسْفِرَة»؛ لأنها آمنت بالله عز وجل وصدَّقت المرسلين.

وقوله: ﴿ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾، فالصفات الثلاث كلها مجتمعة فيهم:

١- الإسفار في الوجه، أي: يظهر في الوجه لون الإسفار، وهو نور الإيمان، والتقوى، والصفاء في قلوبهم فاض على وجوههم.

٢- الضحك: والضحك هو فعل الإنسان، وعادة الإنسان أنه لا يضحك إلا في طمأنينة وانشراح، وهو درجة أعلى من الإسفار.

---

(١) أي: غير مختونين.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

٣- الاستبشار: وهي مرحلة ثالثة أعلى منها، أي: أن في قلوبهم بِشْرًا وفرحًا وابتهاجًا، فهم يرون من هدايا ربهم ولطفه وتحفه وعطاياه ما يطمئنهم ويبشِّرهم، ويستبشرون بالمزيد: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

* ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس:٤٠-٤١]:

وهي في مقابلة الوجوه الأولى، وكُرِّرت كلمة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ لطول الفصل، واستحضارًا للموقف نفسه ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٦].

وقوله: ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي: فيها سواد، فهي مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، ذكر وجوه المؤمنين المبيضَّة وفي مقابلها وجوه الكافرين المسودَّة.

ومع سوادها فإنها: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي: تغشاها وتحيط بها، و«القترة» هي الظلام والسواد، فالوجوه مسوَدَّة، ومع سوادها فعليها هالات من السواد والظلمة، وتنتظرها النار المظلمة، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس:٢٧].

* ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس:٤٢]:

«الكفرة» بما في قلوبهم من الجحود والعناد والاستكبار، و«الفجرة» في أعمالهم، وكثيرًا ما يُطْلَق الفجور على الأعمال، مثل قوله ﷺ: «إذا خاصم فجر»[1]. وغالبًا ما يكون الكافر فاجرًا، وهما صفتان متلازمتان غالبًا، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٩)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

فجمعوا بين الكفر والفجور؛ ولهذا جمع الله تعالى لهم بين الصفة الذاتية وهي السواد في وجوههم، وكما أن الفجور يظهر في تصرفاتهم وأعمالهم، جعل الله تعالى القترة تغشاهم وترهقهم وتحيط بهم كإحاطة أعمالهم السيئة الظالمة الفاجرة، كما قال سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ...﴾ الآية [البقرة:٨٠]، وقال عن النار: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩]، والله أعلم.

○ ○ ○

سورة التكوير



سورة التكوير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا
ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ
زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا
ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ
﴿١٤﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾
إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم
بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ
رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا
تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التكوير:١-٢٩].

* تسمية السورة:

١ - اسمها الوارد في غالب كتب التفسير: «سورة التكوير»[١]، ومع كونه لم يرد نصًّا في السورة، إلَّا أنه مصدر من قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، مثل «الانفطار»، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و«الزلزلة» من قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.

٢ - «سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «مَن سرَّه أن ينظرَ يومَ القيامةِ كأنه رأيَ عينٍ، فليقرأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾»[٢].

وكذلك سمَّاها البخاري، وبوَّب بذلك في «صحيحه»، والترمذي في «جامعه»، وبعض المفسرين[٣]، فهو اسم للسورة بإحدى آياتها، كما تُسَمَّى «الانفطار»: ﴿إِذَا

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٥٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٢٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤٨٠٦)، والترمذي (٣٣٣٣)، وابن أبي الدنيا في «الأهوال» (١٩)، والحاكم (٤/ ٥٧٦).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٠٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٩٥)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٦)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٩).

ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴾.

* عدد آياتها: (٢٩) آية، أو (٢٨) آية، حسب اختلافهم[(١)].

* **وهي مكية بإجماع أهل التفسير**[(٢)].

وقد ورد في فضلها حديث أبي بكر ﷺ، أنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله قد شِبْتَ! قال: «**شَيَّبتني هودٌ والواقعةُ والمرسلاتُ و﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ و﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾**»[(٣)].

وهو حديث مضطرب، كما ذكر ذلك الحافظ ابن الصلاح وغيره[(٤)].

* موضوع السورة:

في صدرها أخبر تعالى باثني عشر خبرًا متتاليًا: ستة منها -كما قال ابن عباس ﷺ- تتعلق بالدنيا، وستة تتعلق بالآخرة[(٥)].

فالستة التي تتعلق بالدنيا ستقع في آخرها، والستة التي تتعلق بالآخرة ستقع في

---

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٦٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٣)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٥)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٥٥)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» للبقاعي (٣/ ١٦٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٢٦٨)، والترمذي (٣٢٩٧)، وفي «العلل الكبير» (٦٦٤)، والحاكم (٢/ ٣٤٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٥٠) من حديث ابن عباس ﷺ.

(٤) ينظر: «علل ابن أبي حاتم» (١/ ٦٤١، ٦٦٥)، و«علل الدارقطني» (١/ ١٩٣-٢١١)، و«فتح المغيث» للسخاوي (١/ ٢٩٤)، و«النكت على ابن الصلاح» لابن حجر (١/ ١١٨)، و«تدريب الراوي» (١/ ٣١٢)، و«الإرشادات في تقوية الأحاديث بالشواهد والمتابعات» لطارق عوض الله (ص ٣٥١-٣٥٤)، و«السلسلة الصحيحة» (٩٥٥).

(٥) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٤١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٦).

أولها، فكأنها متتابعة، يفضي بعضها إلى بعض.

كرَّر لفظ: ﴿إِذَا﴾، وهو أداة شرط للمستقبل، وفيه إطناب؛ لأنه يمكن أن يُكتفَى بأداة واحدة، فيُقال: إذا كوِّرت الشمس، وانكدرت النجوم، وسيِّرت الجبال.. والتكرار هنا من البلاغة؛ لأنه يشعرك أن كلَّ حدث هو خبر مستقلٌّ له هيبته ووَقْعُه وتأثيره، وكل حدث جدير بالاهتمام والعناية والتكريس، فليس التكرار هنا من الحشو الذي لا فائدة منه، بل هو بليغ مؤثِّر، وفيه تشويق للخبر الذي بعده؛ فبعد ثنتي عشرة آية مُصَدَّرة بـ﴿إِذَا﴾ يأتي الجواب: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٤].

وفيه تخويف؛ لأنه يسرد مجموعة من الحوادث العظيمة الهائلة بسرعة ولكن بتفصيل، وكأنها مشاهد متلاحقة كل واحد منها يستقل بإطاره ثم يمضي ليلحقه ما بعده.

ويُرْوَى أن أبا الوفاء بن عَقِيل رَحِمَهُ اللَّهُ كان في مجلس، وقُرِئت هذه السورة، فقال بعض الحاضرين: يا سيدي، هَبْ أنه أَنشر الموتى للبعث والحساب، وزوَّج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب، فلِمَ هدَمَ الأبنيةَ وسيَّر الجبالَ ودكَّ الأرضَ وفطَرَ السماءَ ونثرَ النجومَ وكوَّر الشمسَ؟

فذكر له أن ذلك لعدة معان:

١ - أنه بنى لهم الدار للسكنى والتمتع، وجعلها وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر والاستدلال عليه، فلما انقضت مدة السكنى وأجلاهم من الدار خربها؛ لانتقال الساكن منها.

٢- في ذلك تكذيب لأهل الإلحاد والزنادقة، وفضحهم وتكذيبهم؛ بهدم آلهتهم ونثر معبوداتهم ومحوها.

٣- في ذلك إظهار أن العالم مربوب محدث مدبَّر، له ربٌّ يصرِّفه كيف يشاء،

تكذيبًا للملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم[1].

٤ - في ذلك بيان لعزة الله وقهره وغلبته.

تقديم الاسم على الفعل في الآية:

قدم السياق الاسم «الشمس .. النجوم...» على الفعل «كورت.. انكدرت..»؛ لأن الشمس والنجوم والجبال موجودة ويراها الناس، ومستقرة في الأذهان، فإذا قال لك قائل: «الشمس» تخيَّلت صورة الشمس وهي في كبد السماء تلقائيًّا، وكذلك إذا قال لك: «النجوم» تخيَّلت هذه القبة الزرقاء، وتخيَّلت نجومها تتلألأ وتضيء، فيكون الخبر واقعًا على أمر حاضر في الأذهان، يسرع الخيال إلى تصوره وتصويره، فيكون أقوى في التأثير، حيث جعل الاسم المُسْنَد إليه أولًا، ثم بيَّن ما يطرأ عليه من الفعل، وتغيير صورته البهيَّة الجميلة.

* ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير:١]:

أي: ذهب ضوؤها فأظلمت، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما[2].

ويحتمل أن يكون المعنى: توقفها، وعدم جريانها مع ذهاب ضوئها، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة:٩] وإنما جُمِعَا، لاختلال نظام جريانهما.

ويُحْتَمَل أن يكون المعنى: رُمِيَت وأُلْقِيَت، كما يقال: إن فلانًا صارع فلانًا فكوَّره. يعني: أسقطه أرضًا.

وكل هذه المعاني واردة وتحتملها الآية، فهي تعني أن الشمس تُظْلِم ويذهب ضوؤها وتنطفئ، وتتوقف عن حركتها المعتادة وطلوعها وغروبها، وتسقط.

لكن لا يلزم أن تقع هذه الحوادث كلها دفعة واحدة، بل تقع على التوالي مرة

---

(١) ينظر: «بدائع الفوائد» (٣/ ١٨٣).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦٤).

بعد أخرى[1].

* ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ [التكوير:٢]:

﴿ ٱلنُّجُومُ ﴾ معروفة، وانكدارها هو ذهاب ضوئها.

وفي الآية الأخرى: ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار:٢]، وعلى هذا فإن من معاني الآية: انتثارها وتفرُّقها، فعندما يحصل انهيار النظام الكوني المعهود تظلم النجوم وتسودُّ وتتساقط، وربما تهوي في الفضاء، ويضرب بعضها بعضًا، ويحطِّم بعضها بعضًا، أو تسقط في الأرض، أو في البحر، أو في ما شاء الله.

* ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير:٣]:

و﴿ ٱلْجِبَالُ ﴾ راسخة، حتى صارت مثلًا ورمزًا للقوة والثبات، ومع ذلك تُسيَّر: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾، وجاء وصف هذا المشهد في آيات أخرى كما في قوله سبحانه: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ [المعارج:٩]، وقوله: ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة:٥].

تصبح مثل القطن في خِفَّته، وكالسحاب في مروره، ثم تُدَكُّ وتزول، وتصبح الأرض بعد ذلك ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٦-١٠٧]، ولا ارتفاعًا ولا انخفاضًا، كما مر في «سورة عم»: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ:٢٠].

* ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ [التكوير:٤]:

أكثر المفسرين على أن ﴿ ٱلْعِشَارُ ﴾ هي: النوق الحوامل؛ لأن الناقة الحامل إذا دخلت في شهرها العاشر تُسَمَّى: «عُشَراء» حتى تلد، والنوق كانت من أنفس أموال العرب.

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٦٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٤٦).

ويحتمل أن ﴿ٱلْعِشَارُ﴾ هي: الأرض أو الديار التي تُعشَّر، أي: يُؤْخَذ منها الخراج، فالأرض الثمينة النفيسة لدى أصحابها تُهمل وتُتْرَك وتتعطَّل، وهذا لا يكون إلا لوقوع أهوال من علامات الساعة في الدنيا[1].

و﴿عُطِّلَتْ﴾: أي: تُرِكَت، فلا أحد يهتمُّ بها، ولا يركبها، ولا يقتنيها، ولا يحلبها، ولا يعتني بها؛ لأن الناس مشغولون بما هو أعظم.

* ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥]:

﴿ٱلْوُحُوشُ﴾ معروفة، وهي الحيوانات المتوحِّشة، و﴿حُشِرَتْ﴾ أي: جُمِعت، وهذا أحسن وأصحُّ ما قيل، وهو أكثر ما يَرِدُ في القرآن في معنى الحشر، منها قوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ [النازعات:٢٣]. يعني: جمع قومه، ونادى فيهم[2].

ومنها: قوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧]، يعني: جمعناهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٩]، يعني: مجموعة.

وقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات:٢٢]، أي: اجمعوا.

فالحشر بمعنى الجمع هو الأقرب في هذه الآية، ولا يمنع أن يكون جمعها هنا لإهلاكها، يعني: جُمِعَت ثم أُهْلِكَت؛ لأن السياق قبلها وبعدها لا يزال في وصف زوال الدنيا وقيام الساعة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ستٌّ في الدنيا...» وذكرهن، وقد تقدم.

أما لو كان السياق عن الآخرة ويوم القيامة، فيكون معنى ﴿حُشِرَتْ﴾ أي: بُعِثَت، ليُقْتَصَّ لبعضها من بعض، حتى يُقْتَصَّ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء[3]، ثم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٢٩).

(٢) وهو قول قتادة. ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣١).

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٥٨٢).

يقال لها: «كوني ترابًا»(١).

وقد يكون جمع الوحوش بسبب الخراب الذي سيلحق الحياة البشرية، فترتعد له الوحوش الضواري ويقترب بعضها من بعض، وقد ورد عن مجاهد -ورُوي مرفوعًا- في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد:٤]، يعني: «حتى ينزل عيسى ابن مريم، فيُسْلِم له كلُّ يهودي ونصراني، وكلُّ صاحبِ مِلَّة، وتأمنُ الشاةُ الذئب..»(٢).

* ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦]:

وجاء في سورة الانفطار: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار:٣]. ولا مانع من إرادة المعنيين، ففي قوله تعالى: ﴿فُجِّرَتْ﴾ يكون تفجيرها بإعادتها إلى عناصرها الأولية، وإحداث الانفجار، ومِن ثَمَّ تتوقَّد وتخرج منها النار، وهنا قال: ﴿سُجِّرَتْ﴾، والتسجير هو من: سجَّرت التنور، يعني: أوقدته. ويحتمل المعنى: أن تُفْتَح البحار بعضها على بعض، ثم تفجَّر وتكون لهبًا ونارًا.

فهذه ست آيات تتعلَّق أخبارها بالدنيا، وهي علامات على يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١].

ثم انتقل السياق بعد ذلك إلى ذكر آيات أخرى تتعلق بالدار الآخرة، بعد بَعْث الناس من قبورهم، ورؤيتهم لمشاهد الآخرة عيانًا أمام أبصارهم.

* ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير:٧]:

في تفسيرها ثلاثة أقوال:

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة النبأ» عند قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٠٤)، و«أشراط الساعة» لعبد الملك بن حبيب (٤/ ١٣٦)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ١٨٨)، و«سنن البيهقي» (٩/ ١٨٠)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٢٠٨)، و«تاريخ دمشق» (٤٧/ ٥١٢)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٢٨).

أشهرها: أن المقصود: حشرُ كلٍّ إلى نظيره، فيُحْشَر الأخيار مع الأخيار، والأشرار مع الأشرار.

وهذه آية تدل على أهمية الصحبة الصالحة؛ لأن الإنسان يُحْشَر مع قرنائه وأَخِلَّائه، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات:٢٢]، أي: نظراءهم[١]، وقوله سبحانه: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧]، فالأشرار يُحْشَرون معًا، ولكنهم متباغضون، والأخيار يُحْشَرون معًا متحابِّين متآلِفين حتى في عرصات القيامة، وهذه من بركة الأخوة والمحبة في الله، فهي لا تنقطع بالموت ولا بغيره.

وهذا القول منسوب لعمر ﷺ، واختاره الطبري، وابن كثير، وعليه أكثر المفسرين[٢].

الثاني: إعادة الأرواح إلى أجسادها[٣]، وهو معنًى صحيح، ويؤيده أن ذلك بداية البعث وأوله، وما بعده تبع له مما جاء في سياق السورة.

الثالث: هو قرن النفوس بأعمالها. قاله الزَّجَّاج وغيره[٤]، فكأنه حكاية عن إيتاء الإنسان كتابه بيمينه أو شماله.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٥١٩).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٠٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٩٦)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٣/ ٢٧٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٤١-١٤٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥١٥، ٥١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٩)، (٨/ ٣٣٢)، و«تغليق التعليق» (٤/ ٣٦١)، و«فتح الباري» (٦/ ٦٩٤)، و«الدر المنثور» (١٢/ ٣٩٥)، (١٥/ ٢٦٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٤٤)، و«معجم ابن المقرئ» (٦٠٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٣٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٠).

(٤) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٢٩٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٣٠).

* ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾ [التكوير:٨]:

بعدما قام الناس أحياءً، وزُوِّجَت الأجساد بأرواحها، وحُشِرَ الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار، ينتظر السامع عما سيقع بعد ذلك، فيُفاجأ بأول ما يطرق سمعه بعد وهو مشهد الموءودة تُسأل: بأي ذنب قتلت، مع أنه قد ورد في القرآن الكريم أن الناس يُسألون عما كانوا يعبدون من دون الله، وعما كانوا يعملون، وماذا أجابوا المرسلين، وعن النعيم، والسورة مكية متقدمة النزول، وقد تضمَّنت تقريعًا للمشركين على الفعلة الشنعاء.

و﴿ ٱلْمَوْءُۥدَةُ ﴾: الجارية الوئيدة، وقد كان القليل من قبائل العرب إذا قاربت المرأة الحامل عندهم أن تضع حملها وضعوها على شفير حفرة، فإن كان غلامًا أخذوه، وإن كانت جارية وضعوها في الحفرة، وواروها بالتراب!

وقد ذكر تعالى هذا المعنى في قوله: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف:١٧]، وفي الآية الأخرى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ [النحل:٥٨-٥٩]، يعني: هل يبقيها حيَّة مع الهوان أو يدفنها؟

وقد رُوي أن قيس بن عاصم المِنْقَري -وهو مَن هو في شرفه ومجده وكرمه- وأد عشرًا من البنات[1]؛ ولذلك كان الفرزدق -وهو تميمي- يفخر بجدِّه صعصعة ابن ناجية الذي يقال: إنه أحيا أكثر من أربعمائة وئيدة، وكان إذا أراد والدها أن يئدها، قال له: أنا أكفلها. ويعطيه ناقتين، ثم يتركها حيَّة؛ فكان الفرزدق يثني عليه بقوله:

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٩٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٤٧)، و«تفسير الرازي» (٢٠/ ٢٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٤٦).

ومنَّا الذي مَنعَ الوائِداتِ وأَحيَا الوئيدَ فلمْ يوأدِ[1]

ويُروى أن عمر ﷺ وأد إحدى بناته وكانت تنفض التراب عن لحيته، وأنه كان يروي قصته بعد الإسلام ويبكي، وهي قصة موضوعة لا تصح[2].

وهذه العادة كانت موجودة في بعض قبائل العرب، وعند كثير من أمم الأرض، كالصينيين والهنود وغيرهم، ولا تزال بعض الأمم تمارِس شيئًا من الوأد الظاهر أو الوأد الخفي، منها التحكم في المواليد واختيار الذكور على الإناث، ففي كوريا كان يولد في أوائل التسعينات من القرن العشرين (١٢٢) صبيًّا مقابل كل (١٠٠) بنت، كما بلغت في الصين الشعبية (١١٧) صبيًّا لكل (١٠٠) بنت، وأدى هذا إلى نقص البنات في آسيا، وبحلول العقد الثاني من القرن (٢١) ستواجه الصين حسب التقديرات وضعًا لن يجد فيه (خُمس) السكان الذكور في سن الزواج عرائس لهم! مما يترتب عليه نزوع الشباب إلى الجريمة، علمًا أن النسبة الطبيعية هي (١٠٥) فتى مقابل كل (١٠٠) بنت[3].

ومن ذلك عمليات التحويل الجنسية المتبادلة لأسباب شتى، مما يجور على الأنثى في الحالين، ويبخسها حقها وخصوصيتها.

ومن ذلك تجاهل الفروق الجوهرية بين الذكر والأنثى، وقد أظهرت دراسات علمية وجود فروق ثابتة، فالأنثى تملك قدرات لفظية أكثر من الذكر، وتتفوق عادة في القدرات البصرية، بينما يملك الولد قدرات رياضية، وتكون عدوانية الذكور أكثر بكثير، ولعب الأولاد بدني أكثر من البنات، وهم أكثر تنافسية جماعية، وخطاب البنات يركز أكثر على العلاقات الأسرية.

---

(١) ينظر: «الكامل» للمبرد (٢/ ٥٧)، و«منتهى الطلب» (ص ٢٢٥، ٢٢٦)، و«التذكرة الحمدونية» (٢/ ٣٨٩)، و«أسد الغابة» (١/ ٥١٩)، و«الإصابة» (٣/ ٤٣٠).

(٢) ينظر: «دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر» (ص ١١١-١١٢).

(٣) ينظر: كتاب «مستقبلنا بعد البشر» لفوكويا ما.

هذا فضلًا عن الفروق الجسدية، والتي كثيرًا ما تجور عليها طبيعة الأعمال التي تسند إلى المرأة، أو نوع التربية أو تركيز الإعلام.

أما تسليع المرأة وتوظيف جسدها في الإثارة والتشويق والاستهلاك، فقد أصبح فنًّا تقوم عليه دوائر اقتصادية ضخمة، وتسخَّر له جهود وإمكانات، والله المستعان.

وفي العالم الإسلامي طرف من ذلك كله، فضلًا عن التبرم بولادة الأنثى، واعتبارها عارًا وعيبًا في بعض المجتمعات، والاستحياء من النطق باسمها، وحرمانها من حقوقها المشروعة، حتى من الميراث أحيانًا، ومن حق اختيار الزوج، وحق الدراسة والعمل المباح، والحقوق السياسية التي كفلها الإسلام حتى استشيرت النساء في من يلي الخلافة بعد عمر ﷺ!

وهنا سؤال: لماذا تُسأل الموءودة، مع أن السؤال في حقيقته موجَّه لوائدها، وهو سؤال يرد في مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]:

١- فذلك أنه في يوم القيامة ينطق مَن لم يكن ينطق، ويُبِيْن مَن لم يكن يُبِين، ويتكلم كل أحد بحجته، فالمظلومون في الدنيا من الضعفاء والفقراء والنساء والمستضعفين المحرومين من حقوقهم يمكَّن لهم يوم القيامة من البوح بشكواهم والمطالبة بالاقتصاص والشكوى إلى الله عز وجل، فهي لما سُئلت، تجيب: إنها قُتِلَت بغير ذنب.

٢- أن سؤال الموءودة توبيخ وتبكيت لوائدها، والظالم قد يتمادى في الغي والاستبداد والطغيان، ويزين له عقله وبطانته الفاسدة كثيرًا مما يعمل، فلا يلتفت ولا يتوقف، ثم يأذن الله بانكشافه وتأنيب ضميره بما يسمعه من شكاية مظلوميه، وهكذا مجرد كون الموءودة يوم القيامة تُسأل وتُعطى حق السؤال وحق الجواب، وتعترض

وتحتج، وتشتكي إلى الله، فهذا تبكيت وإيلام للوائد، فضلًا عن أنه يُوحِي بمجيء الحساب.

والوائد غالبًا هو الأب أو مَن يقوم مقامه، وفي هذا عبرة، فالله تعالى ينتقم يوم القيامة للولد من أبيه، فينتقم للموءودة من وائدها، وهو أبوها، ويعاقبه على ذلك بالنار والنكال الشديد، وهذا دليل على ثقل المسؤولية، وأنها لا تعني إطلاق اليد، وإنما تعني التبعة والمحاسبة والسؤال، كما قال الله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات:٢٤]، ولذلك يكون أصحاب المسؤوليات أطول وقوفًا، وأعظم سؤالًا يوم القيامة.

* ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٩]:

فيه تقبيح لفعل الوائد؛ فإن هذه الموءودة قُتِلَت وهي صغيرة، فأيُّ ذنب قد جَنَتْهُ حتى تُقْتَل؟! وهو تجريد لهذه الفعلة من أي مسوِّغ، فهي فعلة شنيعة بكل حال، ويزيدها شناعة براءة مَن وقعت عليه من كل ذنب؛ لأنه ليس محلًّا لصدور الذنب منه.

٣- كما تضمنت الآية إشارة إلى مبحث مصير الأطفال يوم القيامة، وهو بحث طويل، تكلَّم فيه أهل العلم؛ كالبخاري والأشعري وابن عبد البر وابن حزم وابن تيمية وابن القيم والشوكاني وغيرهم.

أما أولاد المسلمين، فنُقِل عن الإمام أحمد الإجماع على أنهم في الجنة[١].

وأما أطفال المشركين، فقد اختُلف فيهم على أقوال، ذكرها ابن القيم في «أحكام أهل الذمَّة»[٢]، وأطال كثير من الباحثين القول فيها، وأفردوا فيها مصنفات خاصة، أحد هذه الأقوال أن أطفال المشركين ممن ماتوا دون البلوغ هم في الجنة، ونُقِل هذا

(١) ينظر: «المنتخب من علل الخلال» (ص ٥٣)، و«شرح النووي على صحيح مسلم» (١٦/ ١٨٣)، و«فتح الباري» (٣/ ٢٤٤).

(٢) ينظر: «أحكام أهل الذمة» (١/ ٩٤٤) وما بعدها.

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه[1]، وابن عباس رضي الله عنهما؛ مستدلًّا بهذه الآية، ونُقِل أنه قال: «أطفال المشركين في الجنة، فمَن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝﴾». وهذا مذهب البخاري وابن حزم وجماعة من الفقهاء والسلف والمتكلِّمين[2].

وقيل: إنهم يختبرون في عَرَصات القيامة، وهذا ما مال إليه ابن القيم، لكن يحتاج إلى أدلة قوية ثابتة؛ لأنه خلاف الأصل الراسخ أن الاختبار في الدنيا قبل الموت وليس بعده.

والراجح أنهم في الجنة، كما في حديث الرؤية أنه ﷺ رأى إبراهيم عليه السلام وحوله صبيان؛ أولاد الناس، وفيه: «وأما الولدان الذين حوله، فكل مولود مات على الفطرة». فقال بعضهم : يا رسول الله ، وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين»[3].

* ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝﴾ [التكوير:١٠]:

﴿ٱلصُّحُفُ﴾ جمع صحيفة، وهي: الكتب، فآخذٌ كتابَه باليمين، وآخذٌ كتابَه بالشمال، فنَشْر الصحف هو: إعطاؤها لأصحابها، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

---

(١) أخرجه معمر في «جامعه» (٢٠٠٧٩)، ولُوَين في «حديثه» (٣٣)، وابن نصر - كما في «أحكام أهل الذمة» (٢/ ١١٣٠)- والبيهقي في «القضاء والقدر» (٥٦٧).

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٤٠٦) (١٩١٦٦)، و«أمالي الشجري» (١/ ٢٤)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٠٣)، و«أحكام أهل الذمة» (١/ ٩٤٤) وما بعدها، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٨٦، ٧٠٤٧).

ومن معاني النشر أيضًا: فتح الصحائف، فهي تُفَرَّق على أصحابها، منشورة؛ أي: مفتوحة.

* ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾ [التكوير:١١]:

وهذا في الآخرة، وليس في الدنيا، فكَشْطُ السماء مختلف عما جرى لها قبل ذلك مما ورد أنها تتشقَّق وتتمزَّق وتُفتَّح فتكون أبوابًا لنزول الملائكة، وهذه هي حالها في آخر الدنيا، أما كَشْطُ السماء هنا فمُوجِب السياق أنه يكون يوم القيامة بعد البعث.

و«الكَشْط» هو: الإزالة[1]، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨].

* ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ﴾ [التكوير:١٢]:

فيه إشارة إلى أن النار مخلوقة الآن، وهو ظاهر النصوص الشرعية، كما يقول الإمام الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان»[2].

ولكن يزاد يوم القيامة تسعير الجحيم.

* ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾ [التكوير:١٣]:

عَطَف الجنة على النار؛ ليقارن المكلَّف بينهما، والإزلاف هو: التقريب، وسُمِّيَت جَمْعٌ: مزدلفةَ؛ لأنه يقترب إليها الحجاج، والزُّلْفَى هي: القربى، وازدلف، يعني: تقرَّب، كما قال سبحانه: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ [ق:٣١]، أي: قَرُبت.

وفي هذا التقريب لأهلها إكرامٌ لهم، فكأنها هي التي تأتيهم أو تقترب منهم؛ إشادة بأعمالهم الصالحة وتقواهم التي تقرَّبوا بها إلى ربهم.

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (٧/ ٣٨٧).

(٢) ينظر: «العقيدة الطحاوية» (ص٥١).

* ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير:١٤]:

أي: علمت كل نفس ما أحضرت من الأعمال في كتابها، وقد جاء في بعض الآيات حكاية عن الكافرين أنهم عند أول وهلة من البعث لا يستوعبون حدث البعث العظيم فيتساءلون: ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾، فهم بين مصدِّق ومكذِّب، فيبهتهم الجواب: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس:٥٢]، وإذا بالمشاهد العظيمة تتوالى عليهم، كل مشهد أشد من سابقه.

فإذا حصل هذا: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾، أي: ما في يدها الآن، وفي سورة الانفطار: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار:٥]، وكل سياق له ما يناسبه، والمعنى هنا: علمت ما أحضرت في كتابها؛ لأنه قال: ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ [التكوير:١٠]، فالكتاب معها حاضر، فترى النفس ما في كتابها، سواء كان خيرًا أو شرًّا.

* وبعد ذلك انتقلت السياقات في الآية إلى موضوع آخر، وقَسَم رباني عجيب مهيب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴾ [التكوير:١٥]. يخنس؛ أي: يختفي، ومنه قيل للشيطان: الوسواس الخنَّاس؛ لأنه يوسوس، فإذا استعاذ منه الإنسان هرب، فـ«الخُنَّس» هي الأشياء التي تختفي.

* وفسرها هنا بـ﴿ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ [التكوير:١٦]؛ أي: التي تجري فتدخل في الكِناس وهو مكان الاختفاء، والعرب تسمي بيت الظبي: كِناسًا؛ لأن الظبي يختفي فيه، ومنه الكَنِيْسة أيضًا.

ويحتمل أن يكون المقصود بها: النجوم التي تظهر بالليل وتختفي في النهار[1].

قال بعض أهل العلم: إنها نجوم خمسة، وهي: عطارد، والمريخ، والمشتري، والزهرة، وزحل.

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٤٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٣٦-٢٣٧).

وقال بعض المفسرين: إن المقصود: النجوم كلها، وشبَّهها بالظباء؛ لأن النجم في خِفَّته وإشراقه وحركته يُشبه بالظبي، وهذا تشبيه حيوي بديع.

وقال بعضهم: إن المراد بالخنس: الظباء.

وقيل: بقر الوحش التي تشبه الظباء.

وقيل: المقصود الملائكة[1]. والأقرب القول الأول، وهو أن المقصود بها: النجوم، وهو أليق بالسياق، والليل والصبح[2].

* ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ [التكوير:١٧]:

﴿ عَسۡعَسَ ﴾ تحتمل معنى أقبل، ومعنى أدبر، والأظهر: أن المعنى شامل للصورتين؛ إقبال الليل وإدباره، فكلاهما يتحقق بالتدرج، وكأن عسعس على هذا من الأضداد.

* ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير:١٨]:

والمقصود بتنفس الصبح: شروقه، والتعبير بـ«التنفس» هنا في غاية الروعة، وهو يُوحي بالحياة والإشراق والتجدُّد والتغيير، وأن كل صبح يمرُّ عليك ينبغي أن يُحيي فيك يومًا جديدًا، فتتزود فيه بالطاعة، فهو على عملك شهيد، وإذا طُوِيَت صفحته فإنه لا يعود إلى قيام الساعة، وأن يبعث فيك الأمل والتفاؤل والثقة بها عند الله، والرغبة المتجدِّدة في النجاح والإنجاز وتخطِّي الصعاب، فما ليس ممكنًا بالأمس هو اليوم مقدور ومتاح.

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس يومٌ يأتي من أيام الدنيا إِلَّا يتكلَّمُ يقولُ: يا أيها

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢١٦، ٢١٧)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١٣١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٣٣٧)، «الدر المنثور» (١٥/ ٢٦٨).

الناسُ، إني يومٌ جديدٌ، وأنا على مَن يعملُ فيَّ شَهِيدٌ، وإني لو غربت الشمسُ لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة»(١).

* ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير:١٩]:

هذا جواب القسم، والمقصود القرآن، ولا يعني أن الرسول تقوَّله من تلقاء نفسه، ولكنه الْمُبَلِّغ به من ربه، ووَصْفُه بأنه ﴿رَسُولٍ﴾ يوحي بهذا، كما هو ظاهر.

والمقصود بهذا الرسول عند الجمهور جبريل عليه السلام(٢)، وصفه الله تعالى بستٍّ صفات كلها جليلة:

فأول وصف: ﴿رَسُولٍ﴾، والله تعالى يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس، فالرسل يكونون من الملائكة إلى الناس، ويكونون من الناس كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

الثاني: ﴿كَرِيمٍ﴾، والكرم: الشرف والفضيلة، ويكفي في كرمه أنه مبلِّغُ وحي ربِّنا سبحانه وتعالى إلى أفضل خلقه، وهم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومكانته عند الملائكة عظيمة.

* ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:٢٠]:

الثالث: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ ويكفي في قوته: أن الله سبحانه وتعالى لما أمره أن يحمل قرى قوم لوط، حملهم جميعًا على جناحه حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، وصياح

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٢٤)، وفي «كلام الليالي والأيام» (٢٢)، وابن الجوزي في «حفظ العمر» (ص٣٦).

وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٠٨)، وفي «كلام الليالي والأيام» (٦) من قول عبد الرحمن ابن زُبيد اليَامي نحوه.

(٢) ينظر: «الدر المنثور» (١٥/ ٢٧٣)، «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٨).

ديكتهم، ثم قلبها[1].

وأعظم من ذلك تحمُّله تبعات الوحي والتلقِّي عن رب العزة وحمل الرسالة للنبي البشريِّ.

الرابع: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، أي: صاحب مكانة عند الله، وأي مكانة أعظم من أن يكون رسول ربه إلى الرسل والأنبياء والمؤتمن على وحيه؟

* ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢١]:

الخامس: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ و﴿ثَمَّ﴾ ظرف، ومعناها: هناك، فهو مطاع عند الملائكة والملأ الأعلى، بمثابة الرئيس عليهم، وله عليهم الطاعة.

السادس: ﴿أَمِينٍ﴾ يعني: مأمون فيما كُلِّف به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يخل بشيء منه. فهذه الصفات الست لجبريل عليه السلام.

* ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢٢]:

والمقصود هنا محمد ﷺ، ووصفه هنا بـ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ على سبيل التذكير لهم بأنه لم يَفِدْ إليهم من غيرهم غريبًا لا يعرفون نسبه وسيرته، بل قد وُلِدَ ونشأ فيهم، وعرفوا أصله ونسبه وسيرته وخُلُقَه، وهذا ردٌّ على ما كانوا يَدَّعونه من أنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، كأن السياق هنا يقول: لا حاجة إلى مزيد من التفصيل في شأن محمد ﷺ، فأنتم تعرفونه، وهو ﴿صَاحِبُكُمْ﴾.

وفيه تحفيز للإيمان؛ لأن اختيار رسول منهم هو رفعة للجنس كله، وهو ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ عزه عزكم ونصره نصركم وأنتم أسعد الناس به.

---

(١) ينظر: «العقوبات» لابن أبي الدنيا (ص ٩٩-١٠٣)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٣٠٤-٣٠٦)، و«ذم اللواط» للآجري (ص ٣٨)، و«العظمة» لأبي الشيخ (٢/ ٧٩٨)، و«التبصرة» لابن الجوزي (١/ ١٥٧)، و«البداية والنهاية» (١/ ٩٩).

* ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير:٢٣]:

أي: الأفق البيِّن الواضح، فقد رأى النبيُّ ﷺ جبريلَ ﷺ في صورته التي خُلق عليها، وله ستمائة جناح، قد سدَّ ما بين السماء والأرض، وهذه هي الرؤية الأولى[١]، وكانت بالبطحاء، ثم رآه ﷺ بعد ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٣-١٥].

* ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ [التكوير:٢٤]:

و«الضنين» هو البخيل، وهناك قراءة سبعية (بظنين) بالظاء[٢]، والمقصود به المُتَّهم، أي: لم يكن متهمًا بسوء[٣].

* ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ [التكوير:٢٥]:

حيث كان الكفار يدَّعون أن القرآن من إلقاء الشيطان، كما يُلْقِي الشيطان على السَّحرة والكهنة والعرَّافين وغيرهم، فرد الله عليهم ذلك[٤].

* ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ [التكوير:٢٦]:

أي: قد أُغْلِقت الأبواب أمامكم، وليس لكم حجة أبدًا، فهذا مُنْزِلُ الوحي وهو الله، وهذا ناقله وهو جبريل ﷺ، وهذا مُتَلَقِّيه وهو محمد ﷺ.

وكان مِن مألوف كلام العرب قولهم لمَن عمل سوءًا أو قبيحًا يُلْمَز به: أين يُذهب بك؟ يعني: أين ذهب عقلك؟ فجاء القرآن بأسلوب مبتكَر، لم يكن موجودًا

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٣٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٦٩)، و«السبعة في القراءات» (ص ٦٧٣)، و«حجة القراءات» (ص ٨٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٠).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٧٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٧٧).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٠٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧١)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٤٣٩)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٢).

عند العرب، ثم استعملوه، وجرى عندهم مجرى المثل، وهو أقوى من قولهم: أي يُذْهَب بك؟ لأنه حين يقال: أين يُذهَب بك؟ كأنه يُعْطَى عذرًا بأنه ذُهب به بغير اختياره وإرادته، أما صيغة أين تذهب؟ فهي تحمِّله المسؤولية، وأنه هو الذي تعمَّد صرف وجهه عن الحق، والإعراض عن آياته.

* ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير:٢٧]:

فهو ليس سوى ذكر، ودعوة، وإصلاح، ووعظ، وبيان، وهدًى، ليس للعرب بخاصة، بل للعالمين كافَّة، بإنسهم وجِنِّهم، فهذه هي عالمية الإسلام، تأتي مؤكِّدة في أوائل السور المكية، وهي لفتة إلى دعاة الإسلام وأبنائه أن يأخذوا بعالمية الرسالة في الدعوة، وأن يطبِّقوه في أقصى درجات التمدن والحضارة، كما كانوا يطبِّقونه في أدنى درجات البساطة والضعف والتخلف، وأن يستوعبوا النماذج البشرية المختلفة وينقوا الرسالة من الإضافات المحلية الخاصة حين يريدون عرضه على العالمين، بل يقدموه بأصوله وقواعده الربانية وخياراته المتنوعة في التطبيق وسَعته وشموليته في احتواء الموروث الإنساني وتنقيته والتعامل معه.

* ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير:٢٨]:

يعني: هو مِن حيث تنزيله للعالمين هداية للناس كلِّهم، فليس دينًا إقليميًّا أو عنصريًّا، أما قبول الناس وعدم قبولهم فهو شأن آخر، فمِن الناس مَن يشاء الاستقامة، فيستقيم، فيكون القرآن ذكرًا عمليًّا له، ومنهم مَن لا يريد ذلك، وهو المسؤول المحاسب على اختياره.

وفي الآية الإشارة إلى أن الإنسان إذا أراد الخير هداه الله، ويَسَّر له أسبابه، ومهما تكن العقبات في النفس أو في المجتمع فإن الإرادة الصادقة تذلِّلها بإذن الله، وقد جاء في الحديث القدسي: «ومَن تقرَّب إليَّ شبرًا تقرَّبت إليه ذِراعًا، ومَن تقرَّبَ إليَّ ذِراعًا

تقرَّبت إليه باعًا، وإذا أقبل إليّ يمشي أقبلْتُ إليه أهرولُ»(١).

* ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩]:

فللإنسان مشيئته الخاصة به، وللرب المشيئة المطلقة التامَّة، وكثير من الناس يدخلون في جدال في القدر، هل العبد مُسَيَّر أم مخيَّر، وإذا كان الله قد قدَّر كلَّ شيء فلِمَ العملُ إذًا؟

وهو جدل لا ينتهي، على أن الإنسان يعرف بفطرته الضرورية المحسوسة أن له إرادة، فإذا تهدَّده خطر فرَّ منه بكل ما أوتي من قوة، وثَمَّةَ فرق بين إنسان يريد أن يصنع شيئًا فيصنعه، وبين إنسان يُجْبَر على شيء، ويُقْهَر عليه قهرًا، وبين إنسان يريد النزول فيأخذ الدرج، خطوة خطوة حتى يصل، وآخر يتم حمله قسرًا والرمي به أرضًا، وهذا القدر المدرك لعامة العقلاء يكفي أن يكون مناط التكليف والمحاسبة.

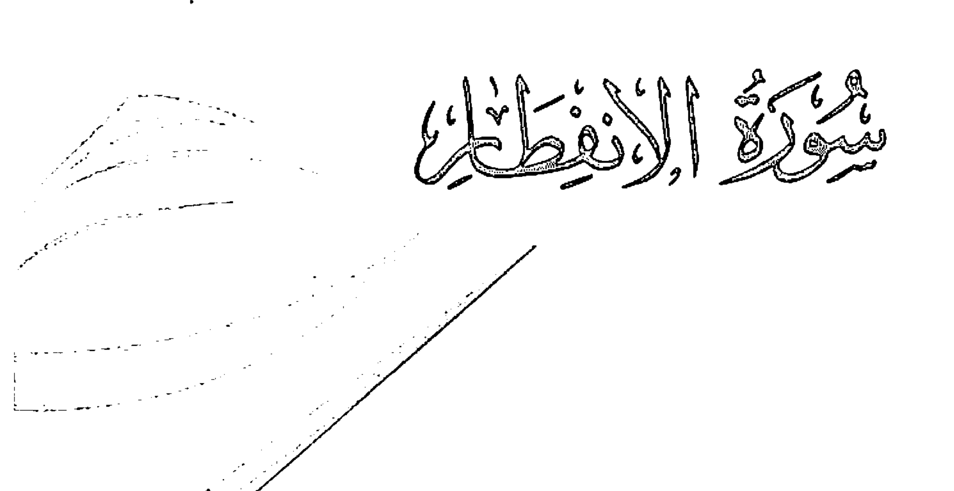
ثم مَن الذي يظن أن مشيئة الله سبحانه مشيئة عشوائية، فيريد لهذا الهدى، ولهذا الضلال، ولهذا الخير، ولهذا الشرَّ، بمعزل عن إرادتهم ورغبتهم الذاتية!

فالله تعالى حكيم، وقد علم من الأزل أنَّ مِن خلقه المؤمن والكافر، والبَرَّ والفاجر، وأن هذا من أهل الهداية، وهذا من أهل الشقاوة، فأراد الهداية لقوم والضلال لقوم، وهو يعلم ما أرادوه لأنفسهم، فهو قد علم وأراد، فلا يُظَن أن إنسانًا كان يريد الهداية، ولكن الله عوَّق مسيرته، ولم يُرِدْ له الهداية، أو أن آخر كان لا يريد الهداية، لكن أُكْرِه عليها جبرًا من الله، وإن كان الأمر الثاني ممكنًا من باب الفضل والرحمة؛ فالله تعالى قد يتدارك عبده ويرحمه فيهديه، لكن أن يريد الإنسان الهداية فلا تتحقق له؛ لأن الله لا يريدها له، فهذا لا يكون في حقيقة الأمر؛ لأن الله تعالى حكيم في أعماله، عادل في أحكامه، سبحانه وبحمده.

○ ○ ○

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

سورة الانفطار



سورة الانفطار

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ
بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦
ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ
٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ
١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا
يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ
يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار:١-١٩].

* تسمية السورة:

١ - الموجود في غالب المصاحف وكتب التفسير: «**سورة الانفطار**»[(١)]، وهو مصدر من ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾ كما مضى في «سورة التكوير».

٢ - «**سورة** ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾»، وهو الذي ورد في السنة، واعتمده البخاري في «صحيحه»، وبعض كتب التفسير[(٢)].

وفي «السنن» عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «**مَن سرَّه أن ينظر إلى يومِ القيامةِ كأنه رأيَ عينٍ، فليقرأْ:** ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾»[(٣)]. وهو من تسمية السورة بإحدى آياتها، وقد يتسامح بعضهم فيُسَمِّيها: «**سورة انْفَطَرَتْ**» اختصارًا[(٤)].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦١١)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٢٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٤٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٩).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٠)، و«معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٤٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٢)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٧-١٦٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٩).

(٣) أخرجه أحمد (٤٨٠٦)، والترمذي (٣٣٣٣)، وابن أبي الدنيا في «الأهوال» (١٩)، والحاكم (٤/ ٥٧٦).

(٤) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ٦٧٤)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ١٠٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٩).

* عدد آياتها: تسع عشرة آية باتفاق[1].

* **وهي مكية إجماعًا**[2].

* ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار:١]:

﴿إِذَا﴾ ظرف للمستقبل، وموضوع السورة عن أهوال يوم القيامة والساعة وما يجري فيها، وفي السورة تسلسل عجيب، فهي تبدأ بانفطار السماء، والمقصود بالسماء- في أبسط وأسهل معانيها- هذه القبة الزرقاء التي نشاهدها فوقنا، وإلا فإن لفظ السماء في اللغة يُطلَق على كل ما علا وارتفع؛ ولذلك العرب يُسمُّون السحاب: سماء[3].

هذه القبة التي نرفع أبصارنا فنراها في أجمل صورة، ها هي تنفطر وتنشق، والله تعالى خاطبنا بمقتضى ما تراه أبصارنا؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك:٣-٤]، يعني: لو كَرَّرْت النظر إلى السماء التي فوقك مرة بعد أخرى، فلن ترى فيها صدوعًا ولا فطورًا في الدنيا، وإنما ترى منظرًا جميلًا مُدْهِشًا عظيمًا في زرقة تحاكي زرقة البحر.

ولكن هذه السماء التي نراها بهذه الصفة تتغير حالها يوم القيامة، وتتفطَّر وتتشقَّق، فهي لا تكون يوم القيامة كما نراها الآن، وإنما تبدو متهتّكة متمزِّقة، وقد يكون هذا لنزول الملائكة، وقد يكون لانفطارها بالغمام، وقد يكون بشيء آخر، والقرآن الكريم يخاطب كل الناس، لا يخاطب الفلاسفة وحدهم، ولا علماء الفلك،

---

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٦٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧).

(٢) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٥٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٦٩).

(٣) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٣/ ٧٩)، و«تاج العروس» (س م و) (٣٨/ ٣٠٣).

ولا المتخصِّصين؛ ويفهمه القارئ العادي كما يفهمه المتخصِّص.

* ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار:٢]:

و﴿ ٱلْكَوَاكِبُ ﴾ هي النجوم، وهي ذات علاقة بالسماء؛ فقد جعلها زينةً لها، وفي ذلك اليوم ينخرم نظامها ويتناثر عقدها.

و«الانتثار» هو وقوع الأشياء على الأرض على غير انتظام، لكن إذا كان على غير الأرض، فهل يُسمَّى نثرًا؟

هذا وارد على سبيل المجاز، كما في قوله سبحانه: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، والهباء المنثور ليس على الأرض، وإنما هو في الهواء.

فيكون معنى النثر: التفريق غير المُرتَّب، سواءً كان على الأرض أو على غيرها.

والمقصود خروج الكواكب عن مداراتها؛ لأن الله تعالى جعل لها نظامًا دقيقًا، وفي ذلك اليوم تضطرب، وتخرج عن سياقها المعتاد، وتَسْبَح في الفضاء على غير مسارها، ويترتَّب على ذلك تضاربها وتصادمها، وسقوطها على الأرض، كما تفيده الآية الأخرى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ [التكوير:٢].

بدأ السياق بالسماء؛ لأنه عادة ما يكون الهدم من أعلى، فإذا أراد إنسان أن يهدم بيتًا أو بناءً بدأ بهدم أعلاه، وهذا فيما إذا كان الهدم مقصودًا، أما الهدم الذي يكون بغير اختيار، بسبب الأعاصير أو الفيضانات أو الزلازل، فليس له نظام، وهكذا جاء الأمر هاهنا مرتَّبًا من الأعلى؛ لأنه مقصود، فأول ما بدأ بذكر السقف، وهو السماء وما يتعلق بها وهي النجوم، ثم انتقل بعد ذلك إلى البحار.

* ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ [الانفطار:٣]:

قال بعضهم: تفجير البحار أن يُفْتَح بعضها على بعض، وتزول الحدود والبرازخ

بينها، فيتصل بعضها ببعض وتصبح بحرًا واحدًا[1].

وقيل: انفجارها أن يخرج الماء على اليابسة[2].

وقيل: انفجارها: أن تيبس ويذهب ماؤها[3].

وثمة معنًى رابع قَلَّ مَن ذَكَرَه، وهو أن المقصود أن تنفجر وتلتهب نارًا.

ويدل على هذا المعنى: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٦]، فإن التسجير هو الإحراق، وكما قال تعالى: ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ [الطور:٦].

فالماء الذي يطفئ النار يتحول يوم القيامة إلى نارٍ تتلهَّب وتتلظَّى، وهذا اختيار إمام المفسِّرين مجاهد، ونُقِل عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه سأل يهوديًّا: أين جهنم؟ فقال اليهودي: البحرُ. فقال علي ﷺ: والله ما أُراه إلا صادقًا، ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ [الطور:٦]، ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير:٦][4].

* ثم انتقل إلى اليابسة: ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار:٤]، والقبور في اليابسة، وكأن هذا من تسوية الأرض، فالإشارة إلى بعثرة القبور تنبيه على مجموعة حوادث تقع على الأرض، منها قوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة:١-٢].

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٢)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٧١).

(٣) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٣).

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٠٧)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٥٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٠٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٦٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٦١)، (١٩/ ٢٣٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٣٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٧٠).

فالأرض تُخْرِج ما فيها، ومن ذلك: أن تُخْرِج ما في باطنها من الناس، وهكذا يسوِّي الله تعالى الأرض، فلا يكون فيها مرتفَع ولا منخفَض وتتحول إلى أرض مستوية، بعدما تُخْرِج ما فيها من الكنوز والأموات وغير ذلك.

﴿ بُعْثِرَتْ ﴾ أي: أُثيرت، وفُتحت، وأُخْرِج ما فيها. فكأنك تشاهد الأرض وهي كلها أو جُلُّها قبور، كما يقول أبو العلاء المَعَرِّي:

صاحِ هذي قبورُنا تملأُ الرَّحْـ ـبَ فأينَ القبورُ مِن عهدِ عادِ
رُبَّ لَحْدٍ قد صار لَحْدًا مرارًا ضاحكٍ من تزاحُمِ الأضدادِ
ودفينٍ على بقايا دفينٍ في طويلِ الأزمانِ والآبادِ[1]

والحوادث مختصَرة هنا، في حين أنها قد فُصِّلت في سورة: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾، وقد ختمها الله سبحانه هنا ببعثرة القبور، وأن هذا الحدث ليس عشوائيًّا أو عاديًّا، وإنما هو اليوم الموعود المُرتَّب المقصود، المضروب للجزاء والحساب.

* ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار:٥]:

أي: إذا وقعت تلك الحوادث العظيمة، حينئذ تعلم كلُّ نفس ما عملت من خير أو شرٍّ، وأهل اللغة والأصول يقولون: إن النكرة في سياق النفي تفيد العموم. فإذا قلت: لم يأتِ أحد، فهو نفي مُطلَق، أما إذا كانت في سياق الإثبات كما هنا: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾، فهي لا تدل على العموم بذاتها إلا بالسياق، فالسياق هنا أبلغُ مِن كل كلام، فقوله هنا: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾، أبلغ مِن أن يقول: علمت كلُّ نفس ما قدَّمت وأخَّرت؛ لأنه حين يقال: (كل) ينتقل الحديث للعامَّة، والعادة في الحديث العامِّ أن كل واحد يظن أنه غير مقصود به؛ لكن إذا قال: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ فكل واحد يشعر أنه هو

(١) ينظر: «تاريخ بغداد» (٤/ ٤٦٤)، و«الحماسة المغربية» (٢/ ٨٨٠)، و«إنباه الرواة على أنباه النحاة» (١/ ٨٢)، و«مسالك الأبصار» (١٥/ ٤٤٦).

المقصود. وهذا من جليل المعاني، وبليغ المواعظ؛ لأن من البلاء أن يشعر كل أحد أن الخطاب موجَّه إلى غيره، فلا يستفيد منه، بخلاف ما لو أدرك كل إنسان أنه هو المخاطب دون غيره، أو قبل غيره.

﴿ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾: هذا من الإعجاز، فهو لم يذكر ماذا قدَّمت، وماذا أخَّرت، لأنها سوف تعلم حينئذ ماذا قدَّمت من الأعمال، وماذا أخرت، تعلم العمل ذاته، فتذكره إن كانت ناسية، وتحيط بها لم تحط به من قبل، وتعلم ثوابه وجزاءه وقيمته.

«تعلم ما قدمت» أي: ما عملت، و«ما أخرت» فلم تعمله، بل أجَّلت وسوَّفت وما قدمت من الصالحات لنفسها، وما أخرت وما عملت من خير يقدِّمها أو شر يؤخِّرها للورثة، فإن مال الإنسان ما قدَّم، ومال وارثه ما أخَّر.

ولا أحد يموت إلا وعنده أعمال كان ينوي أو يهم أن يعملها، وقد تكون خيرًا، فإن كانت كذلك أُجر عليها، ولكنها ليست كالأشياء التي عملها وباشرها، وكما قيل:

نروحُ ونغدو لحاجاتنا وحاجةُ مَن عاش لا تنقضي(١)

فالآية تحثُّ على:

- تقديم العمل الصالح.
- المبادرة، وعدم التأجيل والتسويف، وكان بعض السلف يقول: «أنذرتكم سوف».
- إيثار الآخرة، فهي خيرٌ وأبقى، وألَّا ينشغل عنها بالعاجل.

---

(١) ينظر: «الحيوان» للجاحظ (٣/ ٢٣٠)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٤٩٣)، و«الكامل» للمبرد (٣/ ١٣٥)، و«المجالسة» (٨/ ٢٠) (٣٣١١)، و«أدب الدنيا والدين» (ص ٤٧) منسوبًا إلى الصَّلَتان العبدي.

- وترشد إلى أن التقدم هو بالعلم والعمل، وليس بالأماني والظنون، فلا ينفع المرء أن يكون مولودًا في أرض مباركة، ولا أن يكون من قبيلة أو شعب أو عائلة، حتى لو كان من قريش، أو آل بيت النبي ﷺ، أو من ذُرِّيَّته، وكل الناس أولاد أنبياء، وفي الحديث: «مَن بطَّأَ به عملُه، لم يُسْرِعْ به نَسَبُه»[1].

لا ينفع إلا العلم النافع، والعمل الصالح، سواءً كان من الأمر الأخروي، أو من الأمر الدنيوي.

يقول سلمان الفارسي رضي الله عنه: «إن الأرض لا تقدِّس أحدًا، وإنما يقدِّسُ الإنسانَ عملُه»[2].

وهذا يبيِّن أن العمل معنًى مُقَدَّس في الإسلام، و«مَن أمسى كالًّا مِن عملِ يديه أمسى مغفورًا له»[3].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦]:

خطاب قوة وجزالة لجنس الإنسان، الذي هو صاحب النَّفْس، وتكريس لمعنى الإنسانية، وأنها محلُّ التكليف، ومناط التشريف، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، وقد جعل الأنبياء والرسل من بني آدم، وخاطب الإنسانَ مباشرة.

وأيُّ تعظيم أكبر من أن يُخاطِب اللهُ الإنسانَ، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾.

قرأ الرسول ﷺ سورة البيِّنة على أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه، وقال له: «إنَّ اللهَ أمرني أن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٧٦٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٠٥)، واللالكائي (١٧١٨)، وابن عساكر (١/ ١٥٠).

(٣) ينظر: «المعجم الأوسط» للطبراني (٧٥٢٠)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٦٢٦).

أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ﴾». قال: وسمَّاني لك؟ قال: «نعم». قال: فبكى[1]، عندما ذكر رب العزة اسم أُبَيٍّ رضي الله عنه، كان هذا شرفًا له، لم يخطر على البال، ولو بلغ أحدَنا أن أميرًا أو وزيرًا أو عالمًا ذكره في مجلسه بذِكْرٍ حسن، استطار من الفرح، فكيف إذا علم أن ربَّ العزة قد ذكره؟!

وذِكْره سبحانه يحصل لمَن ذكره وتوكَّل عليه، كما في الحديث القدسي: «إنْ ذكَرَني في نفسِه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ هم خيرٌ منهم»[2].

والقرآن ذِكْرٌ، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:٤٤].

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾: أي: ما الذي جعلك تغترُّ بربِّك الكريم، وتنساه؟! أي: أغرَّك كذا، أم غرَّك كذا؟

والمقام مقام تهديد؛ وسياق أول السورة يدلُّ عليه، وهنا تودُّدٌ وتلطُّفٌ؛ إذ جاء في الآية قوله: ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ جاء بلفظ الربوبية، ووصف الله بالكرم، ولم يقل: (بربِّك المنتقم)، أو (الجبَّار)، أو (ذي البطش الشديد)، أو (ذي العذاب الأليم)، وقد ورد عن الفُضَيل بن عياض رحمه الله أنه قال: «لو قال لي: ما غرَّك بي؟ قلتُ: غرَّني بك ستورُك المرخاةُ»[3]. أي: سترك الدائم عليَّ.

وقال آخر: لو سألنا: ما غرَّكم بي؟ لقلنا: غرَّنا كرمُك.

والعرب أحيانًا يعتبرون كرم الإنسان سببًا في جرأة أهله عليه، يُروَى أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه نادى أحدَ غلمانه فتأخَّر عليه، وكان واقفًا في الباب، ثم رآه عليٌّ، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٤٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٤٥٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١١)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٨٢).

ما لك لم تجبني؟ قال: لثقتي بحلمك وأمني من عقوبتك[1].

ومن كلام العرب: مِن كَرَمِ الرجل سوءُ خلقِ غلمانه[2].

وهذا ليس قاعدة مُطَّرِدة، لكن الناس يعرفون الكريم، فيجرؤون عليه أكثر ممن يخافون بطشَه وعقابَه، والخوف ليس هو الأولى، ولا الأول، وإنما الرجاء والحب قبل الخوف، ومما يناسب هذا السياق قول قيس بن زهير يرثي الربيع بن زياد العبسي:

تعلَّم أنَّ خيرَ الناسِ ميْتٌ ... على جفر الهباءةِ ما يريمُ

ولولا ظلمه ما زلتُ أبكي ... عليه الدهرَ ما بدت النجومُ

ولكن الفتى حمل بن بدرٍ ... بغى والبغيُ مصرعُه وخيمُ

أظنُّ الحِلْمَ دلَّ عليَّ قومي ... وقد يُسْتَجْهلُ الرجلُ الحليمُ

ومارستُ الرجالَ ومارسوني ... فمعوَجٌّ عليَّ ومستقيمُ[3]

وهل هذا السياق: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ يفضي إلى أن الإنسان يتجرَّأ على ربِّه؟

كلا، فالعاقل يزيده هذا مهابة وخجلًا، كما قال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣]، ومثل قوله سبحانه: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠]، ومثل قول النبي ﷺ: «لو لم تذنبوا، لذهبَ اللهُ بكم، ولجاء بقومٍ يُذنبون فيستغفرون اللهَ فيغفرُ لهم»[4].

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧١٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٧٥)، و«فيض القدير» (١/ ١٢٨).

(٢) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ١٩٧)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «أمثال العرب» للضبي (ص ٩٧)، و«أنساب الأشراف» (١٣/ ١٣٥)، و«العقد الفريد» (٦/ ٢٣)، و«أمالي القالي» (١/ ٢٦١)، و«شرح ديوان الحماسة» (ص ١٦٤)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٨/ ٣٧٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وبعض الناس قرأ هذا الحديث وقال: هذا إغراء بالذنب. والحق أنه ليس إغراءً بالذنب، بل إشارة إلى ما جُبِل عليه الإنسان من الضعف والنقص والميل للشهوات، ولئلا يتحوَّل وقوعه في الخطأ إلى قنوط ويأس من رحمة الله، وفي الحديث: «إنَّ اللهَ عز وجل يبسطُ يدَه بالليلِ؛ ليتوبَ مسيءُ النهارِ، ويبسطُ يدَه بالنهارِ؛ ليتوبَ مسيءُ الليلِ»[1].

فهو عتابٌ يحمل الإنسان على أن يستحي من الله، فيكون الحياء وازعًا يردف وازع الخوف، والمعرفة بكرم الله ولطفه ورحمته، تدفع إلى الطاعة وتَرْكِ المعصية، وتفعل ما لا يفعله الخوف.

وكذلك يُحْمَل على معنى آخر، وهو الخوف من غضب الكريم، فإذا فرَّطت ولم تصل إلى رحمته، ولا فزت برضوانه، فهلاكك مُحَقَّق، ولا يهلك على الله إلا هالك.

* ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار:٧]:

هذا من معاني الربوبية ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، ولكنه تفصيل بعد إجمال، فخلق أصل المادة التي خَلَقَ منها الإنسان، وخَلَقَ منها آباءك وأجدادك، خَلَقَ التراب الذي خَلَقَ منه آدم، فأصل الخَلْق الذي هو الإيجاد من عدم هو لله تعالى خاصة.

﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ ومعنى التسوية: خَلْقُ أجزاء الإنسان باستقامة وتناسُب، لا انحراف فيه، ولا قبح في أصل خِلْقته. وهذا عامٌّ في المخلوقات من إنس وحيوان... إلخ.

﴿فَعَدَلَكَ﴾، دليل على تخصيص الإنسان بمزيد نعمة، وهي خَلْقُه في أحسن تقويم وفي صورة جمال. وفي قراءة سبعيَّة: (فعدَّلك) بالتشديد[2]، والمعنى واحد،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٧٨)، و«السبعة في القراءات» (ص ٦٧٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٨٢)، و«حجة القراءات» (ص ٧٥٢)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٣٣٦-٣٣٧).

فإن العدل والتعديل في خلق الإنسان أظهر حيث قامته واستقامته ومشيه على قدميه وقيامه وقعوده وتميز صفته وشكله عن بقية الحيوان.

* ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٨]:

﴿مَا﴾ مصدرية أو صِلة، فالمقصود أن الله تعالى يركِّبك في أي صورة يشاء.

والآية تحتمل ثلاثة معانٍ:

١- في أي صورة شاء الله تعالى ركَّبك من الصور الموجودة، فكل واحد من الناس يختلف عن الثاني، فلا تجد اثنين متفقين في كل شيء، حتى التوائم الذين يتشابهون، إذا أَطَلْتَ مُجالستهم أدركت الفروق بينهم، ولكل إنسان بصمة تختلف عن غيره، وكذلك حدقة العين، ونبرة الصوت.

فهو قد ركَّبك على صورة أشبه بآبائك، وهذا أشبه بأعمامه، وفي الشكل والطول والملامح والصوت والشعر والأصابع والصفات الظاهرة والباطنة يبدو كل إنسان مختلفًا عن غيره.

وفي الحديث أن رجلًا قال: إنَّ امرأتي ولدت غلامًا أسودَ؟ فقال النبيُّ ﷺ: «هل لك من إبل؟». قال: نعم. قال ﷺ: «فما ألوانُها؟». قال: حمرٌ. قال ﷺ: «هل فيها من أورقَ؟». قال: إن فيها لوُرْقًا. قال ﷺ: «فأنَّى أتاها ذلك؟». قال: عسى أن يكون نزعه عرقٌ. قال ﷺ: «وهذا عسى أن يكونَ نزعَه عرقٌ»(١).

ومعنى نزعه عرق، أي: وراثة، لعلها من جدِّه الرابع أو الخامس، ولم تظهر إلا في هذا المولود الجديد.

٢- أن الله تعالى قادر على تركيب الإنسان في صورة أخرى غير الصورة المعهودة، كصور الحيوانات التي يراها الإنسان فيستقبح شكلها أو هيئتها.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١٤)، ومسلم (١٥٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٣- أن يكون المقصود شمولية الصورة، صورة الجسد، وصورة الروح والخلق، وهذا معنى جميل، ولا يتعارض مع المعنيين السابقين، قال بعض السلف: قد يكون الإنسان في صورة الحمار في بلادته، أو في صورة الخنزير في شَرَهِهِ أو ضعف غيرته، وقد يشبه طائرًا أو حيوانًا في صفة رديئة يتلبسها وينطبع بها.

فالجمال أو القبح لا ينحصر في ملامح الشكل وحُسْن الوجه.

وربما رأيت إنسانًا لأول وهلة فيعجبُك حُسْنُ مظهرِه وجمالُ ملامحه، فإذا جالستَه وخالطتَه، نفرت منه، ولذا يجدر بالباحث عن شريك أن يعتني بجمال الروح والعقل والأخلاق، فهو الذي يبقى بعد ذبول الجسد، وهو الذي يُشْعِرُك أنك تعيش مع إنسان بمعنى الإنسانية، ولست أمام تمثال من الجمال الجسدي أو الحسِّي المحض، فالجمال مطلوب، لكن بمعناه الواسع، وهذا داخل في قول النبي ﷺ: «**إن الله جميل يحبُّ الجمال**»[1]. أي: مما يقدر عليه الإنسان ويستطيع أن يكتسبه.

* ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:٩]:

﴿كَلَّا﴾ نفي للكلام السابق لمَّا قال: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، وقد يقول قائل: غرَّني كذا، وغرَّني كذا. فجاءت الآيات لتنفي هذا كله، وتقول: ما غرَّك إلا شيء واحد، وهو التكذيب بيوم الدين.

و«الدين» هو الجزاء والحساب، والمقصود به هنا: يوم القيامة، والدينونة أن يدان الإنسان ويُجازى بما عمل خيرًا أو شرًّا؛ ولهذا قال الأئمة: «التكذيب بيوم الدين جماع الذنوب».

وحين تتأمَّل القرآن تجد هذا واضحًا؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:٢٧]، وقال: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص:٤٦].

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود ﷺ.

فمدح الله الصالحين بالإيمان بيوم القيامة وذكره، وذمَّ الفجارَ بالتكذيب، وقال في المطففين: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ [المطففين:٤]، وهذا يدل على أهمية الإيمان بيوم الحساب في حسِّ المؤمن وعقيدته، وأنه لا ينبغي أن يكون صوريًّا شكليًّا، لا يحمل على طاعة، ولا يردع عن معصية.

وعندما نتعلم العلوم في مدارسنا، وكُتُبِنا، وحلقات علمنا؛ علينا أن ننظر، هل ما درسناه يزيد اليقظة والإيمان في ضمائرنا؟ هل يحيي نفوسنا ويبعث فينا الخير؟ ويَئِد فينا عوامل الشرِّ؟ أم أنها مجرد معلومات تُضاف إلى مثلها؟!

وقوله: ﴿ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾، خطاب للمكذِّبين، لكن هل الإنسان الذي خُوطب بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ هو الإنسان الكافر، أو أن الخطاب عام؟

الأقرب أن خطاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ موجه لكلِّ إنسان، ثم خصَّ الله المكذِّبين بالدين بخطاب آخر.

* ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]:

﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ لفظ يدل على الاستعلاء، فهم فوقكم، ومكانتهم منكم مكانة السلطان والرَّقيب الذي له فوقية ومكانة؛ لأنه مبعوث من الله عز وجل، فقال: ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ وليس (معكم)، فهم مسؤولون عنكم، مُسَلَّطون على أعمالكم وأقوالكم بكتابتها وتدوينها.

وصف الله سبحانه وتعالى هؤلاء الحفظة بأربعة أوصاف:

١ - الحفظ، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴾ [الانفطار:١٠]، ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق:٤]، ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد:١١]، ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام:٦١]، فهم حافظون أو حَفَظَة.

والحِفْظ شامل، ومن معانيه أن يرقب ما تقول وما تعمل فيكتبه لك أو عليك، وأن يحفظك أنت، حتى إذا حلَّ القَدَر أسلمَك إلى قَدَرِك.

٢- **الكرم**: فهؤلاء الملائكة كرام، وأرسلهم ربك الكريم، وهم معك وعليك، والتذكير بهذا الوصف يستدعي أن تستحيي منهم، وقد جاء في الحديث: «**إيَّاكم والتعرِّي؛ فإن معكم مَن لا يفارقُكم إلا عند الغائط، وحين يفضي الرجلُ إلى أهلِه؛ فاستحيوهم وأكرموهم**». وفي سنده نظر[1].

والمَلَك مخلوق كريم يراقبك ويلاحظك، وهذا مدعاة للحياء، حتى لو كنتَ منفصلًا عن الناس منفردًا، فتخشى أن يراكَ الْمَلَك على ما لا يحسُن، ولو أن أحدًا وَجَدَهُ: أبوه أو أخوه أو صديقه بحالة لا تسرُّ، لاستحى، فكيف إذا عرفت أن هذا المَلَك معك على الدوام ولا يفارقك إلا بالموت؟!

نحن نصحب كرامًا من الملائكة وهذا يستدعي أن نتحلَّى بمكارم الأخلاق ونقتبس من ملائكيتهم الطهر والصفاء.

٣- **الكتابة**: أي: يسجِّلون كل شيء، وهذا من معاني الحفظ، ولو لم توثَّق أعمال الإنسان لأمكنه أن يجادل، ويجحد، لكن كل شيء مكتوب ومسطور: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾ [الإسراء:١٣-١٤]، ولا مانع أن يكون التوثيق بعدة صيغ، منها: كتابة الملك، ومنها: الحفظ الذي قد يعني التصوير المتقن لكل ما يحدث والاحتفاظ به، ولذا يرى الإنسان أعماله يوم القيامة عيانًا.

٤- ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾، فقد زوَّدهم الله بالمقدرة على أن يعلموا كل شيء مما من شأنه أن يُحفظ أو يحاسب عليه من قول أو فعل، بل وما يخطر في قلبك من المعاني التي يُثاب عليها أو يُعاقَب؛ لأنها مِن فِعْل القلب، بل هذا من أعظم الأفعال؛ وأن أفعال القلب أصل لأفعال الجوارح، فطاعات القلب أصل لطاعات الجوارح، مثل:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٠٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وينظر: «إرواء الغليل» (٦٤)، و«السلسلة الضعيفة» (٦٠٠٦).

الإيمان، والرجاء، والحب، والخوف.

ومعاصي القلب أصل لمعاصي الجوارح، مثل: الشك، والشبهة، والحسد، والكبر..

كيف يعلم الملائكة ما في القلوب؟

يمكن الجواب عن ذلك بأن ربنا سبحانه أقدر هؤلاء الملائكة على المهمة التي أوكلها إليهم، فجعل لهم قدرة على معرفة كل ما يتعلَّق بعملهم، بما في ذلك همُّ العبد وخطرات قلبه، وقد جاء في «الصحيح»: «**إن اللهَ كتبَ الحسناتِ والسيئاتِ، ثم بيَّن ذلك، فمَن همَّ بحسنةٍ فلم يعملْها، كتبَها اللهُ عنده حسنةً كاملةً، وإنْ همَّ بها فعملها، كتبَها اللهُ عز وجل عنده عشرَ حسناتٍ إلى سبعمائةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وإنْ همَّ بسيئةٍ فلم يعملْها، كتبَها اللهُ عندَه حسنةً كاملةً، وإنْ همَّ بها فعملها، كتبَها اللهُ سيئةً واحدةً**»[1].

فلا يفلت منهم شيء: ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر:٥٣].

* ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار:١٣]:

و﴿ ٱلْأَبْرَارَ ﴾: جمع بَرٍّ، والبَرُّ هو مَن يفعل البِرَّ، قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ ... ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والنعيم الذي وعده الله للأبرار عام، شامل للدنيا والآخرة، كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، فهم في نعيم تامٍّ يوم القيامة، ويصلهم مِن ذلك وهم في البرزخ وفي قبورهم، ويصلهم وهم في الدنيا من السرور والبهجة وقرَّة العين والرضا والأنس بالله ما تسعد به نفوسهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

* ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار:١٤]:

وهم أهل الفجور ﴿ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [المطففين:١١]، فهم في الآخرة في جحيم.

* ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الانفطار:١٥]:

﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾: أي: يدخلونها[1].

وقيل: ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ من «الصَّلْي»، وهو معروف؛ يقال: «صَلَى الشاة»، إذا شواها، فكمال العذاب بالنار كيًا وشيًا يكون في الآخرة، وفي قبورهم يُفتَح لهم باب من النار، فيصلهم من عذابها[2]، وفي الدنيا يصلهم من الشقاء والعذاب النفسي والضيق، وإن كان منهم مَن يكون في أهله مسرورًا بمظاهر الحياة، لكن في قلبه قلق وتوتر.

ولا يمنع هذا أن يعاني المسلم آلامًا وأمراضًا نفسيَّةً، ابتلاءً من الله من أجل أن يُثاب عليه إذا صبر، مثل ابتلاء الإنسان بأمراض البدن، ولكن هذا المصاب بالمرض لو كان كافرًا، فسيكون مرضه أضعاف ما هو عليه، فإذا تصوَّرناه مؤمنًا، وجدنا لو كان الإيمان خير دواء مسكِّن أو مزيل لهذا المرض الذي يعانيه.

وهي أمور نسبية، وقد يرتبك مَن يحاول أن يقرأ حالة كل إنسان على انفراد، أما القاعدة العامة فهي ظاهرة أن الإيمان من أعظم أسباب السعادة وزوال الآلام واحتمال المصائب.

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ٢٤٣)، (٣/ ١٧١، ٤١٦)، و«تفسير السمعاني» (٤/ ٤٤٩)، (٥/ ٣٨٧)، (٦/ ١٧٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٧٨)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٢٠٣)، و«روح البيان» (٦/ ٤٨٥)، و«فتح القدير» (٤/ ٥٠٥)، و«روح المعاني» (١٢/ ٢٠٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٩)، و«روح البيان» (٦/ ٤٨٥)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٢٦)، و«تفسير السعدي» (ص٩١٤)، والمصادر السابقة.

وقوله: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ لا يعني حصر صليهم بالنار في يوم الدين، بل ذلك هو كمال الصَّلْي، وينالهم شيء من الصَّلْي في قبورهم في البرزخ وفي الحياة الدنيا.

* ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ [الانفطار: ١٦]:

أي: لا يُرفَع عنهم العذاب ولو لحظة واحدة، ولا يُخَفَّف عنهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [غافر:٤٩-٥٠]. بل يبلغ بهم الحال أن يسألوا الملائكة الموت: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ... ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقد تأمَّلتُ التعبير بقوله: ﴿ بِغَائِبِينَ ﴾ فوجدت أمثال هؤلاء في الدنيا يحضرون ويغيبون، يحضرون عند الطمع والشهوة والمتاع، ويغيبون عند الجد والموعظة والخير والمبادرة والإحسان، فكان من المناسب أن يقال: ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾، وقد يجوز أن يكون بعض مَن نزلت فيهم السورة من مشركي مكة؛ كانوا لا يطيقون أن يحضروا مجالس المؤمنين، ولا أن يستمعوا إليهم، فكانت العقوبة أنهم لا يغيبون عن نار جهنم يومًا ولا بعض يوم ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾.

* ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ [الانفطار: ١٧-١٨]:

والتكرار له معانٍ وأسرار، فمنها:

١- أن يكون لتأكيد المعنى، ولَفْت ذهن السامع إلى يوم الدين وعظمته البالغة، كما قال عز وجل: ﴿ الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة:١-٣]، ﴿ الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ [الحاقة:١-٣]:

أو يكون المعنى أنه لما قال: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ أن الإنسان المؤمن تخيَّل اليوم العظيم، الذي تتفطَّر فيه السماء، وتُنثَرُ الكواكب، وتنكدر النجوم،

وتتفجر البحار، وتُبَعْثَر القبور، وربما وقع في ذهنه تصوُّر هذا اليوم، فتأتيه الآية لتقول له: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾، أي أن الأمر الذي تخيَّلته أو تصوَّرته أو انقدح في ذهنك؛ ليس بشيء بالقياس إلى حقيقة يوم الدين، ولو أن الإنسان ضاعف طاقته التخيُّلية والتصوُّرية عشرات، بل آلاف المرات ما استطاع أن يتخيَّل ذلك اليوم؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الجنة مما في دنياكم إلا الأسماء»[1]. ﴿ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ [البقرة:٢٥].

والجنة - كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه - فيها: «ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾ [السجدة:١٧]»[2].

٢- أن يكون التكرار إشارة إلى أهل الجنة، وأهل النار، فتكون إحدى الآيتين لأصحاب الجنة، وكأنه قال: ما أدراك ما أعدَّ الله تعالى للأبرار، ممن هم في نعيم من ألوان السرور، والمتعة، والنعمة التي لا تخطر على بالهم؟

والثانية لأصحاب النار، أي: ما أدراك ما أعدَّ الله تعالى للفجار من العذاب والنكال، والأغلال والوبال؟ والمعنيان متقاربان.

* ﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار:١٩]:

نفى أن تملك أي نفس لأي نفس أي شيء على الإطلاق: ﴿ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾، فهو لله في الدنيا والآخرة، لكن في الدنيا قد يبدو أن الناس يعملون أو يتسبَّبون، أما في ذلك اليوم فقد تجلَّت الحقيقة للناس جميعًا، بل للثقلين ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ

(١) أخرجه هناد في «الزهد» (٣، ٨)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر:١٦]، فالأمر لله، ولا تملك نفس لنفس شيئًا إطلاقًا، لا خيرًا ولا شرًّا.

والآية لا تعارض الشفاعة؛ لأن الشفاعة إذن من صاحب الأمر: ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾، وهؤلاء لا يملكون لأنفسهم شيئًا، حتى الأنبياء شعارهم وحديثهم يوم القيامة: «اللهمَّ سلِّم سلِّم»[1].

○ ○ ○

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة ﵁.


سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

سورة المطففين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ
يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ (٦) كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ (٧) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٩)
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا
تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن
رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلَّآ
إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ
(٢١) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤)
يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦)
وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟
فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢) وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ (٣٣)
فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا
كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين:١-٣٦].

* تسمية السورة:

١- عُرِفت السورة في كتب الحديث بـ: «سورة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾»، كما في «صحيح البخاري»، و«السنن»، وغيرها[1].

٢- وغالب كتب التفسير على تسميتها: «سورة المطففين»[2] اختصارًا.

٣- وقد ذكر بعض المتأخرين أن من أسمائها: «سورة التطفيف»[3]، وهذا على سبيل التصرُّف واستخراج المصدر من أصل الفعل.

* عدد آياتها: (٣٦) آية بالاتفاق[4].

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٣)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٧)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩١)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ١٧١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧١١)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٢٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٥)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

(٣) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٦٧)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص ٣٩٢)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٤) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٦٧)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص ٣٢٠)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٣).

* واختلف المفسرون في نزولها:

فقيل: مكية، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «نزلت بمكة»[١].

وقيل: مدنية، وهو اختيار ابن عباس رضي الله عنهما[٢].

وذكر الواحدي وغيره في «أسباب النزول» عن السُّدِّي أن سبب نزولها أنه كان رجل في المدينة عنده مكيالان، أحدهما كبير يكيل به لنفسه، والثاني صغير يكيل به للناس. وهذا ضعيف[٣].

وقيل: فيها المكي والمدني[٤].

وقيل: نزلت بين مكة والمدينة، ذكره جابر بن زيد وغيره[٥]، وهو جيد من جهة أنه يجمع بين الأقوال، لأن الذين قالوا: إنها مكية. ربما قصدوا أنها من آخر أو آخر ما نزل بمكة، واعتبروا أن ما نزل بالطريق فهو تابع للمكي.

والذين قالوا: إنها مدنية. نظروا إلى أن ما نزل بالطريق إلى المدينة فهو مدني.

ففيه توفيق بين القولين، وإيماء إلى أن التطفيف خطيئة عامَّة، منتشرة بين التجار،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٢٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

(٢) ينظر: «سنن ابن ماجه» (٢٢٢٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

(٣) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص ٢٩٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢١)، و«الكشاف» (٤/ ٧١٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٣).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧) وهو القول الآخر لابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ينظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٤٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٨٧).

سواءً بمكة أو المدينة، وكانت مكة مركزًا تجاريًّا للعرب، وكان عند الكثير من مشيخة مكة وكبرائها كبرياء وازدراء بالناس، فيكيلون للناس بغير ما يكيلون به لأنفسهم.

ونَفَسُ السورة مكيٌّ، فالسياق والوعد والوعيد والوصف الذي فيها أقرب ما يكون إلى وضع وصفة الآيات المكية.

وبالمقابل فالمدينة من المراكز التجارية، وفيها اليهود المطفِّفون، فيكون القول بأنها نزلت بين مكة والمدينة قولًا وسطًا معتدلًا يجمع الأقوال.

* ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين:١]:

﴿وَيْلٌ﴾ قريبة من كلمة «ويح»، التي يُعَبَّر بها عن التوجُّع أو الوعيد، وعادة الإنسان إذا أصابه شيء أن يقول: «يا ويلي». فعندما يقول: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، فهو توعُّد لهم بالويل.

والذين قالوا: «إن الويل وادٍ في جهنم»[1]. حاولوا أن يفسِّروا سياق اللفظ، لكن هذا المعنى غير معروف في لغة العرب، وهي لفظة مُستخدَمة في لغة العرب قبل الإسلام، ولم يكن يُقْصَد بها وادٍ في جنهم، ولا كانت اسمًا علمًا يطلق على مكان، وإنما يُطلق للوعيد، وهو إذا كان مُبْهَمًا كان أقوى.

والتطفيف يحتمل معنيين:

١- أنه مأخوذ من الشيء الطَّفيف، أي: القليل، تقول: هذا شيء طَفِيف. أي: يسير تافه، فهم الذين بلغ مِن دناءتهم أن يغشوا الناس بالشيء اليسير، فإذا كالوا أو

---

(١) وهذا لم يصح فيه شيء، كما سيأتي في «سورة الهمزة».
ينظر: «مسند أحمد» (١١٧١٢)، و«صحيح ابن حبان» (٧٤٦٧)، و«تفسير الطبري» (٢/ ١٦٤، ١٦٨)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨١)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٣١٢)، (٨/ ٢٦٦، ٢٩٨)، و«فتح الباري» (١/ ٢٠٧، ٢٦٦)، (١٠/ ٥٥٣)، و«الدر المنثور» (١/ ٤٣٤، ٤٣٥)، (٣/ ٥٥١)، (١٥/ ١٧٨)، و«السلسلة الصحيحة» (٢١٦٥).

وزنوا أخذوا شيئًا يسيرًا وأضافوه إلى مالهم.

وهو تسفيه لهذا العمل وتنفير منه؛ لأنه يدلُّ على دناءة وحقارة، إلى حدٍّ أنه يسرق اللقمة من فم الفقير.

٢- أن الطفَّ هو حدُّ الصاع وطرفه، فيكون المطفِّف هو الذي قارب الوصول إلى حدِّ الصاع ولم يُوَفِّه.

والمعنيان متقاربان من حيث الاشتقاق اللغوي، وقد جاء السياق مفسِّرًا حيث وصفهم سبحانه بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين:٢-٣].

والمطفِّف مَن يستوفي لنفسه من الناس، فيأخذ حقه وافيًا، ويُخْسِر لغيره، فأما إذا زاد على ذلك بأن يكيل بمكيالين، فيبخس الناس حقوقهم آخذًا ومعطيًا، فهو في غاية الفجور والعدوان.

و«الكيل بمكيالين» أصبحت كلمة تجري مجرى المَثَل عند الحديث عن السياسات الدولية التي لا تقيم العدل، ولا تراعي المعايير الصحيحة في التعامل مع الأحداث، وتوظِّف قضايا أخلاقية كحقوق الإنسان لمصالح سياسية أو اقتصادية.

والآية الكريمة أصل في النهي عن الظلم، ودعوة إلى العدل والإنصاف، وحفز الإنسان على أن يكون في تعامله مع الآخرين على ما يحب أن يتعاملوا معه، وكما في قول النبي ﷺ: «فمَن أحبَّ أن يُزَحْزَحَ عن النارِ ويدخلَ الجنةَ، فلتأتِه منيَّتُه وهو يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ، وليأتِ إلى الناسِ الذي يحبُّ أن يُؤْتَى إليه»[1]. أي: أن يفعل الشيء الذي يريد أن يفعله الناس معه.

والتطفيف في الكيل والوزن مثال قائم مشهودٌ وقت نزول الآية الكريمة،

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

والعدل نفسه يؤكِّد أن كل ما ماثله أخذ حكمه، وربما كانت من صور التطفيف ما هو أعظم جرمًا وأشد إثمًا وأوسع ضررًا من بخس المكيال والميزان.

كان سلمان الفارسي رضي الله عنه يقول: «الصلاة مكيال، فمَن وفَّى وُفِّي له، ومَن طفَّف فقد علمتم ما أنزل الله تعالى في المطفِّفين»(١).

وذكر بعض العلماء قول النبي ﷺ: «أَسْوأُ الناسِ سرقةً الذي يسرقُ مِن صلاتِه»(٢). وقال: السرقة تكون مِن كل شيء.

فالوعيد عامٌّ في كل ألوان التطفيف، حيث يكون الإنسان أنانيًّا في تعامله مع الناس، وفي حُكْمِه عليهم، وفي حفظ الحقوق، ولا بد أن يكون المؤمن يَقِظًا عادلًا، يكيل للناس بالمكيال الذي يكيل به لنفسه، بل الأَرْقى والأكمل أن يكيل الإنسان بمكيالين، لكن على نقيض ما يفعله المطفِّفون، فإذا كان الأمر يتعلَّق به كال بمكيال العفو والتسامح وحسن الظنِّ والتماس العذر، وإذا كان المكيال للناس، كان حريصًا على حِفْظ حقوقهم، وعلى الورع والتحرِّي، بحيث لا يصيب أحدًا بسوء.

وهذه هي الدرجة الأولى: وهي المستوى الأفضل والأكمل؛ أن يؤدِّي إليهم حقوقهم كاملة موفاة، ويتسامح معهم إذا قصَّروا في بعض حقه.

والدرجة الثانية: هي درجة العدل، بأن يكيل الإنسان للناس بالمكيال الذي يريد منهم أن يكيلوا له، فينصف معهم ولا يظلمهم، ولا يقبل منهم أن يظلموه.

والثالثة: درجة التطفيف، أن يكيل فيما يخصُّه بالمكيال الأوفى إذا كان الحق له، أما إذا كان الحق عليه، فإنه ينقص المكيال والميزان ويبخس الناس أشياءهم.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٩٢)، وعبد الرزاق (٣٧٥٠)، وابن أبي شيبة (٢٩٩٦)، والبيهقي (٢/ ٢٩١)، وفي «شعب الإيمان» (٣١٥٠).

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٣٣٣)، وأحمد (١١٥٣٢، ٢٢٦٤٢)، والحاكم (١/ ٢٢٩) من حديث أبي سعيد وأبي قتادة رضي الله عنهما، وينظر: «أصل صفة صلاة النبي ﷺ» للألباني (٣/ ٦٤٤-٦٤٦).

والرابعة: أن يطفِّف في الحالين، فيأخذ فوق حقه إذا اكتال، ويبخس حق الآخر إذا كال أو وزن.

إن السورة تؤسِّس لمبدأ أخلاقي عظيم، وهو مبدأ العدل والقسط في المعاملة بين الناس.

وأين المسلمون مِن هذا المعنى؟! بل أين علماؤهم.. دعاتهم.. شبابهم.. حكامهم.

أين الإنسان الذي يعطي للناس ويتسامح معهم؟!

أين الذي يأخذ حقًّا ويعطي حقًّا؟!

لقد انتشرت في الناس اليوم مبادئ الشحِّ والأنانية والهوى، فصار الإنسان يشدِّد في الحساب ويدقق في الميزان في الأمر الذي يخصُّه ويحاسب على النَّقِير والقِطمير، وإذا كان الأمر يخصُّ الآخرين، فإنه لا يقيم وزنًا لمشاعرهم وأحاسيسهم ولا لحقوقهم، **إن مبدأ العدل والإنصاف ينبغي أن يشمل الجانبين كليهما:**

الأول: الجانب المعنوي، في الأحكام والمواقف والأقوال، وقد جاء في الحديث: «**وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوهِهم -أو قال: على مناخرِهم- إلا حصائدُ ألسنتِهم؟!**»(١).

حينما تحكم على شخص، أو جماعة، أو جامعة، أو مشروع، أو كتاب، أو موقع إلكتروني، أو على نشاط، فهي شهادة ينبغي أن تحذر فيها من التطفيف، ووجود الحق والصواب في هذا العمل لا يمنعك من أن تقدِّم ما تَلْحَظه من مآخذ بإنصاف وعدل، كما أن الخطأ الكثير لا يبيح لك أن تتجاوز الصواب وتجحد ما فيه من الحق.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥٦١)، وأحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣) من حديث معاذ بن جبل ﷺ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١١٢٢، ٣٢٨٤).

الثاني: الجانب الحقوقي في شتى شؤون الحياة، فكثير من الحقوق في المجتمعات الإسلامية مُهدَرة، ولا زال المسلمون محتاجين إلى تكريس ثقافة الحقوق وتحقيقها بشكل صحيح في الميادين كافَّة.

كيف يتعامل الأستاذ مع طلابه..

كيف يتعامل الزوج مع زوجته..

كيف يتعامل الجار مع جاره..

كيف يتعامل الناس في بيعهم وشرائهم وتعاملهم..

كيف يتعامل الحاكمون مع شعوبهم؟ وما طبيعة العلاقة، أهي علاقة سلطوية متعسِّفة، أم علاقة ودية منصفة، قائمة على التعاقد الرشيد والتكامل أو على الصراع والتآكل؟

فإذا تأمَّلت هذه الجوانب وجدت تضييعًا واسعًا للحقوق، حتى أصبح التطفيف جزءًا من البناء التربوي والمألوف السلوكي، وهذه السورة العظيمة تُسهم إسهامًا مباشرًا ومؤثِّرًا في إعادة بناء الأخلاق الاجتماعية.

مَن هم المطففون؟

* ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين:٢-٣]:

وهذا نموذج للتطفيف، وله أهميته، ويومئ إلى ما وراءه، حتى لقد ذكره الله تعالى في أكثر من سبعة مواضع في القرآن الكريم، وكان من الأنبياء مَن بُعِثَ للأمر بالقسط في المكيال والميزان مع التوحيد، وهو شُعيب عليه السلام: ﴿ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ [الشعراء:١٨١-١٨٢]، والاقتصاد الدولي يقوم على الانضباط والاعتدال في الكيل والوزن.

ومع تقدم العلم والحضارة والوسائل التقنية، فإن الكيل والوزن يظل شديد الحضور في حياة الناس، وهو رمز للتعاطي، بأي وسيلة من وسائل الإيفاء والاستيفاء للحقوق.

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴾ أي: إذا كان الحق لهم يأخذونه وافيًا غير منقوص، ولم يقل: (اكتالوا من الناس)، بل قال: ﴿ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾؛ لأن ﴿ عَلَى ﴾ أقوى في الدلالة على المقصود مِن كلمة «من»؛ إذ فيها معنى استعلاء هؤلاء المطفِّفين، وقد يكون مع التطفيف نوع كبرياء وتسلط وفوقية، إضافة إلى أن معنى البَخْس والأخذ من الناس، فكأن الاكتيال على حساب الناس وحقوقهم.

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴾:

المعنى المتبادر والذي عليه جمهور المفسرين: أنهم إذا كالوا لهم، أو وزنوا لهم؛ يُخسِرون ويُنْقِصون، وهذا جارٍ في لغة الحجاز وغيرها، يقولون: كال فلانًا، أي: كال له. وزن فلانًا، أي: وزن له، وهو معنى واضح، فمعنى ﴿كَالُوهُمۡ ﴾: أعطوهم كيلًا، ومعنى ﴿ وَّزَنُوهُمۡ ﴾: أعطوهم وزنًا[1].

وقال بعض المفسرين: وإذا كالوا هم، أو وزنوا هم، فجعلوا «هم» ضميرًا لتوكيد الفاعل، فالمعنى: إذا كالوا أو وزنوا، فإنهم يُخْسِرون، وهذا ضعيف، كما قال الطبري وغيره؛ لأنه لو كانت كذلك لفَصَل بين الفعل وبين الضمير المؤكَّد بفاصل، وهو الألف التي تلحق واو الجماعة، وهذا لا يوجد في رسم القرآن، فدلَّ على أن الأول هو المعنى الصحيح، أي: أعطوهم بأن باعوا عليهم، أو اشتروا منهم كيلًا أو وزنًا؛ فإنهم يُخسِرون، أي يرجعونهم بالصفقة الخاسرة، ولا يعطونهم حقَّهم، وهنا

(١) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٧٢)، و«صحيح البخاري»، كتاب البيوع (٣/ ٦٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٨٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٩١).

مقابَلة بين ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾، وبين ﴿يُخْسِرُونَ﴾[1].

فهم لم يصلوا إلى الفضل، بحيث إن الواحد منهم إذا كال لغيره وفَّى، وإذا كال لنفسه احتاط فأنقص، ولم يصلوا إلى العدل، بحيث إن الإنسان يوفِّي لنفسه ولغيره، ولكنهم إذا اكتالوا مِن الناس يستوفون، وإذا كالوا أو وزنوا للناس فإنهم يخسرون.

* ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين:٤-٥]:

وهذا سؤال في معنى الاستنكار لفعلهم، أَلَا يظنون -ولو مجرَّد ظن- أنهم مبعوثون، فإن مجرَّد الظن كافٍ لأن يجعل الإنسان يعيد النظر فيما هو فيه، فكيف والأمر يقيني لا مِرية فيه، بدلالة العقل والشرع والفطرة!!

والسياق تنفير من فعل المطفِّفين؛ فإنه قال أولًا: ﴿وَيْلٌ﴾ وهو تهديد ووعيد، ثم سمَّاهم «مطفِّفين»، ثم لما قال: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾؛ فكان التفصيل عرضًا مخجلًا لما يفعله هؤلاء الظلمة.

وكأنك عندما تقرأ هذه الآية، ترى إنسانًا عنده ميزانان: واحد لنفسه، وواحد للناس، وكأنه مخلوق من طينة مختلفة عن الطينة التي خُلِقَ منها الناس، ومنطق الحق يعاتبه ويقول: هل لك فضل على عباد الله، بحيث تتعامل معهم بطريقة مختلفة عما تريد أن يتعاملوا به معك؟

وأشار إليهم بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ وهو اسم إشارة يوحي بالبعد، فلو كانوا قريبين لقال: (أَلَا يظنُّ هؤلاء...) فهم بعيدون عن رحمة الله، بعيدون عن الفضل، بعيدون عن الذكر الطيب، بعيدون عن الإيمان بالآخرة وجزائها.

ويحتمل قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾، أي: أَلَا يوقنون.. وهو قول

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٨٦-١٨٧).

جمهور المفسرين[1]، وقد يطلق الظن على اليقين، كما في قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وصفه بـ«العظيم» لطوله، فطوله خمسون ألف سنة: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]، فهو عظيم بمدَّته، عظيم بالحوادث التي تجري فيه، عظيم بظهور القدرة الإلهية التامَّة، حيث يدرك المشركون حينذاك أنه لا حول لهم ولا قوة.

* ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:٦]:

يقوم الناس من قبورهم، وتُنْفَخ الأرواح في الأجساد.

ومن معاني القيام لرب العالمين: وقوف الناس في عرصات يوم القيامة؛ خوفًا، وحياءً، وخجلًا، وانتظارًا للحساب ثم المصير، وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى يُغيِّب أحدُهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[2].

أي: يتصبَّب منه العرقُ طيلة هذه المدة من شدة الكرب وطول الموقف.

وهذا يدلُّك على أن نظام ذلك اليوم وسُنَنُه مختلفة عمَّا عليه الأمر في الدنيا، فنحن نرى الماء في الدنيا مادة سيالة، يسيل من المرتفع إلى المنخفض، لكن القوانين تتغيَّر يوم القيامة بإذن الله تعالى، ولذلك لا تستطيع أن تحاكم قوانين ذلك اليوم إلى قوانين الدنيا، والذي يحاول ذلك ترتبك عليه الأمور؛ حتى نظام الكواكب والنجوم والشمس والقمر، والأرض قد اختلف عما كان معهودًا في الدنيا.

ويُلاحَظ أن الله سبحانه ذكر القيام ولم يذكر الانتقام أو المطالبة بالقصاص، لأن

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٥٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٥١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٧٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٢٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٣٨)، ومسلم (٢٨٦٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

غالب عمل المطفِّفين كان خفيًّا، لا يدركه الطرف المظلوم، ولا يفطن له، ولا يُطالِب به، فلهذا توعَّد تعالى المطفِّفين بأنه سيكون هو المُطالِب لهم، وهو الذي سيأخذ منهم حقوق المظلومين، فالمطفِّف والظالم والمعتدِي على حقوق الناس سيكون خصمه الله تعالى يوم القيامة.

وفي الحديث القدسي: «**ثلاثةٌ أنا خَصْمُهم يومَ القيامةِ: رجلٌ أعطى بي ثم غَدَرَ، ورجلٌ باعَ حرًّا فأكلَ ثمنَه، ورجلٌ استأجرَ أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطِه أجرَه**»[1].

وإنما كان الله خصمهم لعظم الذنب، ولأنه حق عظيم من حقوق العباد؛ فمَن لم يُعْطِ الأجيرَ أجرَه، أو باع حرًّا وأكل ثمنه، فقد قارف نوعًا من أسوأ التطفيف.

وفي السياق دليل على أن التطفيف إنما يصدر في الأصل من غير المؤمنين، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وقد يصدر من المؤمن، وقد يقع الظلم والخطأ والبغي منه، ولا يخرج من دينه بهذا الفعل، بل ذلك دليل على ضعف إيمانه وتناسيه يوم الحساب، ففِعْلُه فِعْلُ الكافرين وإن كان لسانُه لسانَ المؤمنين، وفي هذا مزيد تنفير.

وإذا أردنا مقارنة المؤمنين بغيرهم في هذا العصر، فسنجد أن لدى الكثير من الشعوب المتقدِّمة ثقافة تعلَّموا بموجبها كيف يؤدُّون الحقوق، وكيف يحفظونها، وكيف ينضبطون في المصالح العامة، فلا يعتدون على حقوق غيرهم، ولا يسمحون أن يعتدي أحدٌ على حقوقهم، وكيف يضعون الأشياء في مواضعها، ويستخدمونها استخدامًا رشيدًا؛ استشعارًا للروح الاجتماعية، وهذا إنما أخذوه بالتربية والتعويد والتوارث، دون أن ينتظروا عليه جزاء أخرويًّا.

وفي العالم الإسلامي لا تتوفر التربية الاجتماعية أو الثقافة السائدة المحفِّزة على العدل والانضباط، ولم يكن إيمانهم بالله بالقوي الراسخ الذي يحملهم على الالتزام الاجتماعي والانضباط الحقوقي والأخلاقي، فضعفت أخلاقهم لغياب الوازع

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الدنيوي وهشاشة الوازع الأخروي، وصاروا يقدِّمون صورة سيئة عن الدين، وأكثر الناس يحكمون على الديانة من ممارسات أهلها، وأنت لو رأيتَ شخصًا ينتمي إلى ملَّة لا تعرفها يقوم بأعمال مرذولة لا يقبلها العقل، فإنك بعفويَّة ستقول: الحمد لله الذي أكرمنا بالإسلام! لأنك تظن أن ما فَعَلَه كان بمقتضى دينه، وقد لا يكون ذلك مباحًا في دينه، لكن دفعه إلى ذلك الفعل جهلُه أو غفلتُه، أو تربيتُه السيئة، فإذا تكرر هذا معك من شخص آخر فثالث ترسَّخ عندك أن الدين الذي ينتحلونه سبب في فساد فعلهم، وكذلك الآخرون ربما يأخذون صورة سيئة عن الإسلام؛ بسبب مقارفة بعض المسلمين للرذائل وانتهاك القيم والفضائل، وفي ذلك صدٌّ عن سبيل الله وتشويه لجمال الإسلام لدى مَن لا يعرفونه.

* ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ [المطففين:٧- ٨]:

﴿كَلَّآ﴾ كلمة إعراض وإضراب عن الموضوع السابق إلى موضوع آخر، لكن هذا الموضوع الجديد مرتبط بما قبله، و﴿ٱلْفُجَّارِ﴾: جمع فاجر، وهو الذي يتعدَّى الحدَّ، و﴿كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾: هو الكتاب الذي تُكْتَب فيه أعمالهم وأقوالهم.

وقد بدأ بالفجار خلافًا لعادة القرآن في تقديم أهل الإيمان؛ مراعاة لموضوع السورة وسياقها، حيث كانت بدايتها في وعيد المطففين، وهم الفجار.

و﴿سِجِّينٌ﴾: ذكر فيها المفسرون أربعة أقوال:

١ - الأرض السابعة، ونُقل هذا عن ابن عباس ﭭ، ولا أظنه يصحُّ عنه[١]، ولا دليل على أن ﴿سِجِّينٌ﴾ مكان في الأرض السابعة أو في غيرها.

٢- في سِفال، أي أنه في مكان سافل، أو في وضع سافل منحط، وهذا معنى صحيح.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٢-٢٨٣)، و«التخويف من النار» (ص٤٥).

٣- أن في ﴿ سِجِّينٌ ﴾ معنى السجن والضيق والضرر، فهي مبالغة في السجن، كما تقول: فلان سِكِّير أو عِرْبيد، أي: يبالغ في شرب الخمر.

وجهنم سجن، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء:٨]، أي: سجنًا يُحْصَرون فيها، وقال: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان:١٢-١٣].

٤- ويظهر أن المقصود بـ ﴿ سِجِّينٌ ﴾: ضيق وشدة وكربة وسفال، ولا يلزم أن يكون ذلك في الأرض السابعة كما قال بعض المفسرين، أو في صخرة عندها، أو عند الشيطان، وهذا هو القول الرابع، لكن هذه الأقوال وما شابهها ذُكِرَت في كتب التفسير، وليس لها أسانيد صحيحة، ولا أدلة واضحة، والأَوْلَى أن يُتْرَك النصُّ القرآني على إطلاقه ولا يُفَسَّر بشيء ليس له حقيقة.

و﴿ سِجِّينٌ ﴾ ليست كثيرة الاستعمال عند العرب، وإن كانت عربية معروفة.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ يُؤْتَى بها لتدلَّ على تعظيم الأمر، وتعظيم السؤال عنه، ثم لم يأتِ جواب محدد.

* ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ [المطففين:٩]:

والراجح ما ذهب إليه ابن كثير وكثير من المفسرين أن قوله: ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾، ليس جوابًا لقوله: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾؛ فسياق ذلك انتهى بالتشنيع والتهويل، ثم أنشأ يتكلم عن الكتاب؛ لأنه قال: ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾، فكأنه قيل: وما هو كتاب الفجار؟ فقال: ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾[1]، ويكون في قوله سبحانه: ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ إشارة إلى أن هذا الكتاب قد كُتِبَ لهم فيه السجن والنار والعذاب.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٥٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ١٩٤).

و﴿ مَّرْقُومٌ ﴾ اسم مفعول من الرَّقْم، ومعناه: الكتابة، كما في سورة الكهف: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف:٩]، فالرقيم معناه: الكتاب، وقد قيل: هو الكتاب المكتوب فيه معلوماتهم وأسماؤهم، وهنا قال: ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾، أي: مكتوب.

قد يقال: هذا تحصيل حاصل، فمعلوم أن الكتاب مكتوب، والجواب أن في ذلك فوائد:

١- أنه كتاب مضبوط لا يُزاد فيه ولا يُنْقَص منه.

٢- أنه كتاب واضحٌ مجوَّد بَيِّنٌ في دلالاته وما فيه، ففيه البداية والنهاية والكثير والقليل، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الكهف: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾، وهو هذا الكتاب المرقوم، ﴿ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩].

فهذا ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ وهؤلاء «مطففون» يزيدون وينقصون، أما الكتاب فلا تطفيف فيه ولا زيادة ولا نقص، وكل شيء مضبوط فيه ومحفوظ.

٣- أنه مميَّز بعلامة، وليس ببعيد أن يكون كتاب الكافر مميَّزًا بعلامة تخصُّه، وكتاب المؤمن مميَّزًا بعلامة تخصُّه، فكتاب الكافر مرقوم، وكتاب المؤمن مرقوم، لكن شتان بين رَقْم ورَقْم.

وبعض العلماء والمفسرين يقولون: «المرقوم» هو المختوم، أي: الذي عليه الختم أو الخاتم، والخاتم نوع من العلامة والميزة.

٤- وعندي أنه يحتمل في ذلك أن يكون الكتاب مشتملًا على رقم يدل على صاحبه، كما تجري العادة في مثل التجمعات الواسعة أن يُعطى كل فرد بطاقة فيها

رقم، ولعل كل كتاب لإنسان مسلم أو كافر يحوي رقمًا يدل على صاحبه؛ ولذا سمي مرقومًا، والله أعلم.

إنه كتاب دقيق متقن مفصَّل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، مضبوط لا يتمكَّن أحد من الزيادة فيه ولا النقص منه، مميَّز مُعلَّم، بحيث يعرف كل أحد كتابه، فهذا يأخذ كتابه بيمينه، وذاك يأخذ كتابه بشماله.

والكتاب المذكور هنا هو المذكور في السور الأخرى، والله أعلم.

* ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين:١٠-١١]:

ذكر هنا التكذيب وهو أعمُّ؛ لأنه قال قبلها: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾، أي: فهم مكذِّبون، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة.

ولما قال: «المكذِّبين» عُرف بأن هؤلاء كذَّبوا، لكن لم يتبيَّن متعلِّق التكذيب، فقال: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾، إشارة إلى شناعة ما عملوه.

١- وقوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ إشارة إلى أنهم دُعوا وبُلِّغوا وقامت عليهم الحجة وسمعوا آيات الله؛ لأن المكذِّب هو الذي سمع الخبر وأدلته، وقامت عليه الحجة، ومع ذلك هو يعرِض ويصرُّ على التكذيب.

وهو دليل على أن العقاب للكافرين يوم القيامة يلحق مَن بلغته الحجة وقامت عليه دلائل الرسالة والنبوة، فأصرَّ وعاند وكذَّب، أما مَن لم تبلغه الحجة فلا يدخل في هذا وأمرُه إلى الله، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف:٣].

وهذا المعنى عندما تتأمَّله في القرآن تجده كثيرًا، وسبق في «سورة النبأ»[1].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة ﵁ مرفوعًا: «والذي نفسي بيدِه، لا يسمَعُ بي أحدٌ مِن هذه الأُمَّةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ به، إلا

(١) ينظر ما تقدم في «سورة النبأ» عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾.

كان مِن أصحابِ النارِ»[1].

٢- فيه إشارة إلى أن دلائل الشريعة على هذا اليوم عظيمة، والذي يقرأ القرآن خصوصًا المكّي، يجد كثرة الحديث عن يوم البعث، ولا يوجد عند الأنبياء السابقين والكتب السابقة مثلما يوجد في القرآن الكريم من تفصيل أخبار الآخرة والبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والصراط والميزان، فدلالة القرآن واضحة قوية، والإيمان بيوم الدين هو فيصل حاسم بين فئتين من البشر، فإن الإيمان بالآخرة يجعل الإنسان أكثر جدية واهتمامًا في التعاطي مع قضايا التدين والعبادة والأخلاق والحقوق.

والفطرة تغتبط بمثل هذا الإيمان، فهو يمنحها فسحة وانشراحًا ورضًا وانتظارًا لوعد الصدق؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف:١٧٢]، فلو تخيَّل المخلوق أن هذه الروح تفنى بالموت وكأنها لم تمشِ على الأرض ولا عاشت، بل تحوَّلت إلى رماد ورميم ونهاية وعدم، فهو إحساس قاتل، يجعل الإنسان يموت قبل أوان الموت.

فهنا يكون في النفس تطلُّعٌ إلى أن يكون بعد الموت حياة أخرى، كما كان قبل الحياة موت آخر أيضًا.

والإنسان يرى في هذه الدنيا أشياء عديدة لم يستقم فيها الميزان، فهذا مطفِّف هلك، وقد أخذ أموال الناس بالباطل، وهذا ظالم مات في عزٍّ ومَنْعة ومتعة لم يُنتقَم للمظلوم منه، وهذا محسن مات ولم يُكافَأ على إحسانه في الدنيا، وهذا شهيد لقي حتفه في ضيق وشدة وكرب، ولم يرَ بصيصًا من الرَّوْح والفرج، فلا بدَّ إذًا مِن دار أخرى تُرَدُّ فيها الحقوق لأصحابها، ويُنْتَصَف من الظالم للمظلوم، وترجع الأمور فيها إلى نصابها.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٥٣).

فهذا يوم الدين، أي: يوم الدينونة، والدين: الجزاء، كما تقول: أدينك بهذا، أي: أجازيك به، ومنه: «كما تدين تدان»، أي: كما تعمل تُجازَى، فالدينونة معناها أن يردَّ الدين للإنسان بما أخذ، ويُوفَّى عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ.

* ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [المطففين:١٢]:

أي: لا يكذِّب بيوم الدين بعد قيام الحجة ودلالات الشريعة إنسانٌ سَوِيٌّ متجرِّد من الأهواء، ولا يُكَذِّب به إلا مَن كان مُتَّصفًا بثلاث صفات:

١ - العدوان، ﴿مُعۡتَدٍ﴾ وهذا يرجع لتأكيد مسألة حقوق الناس، وقد بدأ الله تعالى بحقوق الناس قبل حقِّه، فقال: ﴿مُعۡتَدٍ﴾، فهو يريد أن يمضي في عدوانه دون خوف من بعث أو حساب.

٢ - ﴿أَثِيمٍ﴾ والأثيم على وزن فعيل، وهو صيغة مبالغة من الإثم، وهو الذنب والمعصية، وإذا أدمن عليه صاحبه وأصرَّ سُمِّي: أثيمًا، لكن الله تعالى قدَّم المعتدي على الأثيم؛ لأن الإضرار بحقوق الناس هو معصية لله وأذى للناس في الوقت ذاته، فهو إثم مضاعَف، بخلاف الأثيم فذنبه على نفسه وليس على غيره.

والإضرار بحقوق الناس والعدوان عليهم سبب في فساد الدنيا، كما قال ﷺ: «**يوشِكُ أن يأتي زمانٌ يغربَلُ الناسُ فيه غربلةً، تبقى حُثالةٌ من الناس قد مَرجت عهودُهم وأماناتُهم، واختلفوا فكانوا هكذا**». وشبَّك النبيُّ ﷺ بين أصابعه[1].

أي: فلا تدري أين المحقُّ، وأين المبطل، وأين الصادق، وأين الكاذب، فهذا الحسد والبغي والعدوان، ولهذا كان من أعظم ما جاء الرسل بدفعه والنهي عنه البغيُ والعدوانُ.

---

(١) أخرجه نُعيم بن حمَّاد في «الفتن» (٦٩٣)، وأحمد (٧٠٦٣)، وابن ماجه (٣٩٥٧)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١١٧٦)، والحاكم (٢/ ١٥٩)، (٤/ ٤٣٥) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٠٥).

وسواء كان البغي والعدوان بالعلم، كما وقع لبني إسرائيل، أو بغيًا بالرياسة، أو بغيًا بالمال، أو باسم ينتحله أو مذهب يترسمه، فكله مذموم محرَّم.

بدأ بـ«المعتدي»، وثنَّى بـ«الأثيم»، وهو كثير الإثم، ولم يقل: (آثم)؛ ليبيِّن أن الإثم قد أصبح جزءًا من شخصيَّته، وأصبحت المعصية طبعًا لا يستطيع الخلاص منه، وهكذا الذنب إذا أكثر منه الإنسان واعتاد عليه؛ أصبح الخلاص منه صعبًا وصار صفةً لازمة له، ولذا قال في السورة ذاتها: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فهي حالة انطباع عاطفي وجسدي بالمعصية لا يسهل الفكاك منها.

٣- تكذيب القرآن: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣]، تلي عليه القرآن؛ فأعرض وقال: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. وهذا قاله النضر بن الحارث في مكة، حين كان يقرأ على قريش كتب رُستم واسْفَنْدِيار وأساطيرهم المدوَّنة، ويقول لهم: بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟ لماذا يتبعه الناس ويتركونني[1]؟

والآية عامَّة لكل مَن تحقَّقت فيه هذه الصفات المرذولة؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [المطففين:١٢]، وهذا لا يخصُّ شخصًا بعينه، بل يشمل كُلَّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، من السابقين واللاحقين والعرب وغيرهم، في مكة كانوا يقولون: القرآن أساطير الأولين: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان:٥].

واليوم تجد مَن يقول: للقرآن الكريم أن يحدِّثنا عن قصة إبراهيم وإسماعيل، لكن هذا لا يعني أنها حقيقة، ومَن يقول: إن قصة أصحاب الكهف، وعصا موسى

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٥٥)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٣٠٠، ٣٥٨)، و«تفسير الطبري» (١٧/ ٣٩٩)، و«تثبيت دلائل النبوة» (١/ ٥٣)، و«تفسير الثعلبي» (٧/ ٣١٠)، و«شعب الإيمان» (٧/ ١٦٦-١٦٧)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص ٣٤٥)، و«تفسير الرازي» (٢١/ ٤٢٨)، و«البداية والنهاية» (٤/ ٢١٧).

التي تلقف ما يأفكون أسطورة، ولا يلزم أن تكون حقيقة!

و﴿أَسَٰطِيرُ﴾: جمع أسطورة، مثل أُكْذُوبة وأُعْجُوبة وأُحْدُوثة وما أشبه ذلك، والغالب أن الوزن الصرفي (أفعولة) محدود في كلمات معيَّنة، فهي لفظ عربي مأخوذ من السَّطْر وهو الكتابة، والتسطير، أي: الأشياء التي سطَّرها وكتبها الأولون، ثم نقلوها إلينا.

و«الأساطير» خرافات يرفضها العقل والمنطق، وقد تكون قصصًا وهمية أو أمثالًا تضرب كقصص الحيوانات والطيور والجن وغيرها.

أما الغيب فهو الحق الذي أخبر الله به مما لا تستطيع العقول إدراكه بذاتها، لكنه ليس محالًا ولا مرفوضًا، ولا تأنف العقول من الإيمان به، وإنما تسلِّم وتستسلم له مِن غير أن تدركه، ولهذا قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يخبرون بمحارات العقول، لا بمحالات العقول»[1].

و«الأساطير» لا تذكر إلا في سياق التكذيب، فتقول: هذه أسطورة، أي: كذبة، وإن كانت شائعة عند الناس، كما في كتاب «كليلة ودِمنة»، أو قصص الرومان واليونان وغيرها؛ لأنها حكايات وروايات وهمية، تداولها الناس على هذا الأساس.

فإذا حكى الله سبحانه وتعالى لنا قصص الأنبياء، أو قصة أصحاب الكهف، أو قصة أصحاب الأُخدود؛ فهذه حقائق تاريخية في أعلى درجات الوثوق والمصداقية؛ لأنها تنزيل من الله العزيز العليم.

عقلية المؤمن إيمانية وليست خرافية؛ فهي ليست عقلية أسطورية خرافية، ولكنها عقلية إيمانية غيبية، بمعنى أن أعظم ما يميِّز المؤمن عن الملحِد هو الإيمان بالغيب، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٢-٣]؛ لأنه إذا لم يؤمن بالغيب لم يؤمن بالله، ولا بالآخرة، ولا بالجنة، ولا بالنار، ولا بالوحي.

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٤٤٤).

فالإيمان بالغيب ليس شيئًا ثانويًّا، بل هو أصل وركن في عقيدة المسلم، هو إيمان حقيقي يؤثِّر في تصور المسلم ومنهجه وسلوكه، ولذلك كان المطفِّفون يطفِّفون؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب، ولا يظنُّون أنهم مبعوثون ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وبذا تجرؤوا على حقوق الناس، والمؤمن قد يتخلَّى عن بعض حقِّه في الدنيا، لا من باب أنه لا يريد هذا الحقَّ، أو لا يحبُّه؛ ولكن لأنه يدَّخره ليوم آخر هو عنده أكثر يقينًا من المشهود الذي يراه ويحسُّه.

إن عقلية المؤمن الغيبية لا يجوز أن تتحوَّل إلى عقلية أسطورية من شأنها أن تؤمن بكل ما يخالف الحسَّ، وتقيس قياسًا فاسدًا، فتقيس أوهام الناس وحكاياتهم وأقاويلهم على خبر الصادق المصدوق، أو على خبر الكتاب المنزَّل، وكثير من عوامِّ المسلمين وشعوبهم -بل وخواصِّهم أحيانًا- تتسلَّل إلى نفوسهم معنى التساهل في رواية الأساطير وحكايتها، وقياسها على ما ذكر الله، وهذا قياس فاسد؛ لأنه قياس للباطل على الحق، وللخطأ على الصواب.

فلذلك يُفترَض أن يكون مبدأ المؤمن رفض الروايات الموهومة، والأخبار المناقِضة للشرع والعقل، والمناقضة للحسِّ، أما أن يكون مُستودَعًا للأساطير، فهذا انحراف كبير في المنهج.

ونذكر بهذا المقام قصة الصِّدِّيق ﷺ لما أُخْبِرَ بالإسراء والمعراج، وجاءته قريش يقولون: هذا صاحبك يزعم أنه قد أُسرِيَ به الليلة إلى بيت المقدس، ثم رجع من ليلته! فقال أبو بكر ﷺ: أَوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم. فقال: «فإني أشهد إن كان قال ذلك لقد صدق؛ إني أصدِّقه بأبعد من ذلك، أصدِّقه بخبر السماء بكرة وعشيًّا»[1].

(١) أخرجه عبد الرزاق (٩٧١٩)، والحاكم (٣/ ٦٢)، واللالكائي (١١٦٤) من حديث عائشة ﷺ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٠٦).

فكان هذا الخبر غريبًا على أبي بكر ﷺ، ولهذا لم يعطِ إيمانًا مطلقًا، ويبصم على هذا الخبر، لأن الذين أخبروه به كفار، وإنما أخبروه على سبيل الإزراء، فقال: «إن كان قال ذلك لقد صدق»، فعلَّق الإيمان به على ثبوت هذا الخبر وصِدْقِه عن النبي ﷺ، وهكذا ينبغي أن يقول المؤمن، فلا يتعجَّل في قبول الروايات والأخبار دون تحرٍّ.

وكثير من الدعاة والوعاظ منذ قديم يدغدغون مشاعر المتلقِّين من البسطاء والسُّذَّج بقصص خرافية أو مبالغات وتوهمات وحكايات لا أصل لها.

أذكر هنا قصة حصلت لي لما كنت صبيًّا إذ ذهبت إلى مكتبة، ووجدت كتابًا عن الإسراء والمعراج منسوبًا لابن عباس ﷺ، فاشتريته وأنا في السادسة الابتدائية، وطفقت أقرؤه بنَهَم، ووجدت فيه مبالغات وأشياء غريبة، حتى إنه يقول: إنه شاهد مَلَكًا في السماء نصفه من ثلج ونصفه من نار، فلا الثلج يُطفئ النار، ولا النار تُذِيب الثلج، وغير ذلك، فصار عندي تردُّد ونوع من الوسوسة ذلك الوقت، بسبب أن الإنسان يرى شيئًا يظنُّه حقًّا ودينًا فلا بد أن يؤمن به، وفي الوقت ذاته يعجز عقله عن استيعابه، فيحصل عنده تناقض، ولذلك كان من أخطر الأشياء أن يُجْعَل الدين في مقام الضدِّيَّة مع الحقائق العلمية.

وربما ساق مصنِّف أو واعظ أو حتى مجاهد في الميدان رواية غريبة منكرة، ونسبها إلى ثقة صالح، فلا يلزمنا قبولها، وإنما الذي يلزمنا قبول ما جاء في الكتاب والسنة.

فلو قال لنا قائل خبرًا يتعلَّق بعذاب القبر، أو بكرامات حصلت لفلان أو علان، فلا يلزم الإيمان بخصوص هذه الروايات، ولكن نؤمن بأصل الاعتقادات الشرعية، ونتوقف في تفصيل المرويات، حتى نطمئن إلى صدقها وعدالة رواتها وسلامة عقولهم وحواسهم.

يسألنا شاب عن مقطع في اليوتيوب، يظن أنه يسجِّل صراخ المُعَذَّبين في قبورهم، والله تعالى جعل أمر البرزخ وعذاب القبر ونعيمه من عالم الغيب، ولو أن

الناس سمعوه وشاهدوه لكان من عالم الشهادة.

نعم، صح أن الرسول عليه الصلاة والسلام سمع يومًا وَجْبَةً فقال: «**تدرون ما هذا؟**». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**هذا حجرٌ رُمِيَ به في النارِ منذُ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار الآن، حتى انتهى إلى قعرِها**»[1]. فنقول: صَدَّقنا بذلك؛ لأن النبي ﷺ أخبرنا به.

وكذلك قال: «**إن هذه الأُمَّةَ تُبتَلَى في قبورِها، فلولا أن لا تدافنوا، لدعوتُ اللهَ أن يُسمِعَكم من عذابِ القبرِ الذي أسمعُ منه**»[2].

المهم أن هذه أخبار قالها النبي ﷺ، أما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فإننا لا نستطيع أن نجزم أن فلانًا يُعَذَّب في قبره، ولا أن في هذا القبر نارًا أو نعيمًا، ولا أن ما يُسَجَّل في هذا الشريط أنه أصوات المُعَذَّبين، ولا أن ما يصوَّر في الفيديو هو ملك أو شيطان أو طائف من الجن، وما يدرينا أن تكون تلك الأصوات حِمَمًا أو براكين أو نيرانًا تتلهَّب وتغلي، أو أصواتًا مُقَلَّدة أو مشبهة، وفي الولايات المتحدة رجل من أهل الكتاب وضع عنده متحفًا، ووضع فيه ما جاء في الكتب السماوية عن الآخرة، وصوَّرها تصويرًا حسِّيًّا مشهودًا، فصوَّر الجنة والنار وغيرها، وربما يكون سجَّل أصواتًا تتعلَّق بذلك.

والله تعالى يقول: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم:٩٨]، أي: لا تحسُّ منهم من أحد، ولا تسمع لهم ركزًا.

ولا ينبغي ربط إيمان الناس بأشياء مُحتمَلة، بل يُرْبَط إيمانهم بالحقائق القرآنية والحقائق النبوية الناصعة التي مَن آمن بها فقد آمن، ومَن كفر بها فقد كفر، أما أخبار الناس فهي مما يحتمل الصدق والكذب، ولا ينبغي أن يُمْتَحَن المكلَّف بها، ولا أن تُعتبَر

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٧) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

حجة أو دليلًا أو برهانًا، وإن كنا نقول: إذا اغترَّ أحد وسمع هذه الأشياء واستفاد وأناب وتاب، فهو كما لو تاب بسبب سماعه لحديث موضوع أو ضعيف، هو شيء يفرح به، ولا يعني قبول الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة أو الحكايات الباطلة.

مهمٌّ أن تكون العقلية الإسلامية عقلية ناضجة رزينة، لا تتسرَّع في قبول الظنون والاحتمالات، ولا تتسرع في نفيها، فالعلم أوسع مما تظن ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء:٨٥]، ولا يزال العلم البشري يحبو في مجال الروحانيات والإيمانيات والمسائل النفسية، وهذا سر شرف المصادر الشرعية التي يتلقاها المسلم بالقبول، قائلًا مع أمثاله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٣]، ولكنها تؤمن بالغيب.

* ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]:

و﴿كَلَّآ﴾ إضراب وانتقال من موضوع إلى آخر، أو زجر، أو نفي، والمعنى: ليس الأمر كذلك، وليست الآيات من أساطير الأولين، بل من كلام رب العالمين.

ثم ذهب إلى تعليل ما وقعوا فيه فقال: ﴿بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي: أنهم كذَّبوا بسبب الرَّان الذي أصابهم.

فـ«الرَّان»: غلاف يكون على قلب الإنسان، ويُسَمَّى: الرَّانُ أو الرَّين، وأشد منه «الطَّبْعُ»، كما في قوله: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [التوبة:٩٣]، وأشد منهما «القُفْل»، كما في قوله: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤]، وهي درجات تصيب قلب الإنسان تجعله محجوبًا عن تشرُّب الحقائق فلا يقبلها، ويعمى عنها ويماري في الحقِّ، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر:٥]؛ فهي قلوب تسمَّمت، فلم تعد محلًّا لقبول الحق.

رحلتها الطويلة مع الهوى والانحراف جعلتها تكره الخير والصدق، والطهارة والعفاف، وتحب ضدَّ ذلك من الشر والفجور، والكذب والريبة، وهذا يحدث لكثير

من الناس حين يعتادون على حياة الرذيلة والفسق، أو الانهماك في صفة مذمومة؛ ولذا قال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ [الزمر:٤٥].

قد تجد شابًّا إذا رأى فتاة محتشمة ازدراها، وامتعض لرؤيتها؛ لأنه يريد المتبرِّجة، اللَّعوب التي يسهل اصطيادها واستغلالها، وإذا وجد نفسه في بيئة محافظة جادة شَرِقَ بذلك، وإذا ظفر بضدها فرح وطرب؛ فهذا سببه «الرَّانُ» الذي يغطِّي على القلب.

وهو يحدث بسبب كثرة مقارفة الذنب، ومنه ما يُسَمَّى بالإدمان، كمَن يتعاطى المخدرات حتى تصبح طبعًا فيه تجري سمومها في دمه، حتى إنه لو مُنِع عنها بالقوة صار عنده ما يُسَمَّى بالأَعْراض الانسحابية الضارة.

ومثله إدمان الكحول أو الخمر أو الحشيش أو الرذيلة أو المشاهدات الإباحية أو المكالمات والعلاقات المحرمة.

و«الران» شيء غير «الغين»، كما في حديث: «**إنه ليُغانُ على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»(١). فكأن «الغَين» شيء خفيف يَعْرِض لقلوب الأخيار والصلحاء من الغفلة، فيدفعونه بالاستغفار، أما «الران» فغالبًا ما يصيب قلوب الكافرين وأهل الفجور.

وفي ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾ بين اللام والراء إدغام عند بعضهم، وبعضهم يفصلونها بغير إدغام فيقولون: (بلْ رَان)، وبعضهم يفصلون بينهما بسكتة لطيفة دون تنفُّس، وهذه قراءة حفص ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأَغَر المزني ﷺ.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢٩٩)، و«السبعة في القراءات» (ص ٦٧٥)، و«الحجة في القراءات» (٦/ ٣٨٥)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص ٤٦٧)، و«حجة القراءات» (ص ٧٥٤)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٧٩).

* ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥]:

وفي عطف هذه الآية على السابقة مناسَبة جميلة، حيث ذكر في الآية السابقة: «الران» الذي حجب قلوبهم عن الحق والمعرفة والإيمان والعمل الصالح؛ فناسب أن يكون عقابهم في الآخرة حجابًا من جنس «الرَّان» الذي كان عندهم في الدنيا، فقال: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾.

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: يوم القيامة، والحجاب عن الله هو أنْ يُحْرَموا من رؤيته سبحانه، فلا يرونه كما يراه المؤمنون؛ وقد قيل: «إنه تجلَّى لأهل كرامته واحتجب عن أهل معصيته».

وقد استدلَّ بها الشافعي على رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، وهو استدلال بمفهوم المخالفة، فإن الله لما عاقب المكذِّبين بحرمانهم من رؤيته، دلَّ على أن غيرهم من المؤمنين يرونه، وقد تضافرت الأدلة عليه، وهو مذهب أهل السنة، كما في صريح قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، ورؤية الله من أعظم النعيم الذي يُنَعَّمون به في الجنة، فبعد أن تنعَّموا بذكره في الدنيا، تنعموا برؤيته في الآخرة.

وعن جَرِير بن عبد الله ﷺ قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «أما إنكم سترون ربَّكم كما ترون هذا القمرَ لا تُضامُّون في رؤيتِه»[١].

والمقصود: تشبيه الرؤية بالرؤية، لا تشبيه المرئي بالمرئي.

* ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ [المطففين:١٦]:

وحجاب الكافرين عن الله سبحانه وتعالى يفعل في القلوب والأرواح مثلما تفعل النار بالأجساد من الحرقة والألم والإهانة، ولذا عقَّب بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾، وهذا عقاب أجسادهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣).

والصَّلْي معناه: الشَّي والكي والإحاطة من كل جانب، ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩]، والجحيم: هو أشد النار.

* ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين:١٧]:

تقدم أنهم قالوا: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، فعندما يرون مصيرهم يوم القيامة، يقال: هذا الذي كنتم تقولون عنه: إنه ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. فكان عقاب الفجار في الآخرة: الحجاب، ثم الصَّلْي بالنار، فإذا صُلِّيَ بالنار ظنَّ أن هذه هي النهاية، وأن بعدها الفرح والعفو، فيأتيهم الجواب الذي يبهتهم ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، وهو العقاب الثالث.

ولما انتهى السياق من ذكر حال الفجَّار المكذِّبين ومآلهم، انتقل إلى الكتاب الآخر، وهو «كتاب الأبرار»، وهذه طريقة جارية في القرآن، وهي إحدى معاني كونه مثاني: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣]، فالمقصود بالمثاني: أنه يكرِّر ذكر الجنة والنار، والخير والشر، والإيمان والكفر وغير ذلك[1].

* ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨].

﴿كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾: هو الذي كُتبَت به أعمالهم، فهو صحيفة الأعمال.

و﴿الْأَبْرَارِ﴾: جمع «بَرٍّ»، وهو صاحب البِرِّ، وهو اسم جنس لأعمال الخير والطاعة.

يقول الحسن البصري رحمه الله: «الأبرار هم الذين لا يُؤْذُون شيئًا حتى الذَّرَّ»[2]، والذَّرُّ نوع من النمل، وفي الحديث الصحيح: «نزلَ نبيٌّ من الأنبياءِ تحت شجرةٍ، فلَدَغَتْه نملةٌ، فأَمَرَ بجهازِه فأُخرِجَ من تحتِها، ثم أَمَرَ بها فأُحرِقَت، فأوحى اللهُ إليه:

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الفاتحة».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٠٦).

فهَّلا نملةً واحدةً»[1]. يعني: أحرقت بيت النمل كله من أجل نملة واحدة قرصتك، لماذا لم تنتقم من النملة التي قرصتك فقط؟ إن كان ولا بد!

وهذا السياق مناسب لموضوع التطفيف؛ فبعد وعيد المطفِّفين الذين عندهم بغي وعدوان، جاء ذكر الأبرار الذين عندهم العدْلُ والإنصافُ.

وليس المقصود بالبِرِّ هو المظهر الذي يُرَى به الإنسان أنه أصبح معدودًا في الأخيار، وأنه جاوز القنطرة، بل البِرُّ هو الإيمان في الأصل، وهو المعاني القلبية التي تفيض على الجوارح ويظهر أثرها.

والدين ظاهر وباطن، وسلوك وعمل، وحتى الإيمان حين عرَّفه السلف قالوا: الإيمان قول، وعمل، واعتقاد. والاعتقاد هو الأصل؛ ولهذا عرَّف النبي عليه الصلاة والسلام «الإحسان» بـ: **«أن تعبدَ اللهَ كأنك تراه»**[2]. وهذا شيء في القلب، وكذلك الإيمان أصل تحقيقه في القلب.

ثم درجة الإسلام، وهي الظاهر الموافِق للباطن، وكل هذه الدرجات مشروعة.

و«عِلِّيُّون»: كلمة عربية تُطلَق على الذين يسكنون في الأعالي، وبضدهم «السُّفليُّون» الذين يسكنون في الأسافل.

وقد تنوَّعت عبارات السلف والمفسرين في تفسيرها، فقال بعضهم: هي سدرة المنتهى، وقال بعضهم: السماء السابعة، وقال بعضهم: عند العرش.

والمقصود بـ«العِلِّيِّين» على القول الراجح: العلو والارتفاع، فهي المنازل السامية الرفيعة، كما أن كتاب الفجار في «سِجِّين»، الذي مِن أشهر معانيه: السفل، وهو دليل

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣١٩)، ومسلم (٢٢٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.
وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر ﷺ.

على أن الجنة في السماء وسقفها عرش الرحمن عز وجل[1].

* ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ [المطففين:١٩]:

وهي إشادة به، وأنه بالغ مبلغ الارتفاع والسمو.

* ﴿ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴾ [المطففين:٢٠]:

﴿ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴾: تفسير لـ ﴿كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾، وليس تفسيرًا لـ ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾، وإنما دخلت كلمة: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ بين ﴿كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾ وبين وصفه للتعظيم والتفخيم.

* ﴿ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين:٢١]:

أي: يحضره، وقال بعضهم: يطَّلع عليه المقرَّبون.

و﴿ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾: هم الملائكة والأنبياء والرسل والصِّدِّيقون والشهداء، وكلهم يشهدون كتب الأبرار، وهو من بركة ما رُقِمَ فيه من الأعمال الصالحة.

* ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [المطففين:٢٢]:

أي: الذين هذا كتابهم، ولم يقل: (لفي النعيم)، بل قال: ﴿ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ وهذه نكرة تشمل كل نعيم، بمعنى: أن كل ما يُتَصوَّر أو يَخْطُر على البال من النعيم فهم فيه، وكأن النعيم وعاء، والأبرار قد وُضِعوا فيه، فهم يتنعَّمون بكل ما فيه.

ومن «النعيم»: النعيم المعنوي، نعيم الأرواح والقلوب برضوان الله وسماع كلامه سبحانه، والنظر إلى وجهه الكريم، و«الرضوان» كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ﴾ [التوبة:٧٢].

وهناك النعيم الحِسِّي، من المآكل والمطاعم والمشارب والأصوات الجميلة،

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٠٦-٢١٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٥٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٢).

والمَلذَّات، والنكاح وألوان المتع التي نعرف، والتي لا نعرف.

* ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين:٢٣]:

﴿ ٱلْأَرَآئِكِ ﴾: جمع أريكة، وهي السُّرر والمتكآت التي يقعدون عليها في الجنة، ثم هم ينظرون، ولم يذكر الله تعالى إلى ماذا ينظرون؟

وعندما يأتي الإطلاق في القرآن فإنه يدل على عموم المتعلِّق، فهم هنا ينظرون:

١ - إلى النعيم والمُلْك الذي أُعطُوه، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان:٢٠]، والإنسان يتلذَّذ بالنظر إلى ما يملك، وهو في ذاته متعة.

٢ - ينظرون إلى الأشياء الجميلة التي يلتذُّ المرء بالنظر إليها، فإن الإنسان حين ينظر إلى المناظر الجميلة يتمتَّع حتى لا يريد أن يغمض عينيه، وقد يكون هذا عنده ألذ من الطعام ومن الشراب ومن ألوان المَلذَّات، ولو لم تكن هذه الأشياء ملكًا له.

٣- النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى وهو أعظم نعيم.

٤ - ينظرون إذا شاؤوا إلى الكفار في النار، ليذَّكَّروا نعمة الله تعالى عليهم: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾ [الصافات:٥١-٥٢]، أي: كان لي زميل في الدنيا يشكِّكني، فيحب أن ينظر إليه، فيريه الله إياه في النار، فيخاطبه وهو في النار: ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات:٥٦-٥٧].

فهذا هو نعيم الجنة، وهو نعيم متنوِّع، تستمتع به كل جارحة، وكل حاسَّة من حواسِّ الإنسان.

* ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [المطففين:٢٤]:

بلغ بهم النعيم أن صار علامةً تُرى في وجوههم.

وهذا الجزاء على سبيل المقابلة، فكما كان أثر الطاعة والإيمان في وجوههم في الدنيا ظاهرًا، فكذلك تظهر في وجوههم نضرة النعيم.

* ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ [المطففين:٢٥]:

وهذا من ألوان نعيمهم، فإنه تُدار عليهم الخمر وهم في مجالسهم وسَمَرهم، فيُسْقَون من رحيق مختوم.

واختلفوا فيه على أقوال:

١ - أنه الخمر الصافي.

٢ - أنه الخمر القديم المعتَّق؛ لأن الناس في الدنيا يعرفونها أجود ألوان الخمر.

٣ - الخمر الأبيض الجيِّد[(١)].

وهي خمر، لا تَذْهَب بالعقول والألباب كخمر الدنيا، و«ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء»[(٢)]، ولهذا قال النبي ﷺ: «مَن شرِبَ الخمرَ في الدنيا لم يشربْها في الآخرة»[(٣)]. أي: إلا أن يتوب، فهذه عقوبة الحرمان على مَن استعجل شرب هذه الخمرة في الدنيا أن يُحْرَم منها في الجنة.

وقوله: ﴿ مَّخْتُومٍ ﴾ أي: أن هذا الرحيق يكون في أكواب أو قوارير مغلقة، بحيث إن الكأس أو القارورة خاصة بصاحبها، فهو الذي يقوم بفتحها وفضِّها، وهذا من كمال النعيم.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢١٤-٢١٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٤).

(٢) كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: أخرجه هناد في «الزهد» (٣، ٨)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٨٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

* والختم نفسه مسك؛ ولذلك قال: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ [المطففين:٢٦]، وفي بعض القراءات: (خَتَمُه مسك)[١]. فالختم الذي خُتِمَ به على القارورة أو الكأس أو الكوب مصنوع من المسك، فما بالك بما في داخلها؟!

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]:

كان أهل التطفيف في الدنيا يتنافسون بالدرهم والدينار، وبالتطفيف بشيء قليل من الطعام يأخذونه من أفواه الفقراء والمساكين، فـ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾.

أما المؤمنون فقد كانوا في الدنيا يتنافسون هذا النعيم العظيم الذي حُقَّ لهم أن يتنافسوا فيه، وهو ما يجب أن يكون فيه التنافس.

هذي المكارمُ لا قَعْبانِ من لبنٍ   شِيبا[٢] بماءٍ فعادا بعدُ أبوالَا[٣]

وهي إشارة إلى مشروعية التنافس في الخير، كالتنافس في العلم، حتى قال بعض الفقهاء: لا إيثار في القُرَب، ففي مجال القربات والطاعات ينبغي أن يتنافس الناس.

ولا يعني هذا المنع من التنافس في خير الدنيا وطيبها ومتاعها المباح وفرصها التي سُخِّرت وذُلِّلت للإنسان، مثل التنافس في تجارة يُنْفِق الإنسان منها في سبيل الله، أو وظيفة ينفع وينتفع بها، أو منصب يبذل فيه طاقته ويجد فيه نفسه، كما يتنافس الناس في الانتخابات وغيرها، فهذا يرجع إلى نيَّة الإنسان.

ولو كان لدى المرء رغبةٌ في سمعة أو مكانة أو جاه مباح، فهذا مما لا يُلام عليه، وهو طبيعة وجِبِلَّة، لكن فَرْقٌ بين إنسان في نيَّته أن ينفع الناس، وآخر همُّه الرياء والسمعة والتفاخر.

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤١٧)، و«معجم القراءات» لعبداللطيف الخطيب (١٠/ ٣٥٠-٣٥١).

(٢) أي: خُلِطَا.

(٣) ينظر: «نهاية الأرب» (٣/ ٦٥) منسوبًا إلى أبي الصلت بن أبي ربيعة، شاعر جاهلي، وهو والد أمية بن أبي الصلت، قاله في قصيدة مادحًا فيها سيف بن ذي يزن.

وشر منهم ثالث قصده الإضرار بالخلق والظلم والانتقام.

وأحيانًا لا يمكن تحصيل الخير إلا بشيء من مراعاة حظِّ النفس، وعلى المؤمن أن يصحِّح نيَّته.

وفي الآية معنى لطيف: وهو أن مجرد دخولك ميدان المنافسة محمود؛ لأنه يشملك بذلك وصف «المتنافسين»، وأنت على خير ولو سُبقت فحَسْبُك أن تكون من المتنافسين، كما قال النبي ﷺ لبعض قبائل الأنصار لما سمعوا أن النبي ﷺ فضَّل عليهم، فقال: «أو ليس بحَسْبِكم أن تكونوا من الخيارِ؟»[1].

* ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴾ [المطففين:٢٧]:

«المزاج» من «الْمَزْج»، وهي كلمة تُستخدم كثيرًا، ويُقصَد بها الشيء المختلط الممزوج، وتُستخدم في الأشياء المعنوية، فيقال: فلان مزاجه متعكِّر.

وإذا خُلِط شراب بشراب قيل: هذا مزيج أو مزاج، أي: ممزوج بعضه ببعض.

و﴿ تَسۡنِيمٍ ﴾: عين في الجنة، وهي أفضل ماء الجنة، ولذلك سُمِّيَت: «تسنيمًا»، من السنام، وسنام الإبل معروف وهو أعلاه، ولذلك قيل: إن هذه العين تجري فوق بيوت أهل الجنة.

وقال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم في هذه الآية: «إنها تُمزَج لأصحاب اليمين مزجًا، ويشربها المقرَّبون صِرْفًا»[2].

فأصحاب اليمين يشربونها ممزوجة مع غيرها، أما المقرَّبون فإنهم يشربونها صرفًا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩١)، ومسلم (١٣٩٢) من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «الزهد» لابن المبارك (١٥٢٢)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٤٠٩١)، و«الزهد» لهناد (٦٥، ٦٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٢١)، و«صفة الجنة» لأبي نعيم (٣٠٦)، و«البعث والنشور» للبيهقي (٣٢٧)، و«المختارة» (١٠/ ٣٠٠) (٣٢٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣١٠).

غير ممزوجة، وذلك لأن المقرَّبين أفضل من أصحاب اليمين.

* ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٨]:

أي: يشرب منها المقرَّبون، فالباء بمعنى (من)، وهو معروف في اللغة، أما غيرهم من الأبرار وأصحاب اليمين فإنها تُمزَج لهم مزجًا.

* ثم ختم الله تعالى هذه السورة بذكر ما كان عليه الأبرار والفجار في هذه الدار، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٢٩]:

ولم يقل: (المجرمين) بل عرَّفهم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ثم بالفعل الماضي ﴿أَجْرَمُوا۟﴾، فبيَّن أن فعلهم- وهو الإجرام- أمر مضى، فالله تعالى يذكر هؤلاء المجرمين يوم القيامة بصفتهم التي كانوا عليها في الدنيا، ولذلك قال بعض المفسرين: إن هذه الآيات مما يوبِّخ الله تعالى به المجرمين يوم القيامة.

وسواء كان ذلك توبيخًا لهم، أو تقييدًا لما عملوه في الدنيا، فالأمر يتعلق بذكر معنًى مهم وواقع، وهو أنهم أجرموا، ومن أعظم إجرامهم كفرهم بالله عز وجل.

وعندما تجد في القرآن ذكر الإجرام والكفر، وبمقابل ذلك الإيمان، لا تجد أن شيئًا من ذلك مقرونًا باسم قبيلة أو بلد أو شخص، وإنما تجده باعتبار القيم الأخلاقية وقَدْر تحقيقها، فالعبرة بفعل الإنسان، لا بما كان عليه الآباء والأجداد:

كُنِ ابنَ مَن شِئتَ واكتَسِبْ أَدَبًا   يُغنيكَ مَحمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
فَلَيسَ يُغني الحَسِيبَ نِسبَتُهُ   بِلا لِسانٍ لَهُ وَلا أَدَبِ
إِنَّ الفَتى مَن يَقولُ ها أَنا ذا   لَيسَ الفَتى مَن يقول كانَ أَبي[1]

(١) ينظر: «معجم الأدباء» (٦/ ٢٧١٦)، و«الوافي بالوفيات» (٢٦/ ٤١)، و«بغية الوعاة» (٢/ ٣٠٠)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص١٦).



وقال الآخر:

لَعَمرُكَ ما الإنسانُ إلَّا بدينِـــهِ   فَلا تَترُكِ التقوى اتِّكالًا عَلى النَّسَبْ
فَقَد رَفَعَ الإسلامُ سَلمانَ فارِسٍ   وَقَد وَضَعَ الشِّركُ الشَّريفَ أَبا لَهَب[1]

﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾:

إشارة إلى الأكابر من قريش، كأبي جهل وأبي لهب وعُتبة وشَيبة ابني ربيعة والنضر بن الحارث وغيرهم من صناديد الكفر الذين يحاربون الدعوة، ويصدُّون عن سبيل الله، ويُؤذون المؤمنين، فقد كانوا يضحكون من المؤمنين، ويسخرون منهم في نواديهم.

وهم لم يكونوا يفعلون ذلك في الجاهلية قبل الإسلام، والله أعلم، لكن لما بُعِث الرسول ﷺ فأسلموا معه صاروا يسخرون منهم، وهذه غاية التطفيف، والتغاضي عما لديهم من الصدق وحسن النية والإخلاص.

وقد ذكر الله تعالى مثل ذلك عن الأنبياء السابقين مع قومهم، وأنهم كانوا يتعرَّضون لمثل هذا، كما قال عن نوح: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]، وقال: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام:١٠].

وهذه الآية درس في التربية والأدب، فأسلوب الضحك من الآخرين أسلوب ممجوج، لا يصدر من سويِّ حسن الخلق؛ ولهذا جاء في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات:١١]، وأنت قد تضحك من إنسان من أجل لونه، أو شكله، أو خلقته، أو

(١) ينظر: «مفيد العلوم» (ص ٣٧٨)، و«تاريخ دمشق» (٦٧/ ١٣٧)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص١٢).

طريقة كلامه، أو صفة من صفاته، وهو خير منك عند الله، وهو فعل تشبهت به بالذين أجرموا، وهذا غاية التنفير للمؤمن من الوقوع فيه.

* ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين:٣٠]:

وهذا هو الوصف الثاني للمجرمين.

وفي الآية إشارة إلى أن الاستهزاء لم يقع مرة أو مرتين، بل هو خُلُق لصيق بهم.

والضمير في قوله: ﴿ مَرُّواْ بِهِمْ ﴾ محتمَل، فيجوز أن يكون المشركون جالسين فيمرُّ المؤمنون بهم، فيتغامزون عند رؤيتهم، أو العكس، وهو أن يكون المؤمنون قعودًا، فإذا مرَّ المشركون نظروا إليهم فغمزوهم، وسخروا منهم.

ولعل إبهام الضمير يشمل الحالتين معًا.

والفعل: ﴿ يَتَغَامَزُونَ ﴾ فعل مشترك يدلُّ على أنه ليس فِعْلَ فرد، وإنما هو فعل جماعة يتشاركون فيه.

ومِن معاني «التغامز»: اللمس بطرف اليد أو الرِّجل، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «فإذا سجدَ غَمَزَني فقبضْتُ رِجلي»[1]. فيمكن أن يغمز بعضهم بعضًا، وكأنه ينبهه على المشهد الذي لا ينبغي أن يفوت.

وقد يحصل بأن يقلِّد حركة الشخص على سبيل التنقُّص والسخرية، وهذا نوع من السفه الذي لا يمتُّ إلى القيم والأخلاق بصلة، ولا يُحِقُّ حقًّا، ولا يبطل باطلًا، وغاية ما يدلُّ عليه أن الإنسان الذي تصدر منه هذه الحركات سيئ الخلق، فاسد المزاج، خفيف العقل معتلّ الشخصية.

وذلك أنهم قوم يعيشون في مجتمع واحد، وكأنهم قد خاضوا غمار البحر في سفينة تقلهم جميعًا، فالعقل والمروءة أن يكون بينهم قَدْر من العلاقات المشتركة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٢)، ومسلم (٥١٢).

والمعاني الإنسانية التي تضمن التعايش والتعاشر بالحسنى، لكنهم أطاحوا بكل هذه المعاني، وصاروا من الذين آمنوا يضحكون، وإذا مرُّوا بهم يتغامزون.

ولهذا نهى الله تعالى عن الغمز واللمز والهمز، كما في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١].

* ﴿وَإِذَا انقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١]:

وهذا الوصف الثالث للمجرمين.

والانقلاب: معناه الرجوع إلى معتاد يذهب إليه الإنسان.

ولم يقل: (إلى بيوتهم) وإنما قال: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾؛ لأن هؤلاء القوم يُشْرِكون أزواجهم وأطفالهم في السخرية، فهي ليست موقفًا عابرًا، بل أصبحت جزءًا من طبيعتهم وأخلاقهم، فيُشْرِكون أزواجهم وأهلهم معهم فيها وقت الراحة والأنس والجمام!

وتكرار الفعل ﴿انقَلَبُوٓاْ﴾ في قوله: ﴿وَإِذَا انقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، يعطي صورة من أجمل الصور البلاغية، ولو قال: (وإذا انقلبوا إلى أهلهم كانوا فكهين) لأدَّت المعنى، ولكنها أقلُّ جزالة وبلاغة، وكأن السياق يُشعِر بأنهم لا ينقلبون إلى أهلهم إلا وينقلبون فكِهين، فهم دائمًا يرجعون بهذه الصفة، ولا يُكرَّر الفعل إلا لمثل هذا المعنى، مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص:٦٣]، فالتكرار جاء لإنشاء معنًى جديد، وهو ذِكْر ارتباط الانقلاب بهذه الصفة ﴿فَكِهِينَ﴾.

والجمهور يقرؤونها ﴿فَكِهِينَ﴾، وقرأها عاصم وغيره: (فاكهين)، والفرَّاء يذهب إلى التفريق بين الفعلين، والأقرب أن معناهما واحد[1].

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٤٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٨٦)، (٥/ ١١٤)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٣٨٨)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٥).

ومن معاني ﴿ فَكِهِينَ ﴾: أنهم ينقلبون متنعِّمين، فهم ينقلبون إلى بيوتهم حيث المآكل والمشارب، والمطاعم والخيرات، ويشعرون بالتنعُّم والفرحة الدنيوية والسعادة، فالله عز وجل يسجِّل عليهم النعمة التي أنعم بها عليهم فلم يشكروها ولم يقدِّروها، بل: ﴿ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾ [إبراهيم:٢٨].

ومن معاني ﴿ فَكِهِينَ ﴾: مَرِحين، فهم أهل مرح، وسرور، ونعيم، فإن الكفار قوم عُجِّلت لهم طيباتهم أو حسناتهم في الحياة الدنيا، وقد قال الله عنهم: ﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا ﴾ [التوبة:٨٢].

ومن معاني ﴿ فَكِهِينَ ﴾: ساخرين متندِّرين، وهذا أقوى المعاني، أي أن جزءًا من فكاهتهم ونكتهم التي يتداولونها والطرائف التي يذكرونها، هو من المعركة التي يديرونها ضدَّ الحقِّ، فإذا رجع الواحد منهم إلى أهله بدأ يحدِّث زوجته وأطفاله وأهل بيته وسُمَّاره بما رأى، وما عمل وما قال، وما سمع على سبيل السخرية بهؤلاء المؤمنين، وسيظهر أنه كان منتصرًا وفائزًا ومتفوقًا وخفيف الظل حاضر البديهة[1].

* ﴿ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين:٣٢]:

هذا هو الوصف الرابع للمجرمين.

فكلما رأوهم أطلقوا عليهم هذا الوصف افتراءً وتضليلًا.

وانظر كيف يؤكِّدون هذا الوصف بأدوات التوكيد: إن، واسم الإشارة واللام في قوله: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾.

وماذا يريدون بالضلال؟

يحتمل أن مقصودهم أنهم قوم ليس لهم علم ولا فهم ولا إدراك، وذلك لأنهم -

---

(١) ينظر: «تفسير الواحدي» (٤/ ٤٤٩)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٥٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٣).

في نظر المجرمين- يعملون أعمالًا لا معنى لها إلا النصب والجوع والعطش كالصلاة والصيام، وكذلك حين يتركون الربا مع أرباحه المضاعفة، فهذا في نظرهم ضلال.

أو يكون المقصود: الضلال في الدين، وهذا أعجب وأطرف، حين يصبح أبو جهل وأبو لهب وعتبة وشيبة والنضر حُكَّامًا في تمييز الهدى من الضلال، وقد كان فرعون من قبلهم يقول: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩]، ويقول عن موسى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦]، ففرعون يتظاهر لقومه بأنه خائف من الفساد أن يظهر على يد موسى عليه الصلاة والسلام، ويزعم أنه يهديهم سبيل الرشاد والهدى!

والمؤمن يتألَّم مما يُقال فيه من السخرية واللَّمز، ومِن أشد الألم الذي يجده أن يجتهد في دعوة الناس للخير والهدى، ثم يُتَّهَم بأنه يريد الإفساد وإشاعة الفتنة.. إلخ.

والالتزام بالحق له تَبِعة كبيرة، وقد لا يحسُّها كما هي مَن نشأ في بيت صالح يعينه على الخير والهدى، وأكثر مَن يحسُّ ذلك ويعاني تَبِعاته مَن نشأ في بيت غير صالح، حيث السخرية والهمز واللَّمز مِن كل ما يتميَّز به عنهم مِن سيما الصلاح وآثاره.

إن السخرية ممارسة قبيحة وحصار إعلامي وقح، يمارسه الملأ من قريش ضد دعوة النبي ﷺ؛ حتى يحولوا بين الناس وقبول الحق، وهذه سنة الله في كل دعوة أو حركة تستهدف إصلاح أحوال الناس فتُبْتَلى بمَن يحاربونها.

وليس بالضرورة أن يحاربها الكفار، بل يقع هذا في المسلمين، إذ تجد التنابز بالألقاب والتصنيف والسخرية والتشكيك ونشر الشائعات والأباطيل في مجتمعات المسلمين، كما تجده في المجتمعات الأخرى.

* ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ [المطففين:٣٣]:

ولك أن تنظر إلى هذا النسف الهادئ لكل ما قالوه، فإن الله تعالى لم يَرُدَّ في هذه

السورة على الكفار ردودًا طويلة مُفَصَّلة، وإنما بهذا الرد المفحم، فهؤلاء المشركون لم يرسلهم الله تعالى على المسلمين حتى يحفظوهم أو يراقبوا أعمالهم.

وقال: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾. ولم يقل: (وما أرسلوا لهم)؛ لأن الإرسال عادة يقتضي التسلُّط والعلوَّ، فالله تعالى يقول: لم نرسلهم على هؤلاء المؤمنين حافظين لأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم.

وهذا توبيخ للمشركين أنهم لم يُكلَّفوا بهذه المهمة، وفيها تصبير للمؤمنين؛ فكأن الله تعالى يقول: إن الحكم والأمر والنهي والتصويب والتخطئة لله سبحانه، فما دام لم يرسل هؤلاء الكفار حافظين، فلا يهمَّنَّكم ما يقولون، ولا تلتفتوا إليهم.

وفيها تأديب عام لجميع الخلق، فإنه لم يُرْسَل أحد حافظًا على أحد، حتى النبي ﷺ، قال عنه تعالى: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية:٢٢]، وإنما الحافظون هم الملائكة الذين يرسِلهم الله إلى الإنسان يحفظون أقواله ويسجِّلون عليه.

ففي السياق درس مهمٌّ، وهو التنبيه لعموم الناس، أن يلزموا حدودهم، فالله تعالى لم يرسل أحدًا من البشر حافظًا على أحد إلا بمُقْتَضَى مسؤوليته عليه إن كانت، كالأب على أولاده، أو الزوج على زوجته، أو المسؤول في حدود وظيفته، أما أن يكون حافظًا للناس فلا.

والمراقبة على تصرفات الناس تنتهي إلى بحث عن الأخطاء والعيوب والزلَّات، وقد رُوي عن النبي ﷺ: «مَثَلُ الذي يجلسُ فيسمعُ الحكمةَ، ثم لا يحدِّثُ عن صاحبِه إلا بشرِّ ما سمعَ، كمَثَلِ رجلٍ أتى راعيًا فقال: يا راعي أجزرْ لي شاةً[1] من غنمِك. قال: اذهب فخذْ بأُذُنِ خيرِها، فذهب فأخذَ بأُذنِ كلبِ الغنمِ»[2].

---

(١) أي: أعطني شاة تصلح للذبح.

(٢) أخرجه أحمد (٨٦٣٩)، وابن ماجه (٤١٧٢) من حديث أبي هريرة ﷺ. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (١٧٦١).

ومثل هذا مَن يحضر موعظة، أو يقرأ كتابًا، أو يسمع برنامجًا، فيجد علمًا وخيرًا وفوائد جليلة؛ لكنه لا يلتفت ولا يتذكَّر إلا الزَّلل ، فهو كالذي أخذ الكلب، وترك الغنم، وقد كان يسعه أن يأخذ أثمن شاة!

وفي الآية إشارة إلى وجوب عناية المرء بنفسه، وأن أولى ما يبدأ به إصلاح عيبه ورعاية سلوكه.

ابدأ بِنَفسِكَ فَانْهها عَن غَيِّها ﻓَﺈِذا انتَهَت عَنهُ فَأَنتَ حَكيمُ

ومن دروس هذه الآية الكريمة، أن كثيرًا من الناس يُحْسِنون ردَّ الفعل أكثر مما يُحْسِنون المبادرة، وتجدهم يتفاعلون عند وقوع منكر أكثر مما يتفاعلون عند غياب معروف كان من الواجب تحقيقه وإقامته.

ولا شك أن على الناس أن ينكروا المنكر، لكن لا ينبغي أن يكون نشاط الإنسان وحيويَّته واندفاعه مرهونًا بإثارة أو استفزاز، ثم إذا ذهب هذا المثير خمد ولم يكن عنده إنتاج أو فاعلية، لأن معنى ذلك أن يكون عدوك هو الذي يوجِّه طاقتك أو يُسَكِّنها، ويختار الموضوع والوقت والمكان الذي يستفز طاقتك فيه وإليه، وهذا أمر خطير؛ لأن معنى ذلك أن يكون الناس سلبيِّين حتى توجد المثيرات أو المحفِّزات، وربما تفاعلوا معها بطريقة خاطئة.

ومن دروس هذه الآية: أن الله حين وصف الكفار بأنهم يضحكون ويتغامزون ويتفكَّهون، لم يذكر عن المؤمنين أنهم قابلوا ذلك بمثله.

وهو دليل على أن مقياس القوة ليس الصراخ والضجيج والصخب، والسباب والشتام، وإنما الحجة والصبر، والنبي ﷺ يقول: «**ليس الشديدُ بالصُّرَعةِ، إنما الشديدُ الذي يملِكُ نفسَه عند الغضبِ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فقدرتك على أن تملك نفسك عند الساخرين واللامزين هي القوة والكفاءة، وليست الغلبة بالصياح واللَّجَاج والصَّخَب، بل بقوة الحجة وسلامة المنطق ولغة العقل، سواء في القول أو في الفعل.

وفي المثل العربي: «أوسعتُهم سبًّا وأَوْدَوا بالإبل». وذلك أن لصًّا أخذ الإبل على رجل كان يرعاها، فتبعه الراعي يسبُّه، ويشتم آباءه، فلما أخبر الناس بخبره سألوه: ماذا فعلت؟ فذكر المثل[1]!

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥]، ويقول الشاعر:

إِذا جارَيتَ في خُلُقٍ دَنِيئًا   فَأَنتَ وَمَن تُجاريهِ سَواءُ

فإذا عاملت سفيهًا بالمِثْل، فكأنك نزلت إلى درجته، ووصلت إلى الحضيض الذي وصل إليه، فأنت تحفظ بالإعراض مكانتَك عند الله وعند نفسك، فإن هذا أرفع في درجاتك يوم القيامة.

وبهذا تربِّي نفسك على القيم الفاضلة التي يتميَّز بها الإنسان عن الحيوان.

وأخيرًا: فأنت بذلك تجعل المجال مفتوحًا للخير والهدى، ولهذا يقولون: كَسْب الأشخاص أفضل من كَسْب المواقف، ويقال: إن مقام الهداية أولى بالرعاية من مقام النكاية.

والمعنى: أن مقام الهداية وتأليف قلوب الناس على الخير أحب إلى الله وأنفع لعباد الله من النكاية، والتسلُّط والشماتة بالناس وتنفيرهم عن الهدى.

---

(١) ينظر: «الفاخر» (ص١٧٦-١٧٧)، و«جمهرة الأمثال» (١/ ١١٦)، و«مجمع الأمثال» (٢/ ٣٦٣)، و«المستقصى في أمثال العرب» (١/ ٤٣١).

* ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٦]:

ما زال السياق في مشهد القيامة، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في مقابل ﴿ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾، فوصفهم بهذا الإيمان الذي مضى منهم، وهم قد بلغوا اليوم النعيمَ المقيمَ، وهم ﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾، وهذا دليل على أنهم لم يكونوا يضحكون منهم في الدنيا.

فالمؤمن بقيمه وأخلاقه لا يسخر من الناس، وإنما هو داعٍ وهادٍ، والسخرية ليست من أساليب الدعوة.

وضحك الذين آمنوا من الكفار؛ لأنهم وجدوا ما وعدهم ربهم حقًّا، وأن الكفار لم يجدوا ما منَّتهم به أنفسهم من الأماني الباطلة، ولم يجدوا لوعود الشيطان حقيقة، فحُقَّ للمؤمنين أن يضحكوا منهم كما ضحك منهم الكفار في الدنيا؛ زيادة في عذابهم، جزاءً وفاقًا[1].

و﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾: السُّرُر المحجَّلة، جمع: أريكة، وهي مقابل ما كان عليه الكفار: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ فالمؤمنون اليوم هم الفكهون مع أزواجهم: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس:٥٦].

والمجالس والمتكآت المعدَّة لهم من أجمل ما يكون، مما لا يخطر على بال بشرٍ، فهم في هذا النعيم ينظرون.

وقد أطلق النظر هنا، فهم ينظرون إلى وجه الله الكريم، وينظرون إلى النعيم في الجنة والمُلْك، وينظر بعضهم إلى بعض لما فيه من المتعة والسرور والأنس: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/٢٢٨)، و«زاد المسير» (٤/٤١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/٢٦٨).

ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ [الزمر:٧٤]، وينظرون أيضًا إلى الكفار وهم يُعَذَّبون في النار.

والتعبير بفعل المضارع ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ يدل على الاستمرار، فيدل على أن الذين آمنوا ينظرون في الجنة دائمًا وأبدًا، فليس فيها نوم ولا موت.

ومن معاني ﴿ يَنظُرُونَ ﴾: أنهم ينظرون إلى ما جُوزي به الكفار، ولهذا ربما يكون تكرار الآية ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾؛ لقرنها بقوله سبحانه: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾؛ أي: يشاهدون ذلك، وهم يعلمون يقينًا أنه قد ثُوِّب الكفار، ولكن يراه المؤمنون عيانًا بعد ما آمنوا به في قلوبهم بيانًا.

وهنا قال: ﴿ ثُوِّبَ ﴾ والثواب غالبًا ما يُطلَق في القرآن الكريم على الثواب الحسن وهو الجنة، وعلى النعيم والرضوان؛ وقد يكون إطلاقه هنا من باب المعنى اللغوي العام.

أو يكون قوله: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ﴾ من باب السخرية؛ لأنه تقدم ذكر سخريتهم بالمؤمنين، فقال هنا: ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ ﴾؛ أي: هل جُوزوا ما كانوا يفعلون، نعم، وبئس ما جُوزوا به.

وقوله: ﴿ يَفْعَلُونَ ﴾ دليل على أن هذا الأمر كان منهم عادة وخلقًا، وأنه قد جرى منهم مجرى السجيَّة والطبيعة النفسيَّة، وفي ذلك إشارة إلى أهمية أن يتخلَّق الإنسان بالخُلُق الفاضل؛ حتى يكون سجيَّة له وطَبْعًا، وقد قال النبي ﷺ للأشجِّ؛ أشجِّ عبد القيس: «إن فيك خَصلتين يحبُّهما اللهُ: الحلمُ والأناةُ»[١]. وفي رواية: «يا رسول الله، أنا أتخلَّق بهما أم اللهُ جَبَلَني عليهما. قال: «بل اللهُ جَبَلَك عليهما». قال: الحمدُ لله الذي جَبَلَني على خَلَّتين يحبُّهما اللهُ ورسولُه»[٢].

---

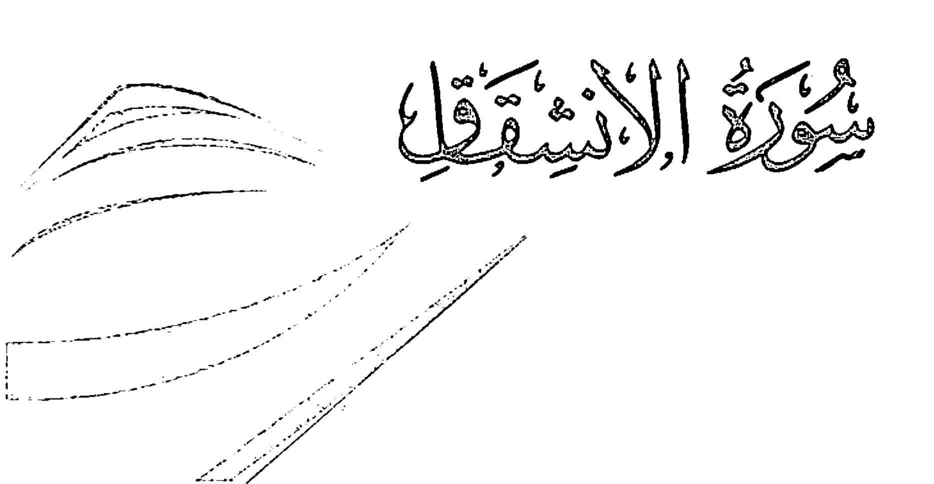
(١) أخرجه مسلم (١٧، ١٨) من حديث ابن عباس وأبي سعيد رضي الله عنهم، وأصله في «صحيح البخاري» (٥٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٢٢٥) من حديث زارع العبدي رضي الله عنه.

فهي أخلاق جِبِلِّية، لكنها تحتاج إلى ترشيد وتحصيل وتثبيت قد تكون مفقودة، فيحتاج المرء إلى أن يتعلَّمها، ومن ذلك أن يتعلم الصبر إذا وجد مَن يستهزئ به أو يسبُّه، فلا يقابل السيئة بالسيئة، بل يعفو ويصفح، كما علَّم الله تعالى المؤمنين وربَّاهم على مصانعة شياطين الإنس في ثلاث مواضع في كتابه، منها: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ [فصلت:٣٥]، والله أعلم.

○ ○ ○

سُورَةُ الانشِقَاقِ



سورة الانشقاق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ
﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا
مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا
﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ
أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ
﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ
﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الانشقاق:١-٢٥].

* تسمية السورة:

١ - الموجود في غالب كتب التفسير، وكتب علوم القرآن، وكتب الحديث، كالبخاري والترمذي وغيرهما: «سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾»[1].

وفي «الصحيح» عن أبي رافع: صلَّيت مع أبي هريرة رضي الله عنه صلاةَ العَتَمَةِ، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ فسجد فيها، فقلتُ له: ما هذه السجدةُ؟ فقال: «سجدتُ بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزالُ أسجدُ بها حتى ألقاه»[2].

٢ - «سورة الانشقاق»[3]، وهو مصدر كما سلف.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧١٤)، و«معاني القراء» للفراء (٣/ ٢٤٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٠٧)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٧)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩٣)، و«المصاحف» لابن أبي داود (ص ٢٦٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١١١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٧٨)، ومسلم (٥٧٨).

(٣) ينظر: «سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٢٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٣٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٥٨)، و«الكشاف» (٤/ ٧٢٥)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

٣- «سورة انشقت» كما في بعض الكتب[١].

٤ - وسمَّاها بعضهم: «سورة الكدح»، كما في «تفسير السمعاني»[٢]؛ لقوله تعالى فيها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق:٦].

* عدد آياتها:

الجمهور على أنها (٢٥) آية، وعدَّها بعضهم (٢٣) آية، وجمعوا قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الانشقاق:٧]، وقوله: ﴿ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴾ [الانشقاق:٨] على أن أنها آية واحدة، وقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴾ [الانشقاق:١٠]، وقوله: ﴿ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴾ [الانشقاق:١١] على أنها آية واحدة[٣].

* وهي مكية باتفاق علماء التفسير[٤].

* ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴾ [الانشقاق:١]:

بُدِئت السورة بأداة الشرط: ﴿ إِذَا ﴾، وهي أداة ظرف للمستقبل، كما مر في السورتين قبلها.

وما ورد في السورة جاء في مواضع أخرى، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن:٣٧].

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص ٦٧٧)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، (٢/ ٥٥٥)، و«بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (١/ ٥٠٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٨٦).

(٣) ينظر: «البيان في عَدِّ آي القرآن» (ص ٢٦٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

(٤) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٣)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٥٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤١٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٤١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢١٧).

و«الانشقاق»: الانفطار، فمعناهما واحد، والسماء معروفة.

وفي السورة طرف مما في السورتين قبلها «التكوير»، و«الانفطار» مع ربطه بإذن الله وإرادته، والسياق مشعر بانتقال هائل من حال إلى حال، مُؤْذِن بتغيُّر واختلاف، وفي نهاية السورة تعريج عليه وتوكيد له بقَسَم آخر.

وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٦-١٩]، يعني: حالًا بعد حال. فهذا نوع من التغير.

* ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق:٢]:

وليس معنى «أذنت»: أعطت الإذن؛ لأن ربها تعالى أعظم من ذلك، فحُكْمُه نافذ على كل مخلوقاته، وإنما المقصود هنا: «استمعت». يعني: وضعت أذنها، تستمع إلى ربها، ، ولعله تعريض بالبشر الغافلين الذين لا يسمعون كلام الله وأمره بطوعهم واختيارهم!

وقوله: «أذنت»، أبلغ من قوله: «سمعت»، أو: «استمعت»، وبين «سمع» و«استمع» فرق، فـ«سمع» لما يسمعه الإنسان، حتى لو كان بغير قصد، و«استمع» إذا كان قصد الإنصات، و«أذن» أبلغ منهما، وفي الحديث: «ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أَذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصوت يتغنَّى بالقرآن، يجهرُ به»[1]، أي: استمع لنبي، قال الشاعر:

صُمٌّ إذا سمعوا خيرًا ذُكِرْتُ به   وإن ذُكِرْتُ بسوءٍ عندهم أَذِنُوا[2]

وأذنوا بمعنى: أصغوا.

وكأن معترضًا قال: السماء جماد لا يعي ولا يحس، فكيف يستمع ويصغي؟

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٣)، ومسلم (٧٩٢) من حديث أبي هريرة .

(٢) ينظر: «عيون الأخبار» (٣/ ٩٦)، و«أمالي القالي» (١/ ١٢٢)، و«الصداقة والصديق» (ص ٢٢٠) منسوبًا إلى قعنب بن أم صاحب.

فكان الجواب في قوله سبحانه: ﴿ وَحُقَّتْ ﴾، يعني: وحُقَّ لها أن تأذن؛ لأن الذي يخاطبها ويأمرها ربها سبحانه الذي ركَّب طبيعتها وهو على تغييرها قدير.

وانشقاقها ليس اختياريًّا، بل هو أمر كوني مِن عند ربها وخالقها، وكما وُجِدَت بأمر الله، وتكوَّنت بإذنه، وكانت صفتها وكينونتها بإرادته؛ فهكذا ما يطرأ عليها يوم القيامة، هو بأمره وإذنه وإرادته سبحانه.

* ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ [الانشقاق:٣]:

«المدُّ» كما قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم وغيرهما، أن الله تعالى يبسطها يوم القيامة بسط الأديم[1]، وهو الجلد، وهذا مجرد مثال يُعرَف به ما معنى المدِّ والبسط، أي: أن الأرض تُبسَط بسطًا كاملًا، تتحول من شكلها الكروي، وتكون مسطَّحة ممتدَّة.

ويحتمل أن المقصود: أن ما في الأرض من مرتفعات ومنخفضات تكون على مستوى واحد، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه:١٠٥-١٠٧]، بحيث تكون الأرض مستوية تمامًا لتستوعب الناس كلهم.

وللآية احتمال ثالث، وهو التوسعة والبسط، وهو معنًى لغويٌّ صحيح وجيه؛ فإن الله احتجَّ عليهم بأنه ينقص الأرض من أطرافها فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد:٤١]، فلا يمنع أن يكون من الآيات العظيمة في ذلك الموقف أن تُمَدَّ الأرض وتتسع أكثر مما كانت عليه؛ حتى تتسع للخلائق الذين يُحشَرون عليها في ذلك الموقف، والذين مرَّت عليهم قرونٌ اللهُ تعالى أعلمُ بطولها.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨٤)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣١٤).

* ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:٤]:

ألقت ما كان في بطنها، ومثل هذا المعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:٢].

فيُحتمَل أن يكون المقصود: أخرجت ما فيها من الموتى الذين كانوا في بطنها؛ ليكونوا على ظاهرها، أحياء بعدما نفخت فيهم الأرواح.

ويُحتمَل أن تكون ألقت ما فيها من الكنوز والخزائن وغيرها، وهذا وإن كان معنًى صحيحًا إلا أنه ليس مناسبًا لهذا الموقف؛ لأن الأرض قبل قيام الساعة تُخرِج كنوزها وخيراتها، كما جاء في أكثر من حديث صحيح[1]، فيكون المقصود هنا بإلقاء ما فيها: إخراج الناس، خصوصًا وأن مدار الكلام كله على الإنسان، فهو محطُّ التكليف والعناية، كما سوف يأتي هنا في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾ [الانشقاق:٦].

﴿وَتَخَلَّتْ﴾، والتخلّي من الخلوّ، وكأنه يقول: (خَلَتْ)، لكن إضافة التاء مع التشديد (تخلَّت) توحي بالمبالغة في التخلص من كل ما في بطنها، وأنه لم يبقَ في جوفها شيء ألبتة.

وربما كان ذلك لأنه حتى الجمادات في ذلك الموقف يكون فيها شيء من الوَجَل، تريد أن تتخلَّى مِن كل شيء حتى لا يُسائِلها أحد ولا يطالِبُها بتبعة.

ولذلك يتمنَّى الكافر أن يكون جزءًا من هذه الأرض التي ألقت ما فيها وتخلَّت وانتهت مهمتها: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ:٤٠].

* ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق:٥]:

تكرار في موضعه؛ لأنه ذكر السماء، فذكر استماعها لربها، ثم ذكر الأرض، وذكر استماعها لربها، وذلك في نهاية الأمر، كما حدث في بداية الخلق حين قال سبحانه:

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٠١٣).

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت:١١]. فهو تفصيل مناسب في موضعه، جاء في أعلى درجات البلاغة والتأثير.

فهذه السماء، وهذه الأرض، وهما محيطان بالإنسان قد أذنتا لربهما وجاءتا طائعتين وكأنهما من العقلاء، ولذلك عاملهما لغويًّا كذلك، فعبَّر بـ﴿طَآئِعِينَ ﴾ وهو جمع الذكور السالم العاقل، فما بالك بالإنسان المزوَّد بآلة السمع، والمميَّز بالفهم والعقل، وهو يصد ويعرض ويتغافل، ولذا جاء الخطاب مباشرة:

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق:٦]:

وهذا خطاب لفرد، ولذلك قال بعض المفسرين: إن المقصود به: الرسول ﷺ.

وقال آخرون: المقصود أشخاص بأعيانهم من الكفار، كأبي جهل أو أُبي بن خلف أو غيرهما، والواقع أن المقصود بالآية هو جنس الإنسان أيًّا كان.

والنص يستغرق جنس الإنسان، وليس فيه تخصيص أحد من أحد، ولذا ذكر اختلاف مصيرهم بين نعيم وعذاب، مما يؤكِّد أن المقصود كل إنسان أيًّا كان طريقه ومذهبه، من مؤمن وكافر وبر وفاجر(١).

وخطابه تعالى للفرد بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ دليل على شرف الإنسانية وتميزها، وقبل ذلك قال عن الأرض: ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾، فلم يعد عليها حساب، ولم يوجَّه إليها سؤال ولا عتاب، بخلاف الإنسان الذي حمَّله ربُّه التكليف وجعله أهلًا لذلك.

فالحرية تقابلها مسؤولية، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣]، فمن شرف الإنسان أن يكون عاقلًا مسؤولًا محاسبًا، وإذا أخفق كان

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٣٥)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٥٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ٩٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٨).

الوبال عليه عظيمًا؛ وأصبح بمنزلة أحطَّ مِن المخلوقات المُسَيَّرة التي ليس لها اختيار، كالأرض التي يطؤها والكون الذي سُخِّر له.

ومن الأهمية بمكان الحفاظ على هذه الإنسانية، ولذا جاء الإسلام بحفظ حقوق الناس، حتى قال النبي ﷺ في خطبته الشهيرة في حجة الوداع: «**فإنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم بينكم حرامٌ، كحرمةِ يومِكم هذا، في شهرِكم هذا، في بلدِكم هذا**»(1).

فوظَّف المقدَّس الزماني والمكاني الذي يرعى الناس حرمته؛ للتأكيد على أهمية حفظ الحقوق الذاتية والمالية والمعنوية والضرورات التي بها قوام الحياة.

واليوم تبدو (حقوق الإنسان) وكأنها مُنْتَج غربي، أو نظام من أنظمة الأمم المتحدة، حتى إنَّ من المسلمين مَن يسمع كلمة حقوق، أو كرامة، أو حرية، فيحسُّ أنها ألفاظ مجلوبة من أمم أخرى، متناسيًا ترسيخ الإسلام لهذه الحقوق العظيمة في النصوص القطعية.

إن مخاطبة الإنسان بإنسانيته دليل على أن دين الله لم ينزل للإطاحة بإنسانيتهم أو دوس كرامتهم أو جرِّ نواصيهم، ولكن جاء ليحفظ إنسانيَّتهم بالتقوى والشريعة وطاعة الله ورسوله؛ ولذلك جاءت الشرائع والحدود والعقوبات الرادعة للمتجاوزين، كما قال سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة:٤٥]، وقال عن بني إسرائيل: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

والذين يربطون الاستجابة لدين الله بإهدار كرامة المدعو أو إذلاله يعانون

(1) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة ﵁.

مشكلة عويصة في فهمهم لدين الله، ويعجزون عن التمييز بين الدين المنزه العظيم، وبين أمزجتهم ومشاعرهم وعصبياتهم النفسية والجماعية التي لم يفلحوا في الخلاص منها.

وفي شأن المعصية يقول النبي ﷺ: «**إذا زَنَتِ أَمَةُ أحدِكم فتبيَّن زناها، فليجلدْها الحدَّ، ولا يثرِّبْ عليها**»[1].

ليس من حقه أن يعيِّرها أو يشتمها أو يهينها استجابة لدافع نفسي مريض، ولكن عليه أن يقيم عليها حد الله دون مواربة.

وفي حديث شَدَّاد بن أَوس رضي الله عنه مرفوعًا: «**إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبحَ**».

والقتل هنا يراد به حين يكون مشروعًا للقصاص أو غيره، والذبح يكون لحيوان: «**وليحدَّ أحدُكم شفرتَه، وَلْيُرِحْ ذبيحتَه**»[2].

ولا يجوز التمثيل بجثة القتيل، ولو كان قتله مشروعًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾: ومن معاني «الكدح»: السعي.. والتعب؛ فالإنسان ساعٍ إلى ربِّه، ساع في آخرته وإصلاحها والاستعداد لها، وساع في دنياه بنجاحاتها وفرصها، والكدح إلى الله يشمل الاثنين معًا، ويشمل المؤمن والكافر؛ ولذا قال بعده: ﴿فَأَمَّا﴾.. ﴿وَأَمَّا﴾. وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: ماض إلى الآخرة ولقاء الله، وكل يوم يدنيك منها، سواء كنت يقظًا مؤمنًا، أو غافلًا، أو منكرًا.

وفي حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه مرفوعًا: «**كلُّ الناس يغدُو، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها**»[3]. فإعتاقها بالطاعة، وإيباقها بالمعصية.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (١٧٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٧١١٣)، ومسلم (١٩٥٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣).

ولو تأمَّلت قدرة الإنسان وإمكاناته، لوجدتَها محدودة متواضعة، لكن الله جعل فيها أسرارًا وإعجازًا، ونوَّرها بالعقل الذي يفكِّر ويحفظ التجارب ويبني عليها حتى يحقِّق له تسخير الكون وبناء الحضارات: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨].

لقد أصبح الإنسان اليوم يطير في الفضاء، ويغوص في الماء، ويقرِّب المسافات، ويوظِّف ألوان الخبرات والإمكانات للتسهيل والترفيه، والسعادة والراحة، والعلاج والتواصل...

والتعب والعمل جزء من الفطرة وسنة الحياة، وبقَدْر ما تكون الحياة صعبة يتحقَّق معها النجاح والتوفيق، ولو ترك الإنسان العمل؛ لكان عليه من الهموم والغموم الشيء العظيم، وبقَدْر ما يشعُر من التعب والمرارة في العمل يشعُر بالسعادة والرضا عن الإنجاز ولو كان يسيرًا.

ولذا قال تعالى لمريم: ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم:٢٥]، هي نخلة ثابتة، ومريم امرأة ضعيفة القوى وفي حالة طلق، وحال نفسية أليمة، ومع ذلك يأمرها سبحانه أن تهزَّ بجذع النخلة، ويَعِدُها أنها إذا فعلت فسوف تساقط عليها هذه النخلة رطبًا جنيًّا، فعلى الإنسان السعي، ومن الله سبحانه وتعالى التوفيق والنجاح.

كم يكون طعم الرطب لذيذًا حين يشعر الإنسان أنه أخذه بنفسه أو شارك في زراعته أو قطافه!

و﴿ كَدْحًا ﴾ مصدر يُقْصَد به التوكيد.

وقوله: ﴿ فَمُلَـٰقِيهِ ﴾ يحتمل أمرين:

١- أن يكون مرجع الضمير إلى ﴿رَبِّكَ﴾ أي: إنك كادح إلى ربك فملاقٍ ربك، والخطاب عام للمؤمن والكافر، فكلهم ملاقوا ربهم جل وعز؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٥]، واللقاء هنا معناه: البعث، وهذا أحد استخدامات لفظ اللقاء والملاقاة.

وثَمَّ معنى خاص بلقاء الله، وهو رؤيته يوم القيامة، وهذا خاص بالمؤمنين، يقول الله سبحانه وتعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، أما المؤمنون فيرون ربهم: «**أما إنكم سترون ربَّكم، كما ترون هذا القمرَ، لا تُضامُّون في رؤيته**»[١].

وعليه فالمقصود هنا: فملاقيه، أي: اللقاء العام الذي يشترك فيه المسلم والكافر كما سلف.

٢- أن يكون الضمير في قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ إلى الكدح. يعني: العمل الذي عملته وكدحت فيه سوف تلاقيه وتجده في الدار الآخرة، والفاء هنا تدل على التعقيب المباشر، فبمجرد ما يلفظ الإنسان آخر نفس من أنفاسه ينتقل إلى مرحلة اللقاء، وينتقل من طَبَقٍ إلى طَبَقٍ، ومن حال إلى حال[٢].

وفيه إشارة إلى أن الإنسان يلقى جزاء عمله الدنيوي ولا يبخس شيئًا، كما ورد في العديد من النصوص القرآنية والنبوية، أن الله لا يظلم الكافر شيئًا، وأنه يُجازى

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ.

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧١)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٩٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٨٨).

بثواب ما عمل في الدنيا، من العافية والرزق والسمعة الحسنة وغير ذلك من عاجل الجزاء[1].

* ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق:٧]:

«أمَّا» للتقسيم، و«الكتاب»: كتاب تُدوَّن فيه أعمال الإنسان، لا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة.

مع أن الذي يحاسب هو الله تعالى، لا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، ومِن كمال عدله أن جعل لكل إنسان كتابًا يشهد بأعماله ويحصيها عليه.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: بيده اليمنى، وهم المؤمنون أصحاب اليمين أهل الجنة.

* ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨]:

وهو العرض، كما في «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال لها: «مَن حُوسِب يومَ القيامةِ عُذِّب». فقالت له: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقال: «ليس ذاك الحسابُ، إنما ذاك العَرْضُ، مَن نُوقِش الحسابَ يومَ القيامةِ عُذِّب»[2].

والعرض أن تُعْرَض عليه ذنوبه، فيُعطى هذا الكتاب، وفي الحديث الآخر: «يدنو أحدُكم من ربِّه، حتى يضعَ كَنَفَه عليه -أي: ستره- فيقول: عملتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم. ويقول: عملتَ كذا وكذا؟ فيقول: نعم. فيقرِّره، ثم يقول: إني سترتُ عليك في الدنيا، فأنا أغفرُها لك اليومَ»[3].

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٨٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٧٠)، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

* ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴾ [الانشقاق:٩]:

«الانقلاب»: الرجوع، قال الله: ﴿ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا ﴾ [الفتح:١٢]، وهذا يوحي بأن العرض يكون في زمن يسير ليس فيه إبطاء ولا تأخير.

والمقصود بـ«الأهل» هنا أهله الذين معه في الجنة، سواءً كانوا هم أهله في الدنيا، أو من غيرهم، يرجع إليهم مسرورًا سرورًا لا انقطاع له ولا حِوَل عنه.

وهذا في مقابل الكدح في الدنيا الذي كان يصحبه ولا بد من تعب وعناء وألم وكمد وضيق ونكد جبلت عليه تلك الدار.

* ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴾ [الانشقاق:١٠]:

وفي سورة الحاقة: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾ [الحاقة:٢٥]، ولا تَعَارُض بين الآيتين، ويجمع بينهما بأن المقصود: أن تُشَدَّ يده إلى ظهره، ثم يُؤْتَى كتابَه بيده الشمال وهي وراء ظهره، كما أن يده اليمين مغلولة إلى عنقه.

ويُحتمَل أن الكافر يأتيه كتابه من وراء ظهره، فيأخذه بشماله من خلفه.

* ﴿ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴾ [الانشقاق:١١]:

أي: ينادي بالثبور، وجرت العادة أن الإنسان إذا نزلت به مصيبة يقول: يا ويلاه! واثبوراه! والثبور: هو الهلاك الأكيد الطويل.

* ﴿ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴾ [الانشقاق:١٢]:

أي: يدخل عذاب السعير، ومثل هذا قوله: ﴿ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ ﴾ [إبراهيم:٢٩]، ﴿ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴾ [الليل:١٥]، ﴿ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ [الحاقة:٣١]، ﴿ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴾ [مريم:٧٠]، فـ«يصلى» أبلغ في الوصف وأشد في النكال.

فالسعير تستوعبه مِن فوقه ومِن تحته، وعن يمينه وعن شماله، ومن أمامه ومن

ورائه، فهو يقاسي حرَّها وعذابها.

* ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق:١٣]:

يعني: في الدنيا، فقد يكون مسرورًا بالسخرية بالمؤمنين والاستهزاء بهم، كما في سورة المطففين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴾ [المطففين:٢٩-٣١]، وهذا السياق له صلة بسخرية المشركين بالمؤمنين في مكة، فهؤلاء إذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فَكِهين مسرورين.

وقد يكون مسرورًا بالدنيا وزينتها، وفي هذا دلالة على أن الله يمنح الكفار من لذَّات الحياة الدنيا برحمته وفضله، كما جاء في الحديث: «إنَّ اللهَ عز وجل يعطي الدنيا مَن يحبُّ ومَن لا يحبُّ، ولا يعطي الدينَ إلا لِمَن أحب»[(١)].

وحين دعا إبراهيم عليه السلام ربَّه بقوله: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾، أجابه ربُّنا سبحانه فقال: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة:١٢٦]، فحتى الكافر يرزقه الله مِن فضله، وهو يكفر به، ويعبد غيره؛ ولذلك تجد عند الكافرين شيئًا من السعادة العاجلة والاستمتاع بالأموال والأحوال والأولاد والطبيعة، لكن تظل الروح في عطش وقلق وكآبة، لا يكتمل معها سرور ولا يطول معها حبور.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧٢)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٢٠٩)، والبزار (٢٠٢٦)، والحاكم (١/ ٣٣)، (٢/ ٤٤٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٦٦)، (٥/ ٣٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٣٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.
وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٥٤٥، ٣٤٥٧٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٦٥) موقوفًا.
ورجَّحه الدارقطني وغيره. ينظر: «علل الدارقطني» (٥/ ٢٦٩)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٧١٤).

* ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الانشقاق:١٤]:

﴿ظَنَّ﴾: أيقن، أو: شك، والآية تحتمل عدة معانٍ:

١- أنه لن يُبعَث بعد الموت.

٢- على فرض البعث بعد الموت، فسوف يكون على خير ولن يُعَذَّب، كما قال الله عن صاحب الجنة: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦]، فيظن أنه لن يتغير وضعه حتى ولو بعث، وهذا ما كان يقوله المشركون في مكة.

٣- «الحَوْر» معناه الرجوع. «حار» يعني: رجع، وفي الحديث: **«ومَن دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدوُّ الله. وليس كذلك؛ إلا حارَ عليه»**[1]. يعني: رجع عليه، فهذا من معاني الحور.

ولهذا كان النبي ﷺ إذا سافر يستعيذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر[2]، يعني: النقص بعد الكمال، والضلال بعد الهدى، والكفر بعد الإيمان.

فيكون المعنى: ظن أنه في ازدياد دائم ونمو متواصل، وأن النقص لن يعتريه، مع أن النقص سنة الله لمَن وصل إلى التمام، كما قيل:

إذا تم شيء بدا نقصه   ترقب زوالًا إذا قيل: تم!

وإذا بدأ النقص فهو كالمُسْرِع النازل من قمة جبل سرعان ما يجد نفسه في قرارة الوادي.

٤- التغيير. تقول: هذا الكلام فيه تحوير. يعني: فيه تغيير، وحَوَّر الشيء. أي: غيَّره أو بدَّله.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٥)، ومسلم (٦١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٤٣) من حديث عبد الله بن سرجس رضي الله عنه.

أي: ظن أنه لن يتغير عما هو عليه، وهذا يقع للأفراد من جهة نفوسهم، فالإنسان إذا كان ممتَّعًا موسَّعًا له في الرزق والعافية والصحة والشباب، لا يكاد يتخيَّل نفسه على غير تلك الحال، ويظن أنه باقٍ عليها، وإن كان يعرف نظريًّا أن الأيام والليالي تمرُّ عليه وتؤثِّر فيه، فالغني لا يتصوَّر نفسه قد افتقر، والمُعَافى لا يتصوَّر نفسه قد مرض والشاب لا يتصوَّر نفسه وقد هَرِمَ وشاخ، وهذا من أسباب الركون والغفلة.

وكذلك على صعيد الأمم والجماعات، فإنه يغلب على الناس الشعور ببقاء ما هم عليه، ويستبعدون حين يسمعون مَن يحذِّرهم من عواقب الأمور، وكأنهم استثناء لا تجري عليهم السنن ولا تحق عليهم الآيات! كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم:٤٤] أي: ما لكم من تغيير.

* ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق:١٥]:

ومَن كان بعبده بصيرًا، فلا شك أنه بصير بما في قلبه من الكفر والتكذيب والظنون.

* ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ [الانشقاق:١٦]:

هو إن كان نفيًا، إلا أنه نوع من القسم، فالله تعالى يقسم بالشَّفَق، وفيه أقوال:

منها: الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس إلى وقت أذان العشاء، نحو ساعة، وهذا قول جماعة من الصحابة، كابن عمر وابن عباس وابن مسعود وأبي هريرة رضوان الله عليهم، وهو المعروف عند أهل اللغة، كالخليل بن أحمد والجوهري وغيرهما.

وفيه أقاويل أخرى ذكرها المفسرون، كابن الجوزي وغيره[1].

* ﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ [الانشقاق:١٧]:

يقسم بالليل وبما جمعه الليل. والعطف دليل على قوله: (لا أقسم) هو قسم بمثابة قوله: أقسم..

و﴿ وَسَقَ ﴾ أي: جمع، ومنه (الوَسْق) وهو إناء كبير يسع ستين صاعًا، كما هو معروف عند أهل اللغة والفقه، ووسق الشيء: جمعه.

والمقصود ما يحتويه الليل من أحوال، من نوم وعبادة وطاعة ومعصية، وما يسكن فيه من حيوان وطير وهوام، وإنس وجن وحيتان في البحر، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله: ﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرعد:١٠].

ويدخل فيما وسق: النجوم والكواكب والقمر، فهي وإن كانت موجودة في الليل والنهار، إلا أنها لا ترى إلا بالليل، فهي به أنسب وألصق؛ ولهذا أقسم الله تعالى بالليل، وأقسم بما جمعه هذا الليل.

* ﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ [الانشقاق:١٨]:

أي: إذا اكتمل نوره وصار بدرًا، والقمر مظهر من مظاهر الجمال، والعرب في أشعارهم كثيرًا ما يشبِّهون الوجه الجميل بالقمر لبياضه واستدارته.

وفي القَسَم إشارة للإبداع الرباني في الخلق، فالجمال والزينة مقصد من مقاصد الخلق: ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴾ [النحل:٦]، والنجوم زينة،

(١) ينظر: «كتاب العين» (٥/ ٤٥)، و«مصنف عبد الرزاق» (٢١١١)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١/ ٣٣٣)، و«مسائل عبد الله بن أحمد» (١٨٦، ١٨٧)، و«الأوسط» لابن المنذر (٢/ ٣٣٩-٣٤٢)، و«الصحاح» (٤/ ١٨٧)، و«سنن الدارقطني» (١/ ٢٦٩)، و«سنن البيهقي» (١/ ٣٧٣)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ٧١-٧٧).

والحسن نعمة: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤]، وفي «الصحيح»: «إن الله جميل يحب الجمال»[1].

وكذلك الانتظام والترتيب والاتساق وبلوغ الشيء كماله درجة درجة، ومثله التنويع والتبادل والتناوب ما بين الليل والنهار والشمس والقمر والذكر والأنثى.

* ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩]:

هذا جواب القسم، وقال ابن عباس والحسن البصري وغيرهما: أي: لتركبن حالًا بعد حال[2].

والقراءة المشهورة: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بضم الباء لخطاب الجماعة، وفي قراءة: (لَتَرْكَبَنَّ)[3] أي: لتركبن أنت أيها الإنسان، والمقصود الجنس، فهو ينتقل من حال إلى حال، من الطفولة إلى الشباب.. إلى الكهولة.. إلى الشيخوخة.. إلى الهرم، وتتداوله النقائض من الصحة والمرض والغنى والفقر والعز والذل، والقوة والضعف.

وانتقال الإنسان من حال إلى حال هو من الحَوْر، وفيه رَدٌّ على مَن ظن أن لن يحور، وما الانتقال من الدنيا إلى الآخرة إلا ركوب طبق عن طبق، فالحور أصل في خلقة الإنسان وكينونته، في الفرد والأسرة، والجماعة والمجتمع، والدولة والأمة، فلا تستقر الأمور، ولكنها في تغير مستمر، وهذا التغيُّر فطري وضروري كون المقصود إنسانًا مربوبًا مخلوقًا على صفة خاصة فلا استقرار ولا استمرار.

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧١٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤١٠)، و«صحيح البخاري» (٤٩٤٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٥٠-٢٥٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٢٩).

(٣) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٧٧)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٦)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٣٦١-٣٦٣).

و«الكدح» المذكور في السورة: يستدعي شيئًا من التغير والانتقال، فالكدح هو للانتقال من حال إلى حال فيما يظن أنه أفضل وأكمل، وكدح المؤمن يشمل الشكر والطاعة والعبادة، وهي ملائمة للحال التي هو عليها في الدنيا، فطاعة الصغير ليست كالكبير، وطاعة الغني ليست كالفقير، والصحيح ليس كالمريض، والقوي ليس كالضعيف، والعزيز ليس كالذليل.. وتغيرات الحياة تتطلب الكدح واليقظة المستمرة.

المعتاد في اللغة أن يقال: لتركبن طبقًا (بعد) طبق، لكن قوله: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أقوى وأبلغ في الدلالة؛ لأنها تدل على عمق التبدل والانتقال، كأنه ينتقل من طبق إلى طبق آخر، ويقع له التغيير الذي هو سُنَّة إلهية.

ومن معاني «الطبق» في اللغة: الشدة، حتى إن العرب يسمون المصيبة أو الداهية: «بنت طَـبَـق»، ومن أسماء الحيات عندهم: «أم طَبَقٍ»، و«بنت طَبَق»، وهذا اسم حية مخيفة، فاستعاروه للنوازل والمصائب التي تلمُّ بالإنسان[1].

إن طبيعة الحياة هي الانتقال والتغير، ثم انتقال تفرضه المرحلة العمرية من الطفولة إلى الشباب إلى الشيخوخة، أو انتقال لما هو أفضل؛ من الجهل إلى العلم، ومن المعصية إلى الطاعة، أو انتقال متصل بطبيعة الحياة والمجتمع ومستواه الاقتصادي والثقافي.

أو انتقال قسري اضطراري لا حيلة للمرء فيه.

وقد رأيت الناس يتشاءمون بما يقع من التغيرات، وينظرون إلى الجانب المظلم منها، وينظرون للماضي دائمًا على أنه خير من الحاضر. ويظنون القادم أسوأ، وهذا ربما بسبب الإفراط في الخوف، والخير للإنسان أَلَّا يفرط في التشاؤم، والتوازن مطلوب،

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (ط ب ق) (١٠/ ٢١٣)، و«تاج العروس» (ط ب ق) (٢٦/ ٥٣).

والوسط هو جادة المنهج الحق.

وفي الآية إشارة إلى أنه ليس كل ما يقع من التغيير هو بإرادة الإنسان، بل ثَمَّ تغييرات جارية متصلة بـ«الشَّفق» و«الليل إذا وَسَق» و«القمر إذا اتَّسق»، متصلة بالليل، فالزمن يفعل فعله في الأجساد والعقول والنفوس والأحوال، وقد حاول الأطباء البحث عن دواء يؤخِّر الشيخوخة فلم يعودوا بطائل، ولو أمكن هذا فأنَّى لهم أن يؤخِّروا الموت ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة:٨].

ولذلك كان كثير من الحكماء يقول: إذا رأيت تحولات تقع عليك، فاعلم أن التدبير بيد غيرك.

* ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الانشقاق:٢٠]:

والسؤال هنا استنكاري، أَبَعْدَ كل هذه الآيات والدلائل على ألوهية الله وقدرته على البعث والنشور لا يؤمنون.

* ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ [الانشقاق:٢١]:

المقصود بالسجود هنا الطاعة والامتثال؛ ولهذا قال بعض المفسرين: إن هذه الآية ليست من عزائم السجود؛ لأن المقصود بالسجود فيها ليس هو فعل السجود بذاته، وإنما ما يترتب على سماع القرآن من الإيمان، والخضوع لله سبحانه، والتوجه بالعبادة له وحده؛ فليس العتب أنهم لا يسجدون السجود الحسِّي، وإنما لتركهم الإيمان به والاستجابة لأمره، وقد ورد في «الصحيحين» أن أبا هريرة رضي الله عنه صلَّى بالناس فقرأها وسجد[1]؛ ولذلك عَدَّها الشافعي وأحمد وغيرهم رحمهم الله من مواضع السجود في القرآن، وعددها أربعة عشر موضعًا[2].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٧٦٦)، و«صحيح مسلم» (٥٧٨).

(٢) ينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ٣٤٧-٣٥٣).

* ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق:٢٢]:

﴿بَلِ﴾: للإضراب، وبيان السبب، و﴿يُكَذِّبُونَ﴾ فعل مضارع يدل على الاستمرار، فهم كلما ورد إلى قلوبهم وارد من دواعي الإيمان جحدوه وقاوموه، بدل أن يؤمنوا ويسجدوا.

وهل الآية عامَّة في الكفار كلهم، أم هي لبعضهم؟

الأرجح أنها لبعضهم؛ لأن الله ذكر لنا إسلام بعضهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣].

والواقع يشهد لهذا، فكم من أمة أو طائفة دعيت إلى الإسلام فأسلمت، وصَدَقَت في إسلامها.

فهؤلاء الذين أسلموا، وكانوا بالأمس كفارًا، كان سبب كفرهم في الغالب الجهل وليس الكبر والمعاندة، فلم يأتهم بشير ولا نذير، ولم تقم عليهم حجة، ولم يسمعوا الحق بصفاته من غير تشويه، ومجموع أخبار القرآن عن المعرضين تدل على أن من الناس مَن يكفر جحودًا وهو يعلم الحق، وهؤلاء ممن أخبر الله عنهم في هذه الآية، وكما في قوله في الآية الأخرى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

ومن الناس مَن يكون سبب كفره الجهل، فإذا بُيِّن له الحق لان له قلبه وقَبِلَه، وبعض الناس قد يقع له شك أو تردد، ثم يزول بالبحث والتحرِّي والنظر، وهذه أحوال مختلفة، وعليه فيكون السياق في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ في حق فئة من الكفار، وكأن مَن كانوا يعاندون ويواجهون النبي ﷺ من هذا الصنف، خصوصًا صناديد قريش.

* ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ [الانشقاق:٢٣]:

﴿ يُوعُونَ ﴾: من الوعاء، كما تضع الشيء في وعاء. فالله أعلم بما يوعون، أي: بما تحويه قلوبهم من التكذيب إن كانوا مكذِّبين، أو من الجحد إن كانوا جاحدين، أو من الحقد على النبي ﷺ، أو من الكيد والمؤامرة؛ لأنهم لم يقتصروا على الكفر فحسب، بل زادوا الحرب وصد الناس من الدخول فيه، والاستهزاء بالمؤمنين.

* ﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانشقاق:٢٤]:

ولفظ البشارة هنا سيق مساق الاستهزاء والسخرية؛ لأنهم كانوا يبطنون في قلوبهم شيئًا، ويظهرون بألسنتهم شيئًا آخر، فجاءت الآية تقول: ﴿ فَبَشِّرۡهُم ﴾، والبشارة في الغالب تُستخدَم في الخير، وإنما استُخدِمت هنا في نقيضه في حقهم، فبُشِّروا بعذاب أليم نقيض ما ينتظرونه.

والمقصود يوم القيامة، وهو في مقابل السرور الذي كانوا فيه في الدنيا ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴾.

* ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴾ [الانشقاق:٢٥]:

هذا استثناء، وهو عند جمهور المفسرين استثناء متصل غير منقطع. يعني: بشِّر الكافرين بعذاب أليم، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم، وهذا يعني أنهم بدَّلوا الكفر بالإيمان، وبدَّلوا الأعمال السيئة التي كانوا يعملونها بالعمل الصالح، ولا يمنع هذا أن يكون المقصود كل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء سبق هذا الإيمان كفر أو لم يسبقه؛ لأنه إذا جاز أن يكون هذا الوعد لقوم كفروا وكذَّبوا وعاندوا، ثم آمنوا وعملوا الصالحات، فوسعتهم رحمة ربنا سبحانه، ووعدهم بالأجر والفضل، فلأن يكون ذلك لـمَن لم يسبق منه كفر ولا عناد لمِن باب أولى.

وفيها إشارة إلى ترابط الإيمان والعمل الصالح، ولفظ الإيمان يعمُّ العمل

الصالح؛ وذكر هنا على سبيل التوكيد، وأن الإيمان ليس مجرد عمل القلب، بل هو ما يفضي إليه من الأعمال الصالحة.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: ليس فيه مَنٌّ ولا أذى، كما هو شأن الناس أنهم يمنُّون إذا أعطوا، فبيَّن سبحانه أن الأجر الذي يعطون في الجنة -وحتى في الدنيا- ليس فيه مَنٌّ ولا أذى لهم ولا إهدار لإنسانيتهم.

وللآية معنى آخر وهو أن الأجر دائم مستمر بلا انقطاع، جزاء كدحهم في العبادة والطاعة الذي استغرق عمرهم كله؛ ولذلك ورد أن الإنسان لو ترك العمل الصالح لعذر مثل مرض، أو سفر، أو هَرَم، فإنه يُكتَب له ما كان يعمله وهو صحيح مقيم[(١)].

وتحتمل الآية معنًى ثالثًا وهو: الزيادة وعدم النقصان، أي: غير منقوص، فإنه لا ينقص مع الوقت، وإنما هو مستمر، بل هو في زيادة، فكل يوم لهم من ربهم سبحانه هدايا وإفضالات عظيمة.

والآية الكريمة تشمل أجر الدنيا وأجر الآخرة.

○ ○ ○

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٦) من حديث أبي موسى ﷺ.


سورة البروج

سورة البروج

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ
۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧ وَمَا
نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ
جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ۝١١ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ
ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۝١٧ فِرۡعَوۡنَ
وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١
فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢ ﴾ [البروج:١-٢٢].

* تسمية السورة:

١ - أشهر أسمائها: «سورة البروج». وهو الموجود في المصاحف، وعليه غالب كتب التفسير[1].

٢ - وقد ورد تسميتها في السُّنَّة: «سورة ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾»، كما في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾، و﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، ونحوهما من السور[2].

* عدد آياتها: (٢٢) آية، كما في المصحف، وليس في ذلك خلاف فيما أعلم[3].

* وهي مكية باتفاق أهل التفسير، ذكره جمع؛ كالطبري، والقرطبي، والألوسي،

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٨)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٢٩٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣١)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٠٦)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٦).

(٢) أخرجه الطيالسي (٨١١)، وأحمد (٢٠٩٨٢، ٢١٠١٨، ٢١٠٤٨)، وأبو داود (٨٠٥)، والترمذي (٣٠٧)، والنسائي (٢/ ١٦٦)، وفي «الكبرى» (١٠٥٣)، وابن حبان (١٨٢٧).
ووردت روايات بدون الواو فيهما: «السماء ذات البروج»، «السماء والطارق». وينظر: «سنن البيهقي» (٢/ ٣٩١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٦).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٦٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٥).

وابن عاشور، وغيرهم[1]، وواضح من سياق السورة وموضوعاتها أنها مكية.

أما فيما يتعلق بموضوعها، فهي من السور القليلة المخصَّصة من أولها إلى آخرها لمعالجة قصة واحدة، وهي في هذا تشبه سورة يوسف، المخصَّصة لسرد القصة، واستنطاق عبرها، ولفت الأنظار إلى دروسها، حتى ختمها بقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف:١١١].

وقد اختلف العلماء والمؤرِّخون في قصة الأخدود، والأقرب أنها وقعت في أطراف اليمن، في المنطقة التي تُسمَّى اليوم: (نجران)، وعندهم وادٍ يسمى بالأُخدود، وقد يكون هذا الاسم مُستحدَثًا، لكن غالب الروايات التاريخية تؤكِّد أن (نجران) وما حولها هي مسرح القصة.

وكان وقوعها بعد الـ (٥٠٠) من الميلاد، في عام (٥٢٢) أو (٥٢٣)، فهي قبل حادثة أصحاب الفيل، وقبل ميلاد النبي ﷺ بعشرات السنين.

وهذا يجعل من المحتمَل أن يكون بعض القصة قد وصل إلى العرب، وتداولوه وعرفوه، فيكون حديث القرآن عن هذه القصة هو لاستخراج العبر، ولتصحيح الروايات المغلوطة، وإن كنا لا نعرف في شعر العرب -الذي هو ديوان حياتهم وسِجل ثقافتهم- نصوصًا تؤكِّد معرفتهم بهذه القصة، فالله أعلم.

وقد ورد في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ قصة الغلام والساحر والرَّاهب، وأن هذا الغلام -الذي يقال: إن اسمه عبد الله- تردَّد بين الساحر والراهب؛ لينظر أيهما أصدق وأحب إلى الله، فجعل الله له آية في الدابة التي حبست الناسَ، فدعا الله، فقال: «اللهمَّ إن كان أمرُ الرَّاهب أحبَّ إليك من أمر الساحر، فاقتُلْ هذه الدابةَ؛ حتى يمضيَ

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٢)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٢٧)، و«روح المعاني» (١٠/ ٣٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٦، ٢٥٧).

الناسُ». وأخذ حجرًا، فرماها فقتلها، وخرج الناس وانطلقوا يمشون في طريقهم، ثم عالج وزيرَ المَلِك فشُفِي وكان أعمى، ثم علم به الملك وقرَّره على الشرك بالله، فأصرَّ الغلام على الإيمان فقتله بقوله: «بسم الله رب الغلام».. بعد أحداث مذكورة في الحديث؛ فآمن الناس كلهم، وقالوا: آمنا برب الغلام. فخدَّ المَلِك لهم أخاديد، وحفر لهم في الأرض، وعرضهم على النار، فمَن ارتدَّ منهم تركه، ومَن أصرَّ منهم على التوحيد أحرقه(١).

وليس في السياق النبوي نصٌّ على أن هذه هي قصة أصحاب الأُخدود، إلَّا أن السياق متقارب، وعلى ما هو ظاهر من السياق، فإن الملك الذي عذَّبهم كان مشركًا، والوثنية كانت موجودة في منطقة اليمن.

وهناك احتمال آخر، وهو الأرجح عند المؤرِّخين، أن الملك الذي عَذَّبهم هو: يوسف ذو نُوَاس، وكان يهوديًّا، واليهود أيضًا كان لهم وجود في اليمن، وكانت لهم فيها هيمنة اقتصادية، فكأن النصارى الذين بنجران صار لهم شوكة وقوة ونفوذ، وكان بينهم وبين اليهود اختلاف، فاستنجد اليهود بهذا الملك، فأتى وأنجدهم وعرض المؤمنين على النار وأحرقهم.

وكان من جرَّاء ذلك أن تداعت الأمم النصرانية لنجدة إخوانهم ولقتال هذا الملك الظالم، وفعلًا جاءت جيوش من الحبشة وغيرها، وهزمت هذا الملك، حتى قيل: إنه في آخر أمره ألقى بنفسه في البحر فغرق(٢).

وفي هذه القصة دروس مستفادة؛ حيث تظلُّ العبرة قائمة في هذه السورة على

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٣٠٠٥).

(٢) ينظر: «نسب مَعَد» (٢/ ٥٤٧)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٣١)، و«أخبار مكة» للأزرقي (١/ ١٣٧)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١١٩)، و«تاريخ دمشق» (٧١/ ٣٥٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٠، ٢٩٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧١).

كل حال، وقبل أن أنتقل إلى ما يتعلق بسياقات القرآن، أشير إلى عدد من المعاني المهمة المتعلِّقة بالقصة:

١- يلحظ القارئ في السورة التنفير من العدوان على الناس، واضطهادهم في دينهم، وأن ذلك يستوجب أقسى العقوبات في الآخرة، ويستنزل سخط الرب تبارك وتعالى.

ودين الإسلام الذي بُعث به محمد ﷺ، جاءت شريعته بقوله سبحانه: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وبقوله: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس:٩٩]، وبقوله: ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ [العلق:٩-١٠].

ولهذا لا يُعلم في التاريخ الإسلامي أن المسلمين أكرهوا الشعوب على الدخول في الإسلام، مع أنهم فتحوا بلدانًا كثيرة وكان لهم الغلبة والقوة والسلطان، فعاش النصارى واليهود، بل والوثنيون في عموم البلاد على دياناتهم، تُؤخَذ منهم الجزية مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، ولا يُكْرَهون على الدخول في الإسلام، فهذه شهادة عظيمة[1].

فجاء الإسلام لحماية حرية الفرد في اعتقاده، وعدم السماح باضطهاد الناس أو تعذيبهم.

٢- أن السورة نزلت بمكة، والمسلمون فيها مضطهدون، فمنهم مَن عُذِّب حتى قُتِلَ؛ كما فُعل بسُمَيَّة أُمِّ عمار بن ياسر رضي الله عنهم، وبلغ من تعذيبهم أنهم كانوا يقولون للمسلم والجُعَلُ[2] يمر من عنده: هذا الجُعَلُ إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم؛ لما

(١) ينظر: «المدونة» (١/ ٥٢٩)، و«الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (٣/ ١١٠).

(٢) دابة تشبه الخنفساء.

يتَّقي منهم من الأذى والتعذيب[1].

وبلالٌ ﷺ كان يُضرَب في حرِّ الرَّمْضاء، ويقول: «أَحَدٌ أَحَدٌ»[2].

وقد تجاوز أولئك الطغاة من قريش القيم العربية التي كانوا يفتخرون بها من الكرم والعدل، وحفظ الجوار والإعراض عن الأذية، فتسلَّطوا حتى على النساء، مثلما نجد في عدد من الحالات، منها: قصة سُمَيَّة ﷺ، حيث ضربها أبو جهل في موضع العِفَّة منها بحربةٍ فقتلها[3].

ويُفهم من هذا الفعل الأَرْعَن اللَّئيم إلى جوار الاعتداء على حرية التديُّن، احتقارًا للأنوثة، وكأن لسان حاله يقول: ما احتملنا الخروج عن ديننا من الرجال الذين صفتهم كيت وكيت، فكيف نحتمله منك ومن أمثالك من النساء. ولا زال أهل الجاهلية إلى اليوم يعيِّرون المرأة بأعضائها الداخلية، كفرًا بالخالق، وإعراضًا عن فهم حكمته في الخلق.

فهذه السورة جاءت سُلوانًا للمؤمنين، وتهديدًا للكافرين، وضرب الله فيها مثلًا من الأمم السابقة، كما في القصة التي رواها البخاري عن خبَّاب بن الأَرَتِّ ﷺ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّد بُرْدةً له في ظلِّ الكعبة، فقلنا: أَلَا تستنصرُ لنا؟! أَلَا تدعو لنا؟! فقال: «قد كان مَن قبلَكم، يُؤخذُ الرجلُ، فيُحفرُ له في الأرض، فيُجعلُ فيها، فيجاءُ بالمِنشار، فيُوضعُ على رأسه، فيُجعلُ نصفين، ويُمشَطُ

(1) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص192-193)، و«أنساب الأشراف» (1/ 84)، و«أسد الغابة» (4/ 122)، و«تاريخ الإسلام» (1/ 219).

(2) أخرجه أحمد (3832)، وفي «فضائل الصحابة» (191)، وابن ماجه (150)، وابن حبان (7083)، والحاكم (3/ 284)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (2/ 281-282) من حديث ابن مسعود ﷺ. وينظر: «طبقات ابن سعد» (3/ 213)، و«سير أعلام النبلاء» (1/ 347-348).

(3) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (1/ 192)، و«سيرة ابن هشام» (1/ 320)، و«الاستيعاب» (4/ 1864- 1865)، و«أسد الغابة» (7/ 152)، و«سير أعلام النبلاء» (1/ 409).

بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصدُّهُ ذلك عن دينِه، والله ليَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرَموت، لا يخافُ إلَّا اللهَ، والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

فهذا نوع من التسلية بضرب المثل، وقد اقتضت سنته سبحانه أن يوجد في البشر مِن ذوي النفوذ والسلطان مَن يفتنون الناس في دينهم، ويهينون كرامتهم؛ إرغامًا لهم على اتِّباعهم والاستسلام لأهدافهم، وكسرًا لإرادتهم في مواجهة الشرِّ والاحتلال والاضطهاد والاستغلال، والشواهد من جرائم المحتلِّين والغاصبين في سائر بلاد الله كثيرة.

فجرت حكمته أَلَّا يخلو زمان من طغاة ومجرمين ومتجبِّرين، ليس عندهم عدل ولا ميزان؛ ليمتحن إيمان الناس وصبرهم وتوكُّلهم عليه، ومدى يقينهم بوعده سبحانه.

وهذا الدرس هو ما تشير إليه هذه السورة، ومثل ذلك قول الله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ [يونس:٤٦]، يعني: أن الأمر محتمل أن يُرى ما وُعد ﷺ، أو أن يتأخر ذلك عن حياته، ويحدث فيما بعد.

وإذا تجاوزنا التسلُّط العام الذي تمارسه جهة ذات قوة ونفوذ، فلا يخلو المؤمن أن يجد مَن يؤذيه، حتى من ذويه، وقد ورد في بعض الآثار: «لو كان المؤمن على قَصَبة في البحر، لقيَّض الله له مَن يؤذيه»[2]. وكما قيل:

ولستَ بناجٍ من مَقالة طاعنٍ ... ولو كنتَ في غارٍ على جبلٍ وَعْرِ

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦١٢، ٦٩٤٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٢٤٢) من قول سلمة بن كُهيل.

وأخرجه ابن المقرئ في «معجمه» (٤٤٣) من قول طَلْق بن حَبيب.

ورُوي نحوه مرفوعًا من حديث أنس ﷺ، ولا يصح. ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٣٦٠).

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالمًا ولو غاب عنهم بين خافِيَتَيْ نَسْرِ[1]

وقال ابن الوَرْدي:

ليسَ يخلو المرءُ من ضدٍّ وإنْ حاولَ العُزْلةَ في رأسِ جَبَلْ[2]

وحتى لو كان لا يتعرَّض لأحد، ولا يتعدَّى حدوده، وقد يتنازل عن بعض حقه، فربما تسلَّط عليه جار أو زميل أو رئيس أو مرؤوس أو قريب أو زوج؛ فهذه سنة الله في الحياة، وفي مثل هذه الأحوال من التسلُّط الفردي أو الجماعي تأتي دروس الصبر والعزاء في القرآن الكريم.

٣- وهذه الدروس في الصبر والتسلية، لا ينبغي أن تُفْهَم على غير وجهها، فيفهم منها التشوُّف والتطلُّع إلى افتعال الصراع مع الآخرين بغير سبب ولا مُوجِب.

ولقد تأمَّلتُ طرائقَ المؤمنين فيما يعرض لهم من تحديات وصعوبات، فوجدتُها تدور حول ثلاث طرائق:

الأولى: هي أسلوب الاعتزال والترك.

وهذا أظهر ما يكون في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف:١٦]، وذلك أنهم هربوا من أهليهم وبيوتهم وأُسَرهم، فهداهم الله إلى الكهف، حيث لم يكن لهم قوة ولا قدرة ولا طاقة في مواجهة عدوهم، ولذلك كان الاعتزال هو المناسب لهم؛ ليحفظوا دينهم، فحفظهم الله، وأثنى عليهم فقال: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ [الكهف:١٣][3].

---

(١) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١١٤٠).
وخافيتي النسر: هي الريش الصغار التي في جناحه، واحدتُها: خَافِيَةٌ.

(٢) ينظر: «الكشكول» (١/ ٢٣٤)، و«نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن» (ص ١٥٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ١٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٠/ ٣٦٢)، و«الدر المنثور» (٩/ ٥٠٦).

وقد يكون الاعتزال في كثير من الأحيان هو المناسب للمؤمن فردًا أو جماعة.

والاعتزال إما أن يكون **اعتزالًا كليًّا**؛ وذلك إذا كان لا يجد إِلَّا شرًّا محضًا، أو كان يخشى على نفسه، ولما سأل رجلٌ النبيَّ ﷺ عن أفضل الناس قال: **«رجلٌ يجاهدُ في سبيل الله بماله ونفسه»**. قال: ثم مَن؟ قال: **«مؤمنٌ في شِعْبٍ من الشعابِ يعبدُ اللهَ ربَّه، ويَدَعُ الناسَ من شرِّه»**[1].

فهذا إنسان يخاف على دينه أو يخشى إن داخل الناس وخالطهم أنه ربما غيَّر بطريقة منفِّرة، فأفسد من حيث أراد الإصلاح؛ ولهذا قال: **«يعبدُ اللهَ ربَّه، ويَدَعُ الناسَ من شرِّه»**؛ فهذه طريقة، ولكنها ليست هي الطريقة الفاضلة.

وقد يكون **الاعتزال جزئيًّا**؛ وذلك باعتزال أماكن السوء، مع مخالطة الناس ومداخلتهم ومعاشرتهم، حتى لو عاش المرء بين أظهر قوم مشركين أو منافقين، فلا بد له من مخالطتهم، فإنه لا يستغني عنهم في أمور دنياه؛ لكنه يقتصر من المخالطة على القدر الضروري، ويبتعد عن الأماكن التي فيها سبب لفتنته عن دينه، أو إثارة شهوته، أو حمله على المواقف السيئة.

الطريقة الثانية: **المواجهة والمصادمة**.

والمصادمات تُحدِث الحماس، وتستثير المشاعر والأحاسيس، ويجري فيها التحشيد والتجييش، حيث ينقسم الناس إلى فريقين: كل فريق يتكاتف على وجهته، وربما ترتفع وتيرة التعاطف، لكن العبرة بالنتائج؛ لأن النفس البشرية تستعجل في مثل هذه المواقف، وتندفع بسبب الغَيرة مع حداثة السن، أو ضعف التجربة، ومِن ثَمَّ تخسر أكثر مما تربح، بل قد تكون الخسارة فيها صرفة لا ربح فيها، وقد يتحول الدافع إلى أن يصير دافعًا غير شرعيٍّ، بل هو الانتقام أو الإصرار أو إلحاق الأذى، وإن كان يدري أن المصلحة تجافيه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٤)، ومسلم (١٨٨٨) من حديث أبي سعيد ﷺ.

فالخوارج مثلًا لما أحدثوا المصادمة داخل المجتمع الإسلامي، كان دافعهم الغَيرة، والشعور بأن ثَمَّ شيئًا مختلًّا يجب تصحيحه، وإعادته إلى الأمر الأول، لكن الواقع يشهد بأن الذي قام به هؤلاء لم يُصْلِح النقص الذي زعموه، بل زاد الطين بِلَّة، وشغل المسلمين عن حركة الفتوح والإصلاح والتغيير، وأسهم في مزيد من التسلُّط والاستبداد السياسي؛ لأن الحكومة عندما تنشغل بمقاومة تمرُّد داخلي، تجد ذلك عذرًا في تأجيل الإصلاحات وبخس الحقوق.

ومعظم الحركات التي تقوم على المصادمة والمواجهة العسكرية تؤول إلى الخسارة والهزيمة، والحركات التي نجحت في هذا الجانب محدودة، وقد أشار ابن خلدون في «مقدمته» إلى كثيرين يذهبون مأزورين غير مأجورين؛ لضعف فقههم، وقلة بصيرتهم وخبرتهم، وقد يكون عند بعضهم تدين وعاطفة، لكن ليس عندهم فهم وإدراك ورؤية[1].

وبعض الجماعات الإسلامية اليوم داخَلها بعض الاندفاع، فأصبحت تأنس بالصراع والمقاومة، وهذا يتجاوب مع شيء في النفس، حتى إننا الآن لو قلنا: إن خطأً وقع؛ لسارع الناس إلى المواجهة والإنكار والمتابعة والتواصي بذلك.

ولو طُلِب من الناس فعل خيري إصلاحي ابتدائي، وليس رد فعلٍ، كالقيام بدعوة، أو تنمية، أو إعلام، فلن يكون الحماس بنفس القدر، **فهذا مأخذ تربوي يجب أن يُتَفَطَّن له.**

هل معنى ذلك أن نبطل الصراع؟

لا أحد يستطيع أن يبطل الصراع؛ لأنه سنة ربانية، وحتى لو أبطلته أنت، فلن يبطله خصومك، ونصوص الكتاب والسنة في أخبار الأنبياء مع أممهم، وحوادث التاريخ، ومعاينات الواقع المشهود تثبت وجود الصراع وأنه قدر لا مفر منه.

---

(١) ينظر: «مقدمة ابن خلدون» (ص٢٠٠).

ثَمَّ فرق بين إلغاء الصراع أو استبعاده من الحياة بالكلية، وبين أن تتولَّد فكرة تأجيج الصراع أو استعجاله، وفي الحديث المتفق عليه: «**يا أيها الناس، لا تتمنَّوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية**». وافتعال الصراع في غير محله وفي غير أوانه ودون استفراغ الوسائل الأخرى، غالبًا يحدُث ممن لا صبر له، ولا نَفَس طويلاً له، ولذلك سرعان ما يفر من الصراع إذا جد الجد، ولذلك قال: «**فإذا لقيتموهم فاصبروا**»[1]. أي: فإذا أصبحت المعركة مفروضة على المسلمين، فعليهم حينئذٍ أن يصبروا وألَّا يفرُّوا، كما قال الشاعر:

فما كلُّ صبَّار على الصَّبرِ يَصْبِرُ

فالأمر يتطلَّب فقهًا وحكمة؛ ولذلك ينبغي أن نعلم بأن التضحية مطلوبة، لكن قبلها الحكمة والفهم والفقه، وقبل أن تستخدم يدك، عليك أن تستخدم عقلك.

الطريقة الثالثة: المدافعة، كما سمَّاها الله تعالى، حيث قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ كما في سورة البقرة [٢٥٢]، وكما في سورة الحج [٤٠].

وتكون المدافعة من خلال دفع قَدَر الشر بالخير، وقَدَر المعصية بالطاعة، وقَدَر الشهوة بالتقوى، وقَدَر الشبهة بالعقل، وقَدَر التفرُّق بالوِحدة، وقَدَر الضلال بالهدى، وبَذْل الممكن والمستطاع في ذلك في مصالح الدين والدنيا.

وقد كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتطلَّعون إلى هذا المعنى، فموسى عليه السلام كان يقول لفرعون وقومه: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان:٢١]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه:٤٧]، أي: خلِّ بيني وبينهم، واتركني وشأني أدعو قومي من بني إسرائيل.

وشعيب عليه السلام كان يقول: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، و«صحيح مسلم» (١٧٤٢).

أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [الأعراف:٨٧].

ومحمد ﷺ كان يقول لقريش: «**يا وَيْحَ قريشٍ! لقد أَكَلَتْهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلَّوْا بيني وبين سائرِ الناسِ؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني اللهُ عليهم، دخلوا في الإسلامِ وهم وافرون، وإن لم يفعلوا، قاتلوا وبهم قوةٌ، فماذا تظنُّ قريشٌ! والله إني لا أزالُ أجاهدُهم على الذي بعثني اللهُ له حتى يظهرَه اللهُ له، أو تنفردَ هذه السالفةُ**»(١). ولكنهم أَبَوْا.

وفي «المسند»، و«السنن» عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمن الذي يخالِطُ الناس، ويصبرُ على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالِطُهم، ولا يصبرُ على أذاهم**»(٢).

مخالطة الناس والصبر على أذاهم منهج نبوي، وطريقة سلفية، وما كان من الأنبياء السابقين، كقول موسى وشعيب عليهما السلام فليس منسوخًا في شرعنا، ولكنه باقٍ يُعمل به في نطاقه وفي ظرفه وحالته.

وهذه الطريقة هي أَمَرُّ وأشد الطرق على النفس وأطول تضحية، مع أنه قد يبدو في بادئ الرأي أن الثانية أشد وأكثر تضحية.

الطريقة الثانية أكثر إزهاقًا للأرواح، وقد يظن بأنها حل سريع، لكن الطريقة الثالثة أشق وأضمن، وربما خرج الإنسان من حال ليجد نفسه فيما هو أسوأ منها.

وهذه نوازع النفس الإيمانية الغيورة، ولكن ليس بالضرورة أنْ تُؤتي أُكُلَها وتعطي ثمارها، ما لم تكن موزونة بعقل ورأي، وإدراك ومعرفة؛ بأن يعرف الإنسان أين يضع نفسه، وأين يضحِّي بها، ومتى يُقْدِم، ومتى يُحْجِم.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٢) أخرجه الطيالسي (١٩٨٨)، وأحمد (٥٠٢٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨)، والترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٣٩).

فالطريقة الثالثة أصعب وأشق على النفس؛ لأنها تتطلَّب صبرًا طويلًا وجميلًا، وطول نفس، كما أمر الله نبيَّه محمدًا ﷺ، ولأن الإنسان يلقى الابتلاء حتى من بعض الأخيار، الذين لا يدركون هذه المعاني، ويكونون في عجلة من أمرهم، ويعيِّرون مَن لا يقرُّهم على خطئهم بالنكوص والتراجع والجُبن، أو بالتواطؤ مع الخصوم، أو بالضلال والجهالة، وربما يكون هدفًا سهلًا لهم، خاصة مع ضعف التقوى وقلة العقل عند شباب مندفع في مقتبل عمره، وهو في حالة يأس من الحياة وتشبُّع بأفكار ومفاهيم يرى العالم من خلالها، ويراها مقدَّسة لا يفكر بتغييرها والمساس بها!

ولله در قيس بن زُهير حين قال:

أظـنُّ الحِلْمَ دلَّ عليَّ قــومـي ... وقد يُسْتَجْهلُ الرجلُ الحليمُ

ومارستُ الرجالَ ومارسوني ... فمعــوَجٌّ عليَّ ومــسـتـقـيـمُ[1]

وإذا كان النبي ﷺ يقول لأصحابه ﵃ بمكة: «ولكنكم تستعجلون»[2]. فماذا يمكن أن يقول المرء عن اندفاعات عديدة غير رشيدة؟ يحتاج الأمر إلى هَدْي النبي ﷺ وحكمته وبصيرته، والتأسِّي به في الصبر والمصابرة، بحيث ينزل الدعاة إلى الميدان، ويخالطون المجتمع، ويصبرون على الأذى، ويُصْلِحون بقدر المستطاع، دون حرق للمراحل، ولا إطلاق للنزعات الفردية.

وضمن ما كتب الأستاذ سيد قطب ؒ في تعليقه على هذه السورة، سواء في كتابه: «معالم في الطريق»، أو في كتاب «في ظلال القرآن»؛ أجده اتَّكأ على هذا المعنى

---

(١) ينظر: «أمثال العرب» للضبي (ص ٩٧)، و«أنساب الأشراف» (١٣/ ١٣٥)، و«العقد الفريد» (٦/ ٢٣)، و«أمالي القالي» (١/ ٢٦١)، و«شرح ديوان الحماسة» (ص ١٦٤)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٨/ ٣٧٠).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦١٢، ٦٩٤٣).

اتكاءً كبيرًا، حتى إنه قال: «هذا هو الطريق»[1].

فصار بعض الشباب يستعجل المحنة ويتطلَّع إليها، ويفرز هذا في نفوسهم شيئًا من الانفصال عن الناس، والتربُّص والانتظار، وعدم القدرة على مراجعة التجارب الفاشلة وتصحيحها مهما كانت نتائجها.. على اعتبار أن البلاء سُنة إلهية.

وحين يسمع شاب عن الابتلاء، لا يقع في نفسه إلَّا تسلُّط الحاكم والزج بهم في السجون والمعتقلات وتعليق بعضهم على أعواد المشانق، أما الابتلاء من داخل النفس بضياع البوصلة وتخبُّط الطريق، أو من داخل الجماعة بالتعصُّب والتحالف على غير الحق، وازدراء المخالفين، وتطلب شهوات الحياة بالمخالفة والتصدر، أو الخطأ في الاجتهاد حتى مع خلوص النية؛ فهذا ما يعزب عن الكثيرين التفكير فيه ضمن مفهوم «الابتلاء»!

* ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ [البروج:١-٢]:

أقسم تعالى في صدر السورة بـ«السماء» المعروفة، وبـ«البروج»: وهي جمع بُرْجٍ، وهو مأخوذ من التبرُّج، وهو الظهور، كما يقال: تبرَّجت المرأة؛ إذا أظهرت مفاتنها، والبُرْج يُطلَق على القصر، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء:٧٨]، فالبرج الْمُشَيَّد هو القصر[2].

وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١]، والبُرْج هو النجم[3].

---

(١) ينظر: «معالم في الطريق» (ص١٧٣-١٨٦)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٨٧٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٢٣٤-٢٣٧)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ١٠٠٨)، و«الدر المنثور» (٤/ ٥٤٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٣٠-٣١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٧١٦).

وتطلق البروج على منازل الشمس والقمر التي يلحظها الفلكيُّون[1]، وإلَّا فهي ليست في الواقع منازل، لكنهم من خلال مراقبتهم لحركة الشمس في اليوم، وحركة القمر في الشهر، يلاحظون أن الجرم الفلكي ينتقل من منزل إلى آخر فيما يرى الإنسان، حتى إنهم يقولون: إن القمر يمكث في كل برج يومين وثلث يوم تقريبًا، فيظهر في ثمانية وعشرين يومًا، ويبقى يومين يستتر فيها فلا يُرى، وهي التي تُسمَّى: ليالي السِّرار[2].

فهذه البروج هي مجموعة ثابتة من الأبعاد لا تتفاوت فيما بينها، ينزل فيها القمر أو تنزل فيها الشمس، يتخيَّلها العرب وغيرهم، ويسمُّونها بروجًا، وهي عندهم اثنا عشر بُرْجًا، أطلقوا عليها أسماء بحسب شكلها، كالأسد، والحُوت، والدَّلْو، والسَّرطان، والسُّنبلة، والحَمَل، والثَّور، والعقرب، والجَدْي... فسمَّوها بأسمائها.

وأجمع المفسِّرون على أن اليوم الموعود هو يوم القيامة[3]، وورد في حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا وموقوفًا: «**اليوم الموعود: يوم القيامة**»[4].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦١).

(٢) ينظر: «غريب الحديث» لأبي عُبيد (٢/ ٧٩)، و«تاج العروس» (١٢/ ١٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦٢)، و«تفسير الواحدي» (٤/ ٤٥٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٣)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٤).

(٤) أخرجه أحمد (٧٩٧٢)، والترمذي (٣٣٣٩)، والبزار (٩٥٩١)، والطبري (٢٤/ ٢٦٢)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (١٠٨٧)، وابن عدي (٢/ ٢١٩)، والحاكم (٢/ ٥١٩)، والبيهقي (٣/ ١٧٠)، وفي «شعب الإيمان» (٣٤٨٢)، وابن عساكر في «فضل يوم عرفة» (٥) مرفوعًا.

وأخرجه أحمد (٧٩٧٢، ٧٩٧٣)، والبزار (٩٥٩١)، والطبري (٢٤/ ٢٦٢)، والحاكم (٢/ ٥١٩)، والبيهقي (٣/ ١٧٠) موقوفًا، وينظر: «علل الدارقطني» (١١/ ١٢٠)، و«زاد المعاد» (١/ ٣٩٨-٣٩٩)، و«السلسلة الصحيحة» (١٥٠٢).

* ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [البروج:٣]:

واختلفت أقوال أهل التفسير إلى أكثر من أربعة وعشرين قولًا في تفسير «الشاهد»، و«المشهود»(١)، ونكتفي بذكر القول الراجح، وهو أن المقصود: عموم كل شاهد وكل مشهود(٢)، فكل ما ورد في القرآن والسنة أو صحَّ في العقل أو الحس أنه شاهد، فقد أقسم الله به هنا.

وأعظم شاهد هو: الله سبحانه وتعالى؛ كما في قوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٧٩]. وهو خير الشاهدين.

ثم النبي محمد ﷺ: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١].

وكذلك الأنبياء؛ لأنهم يشهدون على أممهم؛ قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [النحل:٨٩].

ويقول عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة:١١٧].

وتدخل فيه: الملائكة الحفظة، والشهود من الناس، حتى الأرض تدخل في الشاهد؛ لأنها تشهد: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة:٤-٥]، فتشهد الأرض على الإنسان بما عمل عليها، والسماء تشهد عليه بما صعد إليها من عمله.

ويدخل في ذلك: أعضاء الإنسان؛ قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦٣-٢٧٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٤-١٩٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٢-٢٣٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٣-٤٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٨)، و«تفسير السعدي» (ص٩١٨).

وَأَرْجُلُهُم ﴾ [النور:٢٤].

فكل ما صحَّ أنه شاهد، فهو داخل في هذا القَسَم العام.

و«المشهود» كل مُبْصَر -بفتح الصاد- تصحُّ الشهادة عليه، من أعمال الناس وأقوالهم، من الخير ومن الشر[1].

ومن هنا، ففي هذا القسم معنى عظيم مناسب للقصة؛ فالله تعالى أقسم بـ«السماء ذات البروج»، في مقابلة الأُخدود الذي حفروه في الأرض، ووضعوا فيه النيران، وأحرقوا فيه المؤمنين، فكأنه تعالى أقسم بالسماء؛ إشارة إلى مَن هو فوق السماء عز وجل، ينتقم ويعاقب الظالمين، وينتصر للمؤمنين ولو بعد حين.

وأشار في قوله: ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴾ إلى وقت الحساب والجزاء، وإيصال الحق إلى أصحابه، ونزول العقوبة بالظالمين.

وأشار بقوله: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ إلى ضبط الحوادث وحفظها، وأنه لا يضيع منها شيء، فكل شيء محفوظ: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس:١٢]، أي: في كتاب بَيِّن مقروء.

* أقسم الله تعالى بهذه المعاني الثلاثة على معنى، وهو على الراجح ما ذكره بقوله سبحانه: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ [البروج:٤]، والقتل في لغة القرآن يأتي بمعنى اللَّعن[2].

فالمعنى أن الله أقسم بأنه قد لعنهم، وهو هنا يختلف عن قوله: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٣٨)، و«تفسير السعدي» (ص٩١٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٤١٥)، (٢٤/ ٢٧٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٦)، و«تاج العروس» (٣٠/ ٢٣٤).

﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ [عبس:١٧]؛ لأن هذا من الله دعاء عليه، أما هنا فالمعنى أنه حكم عليهم بالقتل، وهو اللعن؛ لأنه أقسم عليه.

والمقصود هنا بـ «أصحاب الأُخدود»: الظَّلَمَة الذين قَتَلوا المؤمنين[1].

ويجوز أن يكون المقصود: المؤمنين الذين أُحْرِقوا، فيكون معنى القتل: الموت بالإحراق بالنار الذي حصل لهم على أيدي الظالمين، ولكن هذا معنى ضعيف، والأول أقوى؛ أنه إشعار أن عقوبة الله ولعنته حلَّت على أولئك القتلة الفجرة المارقين الذين كانوا يتلذَّذون بمشاهدة المؤمنين من الرجال والنساء، والصبيان والنار تشويهم.

وهي حادثة بشعة؛ لأن التعذيب بالنار من أبشع ألوان التعذيب، ولهذا توعَّد الله به الكافرين يوم القيامة، وأنت لو رأيتَ صور بعض الناس الذين أصابتهم النار وأحرقت وجوههم أو أجسادهم، لرأيتَ مشهدًا يقشعر منه البدن، حتى لا يكاد يطيق الإنسان رؤية الجسد المتهتك المحترِق، وصاحبه يصيح من الألم؛ لأن الجلد هو موضع الإحساس، فإذا تسلَّطت عليه النار تألَّم؛ ولهذا قال ربنا سبحانه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦].

فهذا الحدث مشهد بشع وهائل، وحادث مروِّع؛ لكن السياق يضعه في وضعه الطبيعي، حين يربطه بالزمان وبالمكان، يربطه بـ «السماء ذات البروج»، وكأنه يقول: ارفع رأسك، وانظر إلى ما عن يمينك وشمالك، وأمامك ووراءك، وما فوقك من آيات الخلق والإبداع، فلا يكن نظرك مقصورًا على حادثة معيَّنة، أو مصيبة أو نازلة، بحيث تقيدك أو تعيقك حتى تشلَّ تفكيرك وتسيطر على مشاعرك، فهنا امتداد مكاني يخفِّف من التحديق في الواقعة الخاصة وكأنها كل ما هنالك!

وثَمَّ امتداد آخر زماني في قوله: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾، فهذا الحادث الذي وقع لن

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٠- ٢٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٦٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٣٤).

يستغرق أكثر من ساعات أو أيام، وهي بالنسبة لعمر الدنيا ومضة عابرة، والدنيا نفسها قصيرة بالنسبة للآخرة: ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة:٣٨].

وهذا من شأنه أن يجعل نظر الإنسان إلى المصيبة نظرًا متوازنًا، فبقدر ما يتألم منها ويردِّد: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾، فإنه يتصوَّرها كذلك في ضمن سياق مكاني وزماني واسع، فلا تعجزه هذه الحادثة أن يفهم مقاصدها وأسرارها، فلا يجعلها حجر الزاوية في شعوره وتفكيره ونظره وفهمه ومنهجيته.

وفي قوله: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾، نسبهم إلى الأخدود؛ لأنهم الذين حفروه، من أجل أن يحرقوا فيه المؤمنين، و«الأُخدود» معروف، وهو الشَّقُّ في الأرض(١).

* ﴿ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴾ [البروج:٥]:

و«الأُخدود» ليس هو النار، وإنما الأُخدود هو المكان المحفور الذي وُضِعَت فيه النار، لكن كأن هذه الأخاديد مُلِئت نيرانًا، حتى جعل النار بدلًا من الأُخدود، ويسمَّى هذا بدل الاشتمال، وفي ذلك إشارة إلى عِظَم الإحراق، وكثرة الوقود الذي وُضِع في هذا الأُخدود.

* ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ [البروج: ٦]:

والمقصود: أصحاب الأُخدود، وهم ذو نُواس وأعوانه الذين أوقدوا النار، فقعدوا حولها كأنما هم في حالة استعراض، يتفرَّجون ويتمتعون كما يتمتع الآكل بمظهر اللحم يُشوى على النار، وفي هذا عدة معانٍ:

١- الإشارة إلى أنهم هم الذين تولَّوا كِبْرَ العمل بأنفسهم وبطوعهم واختيارهم، وليس هذا مجرد حادث عارض -كما يقال- أو أنه تصرُّف من بعض الدوائر أو

(١) ينظر: «تاج العروس» (٨/ ٥٢).

الأشخاص الثانويين، كما جرت العادة أن الطغاة يتنصلون من تبعات أعمالهم بنسبتها إلى مَن دونهم! بل قاموا به عن عمد وسبق إصرار.

٢- والإشارة إلى الجحود والقسوة والغلظة التي في قلوبهم، إلى درجة أنهم يرون هذا المشهد الأليم من صراخ الصغار وتألُّم الكبار من شدة الإحراق، فلا تلين قلوبهم ولا ترقُّ، وهذا غاية في الوقاحة والقسوة والغلظة.

* ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ [البروج:٧]:

فهم شهود على أنفسهم، شهدوا فعل أنفسهم وشهدوا نتيجته، وتأتي ﴿ شُهُودٌ ﴾ بمعنى حضور، فهذا أيضًا يتناسب مع قوله: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ [البروج:٣]، فهم شهود على أنفسهم في الدنيا، وهم شهود على أنفسهم يوم القيامة.

وفي الآية إشارة إلى سبب التعذيب، وهو أن الْمُعَذَّبين قوم مؤمنون، فلم يقع من هؤلاء المؤمنين ظلم ولا عدوان، إنما جريرتهم الوحيدة هي الإيمان بالله، ولذا وصفهم بالمؤمنين.

إن المؤمن قد يعذَّب في الآخرة لذنب ارتكبه، وقد يعذَّب في الدنيا أو يعاقب على تجاوزِ حدٍّ من حدود الله، أو عدوان على أحد من عباد الله، أو إفساد في الأرض، وهذا العذاب ليس لإيمانه، بل لما يقتضي الإيمانُ الحقُّ تركَه والنأيَ عنه.

وعلينا أن نفرِّق هنا بين استهداف المؤمن لأنه مؤمن فحسب، وبين استهدافه بحق، وبين استهداف بسبب آخر قد لا يكون حقًّا، ولكنه ليس بسبب الإيمان، كما يقع عادة في الخصومات بين الناس على الدنيا والمال والعقار والمناصب.

وعلى العبد أن يعرف متى يقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

* وجاءت الآية التالية؛ لتؤكِّد هذا المعنى في قوله: ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البروج:٨]:

أي: ما غضبوا عليهم ولا آخذوهم بشيء من أمر الدنيا إلا لإيمانهم، وقوله:

«نقَموا»، أو: «نقِموا» وجهان في اللغة، والأشهر هو الفتح[1].

وتعليل القتل بالإيمان يوحي بأن الذين قاموا بالقتل من المشركين، وقد يكونون يهودًا كما سلف، واليهود يؤمنون بالله العزيز الحميد في الجملة، وديانتهم ديانة توحيدية، ولكن هؤلاء الحكام الظلمة سخَّروا الديانة لخدمة أغراضهم، ومن أجل أن يدين لهم بها قومهم، وحقيقتهم أنهم أبعد ما يكونون عنها، كما شهد الله عليهم هنا أنهم قتلوا القوم؛ لمجرد أنهم آمنوا بالله.

و«العزيز» و«الحميد»: اسمان من أسماء الله؛ فـ «العزيز» اسمه، والعزة صفته سبحانه، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى عزيز غالب، قادر على أن ينتقم من هؤلاء المعتدين.

وأما «الحميد» فمن معانيه: المحمود، الذي يُحْمَد على الخير وعلى كل حال.

ومن معانيه: أن يحمد عباده على الخير، فيكون قريبًا من «الشكور».

وفيه إشارة إلى أنه سوف يكافئ هؤلاء المؤمنين على ثباتهم على دينهم وقد عُذِّبوا بعذاب الحريق في الأُخدود.

فالاسم الأول «العزيز» إيراده مناسب لجرم المجرمين للانتقام منهم، والاسم الثاني «الحميد» إيراده مناسب لصبر المؤمنين لمجازاتهم ومكافأتهم.

* ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج:٩]:

فيه إشارة إلى أن هؤلاء الذين قتلوا المؤمنين وإنْ كانوا ملوكًا، أو فيهم ملوك كذي نُواس، فالله سبحانه وتعالى أعظم منهم مُلْكًا وقوة، فإن له ملك السماوات والأرض، وما ذو نُواس وغيره إلَّا ذرة في بحر ملكه وخلقه، وهذا مُتَضَمِّن للتذكير

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٨٦)، و«الكشاف» للزمخشري (٤/ ٧٣٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٤)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١٠/ ٧٤٧)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٦٩).

بأن الله قادر عليهم.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فهو سبحانه وتعالى شاهد، يرى ويعلم ويسمع، فإجرام هؤلاء المجرمين ليس بغائب عن شهادته وعلمه سبحانه، وسوف ينتقم منهم.

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠]:

الفَتْنُ في اللغة هو الإحراق، ومنه: فَتَنْتُ الذهب، أي: وضعته على النار؛ حتى يتميَّز طيبه من رديئه، وصافيه من مغشوشه[1].

وأقرب ما نقول في لفظ: ﴿فَتَنُوا۟﴾ أنه بمعنى: أحرقوا المؤمنين، وابتلوهم بالنار والعذاب[2].

وفي ذكر المؤمنات هنا إشارة إلى صبرهن وقوة إيمانهن، والتشنيع على أولئك المجرمين الذين امتد إجرامهم ليشمل النساء مع الرجال، وقد جاء في الحديث المتقدم، أن امرأةً كان معها صبيٌّ لها، فتقاعست أن تقعَ فيها، فقال لها الغلامُ: يا أُمَّهْ، اصبري؛ فإنك على الحقِّ[3].

ومعلوم أن العدوان على الناس جريمة، فإذا كان العدوان على النساء وبالإحراق، فهو أبشع وأشنع.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾، إشارة إلى أنهم لو تابوا لتاب الله عليهم، لكنهم لم يتوبوا، وهذا من سعة فضل الله سبحانه وتعالى، فهم قوم أحرقوا المؤمنين والمؤمنات

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (١٣/ ٣١٧)، و«تاج العروس» (٣٥/ ٤٨٩).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧١٨- ٧١٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧٠، ٢٨٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٣٥).

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠٥).

وكفروا بالله، ثم يعرض الله تعالى عليهم التوبة، فلم يتوبوا، فلو تابوا بعد ما فعلوا الذي فعلوا، لتاب الله عليهم، كما قال الحسن البصري(١).

وفي هذا فتح لباب التوبة لكل مذنب مهما عظم ذنبه، حتى لزعماء قريش الكفار الذين كان القرآن ينزل عليهم وهم مكذِّبون، وتتعجب أن بعض المؤمنين قد يقع في ذنب ثم يحيط به اليأس حتى يقول: لا يغفر الله لي. وهذا -والعياذ بالله- قنوط من رحمة الله، ويأس من رَوْح الله، وقد حذَّر الله منه فقال: ﴿ وَلَا تَاْيْـَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا الضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦].

وأما المؤمن العارف بربه، فإنه يمدح ربه باسمه «الرحمن الرحيم»، فيتعلم معنى رحمة الله، ولا ييأس من روح الله عز وجل، ويكرِّر الندم والتوبة، ويتقرَّب إلى ربه كلما أذنب.

ويُؤخذ من سياق الآية أن القاتل له توبة، وقد نُقِلَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لا يرى لقاتل العمد توبة(٢).

وهذا مرجوح؛ فإن المشرك إذا تاب تاب الله عليه، والساحر إذا تاب تاب الله عليه، فكذلك القاتل إذا تاب تاب الله عليه، وما نُقِلَ عن ابن عباس رضي الله عنهما ربما كان في حادثة عين، فقد رُوي أنه جاءه رجل يسأله: هل لقاتل المؤمن توبة؟ فقال له: «لا، إِلَّا النار».

فربما غلب على ظن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا الرجل قد همَّ بأن يقتل

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (٢/ ٧١٨).

(٢) أخرجه ابن الجعد (٨٢٤)، والبخاري (٣٨٥٥)، ومسلم (٣٠٢٣).

وينظر: «صحيح البخاري» (٤٥٩٠)، و«تفسير الطبري» (٧/ ٣٤٢، ٣٤٥)، (١٧/ ٥٠٨)، و«الدر المنثور» (٤/ ٥٩٤- ٥٩٧، ٦٠٠)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٧٩٩).

رجلًا ثم يتوب بعد ذلك، فقال له: «لا». حتى يزجره ويردعه عن الفعل[1].

أما لو أن إنسانًا قتل وتاب إلى الله، فإن الله يتوب عليه، على الصحيح؛ لقصة الرجل الذي قتل مائة نفس، ثم تاب فمات وهو في طريقه إلى بلد يريد أن يقيم مع الصالحين فيه، فتنازعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقبضته ملائكة الرحمة[2].

وهذه التوبة تنفعه في الآخرة، أما أحكام الدنيا فالأصل أن يؤاخذ على جرمه.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾: قال بعض المفسرين: إن عذاب الحريق هو النار التي أحرقوا بها المؤمنين ارتفعت وامتدت حتى أتت على الظالمين[3].

وهذا ليس ببعيد ولا غريب، ولكنه لا يثبت بالأسانيد الصحيحة، فيبقى الاحتمال الآخر وهو الأقوى: أن المعنى مضاعفة العذاب لهم في الدار الآخرة.

ومن المعروف في القرآن أن الكافرين تتفاوت عقوباتهم في الآخرة، وأنهم ليسوا سواء، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨]، فزادهم الله تعالى عذابًا فوق

---

(١) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٧٧٥٣)، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص٤٣٩)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ٣٣٣)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٢/ ٣٨٩)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ٣٤٣)، و«الدر المنثور» (٤/ ٦٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٥/ ١٦٥).

ورُوي عنه أنه قال: «ليس لقاتل مؤمن توبة، إلَّا أن يستغفر الله».

ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٦١٧)، و«الناسخ والمنسوخ» لأبي عُبيد (٤٩٣)، و«تفسير الطبري» (٧/ ٣٤٧)، و«السنة» للخلال (١٢٣٨)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد ﷺ.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١١)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨٩)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٤١٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٨٤).

العذاب؛ لأنهم أضافوا إلى الكفر الصدَّ عن سبيل الله، فالكافر الذي لا يدعو إلى كفره أقلُّ عذابًا من الكافر الداعي، وهكذا أصحاب الأُخدود؛ لم يكتفوا بالكفر والصدِّ عن سبيل الله، بل قاموا بأبشع صورة من صور الصدِّ، وهي إحراق المؤمنين، فناسب أن يضاعف لهم العذاب.

وكأن المعنى: أنهم يشتركون مع عموم الكافرين في جهنم، ولكن يُخَصُّون بمزيد من العذاب من نوع الإحراق الشديد جزاءً وفاقًا.

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج:١١]:

بعدما توعَّد الله الكافرين بالعذاب الأليم، ناسب أن يعطف على ذلك بوعده الصادق للمؤمنين الذين أُحْرِقوا، ويدخل في ذلك غيرهم، وعادة القرآن أنه يأتي بالترغيب والترهيب في سياق واحد، وهذا من معاني كون القرآن مثاني[١].

وأول مَن يدخل في هذا السياق، هم المؤمنون الذين أُحْرِقوا في الأُخدود؛ لأنهم صبروا وصابروا؛ ابتغاء وجه ربهم، وفُتِنوا في دينهم غاية الفتنة، حتى عُرضوا على النار وأَبَوْا إلا أن يموتوا على الإيمان، فقد ذهب العناء، وذهب ألم الإحراق بالنار، وبقي لهم الأجر والثواب والجِنان، مقابل النار التي أُحرِقوا بها في الدنيا.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ وصف لم يَرِد في القرآن إلا في هذا الموضع.

ونلحظ أنه قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ولم يقل: (تلك) مع أنه سبق ذكر الجنات، إشارةً إلى وجود ما هو أعظم؛ فإن الله تعالى وعدهم الآن بالجنات، وفيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولكن النعيم المعنوي في الجنة أعظم من النعيم الحسي؛ ولهذا لما ذكر الله الجنة في سورة التوبة قال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾

---

(١) ينظر ما تقدم في تفسير «سورة الفاتحة».

[التوبة:٧٢]، فرضوان الله الذي يُحِلُّه على المؤمنين يوم القيامة في الجنة، وسماعهم لكلامه سبحانه، وتمتعهم برؤية وجهه الكريم؛ هي أعظم من ألوان النعيم الأخرى؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «**أسألُك لذَّةَ النظرِ إلى وجهِك، والشوقَ إلى لقائك**»(١).

والفوز هو حصول المطلوب وزوال المرهوب.

وفي هذا اللفظ سرٌّ عظيم؛ لأن الذي يعلمه الناس أن المَلِك ذا نُواس أحرق هؤلاء المؤمنين وانتهوا، ففي بادي الرأي أن الحادثة انتهت بهزيمة المؤمنين؛ فقد تُسُلِّط عليهم وأُوذوا، واعتُدِيَ عليهم حتى قَضَوْا نحبَهم، لكن القرآن سَجَّل أن هذه النهاية لم تكن هزيمة، فأرواحهم صعدت إلى الجنة والرضوان، بخلاف أولئك الذين أحرقوهم، وظهر في بادئ الأمر أنهم انتصروا؛ فإن لهم عذاب جهنم، ولهم عذاب الحريق.

* ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج:١٢]:

البطش في الأصل هو الأخذ؛ ولذلك يقول النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «.. **فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبصرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها**»(٢). يعني: يأخذ بها الأشياء، ويعطي بها، فهذا معنى البطش، وقال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف:١٩٥].

لكن قد يُطلَق البطش على الأخذ بقوة، أو الأخذ بشدة، كما في هذه الآية(٣).

وإذا كان أصل البطش هو الأخذ باليد؛ إلا أن كلمة البطش هنا تدل على

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي (٣/ ٥٤-٥٥)، وابن حبان (١٩٧١)، والطبراني في «الدعاء» (٦٢٥) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٩٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٣٨)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٦٥٨)، و«روح المعاني» (١٠/ ٢٦٧).

العقوبة، كما تقول: بطش فلان ببني فلان. أي: ضربهم أو قتلهم، فصار البطش يُطلَق على التعذيب، حتى لو كان بصورة غير مباشرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٣٠](١).

وقد تتبَّعت المواضع التي فيها لفظ «البطش» في القرآن الكريم، فوجدتها في الغالب تتعلق بالحياة الدنيا، إلا في مواضع ثلاث فيها اختلاف:

١- هذا الموضع، فإنه محتمِل لأن يكون بطش الله سبحانه وتعالى لهم في الدنيا بالعقوبات كالزلازل، أو العذاب الذي ينزل من السماء، أو الغرق، ويُحتمَل بطش الآخرة بالنَّكال والنار.

٢- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان:١٦]، فالأقرب أن هذه البطشة الكبرى في الدنيا، وأنها غزوة بدر أو غيرها مما توعَّد الله به الكافرين في الدنيا من العذاب، أو المقصود عذاب يوم القيامة.

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٦]، فتحتمل أن يكون المقصود العقوبة الدنيوية، وتحتمل أن يكون المقصود العقوبة في الآخرة.

ونسب البطش هنا إلى «الرب»، ولم يقل: (إن بطش الله)؛ لأن السورة مكية، والسياق فيه إيماء وإشارة إلى ما يفعله كفار قريش وزعماؤهم؛ كأبي جهل وأبي لهب وعتبة وشيبة والنضر بن الحارث وغيرهم ممن يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ويحاربونهم، بل ويؤذون النبي ﷺ بشتى صور الاضطهاد والإيذاء، فكان التعبير بلفظ ﴿رَبِّكَ﴾ أنسب وأولى؛ لما تحمله من معنى الرحمة والرعاية والتدبير، فهو ربك، سوف يحميك وينصرك أنت وأتباعك من أذى الكافرين.

فالآية جمعت معنيين: معنى الرحمة في لفظ: ﴿رَبِّكَ﴾ المأخوذة من نسبة الرب

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٦١٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩/ ٢٧٩٥)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ١٢٤)، و«الدر المنثور» (١١/ ٢٨٢).

إليه، فهو ربك الذي يحوطك ويرعاك ويحميك ويبطش بأعدائك.

وقرنُها بالبطش متضمنٌ مَعاني مناسبة من معاني الربوبية وهي: العذاب والشدة والغلظة على الأعداء، وسوف يبطش بالأعداء الذين يعذِّبون المؤمنين.

ونجد في الآية ترابطًا بين قصة أصحاب الأُخدود وما جرى منهم، وبين كفار قريش وما يفعلونه بالمؤمنين من الأذى والتكذيب، ونجد فيها الوعد للنبي ﷺ والمؤمنين، بأن الله تعالى سينصر هذا الدين ويحفظه؛ لأنه ربه وربكم، وفيه وعيد للمشركين بأن الله تعالى سوف ينتقم منهم.

فهذه الآية من معجزات النبي ﷺ؛ لأنها يوم نزلت كان المؤمنون قلة، وكان للمشركين سلطة في مكة وفي جزيرة العرب، فما هي إلا سُنيَّات حتى تبدَّل الحال، وفتح الله تعالى على المسلمين مكة؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، ودانت جزيرة العرب للإسلام.

والآية الكريمة تُوحي بمعنى مهم، وهو أن المؤمن يفترض أن يكون عنده قدرة على مواكبة الظروف والمتغيرات، وذلك أن الله جعل من سننه في الحياة أن يكون فيها القوة والضعف، والشدة واللِّين، والغنى والفقر، والتمكين والاستضعاف، والقلة والكثرة، والقبول والرد، حتى إن النبي ﷺ قال: «**عُرِضت عليَّ الأممُ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرُّهَيْطُ، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلان، والنبيَّ ليس معه أحدٌ**»(١).

فهي تربية على تكيف المؤمن مع الأحوال المختلفة، منطلقًا في ذلك من قاعدة أن لكل حال عبودية، على أن تعايش المؤمن مع بعض الظروف لا يلزم منه أن يقرَّ بما فيه من خطأ أو مخالفة، وإنما هو أخذ بالتدرُّج ومراعاة المصالح والمفاسد.

ليس ثَمَّ ضمانة للمؤمن أن يحصل على التمكين والقوة، ولا أن يدوم له ذلك

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥، ٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

لو حصل عليه، فلا يجوز أن يكون عمله مرهونًا بظرف خاص؛ لأن هذا شأن غير المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١].

وكان الشيخ البشير الإبراهيمي يقول لقادة الاستعمار: سوف ندعو إلى الله في المساجد، فإن حرمتمونا من المساجد، فسوف ندعو في المدارس، فإن حرمتمونا منها، فسوف ندعو في الأسواق، فإن حرمتمونا منها، فسوف ندعو في البيوت، وإن سجنتمونا، فسوف ندعو في السجون.

هذه الروح العالية لا يمكن أن توجد إلَّا إذا تربَّى المسلم على منهج رباني نبوي، أما مَن تشبَّعت نفسه بالتطلُّع لأن يكون لشخصه أو لجماعته غَلَبَةٌ وتمكين، فقد يرى القيام بالدعوة في الظروف الصعبة مضيعةُ وقتٍ.

الدعوة هي منهج الأنبياء عليهم السلام، وهي متفق عليها، وبعض الأنبياء لم يُبْعَثوا أصلًا إلَّا بها، وبعض الأنبياء بُعِثوا بها وبالقوة، كما في قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾، فذكر هذا أولًا، ثم قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾، وحتى الحديد ليس بشرٍّ محض أو قسوة، بل ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٢٥].

* ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج:١٣]:

والبدء والإعادة جاءت في القرآن الكريم تعبيرًا عن الخَلْق، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم:٢٧]، وهذا أحد المعاني[1].

وقد ذهب كثير من المفسِّرين إلى أن المقصود بـ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: يحيي ويميت،

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٣٧٩)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ١١٥-١١٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٩٢٦، ١٩٥١)، و«الدر المنثور» (٧/ ٦٣٠)، (١١/ ٥٩٦).

ثم يحيي مرة أخرى، فهو يبدأ الخلق أول مرة، ثم يميتهم، ثم يحييهم مرة أخرى ويعيد إليهم الحياة، فهذا معنى[1].

وفي الآية معنى آخر ذكره ابن عطية وغيره عن ابن عباس، وهو أن المقصود أنه يُبدئ ويُعيد كل شيء مما هو قابل لهذا وذاك[2].

وهذا المعنى أجود وأليق بالسياق؛ لتعلقه بمداولة الأيام بين الناس، كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، فإذا كانت هذه القصة شهدت معاناة المؤمنين فالله تعالى يبدئ ويعيد[3].

فتشمل أنه يحيي الموتى، ويثيبهم بما عملوا، وتشمل أن يعيد شأن المؤمنين فينصرهم، وهو إن لم ينصرهم في أشخاصهم، فإنه ينصر مبدأهم ودينهم الذي ضحُّوا من أجله، ولهذا نقول: إن بعثة النبي ﷺ تعتبر انتصارًا لكل الأنبياء ولكل المضطهدين؛ لأنه جاء بتجديد الدين، وبالشريعة الخاتمة وبالعقيدة الصافية الواضحة، فهي تجديد لملة إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

من معاني ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾: أن الحياة لا تعرف الاستقرار، وإنما هي دُول تنتقل، فالمُستضعَفون يمكّن الله لهم في الأرض، كما قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥-٦].

والعبرة ألَّا يغترَّ الإنسان بتمكين أو غنى، أو سلطان أو مكانة في الدنيا؛ لأن

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٢)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٤٣).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٨٢-٨٤)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٧٧٢-٧٧٣)، و«الدر المنثور» (٤/ ٣٩-٤٠).

الدنيا متقلِّبة، ولا يركن إلى يأس أو قنوط أو عجز؛ لأن الفُرص تأتي للجادِّين الصادقين الذين يُحسنون كيف يستثمرونها وينتفعون بها.

ومما يؤكد شمول معنى الإبداء والإعادة لكل ذلك، أنه تعالى لم يذكر متعلَّق الفعل هنا، كما ذكره في آية أخرى فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم:٢٧]، وإنما لم يذكره هنا ليُفهم منه العموم، أي: يُبدئ كلَّ شيء، ويعيد كلَّ شيء مما هو صالح للبدء والإعادة.

وعليه، فهذه الآية أيضًا تؤكِّد على الأمل والطمع فيما عند الله، وسنة الله في تقليب الأيام ومداولتها بين الناس تجعل المؤمن مستمسكًا بحبل الله واثقًا بما عنده.

* ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ [البروج:١٤]:

﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ مأخوذ من الغَفْر، وهو السِّتر والتغطية[1]، لكنه في القرآن الكريم يُطلَق على معنى محو الذنوب وعدم المؤاخذة بها، فإذا قيل: «غفر الله له»، فالمعنى أنه سامحه عن الذنب الذي وقع فيه.

و﴿ٱلۡغَفُورُ﴾: كثير المغفرة، وقد قال تعالى: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النجم:٣٢].

فهو يغفر للعبد إذا تاب وأناب كل الذنوب بدون استثناء، حتى القتل والشرك، فلو تابوا لغفر لهم.

فهذا اسم عظيم، على المؤمن أن يستحضره حتى لا يغلبه اليأس والقنوط من رحمة الله، فالله يبسط يده بالليل؛ ليتوب مُسيءُ النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مُسيءُ الليل[2]، فلا يتعاظمه ذنب أن يغفره سبحانه وتعالى، ولا عيب أن يستره،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١/ ٧٢٠)، و«تهذيب اللغة» (٨/ ١١٢)، و«مشارق الأنوار» (٢/ ١٣٨)، و«الدر المصون» (١/ ٣٥٦).

(٢) كما في «صحيح مسلم» (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى ﷺ.

فيلجأ المؤمن إلى الاستغفار بين السجدتين، وفي السجود، وفي دعاء الاستفتاح، وبعد التشهد الأخير.

وما من أحد إِلَّا وله ذنوب معلَنة أو خفيَّة، كثيرة أو قليلة، معلومة للناس أو مجهولة، لكن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، فسدِّد نقصك بكثرة الاستغفار على الذنوب التي فعلت أو على الطاعات التي قصَّرت؛ ولهذا كان رسولُ الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفرَ ثلاثًا[1].

وفيه مناسبة للمؤمنين الذين أُوذوا وعُذِّبوا وقُتِلوا وأُحرِقوا بالنار، وإذا كانت الآية التي قبلها، وهي آية البطش تتوجَّه للمشركين بالتهديد والوعيد، فهذه الآية تتوجَّه إلى المؤمنين.

ومن مغفرته أن يغفر للمؤمنين خطاياهم وتقصيرهم وما كانوا عليه قبل الإيمان؛ ولم يذكر المغفرة فقط، بل ذكر صفة أخرى واسمًا آخر، وهو: ﴿ٱلْوَدُودُ﴾.

و﴿ٱلْوَدُودُ﴾ صيغة مبالغة من الوُدِّ، ومعناه: كثير الحُبِّ للمؤمنين، فالوُدُّ هو المحبة الصافية الخالصة، وبعض الناس يمكن أن يسامحك ظاهرًا، لكن لا يستطيع أن يصفِّي قلبه مما يجد عليك من تقصيرك في حقِّه أو خطئك عليه، خصوصًا إذا كان الخطأ كبيرًا.

فالله يمحو الذنب ويسمح ويصفح ويعفو، وأيضًا: يودُّك ويحبك، وترجع مكانتك عنده مثلما كانت أو أفضل، وهذا فضل عظيم.

ومما تدعو إليه الفطرة: محبة الناس لربهم؛ إذ كيف لا يحبونه وهو خالقهم ورازقهم، ومحييهم ومميتهم ومولاهم، وكل نعمة في الناس فمن الله، فالسمع والبصر والفؤاد والنفس، والأكل والشرب والزوجة، والمال والولد، والدنيا والصحة

(١) أخرجه مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

والعافية، والجمال والمال، كل ذلك من الله، فكيف لا تحب ربك وهو الذي أنعم عليك وأعطاك وهداك!

لكن العجيب أن يحبك ربك سبحانه وتعالى، وأنت خَلْقٌ من خلقه ضعيف، مُعَرَّض للأخطاء والذنوب والمعاصي والغفلة، وهو مع ذلك يحب عباده المؤمنين، ويحب التَّوابين ويحب المتطهِّرين، ويحب المحسنين[1].

فتخيَّل إن كان الله يحبك، باسمك وشخصك، وهو الإله العظيم الذي لا يستطيع البشر أن يقدروه قدره، لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام، ولا تحيط به العقول؛ فهذه نعمة عظيمة وفضل كبير، ولهذا فالحرص على أن يحبك الله من أعظم المقامات التي ينبغي أن يسعى إليها العبد، والتي تحرِّكه إلى الطاعة.

ولهذا يقول العلماء: إن الله سبحانه وتعالى يُعبَد بالحب والخوف والرجاء. لكن أهمُّ ما يُعْبَد به الحب، ومن مزايا العبادة بالحب أن الخوف ينتهي في الجنة؛ قال تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٤٩]، وكذلك الرجاء؛ لأن كل شيء موجود، ويبقى الحب؛ لأن الحب وإن كان أمرًا تُعُبِّدوا به في الدنيا، إلَّا أنهم يتنعَّمون به في الآخرة، ولهذا كان الحب بمثابة الرأس للطائر، والخوف والرجاء بمثابة الجناحين، وفي قطع الرأس موت للطائر بخلاف الجناحين، ولهذا إذا انقطع الحب انقطعت معه العبودية والإيمان، لكن لو أن أحد الجناحين أصابه عيب لكان من الممكن أن يعيش الطائر ولا يموت، وأهل السنة يعبدون الله تعالى بالحب والخوف والرجاء، ومقام الحب عندهم أعظم[2].

وفي هذه الآية درس للدعاة؛ بأن يرفقوا بالعصاة وأن يفتحوا لهم أبواب التوبة،

---

(١) ينظر: «التوحيد» لابن خزيمة (٢/ ١٩٦)، و«الدر المصون» (١٠/ ٧٤٨)، و«التحرير والتنوير» (١٢/ ١٤٨)، (٣٠/ ٢٤٩).

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٨١، ٢٠٧).

ويرغِّبوهم فيها، وأن يحصِّنوهم من القنوط من رحمة الله، مبتعدين في ذلك عن أسلوب الإقصاء والمجافاة؛ فإنه لا يزيدهم إلَّا عنادًا وإصرارًا على خطئهم، فسياق آيات السورة كان في شأن قوم فعلوا أعظم الجرائم، وهو الصدُّ عن دين الله وتعذيب المؤمنين بسبب إيمانهم، ومع ذلك كله يفتح الله لهم أبواب الأوبة والرجوع.

وينبغي أن يكون الداعية أبعد الناس عن دوافع الانتقام والتشفِّي والنكاية بالمخالف والعاصي من المسلمين.. هذه الدوافع التي يُلبسها بعضهم لباس الغَيرة على الدين، مع أنك لو فتَّشت وتأمَّلت لوجدت فيها من نوازع الانتصار للنفس والتشفِّي لها ما لا يمكن إنكاره، ولا شك أن الرفق ومحاولة الترغيب بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة أدعى للتجرُّد عن هذه النوازع الشخصية النفسية.

* ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥]:

و«العرش» يُطلَق في أصل اللغة على كرسيِّ الملك، ولكن هذا المعنى جاء في القرآن الكريم في حق ربنا تعالى في سبعة مواضع، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، وهو مخلوق غيبي أخبر الله تعالى أنه استوى عليه، ولا يُعلَمُ كيفية العرش ولا كيفية استوائه إلَّا هو سبحانه؛ لأنا نقول: لا نعلم كيف هو حتى نعلم كيف استوى، ولهذا لما سأل رجل الإمام مالكًا رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: كيف استوى؟ فقال: «الاستواء غير مجهول». أي: معنى الاستواء في اللغة معروف، وهو العلو مثلًا، ثم قال: «والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[1].

---

(١) ينظر: «الرد على الجهمية» للدارمي (١٠٤)، و«طبقات المحدثين بأصبهان» لأبي الشيخ (٢/ ٢١٤)، و«معجم ابن المقرئ» (١٠٠٣)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (٦٦٤)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٦)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٨٦٧)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص ١١٦)، و«ترتيب المدارك» (٢/ ٣٩)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/ ١٥٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٠٠).

وصدق رحمه الله، فقد أغلق هذا الباب، وهو باب تقحُّم العقل البشري في الغيبيَّات وما يترتب على ذلك من ضياع الجهود في معارك وصراعات حول أمور لا تنفع ولا تزيد معرفة الله، ولا المحبة له، ولا الزُّلفى إليه، ولا تفيد في النجاح والفوز الدنيوي وتحقيق التقدم والتنمية، وإنما تستنزف الجهود والعقول فيما لا طائل تحته.

والآثار الواردة في صفة العرش غالبها لا يصحُّ، وإنما يكفينا ما ورد في القرآن الكريم.

والإنسان إذا قرأ مثل هذه الآية ربما تخيَّل شيئًا، فنقول: كل ما تخيلته أو خطر ببالك، فالله ليس كذلك؛ ولن تصل بها إلى الحقيقة؛ لأنه لا يحيط الخلق بعلمه، ولا يدركون حقيقته ولا حقيقة أسمائه وصفاته.

وإذا كان الله تعالى يقول عن الجنة: «**أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ**»[1]. فالخيال لا يدرك النعيم، وهو مما يتلذَّذ به الناس، فكيف بالجنة ذاتها، فكيف بربنا تبارك وتعالى، والذين يستنكرون هذه المعاني إنما استنكروها؛ لأنهم تخيَّلوها وقارنوها وشبَّهوها بالمحسوسات والمألوفات التي عندهم، فترتَّب على ذلك أنهم نزَّهوا الله تعالى عن أن يُشَبَّه بخلقه، لكن لو أدركوا أن هذه المعاني التي ذكرها الله تعالى في كتابه، وتلاها النبي ﷺ وأقرَّ بها الصحابة وآمنوا دون أن يقحموا أنفسهم في تكييف أو تشكيل أو تصوُّر، ولذلك كان السلف يقولون: «أَمِرُّوها كما جاءت»، والمعنى: اقرأها وآمِن بها، دون أن تدخل في إشكالات وتخيُّلات قد تولِّد من الشكوك أكثر مما تصنع من الإيمان.

والآية متضمِّنة القوة والحُكم والملك المطلق، وفي هذا السياق تعريض بالذين يَدَّعون شيئًا من السلطان والملك كذي نُواس، فلن ينفعهم ملكهم ولا سلطانهم؛ لأنه عارض ومؤقَّت، والملك الحقيقي والسلطان التامُّ إنما هو لله سبحانه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

و﴿ ٱلْمَجِيدُ ﴾: يحتمل معنيين، وفيه قراءتان، فعلى القراءة بالخفض تكون (المجيد) صفة للعرش، وهي قراءة الكوفيين، أما أكثر القراء فإنهم يقرؤونها بالرفع[1]، وعليه تكون صفة لله سبحانه وتعالى؛ لأنه هو ذو العرش، أي: مالك العرش وخالقه، فـ﴿ ٱلْمَجِيدُ ﴾ هو الذي له المجد والكمال، وله العظمة والسؤدد[2].

* ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج:١٦]:

وهذه آخر الصفات التي ساقها الله تعالى عن ذاته الكريمة في هذا المقام.

و﴿ فَعَّالٌ ﴾: صيغة مبالغة من (فَعَل)، وهي صيغة تدل على كثرة مفعولاته؛ أي: كثرة الأشياء التي يفعلها سبحانه وتعالى[3]، وفي ذلك تشابه مع قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن:٢٩].

من شأنه أن يعزَّ أقوامًا ويذلَّ آخرين، ويرفع ويخفض، ويقبض ويبسط، ويحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويهدي ويضل، أي: فلا تستغرقك اللحظة الحاضرة، واعلم أن الله تعالى كل يوم هو في شأن[4].

وفي الآية أسرار لطيفة، فمنها أنها أثبتت لله سبحانه وتعالى الإرادة، وهي أسبق من الفعل؛ لأنه إذا أراد شيئًا فعَلَه؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٥٤)، و«السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص٦٧٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ٢٢١).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٤٩).

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٧)، و«فتح القدير» (٣/ ١٥٠)، و«التحرير والتنوير» (١٤/ ٢٨-٢٩)، (٣٠/ ٢٣٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ١١٩)، (٢٢/ ٢١٢-٢١٣)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٧٣)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٦٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٥)، و«فتح القدير» (٣/ ١٧٤)، و«التحرير والتنوير» (١/ ١٣٥)، و«تفسير السعدي» (ص٧٢٢).

فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]، وأثبتت له الفعل، وهو الخلق.

فلله تعالى إرادة وله قدرة، وبذلك يتحقَّق الفعل، ولا يكون هذا إلا للخالق، أما المخلوق فإرادته لا تستدعي الفعل وتحقيق المراد مباشرة، وليس كل ما أراده المخلوق قدر عليه، إلَّا أن يشاء الله، وكثيرًا ما توجد العوائق والموانع التي تحول دون تحقيق ما يريد العبد.

في حين أن لربنا كمال الإرادة وكمال القدرة، والإرادة الواردة في هذه الآية هي إرادة التكوين، وتُسمَّى: الإرادة الكونية، وهي إرادة الخلق والفعل.

أما الإرادة في مثل قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة:١٨٥] فهي: الإرادة الشرعية، بمعنى: محبة الله لذلك الأمر، لكن لا يلزم أن يتحقق مدلوله، فالله تعالى أراد من الخلق إرادة شرعية أن يؤمنوا، ولهذا بعث إليهم الرسل وأنزل الكتب، لكن ليس كل الخلق حقَّقوا الإرادة، والمحبة الإلهية.

والله تعالى لا معقِّب لحكمه؛ ولا ممانع، ولا يحتاج إلى مُعين، بخلاف الخلق.

فهذه السياقات في وصف الله مناسبة لقصة أصحاب الأُخدود، ومناسبة لحال المؤمنين بمكة، وهي متناسبة فيما بينها.

* ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ [البروج:١٧-١٨]:

وكأن هذا السياق تفصيل للبطش الشديد، فجاء ذكر «فرعون» و«ثمود» كمثال لبطش الله تعالى بأعدائه.

وكذلك البدء والإعادة، فهم قوم جرى عليهم الرفع والخفض.

ومثلها المغفرة لِمَن آمنوا ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠].

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قرأ هذه الآية، ثم قال: «نعم قد جاءني»[1]. ومثل

(١) أخرجه ابن أبي حاتم- كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٢)- عن عمرو بن ميمون مرسلاً.

ذلك: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية:١]، ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه:٩]، وهي واردة في صيغة سؤال، لكنها في الواقع توكيد، والمعنى: قد أتاك.

والمقصود بالحديث: الخبر، وسمَّاهم الله جنودًا باعتبار المجموع، وإِلَّا فإن فرعون لم يكن إِلَّا فردًا له حكم وسلطان على قومه وجنده.

ومن المعاني التي ظهرت لي في توصيفهم بالجنود، أن الله سبحانه وتعالى يشير إلى أن هؤلاء القوم لم يكن ظهورهم وعلوهم بحق؛ ولا لأنهم أصحاب علم وحضارة، وإنما كان بسبب القوة المادية البحتة، والقوة والجند والحرس والجيوش المدجَّجة، كما هو شأن الطغاة الخائفين من انتفاضة الناس عليهم.

ويتكرر اليوم المشهد نفسه عندما ننظر إلى ممارسات الحكومات الفاسدة الباغية، ونرى الفضائح التي تتكرر في العراق وأفغانستان، والسجون الخفيَّة والممارسات المنحرفة، حتى الاغتصابات التي تظهر في وسائل الإعلام، والتي تدل على الاستخفاف بحقوق الإنسان.

وأما ما يتعلق بالقوانين والنظم والدساتير، فإنها ربما كانت حكرًا على الأقوياء وحدهم، فالكلام عن حقوق الإنسان يوظف للاستغلال السياسي، أو الضغط على دولة من الدول، وإذا تحسَّنت العلاقات السياسية معها سكت الحديث!

ومن هنا نجد أن قضية الضمير، والعدل، والنموذج الأخلاقي والمعاني الإنسانية التي جاءت بها الديانات السماوية كلها، واتفق عليها الأنبياء؛ هي من المعاني التي يحتاج المسلمون إلى أن يضربوا بها المثل بصورة عملية صحيحة، وبكل مرارة أقول: ما أبعدهم منها!

وضرب الله تعالى هنا مثلين: ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾، وفرعون: يشبه ذا نُواس الذي جاء السياق في ذكره، وأما ثمود، فهو اسم جَدِّ القبيلة، ثم صار يُطلَق على القبيلة كلها.

وقد يكون ذِكرُ هذا السياق مناسبًا من وجهين: ففرعون يناسب ذكره أصحاب الأُخدود وذا نُواس، بينما ثمود يناسب ذكرهم أهل مكة؛ لأن ثمود كانوا يسكنون الحِجْر وهو في الشمال من مكة في ديار العرب، وأخبارهم كانت معروفة، وإن كان اللَّبْس موجودًا، حيث يوجد في جنوب الجزيرة العربية في عمان مكان يقولون عنه إنه: موطئ الناقة، وهذا مُستغرَب، بل مُستنكر، إذ كيف ذهبت الناقة إلى جنوب الجزيرة العربية بينما كانت ثمود في أقصى الشمال.

* ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ [البروج:١٩-٢٠]:

وقد جاء في سورة أخرى قوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ [الانشقاق:٢٢]، والتعبير بالتكذيب أقوى؛ وكأن التكذيبَ وعاءٌ محيطٌ بهم؛ فوقَهم ومِن تحتِ أرجلِهم، فهم يكذِّبون بكل شيء ولا يصدقون بشيء، ولهذا ناسب قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾، يعني أن التكذيب محيط بهم، والله تعالى محيط بهم وبتكذيبهم، فلا يفوتونه.

وهذا مثل قوله عز وجل في سورة الفجر: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾ [الفجر:١٤]، أي: عش ما شئت، واهرب إلى ما شئت، فأينما ذهبت فربك لك بالمرصاد، محيط بك في المكان الذي لا بد لك من عبوره وسلوكه، فلا مهرب لهؤلاء الناس منه.

و﴿ بَلۡ ﴾ هي للإضراب، وتستخدم أيضًا للانتقال من معنى إلى معنى، وتستخدم لرفض المعنى الأول، وإثبات معنى نقيض له، وكأنها سبقت في الآية للانتقال إلى معنى جديد.

* ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴾ [البروج:٢١]:

﴿ بَلۡ ﴾ هنا للإضراب الذي هو بمعنى الرفض للمعنى الأول وإثبات نقيضه؛ أي: رفض تكذيبهم وإثبات الحق، وكأنه يقول: كيف يكذِّب به المجرمون، وهو قرآن

مجيد محفوظ صادق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

فتكذيبهم ناشئ عن سوء ظنهم بالقرآن الكريم، وسوء ظنهم بالنبي المختار ﷺ، وعن سوء ظنهم بمَن أرسله ومَن أنزل عليه هذا الكتاب، ولهذا وقعوا في التكذيب.

وهذا فيه تبشيع للفعل، وهم لا يكذِّبون بأساطير أو أحاديث أو أخبار محتملة، وإنما يكذِّبون ربهم جل وتعالى، الخلَّاق الفعَّال لما يريد، الغفور الودود، وهذا الذي يكذِّبونه ﴿ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴾.

والقرآن هو كلام الله الذي أنزله على نبيه ﷺ، وهو ما بين دفتي المصحف، المبدوء بسورة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، المختوم بقوله: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾.

والقرآن يأتي مُعَرَّفًا بـ «ال»، كما قال تعالى: ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ [ق:١]، ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ [ص:١]، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [النمل:٧٦]، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩]، ويأتي غير معرَّف كما هنا.

ولفظة «القرآن» كلمة لغوية مأخوذة من: قرأ يقرأ قراءة وقرآنًا، فهو اسم للمقروء[١]، الذي يكون مكتوبًا في ورقة ونحوها ويُقرَأ، أو يكون محفوظًا فيُقْرَأ.

وهي مثل (قربان) لما يُتَقَرَّب به، ومثل (شكران) لما يُشْكَر به؛ فكذلك القرآن هو اسم للمقروء، ثم أصبح عَلَمًا على كتاب الله عز وجل، وسُمِّي قرآنًا؛ لكثرة ما يُقرَأ ويُتلى.

وهنا ذكره مُنكَّرًا، والتنكير يأتي للتعظيم، كما هنا، ولهذا وصفه بقوله: ﴿ مَّجِيدٌ ﴾؛ لأنه من إله مجيد، أي: كامل عظيم كريم.

---

(١) ينظر: «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٣٠)، و«تاج العروس» (١/ ٣٧١).

* ﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج:٢٢]:

وقد جرت عادة العرب أن يُطلَق اللوح على المصنوع من الخشب، لكن اللوح المذكور هنا غير مصنوع من خشب؛ لأن الله سبحانه قال في الآية الأخرى: ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة:٧٨-٧٩]، فعُلِمَ أن اللوح هو كتاب، وهذا الكتاب فيه مقادير الخلائق كلها، وفيه ما أنزل الله سبحانه، وفيه الأحكام والشرائع وكل شيء، فهذا هو اللوح المحفوظ.

وقد ورد في وصف اللوح المحفوظ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه من ياقوتة ودُرَّة، وهذا لا يصحُّ[1]، ولا ينبغي روايته ولا التشاغل به؛ لأنه يتكلم عن شيء من علم الغيب، ويكفينا الوقوف عند ما ذكر الله عز وجل من أن عنده في السماء من المخلوقات ذات المجد والقدسية والعظمة والثبوت شيئًا اسمه اللوح المحفوظ، أو الكتاب المكنون، فهو محفوظ عند الله، ومعنى كونه محفوظًا:

١- أنه محفوظ من الزيادة والنقص، كما في قوله: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت:٤٢]، فلا يُزاد فيه ولا يُنقص منه؛ لأنه من عند الله.

٢- أنه محفوظ من أن يطَّلع عليه أحد، إلَّا مَن شاء الله، من الملائكة، ولهذا قال: ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة:٧٨-٧٩]، وأحد الأوجه في تفسيرها أنهم الملائكة، كما في قوله: ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس:١٥-١٦].

وأيضًا في قوله: ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ دليل على أنه لا يطَّلع عليه أحد من الخلق إلَّا مَن شاء الله عز وجل، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، والمقصود به القرآن؛ لأن الذكر يُطلَق على القرآن، ويطلق على اللوح المحفوظ، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، فالذكر من أسماء القرآن، ومن أسماء اللوح المحفوظ.

(١) أخرجه البغوي في «تفسيره» (٨/ ٣٨٩)، وسنده ضعيف جدًّا.

فاللوح المحفوظ هو الكتاب المكنون، والله أعلم، وهو محفوظ لا يطَّلع عليه أحد، إِلَّا بإذن الله عز وجل، ومحفوظ لا يُزاد عليه، ولا يُنْقَص منه، إِلَّا بإذن الله عز وجل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩]، فكأن أم الكتاب هي اللوح المحفوظ[١].

و﴿مَّحْفُوظٍ﴾ صفة للوح، وهذا قول الجمهور، وهو مقتضى القراءة بخفض كلمة محفوظ، لكن في قراءة لبعضهم: (في لوحٍ محفوظٌ) برفع «محفوظ»، وعليها تكون صفة للقرآن، فكأنه قال: (بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح)[٢]. والله أعلم.

○ ○ ○

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٠٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٧)، «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٨).

(٢) ينظر «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٦)، و«السبعة في القراءات» لابن مجاهد (ص٦٧٨)، و«الحجة في القراءات السبع» لابن خالويه (ص٣٦٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٩٩).

سورة الطارق



سورة الطارق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾
فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ
لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ
﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ
أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق: ١-١٧].

* تسمية السورة:

١ - أشهر أسمائها: «سورة الطارق»[١]، وبه سماها البخاري في «صحيحه»، وعامَّة المفسرين والعلماء؛ وذلك لِوَجَازته واختصاره.

٢ - «سورة ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾»، سمَّاها به بعض المفسرين[٢].

وورد في السنة النبوية، كما في حديث جابر بن سمرة ﷺ، أن رسولَ الله ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، و﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾. كما تقدم في «سورة البروج»[٣].

* عدد آياتها: سبع عشرة آية عند جمهور علماء العَدِّ، وقيل: ست عشرة آية، وكأن القائل بهذا عدَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ آية واحدة[٤].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٨)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٧٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٢)، و«الكشاف» (٤/ ٧٣٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٥٧).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٢٠)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤١٦)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٥٧).

(٣) تقدم تخريجه في «سورة البروج»: «تسمية السورة».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٨)، و«البيان في عَدِّ آي القرآن» (ص ٢٠٧)، و«تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» للفيروزآبادى (ص٥٠٧)، و«روح البيان» (١٠/ ٣٩٦).

* وهي مكية باتفاق العلماء، كما ذكر ابن عطية والقرطبي وابن عاشور وغيرهم[1].

ومما يدل على مكيَّتها: موضوعاتها، كالحديث عن الخلق والآيات الربانية، والبعث، ووعيد الكافرين، وهي معانٍ تتكرر في القرآن المكي.

وجاء في حديث مشهور رواه أحمد، وابن خزيمة عن عبد الرحمن بن خالد العَدواني، عن أبيه، أنه أبصر رسولَ الله ﷺ في مشرق ثَقِيف وهو قائم على قوس أو عصًا، حين أتاهم يبتغي عندهم النصرَ، قال: «فسمعتُه يقرأ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ...﴾ حتى ختمها، قال: فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام. قال: فدعتني ثَقِيفٌ، فقالوا: ماذا سمعتَ من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم»[2].

* ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق:١]:

في الآية قَسَمان: الأول بـ: «السماء»، والثاني بـ «الطَّارق».

أما «السماء»، فهي كل ما علا وارتفع[3]، وتُطلَق على السبع الطِّباق التي ورد ذكرها في القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك:٢].

والغالب في أقسام القرآن أنها متعدِّدة، فمن ذلك: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾، ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٨)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٩٥٨)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٢٧٤، ١٢٧٥)، وابن خزيمة (١٧٧٨)، والبغوي في «معجم الصحابة» (٢/ ٢٣٩) (٥٩٦)، والطبراني في «الكبير» (٤١٢٦-٤١٢٨)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٢/ ٩٤٧) (٢٤٤٨).

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٧/ ١١٢)، و«لسان العرب» (١٤/ ٣٨٩).

وتعدُّد القسم في القرآن فيه إشارة إلى تعدُّد الخلق ووحدانية الخالق تعالى.

وقد وجدتُ أن ثَمَّةَ مواضع يكون القَسَم فيها مفردًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم:١]، أقسم بالنَّجم وحدَّد حالًا خاصة وهي: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾، فكأنَّ القَسَم هنا إما أن يكون بمتعدِّد يدل على تعدُّد الخلق، أو يكون قَسَمًا بجزء؛ فهو لم يقسم بالنجم كله، وإنما أقسم بالنجم في حالة كونه يهوي، وهذا ليس عامًّا للنجوم كلها، بل هو خاص بالنجم الذي يهوي، وهو الشِّهاب الثاقب المذكور في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [الصافات:١٠].

وهذا يؤكِّد المعنى الأول، وهو أن القسم في القرآن يشير إلى تعدُّد الخلق وانقسامه، ووحدانية الخالق وكماله وجلاله.

فأقسم بـ «**السماء**»، وثنَّى بـ«**الطارق**»، وهذا الطارق يهوي من السماء كما سيأتي، فهناك علاقة واضحة بينه وبين السماء.

و«**الطارق**» مأخوذ من الطَّرْق، وهو الضرب الشديد، ومنه المِطرقة؛ لأن الإنسان يضرب بها، وغالبًا ما يُطلَق «الطارق» في اللغة على الشيء الذي يأتي في الليل[(١)]، ولذلك جاء في الحديث: أن النبيَّ ﷺ نهى أن يَطْرُقَ الرجلُ أهلَه ليلًا؛ يتخوَّنهم، أي: إذا جاء من سفر فإنه يطرق بيته في الليل كأنه يختبر أهله، يخشى الخيانة من زوجته، فنهى النبيُّ ﷺ عن ذلك، وقد علَّل النهي بقوله: «**حتى تمتشطَ الشَّعِثةُ، وتَسْتَحِدَّ المُغِيبةُ**»[(٢)]. أي: لكي تتجمَّل الزوجة، وتستعد لزوجها، فلا يفاجئها بالمجيء ليلًا.

وربما كان إطلاق الطَّرْق على الضرب ليلًا؛ لأن الآتي في الليل يحتاج إلى أن يطرق الباب، في حين أن أبواب النهار مفتوحة، والناس في أمن وطمأنينة.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٨/ ٣٤٥)، و«تاج العروس» (٢٦/ ٦٣- ٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٤٧)، ومسلم (٧١٥) من حديث جابر ﷺ.

* ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴾ [الطارق:٢]:

سؤال تفخيم وتعظيم، ودعوة إلى التطلُّع إلى معرفة هذا الطارق، وحفاوة واهتمام وتضخيم لأمره؛ ليكون الذهن متحفِّزًا لتلقِّي الجواب.

والقرآن يوجِّه المخاطبين إلى العناية بالنجوم ومراقبة حركاتها والانتقال من ذلك إلى الإيمان بخالقها، حتى قال سبحانه: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦]؛ لأنها من مظاهر الخلق والإبداع الرباني.

* ﴿ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ [الطارق:٣]:

سُمِّي النجم بـ«الثاقب»؛ لأنه يثقب الظلام بضوئه[1]، وهذا من معاني الثَّقْب، وهو تعبير قرآني في وصف النجم لم يكن معروفًا عند العرب، وجاء في القرآن في موضع آخر في سورة الصافات: ﴿ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴾ [الصافات:١٠].

وقيل: إن من معنى الثاقب أنه يَقْصِد الشياطين فيحرقهم ويهلكهم[2].

واختلفوا في هذا النجم، أهو الثُّريَّا أم زُحَل[3]؟

والأقرب أن المقصود جنس النجوم، وعليه فإن الله تعالى أقسم بالنجوم كلها.

* ﴿ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴾ [الطارق:٤]:

﴿ إِن ﴾ بسكون النون، وقد يكون معناها النفي، يعني: ما كل نفس إِلَّا عليها

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٣٤)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٧)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٦٠)، و«الدر المنثور» (١٢/ ٣٨٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٤٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٩)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٠).

حافظ، وقد يكون معناها الإثبات، فتكون مثل «إنَّ»، والمعنى: إنَّ كل نفس لعليها حافظ[1]، وعلى هذا تكون «ما» في قوله: ﴿لَّمَّا عَلَيْهَا﴾، زائدة أو صلة كما يقولون، والآية في الحالين تقرِّر حقيقة، وهي أن كل نفس عليها حافظ، والتقرير هنا جاء بصيغة النفي والإثبات، أي: لا يوجد نفس إِلَّا عليها حافظ، أو بطريقة الإثبات والتوكيد: إنَّ كل نفس لعليها حافظ، والمعنى واحد، لكن طريقة تقريره مختلفة.

وهذا الحافظ، قيل: هو الله تبارك وتعالى، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤]، فهو حفيظ على العباد، ومن أسمائه سبحانه وتعالى: «الحفيظ» و«الحافظ».

والأقرب -وهو قول الجمهور- أن المقصود بالحافظ: الملائكة الحفظة، كما جاء في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١]، وقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١]، وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢][2].

ولهذا خَصَّ كل نفس بأن عليها حافظًا، أي: من الملائكة، وهذا صريح في قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧]، فالمعنى: أن كل نفس عليها حافظ يخصُّها وحدها، ومن مهمَّته أن يحفظ أعمال الإنسان ويراقبه، والله تعالى أعطى هؤلاء الملائكة الحافظين الكرام الكاتبين القدرة على أن يعلموا كل ما يحتاج إلى علم ومعرفة فيقيِّدوه، حتى ما يُسِرُّه الإنسان في ضميره من الهمِّ والقول والفعل، وفي الحديث

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٤٨- ٣٤٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٧).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٧١)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٧)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص١٦٥).

المشهور: «قال الله عز وجل: إذا هَمَّ عبدي بحسنة ولم يعملها، كتبتُها له حسنةً، فإن عملها، كتبتُها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة ولم يعملها، لم أكتُبْها عليه، فإن عملها، كتبتُها سيئةً واحدةً»[1].

فجعل تعالى لهم القدرة على معرفة ما يَهُمُّ به الإنسان، فضلًا عما يقوله، أو يعمله، وهؤلاء لا سبيل إلى الخلاص منهم، فقد يتخلَّص الإنسان من الناس ويستتر عنهم؛ لكنه لا يستتر من الكرام الكاتبين، فهم كرماء فضلاء، ولو كان عندك اثنان من أصدقائك الذين تعزُّهم وتجلُّهم، فإنك لن تجرؤ على فعل ما لا يليق أمامهم، والملائكة أولى، ولو أن الإنسان آمن بحقيقة أن معه ملائكة لا يفارقونه، لاستقامت له سريرته؛ ولهذا جاء في الحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ»[2].

فالمعنى الأول: أنهم يحفظون ويكتبون ويقيِّدون على الإنسان كل ما يعمل.

والمعنى الثاني: أنهم يحفظون للإنسان ما كُتِبَ له من رزقه، ومن أجله، ومن عمله، كما قال: ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [الرعد:١١]، فإذا جاء القدر خلَّوْا بينه وبين قَدَر الله، ولذلك ربما يتعرَّض الإنسان لكرب مفاجئ، ثم ينجو من ذلك بأعجوبة؛ لأن الله تعالى وَكَّلَ به مَن يحفظه من الموت؛ فأجله لم يَحِنْ بعدُ.

والمعنى الثالث: أنهم يحفظون الإنسان في حياته إلى الموت، وهو قريب من المعنى الثاني[3].

فهؤلاء هم الملائكة، وهذه وظائفهم، وهذه الحقيقة تُعَدُّ شيئًا جديدًا على أهل الجاهلية، فجاء القَسَم عليها في القرآن الكريم؛ لترسيخ الإيمان بها باعتباره فاصلًا بين الخير والشر، والإيمان والكفر، والهُدى والضلال؛ لأن الحفظ له ما بعده، وهو أن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧٥، ٦٨١٠)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ١١٩).

المرء راجع إلى ربه، ثم هو محاسِبه ومجازيه على عمله.

وهل ثَمَّ تناسب بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه؟

نعم، وكأن العلم والاطلاع الذي أَقْدَر الله عليه الملائكة، ومن قبله وبعده علم الله سبحانه وتعالى الذي يتخلخل ظلمات النفس الإنسانية، يشبه النجم الثاقب الذي يخترق الظلام ليصل إلى مداه وما كُتِبَ له، ويزيل الظلمة من حوله، فهكذا العلم يكشف ظلمات النفس، وصدق الشاعر إذ يقول:

وإذا خَلَوْتَ بريبـةٍ في ظلمـةٍ والنفسُ داعيـةٌ إلى الطغيـانِ

فاستحي مِن نَظَرِ الإلهِ وقلْ لها: إنَّ الـذي خلـقَ الظـلامَ يراني

قد يكون في القلب معانٍ خفيَّة غامضة لا يتفطَّن لها صاحبها، والعلم الإلهي يخرق الحجبَ ولا يُكِنُّ منه سترٌ، ثم الملائكة الموكَّلون يطَّلعون ويدوِّنون؛ فخليق بالإنسان أن يكون مراقبًا لنفسه حق المراقبة، عارفًا بها، مدركًا لدوافعها ونوازعها.

* ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق:٥]:

وهذا تبصير وتذكير بأن الإنسان قد يكون غنيًّا بماله أو جاهه أو سلطانه، فبيَّن الله ضعفه الفطري بالنظر إلى أصل خلقته.

وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ صيغة أمر، بفعل مضارع مع لام الأمر، والمعنى: انظر مم خُلِقْتَ، والأمر يدل على الوجوب، أي: فيجب على الإنسان أن يتفكَّر كيف خُلِقَ ومم خُلِق.

ونظر الإنسان للمادة التي خُلِقَ منها، وهي الماء الدافق، هو نظر اعتبار وتبصُّر وتعقُّل؛ لأن الماء الذي يراه يخرج منه، هو من جنس الماء الذي خُلِقَ منه.

وليس المقصود بـ«الإنسان» هنا: الكافر، كما قال بعضهم[1]، وإن كان سياق

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٥).

النص يوحي بذلك؛ لأن الآية فيها نوع من التوبيخ والعتاب، لكن الأمر عام لجنس الإنسان، أن عليه أن ينظر ويتدبَّر، كما قال تعالى: ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [عبس:١٨][1].

* ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق:٦]:

وهذه إشارة إلى هوان أصل الخِلقة، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [المعارج:٣٩]، أي: من الشيء الذي يعلمون أنه شيء مَهِين، وفي الآية الأخرى: ﴿ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة:٨]، فأصل الخِلقة لا يؤهِّل الإنسان للاستكبار والكفران.

وليس في الآية حَطٌّ من قدر الإنسان؛ فالله تعالى قد خلق الأنبياء والبشر من هذا الماء، ولهذا اختلف الفقهاء في المنيِّ، هل هو طاهر أو نجس؟ والراجح أنه طاهر؛ لأنه أصل الناس، ويبعد أن يخلق الإنسان من نجس، لا سيما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد كان النبي ﷺ يُفرك المني من ثوبه ثم يصلِّي فيه، وكان يغسله ثم يخرج إلى الصلاة وأثر الغسل في ثيابه[2]، وهذا ليس شأن النجاسة، ولذلك نقول: إن الإسلام لا يستقذِر الدوافع الجنسية، ولا يكرهها بذاتها، وحتى الاغتسال الذي أُمِرَ به الإنسان بعد المواقعة، ليس لأنه قارف خطيئة، فهو يغتسل ليتطهر منها، ولكنه إعادةٌ للحيوية والنشاط إلى جسد الإنسان.

ولذا فليس في وصف الماء بأنه ﴿ مَّهِينٍ ﴾ تقذير أو تنقيص؛ لأن المعنى: أنه ضئيل أو قليل جدًّا أو ضعيف، أو رقيق، وغالب كلام المفسرين يدور حول هذا المعنى[3].

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٢٩-٢٣٢)، و«صحيح مسلم» (٢٨٨- ٢٩٠)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (١/ ٦١- ٦٣).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٥٤٤)، و«تفسير الطبري» (١٨/ ٦٠٠)، (٢٣/ ٥٩٤)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ١١٨)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ٤٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٩)، و«البحر المحيط» (٩/ ٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٨).

وقد أشار القرآن الكريم إلى قضايا الجنس، والعلاقة بين الرجل والمرأة في مواضع كثيرة، ومنها هذه الآية، فجعلها محلًّا للاعتبار.

وبعد أن قال: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾؛ قال: ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق:٥-٧]، وقد قال في الآية الأخرى: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ [القيامة:٣٧]، وقال في سورة الواقعة: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الواقعة:٥٨-٥٩].

وهذا يشير إلى أن مثل هذه المعاني ليست مما ينبغي كتمانه أو التستُّر عليه، بل هي حقائق مهمَّة، لا حرج أن تدركها الفتاة، ويدركها الفتى، وليس فيها استثارة للغرائز، ولا ذِكْرٌ لما ينبغي الأَنَفة منه.

إن حديث القرآن والسنة عن هذه الحقائق والمعاني حديث عفيف محتشم، ليس فيه إثارة ولا تهييج، وفي سورة يوسف عليه السلام ذكر الله تعالى قصته مع امرأة العزيز: ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾، ثم قال: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ ﴾ [يوسف:٢٣-٢٤]، فهذا معنى يشير إلى وجود خلوة دبَّرتها امرأة العزيز؛ لتوقع يوسف عليه السلام، ولكن السياق جاء بها بطريقة متعالية عن الإسفاف والإثارة، مما يؤدِّي إلى الرُّقيِّ بهذه الدوافع والوعظ فيها، وليس إلى التحريض على فعلها.

أما حينما تتحوَّل هذه المعاني إلى وسائل للإثارة والإغراء، كما نجده في بعض الروايات التي تعتمد في الترويج على استثارة الغرائز، وكأنها تعرض فيلمًا إباحيًّا، بحجة الواقعية في السرد، فهذا توظيف سلبي حيواني جاهلي، كما أن شدة التوقِّي والإفراط هي جاهلية أخرى مستترة، فينبغي أن يُعالَج الإفراط والتفريط بالرجوع إلى أسلوب القرآن والسنة، ومراعاة قدر التعليم والتثقيف والمصلحة والمفسدة.

وقوله سبحانه: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾، سماه الله: «ماء». والأصل في المياه الطهارة، ووصفه بأنه «دافق».

وكثير من العلماء يقولون: ﴿دَافِقٍ﴾ أي: مدفوق، ويقولون: إن هذه لغة الحجاز، فهو مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١]، أي: مرضيَّة[١].

والأقرب ما رجَّحه ابن القيم وغيره، أن ﴿دَافِقٍ﴾ معناه أنه دافق بذاته[٢].

ويتقوَّى هذا المعنى إذا علمنا أن هذا الماء الدافق يحمل ملايين الحيوانات المنوية، وإنما سُمِّيت حيوانات؛ لأنها حية، والذي يلقِّح البُويضة إنما هو واحد من هذه الملايين، ولذلك عبَّر بقوله: ﴿دَافِقٍ﴾، إشارة إلى ما يحمله هذا الماء من تلك الحيوانات.

* ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق:٧]:

وقد أجمع العلماء على أن «الصُّلب» هي عظام الظهر، والأكثرون على أن الترائب هي عظام الصدر، وخصَّها بعضهم بعظام الصدر للمرأة، فمن هنا ظن بعض علماء السلف أن ماء الرجل يخرج من ظهره، وأن ماء المرأة يخرج من صدرها، غير أن هذا الكلام لا يثبت أمام النقد العلمي والطبي التشريحي[٣].

وقد استشكل بعض المعاصرين قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق:٧]، وأحدث لَبْسًا على ضعفاء الإيمان، وحاول بعض المغرضين التشكيك في صحة القرآن وقدسيَّته من خلال هذه الشبهة، فقالوا: ما علاقة الصُّلب الذي هو الظهر والترائب التي هي عظام الصدر بهذا الماء الذي يخرج من الخصية والبويضة التي تتخلَّق في عنق الرحم؟

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٥٦٩)، (١٢/ ٤١٨)، (٢٤/ ٢٩٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٩)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥١)، و«روح البيان» (٤/ ١٣٢).

(٢) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص١٠٢)، و«أعلام الموقعين» (١/ ١١٢)، و«بدائع الفوائد» (٣/ ٦٨).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٢- ٢٩٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤- ٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٢).

قرأتُ أقوالَهم، ووجدتُ أن أحسن ما يقال في هذا الموضع، أنه لا يُقْصَد به خروجه الآني الفوري من الصدر أو الظهر؛ لأن هذا من المخالف للحسِّ الذي يعرفه كل أحد في كل وقت؛ فلو كان في هذا الكلام مأخذ أو مطعن لكان المشركون الأولون أول مَن يستنكر ذلك، ويستغلُّه لتكذيب الرسول ﷺ، ولكنهم وجدوا أنه معنى صحيح جارٍ على قواعد لغتهم، وموافِق ومطابق للمحسوس، فلم يستنكروه.

و«الصُّلب» يشمل عظام الظهر حتى عظام العجز، فكلها تُسَمَّى صُلبًا، فكل ما كان من العظام خلف ظهر الإنسان فهو صلب من عظام الكتفين إلى أسفل الظهر، وبهذا يدخل العجز في الصلب.

وكذلك ما يتعلَّق بـ«الترائب»: فهي عظام الصدر وموضع القلادة، وأيضًا عظام الأضلاع والعظام التي في أسفل البطن في المثانة وغيرها، فهي داخلة في عظام الترائب، وهذا ليس غريبًا، بل إن الضحاك يقول: إن الترائب هي عظام الرأس واليدين والرجلين.

والمسألة فيها أقوال، وقد ذكر ابن الجوزي، وابن كثير وغيرهما أربعة أقوال للغويِّين في تفسير «الصلب» و«الترائب»[1]، أجودها أن المقصود بـ«الصُّلب»: عظام الظهر، حتى عظام العَجُز، و«الترائب»: عظام الصدر، حتى عظام الحوض، فيكون المعنى: يخرج من ملتقى عظام الظهر وعظام الترائب، أي: من ملتقى العجز والصدر، وهو موضع الاتصال بين الزوجين.

فيخرج ذلك من بينهما، ويكون المقصود عظام الرجل والمرأة على حدٍّ سواء؛ لأن موضع النسل والإنجاب هو فرج الرجل وفرج المرأة، وهذا معنى سهل واضح متفق مع قواعد اللغة العربية.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٢-٢٩٦)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣١٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٢٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥-٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٥)، و«روح البيان» (١٠/ ٣٩٨).

وإذا أراد الناس أن يبتكروا أو يطبِّقوا على القرآن بعض الدلالات العلمية المعجزة، فيجب أن يكون ذلك من غير تكلُّف، فبعضهم يقول: إن قوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾، فيه إشارة إلى أن الجنين في بطن أمه تكون أعضاؤه التناسلية مرتفعة عند الكلية تقريبًا، حتى الخصية تكون هناك، ثم تنزل وتهاجر إلى مكانها الْمُقَدَّر لها في الموضع المعلوم، وهذا له وجه ذكره المراغي وغيره، ودندن حوله عدد من العلماء المعاصرين[1].

لكنني لا أرى أن هذا مُعَبِّر تعبيرًا بليغًا عن معنى الآية؛ لأنه قال: ﴿ يَخْرُجُ ﴾، أي: الماء، ﴿ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾، ولم يقل: إن العضو الذي يكون منه الماء يخرج من بين الصُّلب والترائب، فالأقرب أن المقصود هو الماء ذاته الذي يخرج من بين الصُّلب والترائب، وليس الجنين، أي: من ملتقى هذه العظام، وأن الصُّلب: عظام الظهر كلها حتى أسفلها، والترائب: عظام الصدر كلها حتى أسفلها.

* ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق:٨]:

أي: قادر على إرجاع الإنسان حيًّا بعد موته، وثَمَّ تناسب قوي بين ما سبق ذكره من بداية الخلق، ومن وجود الحفظة، ولذلك عقَّب بقوله: ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾.

والضمير يرجع على الله بلا خلاف، وإن لم يكن لفظ الجلالة مذكورًا في السورة، إلَّا أنه معلوم في الأذهان.

وقوله: ﴿ رَجْعِهِ ﴾: مرجع الضمير فيه إلى الإنسان، على الصحيح[2]، أي: أن الله

---

(١) ينظر: «تفسير المراغي» (٣٠/ ١١٢-١١٥)، و«التفسير المنير» لوهبة الزحيلي (٣٠/ ١٧٧)، و«مباحث في إعجاز القرآن» لمصطفى مسلم (ص٢١٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٨)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣١٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٦).

تعالى قادر على إعادة الإنسان بعدما يموت، وهذا هو الذي سوف يحدث، فكأن الآية تحدَّثت عن قدرة الله سبحانه وتعالى على البعث، ولكنها لم تقرِّر هذا المعنى، فمجرَّد القدرة لا تعني تحقُّق وقوع الشيء حتى يأتي الإخبار عن حتمية وقوعه من الله.

* ولهذا قال بعد ذلك: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق:٩]: فأخبر أن الرجوع سيتحقَّق.

وقال بعضهم: إن المقصود بقوله: ﴿ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ ﴾ أي: على رجع الماء الذي يخرج من الإنسان، بحيث لا يخرج، كما قال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك:٣٠]، أو على رجع الشيخ إلى شبابه، وهذه ذكرها غير واحد[1].

وهذه المعاني وإن كان الله قادرًا عليها، لكنها ليست هي المقصودة في الآية فيما يظهر؛ فالمقصود أن الله تعالى قادر على إعادة الإنسان للحياة بعد موته، ولذلك قال: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق:٩]، وهذا صريح في أن المقصود يوم البعث، أي: أن رجوع الإنسان هو في ذلك اليوم الذي تُبلى فيه السرائر.

و﴿ تُبْلَى ﴾: تُختبَر وتُكشَف وتظهر، وهنا نلاحظ تناسبًا قويًّا بين هذه الآية وبين قوله في السورة ذاتها: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق:٤]، فقد حُفِظَت الأعمال في الكتب المطوية، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾، ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر:٥٢-٥٣]، أي: مكتوب في سطور[2].

و﴿ ٱلسَّرَآئِرُ ﴾: جمع سَرِيرة، والمقصود بها هنا معنيان:

١- الأفعال التي فعلها الإنسان سرًّا دون أن يراها الناس.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٧- ٢٩٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٩)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢١)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٥٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٦٥)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٢٠٤)، و«الدر المنثور» (١٤/ ٩٢).

٢- النيات والمقاصد؛ حيث إن الإنسان قد يعمل عملًا في ظاهره أنه خير، لكن مقصده فيه سيئ، فتظهر السرائر يوم القيامة، وحينئذ تسودُّ وجوه وتبيضُّ وجوه كما ذكر الله عز وجل[1].

* ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق:١٠]:

أي: الإنسان، فمن أين تأتيه القوة والناصر وقد خُلق من ماء مهين؟!

والفرق بين «القوة» وبين «الناصر»: أن «القوة» من النفس، وأما «الناصر» فمن خارجها، كما قال الله: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ [الكهف:٤٣]، أي: ناصر من غيره، ولا هو من المنتصرين بنفسه[2].

وقد يكون المعنى: أن «القوة» هي قوة المجموع، كالقبيلة؛ لكن «الناصر» هو الحليف الذي ينصرها من غيرها[3].

والمقصود أنه قد تفلَّتت يده من جميع أنواع القوة الذاتية والخارجية.

قد يستشكل بعض الناس ثبوت الشفاعة يوم القيامة التي هي نوع من النُّصرة، فيُجاب: إما بأن المقصود في السياق هو الإنسان الكافر[4]، وقد ذكر الله تعالى الكفار

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٤٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٥١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٧- ٢٩٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٩)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢١)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٥٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٤٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٢)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠١)، و«تفسير الرازي» (٣/ ٤٩٤)، (٣١/ ١٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٢٥٦، ٢٥٧).

فقال: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر:٤٨]، وذكر أن الشفاعة لمَن ارتضى، فقال: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه:١٠٩]، فتكون الشفاعة للمؤمنين كما وردت به السنة النبوية[١]، أما غيرهم فليس لهم من قوة، وليس لهم من ناصر، وقد يقال: إن المقصود جنس الإنسان، وأنه ليس له من قوة ولا ناصر، فإنا نقول: إلا بإذن الله! فيُستثنَى من ذلك الشفاعة وغيرها مما ورد في الكتاب والسنة.

ثم قوله: ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾، فيه نفي مصحوب بـ﴿ مِن ﴾، فهو نفي مؤكَّد مستغرِق، فكأنه يقول: ليس له أدنى قوة ولا أدنى ناصر، فهو أقوى في النفي مما لو قلنا: ليس لك قوة ولا ناصر، فمجيء ﴿ مِن ﴾ تعني نفي كل ألوان القوة والنصرة.

* ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ [الطارق:١١-١٢]:

وهذا قَسَمٌ جديد، وهو قَسَمٌ ثنائي، فأقسم الله تعالى بالسماء وبالأرض، ووصف السماء بأنها ذات الرَّجع.

و«الرَّجع» يُحتمَل أن يكون المقصود به المطر الذي ينزل مرة بعد أخرى في كل عام، فهو يرجع للناس ويحيي الله به الأرض بعد موتها[٢].

ويجوز أن يكون المقصود: أن المطر يخرج من الأرض، ثم يذهب إلى السماء، ثم يعود إلى الأرض، فالمطر من البحر[٣].

وقد كان هذا معروفًا عند العرب في الجاهلية، والشاعر يصف السَّحاب فيقول:

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، ومسلم (١٨٣، ١٩٣-١٩٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٢-٣٠٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٢).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٢)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٣).

شربْنَ بماء البحر ثم تَرَفَّعَتْ مَتَى لُجَجٍ خُضْرٍ لهنَّ نئيجُ[1]

وقوله: «متى لُجَجٍ» أي: على لُجَجٍ.

فماء البحر يرفعه الله تعالى بإذنه، فتنشأ به السحب، ثم يأذن الله تعالى له فيرجع، ولهذا سُمِّيت: بذات الرجع، وهذا فيه علاقة مع الماء الدافق، فكما أن بالمطر تحيا الأرض، وينبت الزرع، فكذلك بالماء الدافق يتخلَّق الناس.

وقوله: ﴿ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ فيه علاقة مع دور المرأة التي تستقبل هذا الماء، والتي تتصدَّع بخلق الإنسان، وهذه كرامة للمرأة؛ فالأنبياء خُلقوا في أرحام النساء، والمقصود بـ ﴿ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ أنها تنصدع وتنشق عن النبات، والأرض هنا صبورة موطأة ذلول، وهي أخلاق الأنثى في أجمل حالاتها[2].

وثَمَّ تناسب بين ظلام يُشق بالنجم الثاقب، وبين الأرض التي يشقُّها المطر ثم يخرج منها النبات، وبين المرأة التي هي موضع النسل، وبين الأرض التي هي موضع الحرث والزرع، وهنا يتبيَّن فضل الإنسان على السماء والأرض، فما هي إلَّا جمادات مسيَّرة، لكن بالنسبة للذكر والأنثى، فهما مخلوقان لهما إرادة واختيار، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة:١٨٧]، فجعل للمرأة دورًا مثل الرجل، وليست مثل الأرض تُوضَع فيها البذرة ثم تنمو، دون أن يكون لها إرادة، وإنما هي مجرد محضن لها، بل هو أمر يختاره الرجل والمرأة.

---

(١) ينظر: «ديوان الهذليين» (١/ ٥١-٥٢)، و«شرح أشعار الهذليين» (١/ ١٢٩)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٦) منسوبًا إلى أبي ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي.
والمعنى: أن السحابة استقت ماءها من موج البحار، ثم ارتفعت على سحائب أخرى سود، تمر مرًّا سريعًا في السماء محدثة صوتًا. و(متى) هنا بمعنى (من) وهي لغة هُذيل.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٤-٣٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٣).

* ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴾ [الطارق:١٣]:

أي: القرآن، وهذا أحسن ما قيل، وعليه جمهور المفسرين، وبعضهم يقول: الضمير يعود على الكلام السابق[١]، والكلام السابق من القرآن، والأَوْلى حمل الضمير على القرآن كله.

ومعنى ﴿ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴾، أي: فاصل، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص:٢٠].

فقوله: ﴿ فَصۡلٞ ﴾، يعني أنه يفصل بين الحق والباطل، والخطأ والصواب، وهذا القَسَم الرَّباني على القرآن دليل على أنه محتوٍ على لباب المعاني والأحكام، والأصول والقواعد التي يحتاجها الناس.

وأنا أعجب من هذه النصوص القرآنية القطعية، التي يقرؤها الصغار والكبار، ثم إذا نظرت إلى عموم الناس وجدت منهم الإعراض عن قراءة القرآن وتدبُّره، حتى إنك تجد عند المتعلِّمين وطلبة العلم ولعًا شديدًا بحفظ السنة ومتابعتها، واهتمامًا بالأحاديث والروايات، والرجال، والجرح والتعديل، وما أشبه ذلك، وربما قضى الإنسان وقتًا طويلًا في تخريج حديث مثلًا، ووصل في النهاية إلى تضعيفه، في حين تسود الغفلة عن المعاني المبذولة في آيات القرآن الكريم من حِكَمٍ وأحكام وعبر وآيات، وتجد أن الدروس في شروح الأحاديث والقراءة فيها والاعتناء بها أكثر من الدروس المعتنية بكتاب الله تدبُّرًا وتفسيرًا، وحتى الدروس القرآنية غالبًا ما تنصرف إلى جوانب لغوية أو فقهية أو خلافية دون ملامسة لمقاصد القرآن وهداياته ومعانيه ودلالاته!

وأحسب أن هذا من أعظم أسباب التخلف الذي يعانيه المسلمون اليوم؛ حيث

---

(١) ينظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣١٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٤٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٣).

تجد العقلية الإسلامية مستغرقة في جزئيات وتفاصيل، مع أن الوقت يجب أن يُصرَف للبحث في القضايا الكبار، والأمور العظام؛ ولذا فإن الإفادة من دلالات القرآن ومعانيه، تجعل الإنسان كبيرًا في عقله، كبيرًا في فهمه، كبيرًا في اهتماماته، ولا تقل: أنا أهتم بكذا وكذا وبالقرآن، فهذا من حيث المبدأ سليم، لكن لن تستطيع له طلبًا وتحقيقًا؛ لأنه إذا أُغرِق الإنسان في شيء أخلَّ وقَصَّر في غيره.

ولهذا فإن مما أغفل المسلمين عن تدبُّر القرآن، والتخلُّق بأخلاقه، والعمل بشريعته؛ ما وقعوا فيه من تعصُّب مذهبي؛ لأنهم أُولعوا بكتب الفقهاء، ثم انفتح كثير من طلبة العلم في رِدَّة فعل لذلك التعصُّب على رفض التقليد؛ والأخذ مباشرة من أحاديث السنة، لكن ترتَّب على الإفراط في هذا الأمر؛ أنِ غلوا في الكثير من التفاصيل والفروع، وغفلوا عن اللباب والأصل الذي هو القرآن الكريم.

والقرآن فصلٌ فيما يختلف المؤمنون فيه، وما أكثر الخلافات والصراعات التي توجد حلولها في القرآن، في حين أن كثيرًا من الناس لا يرجعون إلى القرآن.

ونحن لا ندعو إلى إهمال الحديث، ولا إهمال الفقه، ولا الجور على شيء من علوم اللغة أو الأصول أو سواها، لكن ندعو إلى وضع الأمر في نصابه ولجم الاندفاع بأكثر مما ينبغي مما يحدث ارتباكًا وخللًا في «فقه المقادير»، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

* ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق:١٤]:

فأثبت سبحانه وتعالى أنه «قول فصل»، ثم نفى عنه الهَزْل، وبيَّن أن ما أخبر به من الحفظة أو الوعد أو الوعيد أو غيرها؛ ليس مجالًا للهَزْل.

وفيه إشارة إلى مَن يجعل من الجِدِّ هَزْلًا، فإذا ذكر لهم البعث الذي ذكره الله تعالى هنا، قال قائلهم: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦] أو أخذ عظمًا باليًا ففتَّه ونفخه، وقال: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، فهؤلاء اتخذوا القرآن هزوًا وهزلًا.

* ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ [الطارق:١٥]:

يعني الكافرين[١]، وهذا يرجِّح أنهم المقصودون فيما قبله.

و«الكيد»: هو المكر الخفي[٢]، والله تعالى أكَّد كيدهم بقوله: ﴿كَيْدًا﴾، ولم يقل: (كيدًا عظيمًا)، ولا: (كيدًا سهلًا)، وهذا من الإعجاز؛ فهو كيد عظيم وسهل، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم:٤٦].

وقد قيل: إن المقصود الإشارة إلى عظمة كيدهم، وقيل: الإشارة إلى هوانه[٣].

فكيد الكفار «عظيم» بالقياس إلى قدرة الناس وطاقتهم، و«هيِّن»؛ لأن الله يبطله؛ فهو لا يصلح عمل المفسدين.

* ولما قال سبحانه وتعالى عن نفسه : ﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق:١٦]، جعله كيدًا مطلقًا؛ ليدل على أنه كيد يليق بعظمته سبحانه.

والمعنى: أن كيدهم يليق بهم، والكيد من الله تعالى يليق به، فكيدهم يتصف بصفات البشرية من الضعف والعجز، والكيد من الله يتصف بمطلق القوة والشدة على ما يليق بجلاله.

وجاء ذكره هنا على سبيل المقابلة والمشاكلة، ولأن الله تعالى لا يُوصَف بالكيد إلَّا على سبيل مقابلة فعلهم، كما قال: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾ [النمل:٥٠]..

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٧)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣١٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٤)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٣٤٣)، (١١/ ٢٩٧).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٢٢).

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٥٤]، أي: أن الله تعالى يكيد لمَن يكيدون له، ولرسله[١].

* ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق:١٧]:

أي: انتظر لهم، وأعطهم فرصة، وهذا أمر مُوَجَّه للنبي ﷺ، وقد تفهَّم هذا الأمر، وتأدَّب به، حتى إنه لما جاءه مَلَك الجبال وعرض عليه أن يُطبِق عليهم الأَخْشَبين[٢]، قال: «بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهم مَنْ يعبدُ اللهَ وحدَه لا يشركُ به شيئًا»[٣]. فهذا من أثر تعلُّمه ﷺ في مدرسة القرآن.

أما الفرق بين «مهِّل» و«أَمْهِل»، فهو مثل الفرق بين: نزَّل وأَنْزَل، أو: علَّم وأَعْلَم، فـ(علَّم ونزَّل) فيها تدريج وبطء، أما (أَعْلَم وأَنْزَل) ففيها مباشرة، فكأنه قال: مَهِّلْهم، أي: ببطء وتدرج.

أما الثانية: ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ فهي سريعة؛ لأنها مربوطة بقوله: ﴿ رُوَيْدًۢا ﴾ أي: وقتًا يسيرًا، فكأن قوله: ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ دليل على قرب العقاب الذي ينتظرهم[٤].

ويرى بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة بآية السيف: ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة:٥].

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٢٢)، (٣١/ ١٢٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٤٦)، و«الإتقان» (٣/ ١٤٠، ٣٢٢)، و«روح البيان» (١٠/ ٤٠١)، و«فتح القدير» (١/ ٣٩٥)، (٢/ ٤٩٤)، و«روح المعاني» (٢/ ١٧١)، (٥/ ١٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٨)، و«أضواء البيان» (٨/ ٤٩٦).

(٢) أي: جبلي مكة أبي قبيس وقعيقعان، سُمِّيا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٣٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣١٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٨).

والراجح أنها غير منسوخة، ولكنها مُنـزَّلة على حال، وتلك الآية مخصوصة بحال[1]، والله أعلم.

○ ○ ○

(١) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» للمقري (ص ١٩٦)، و«الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (ص ٦٥)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٢/ ٦٢٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص ٤٩٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٧٢)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٤٩)، و«دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» للشنقيطي (ص ٢٥٦).

سُورَةُ الأَعْلَى



سورة الأعلى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ
﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ
﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى
﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ
ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى
ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى:١-١٩].

* تسمية السورة:

١ - **أشهر أسمائها عند جمهور أهل التفسير، وعليه غالب كُتَّاب المصاحف: «سورة الأعلى»**[1]**؛ أخذًا من هذا الاسم المتميِّز في السورة في قوله سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾؛ حيث خُصَّت به السورة.**

٢ - **«سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾»**[2]**، حيث تُسَمَّى بالآية الأولى منها، وورد هذا في أحاديث عدة عن النبي ﷺ، كما في قصة معاذ رضي الله عنه لما أطال بقومه الصلاة، فقال له النبي ﷺ: «فلولا صليت بـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾...»**[3]**.**

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «ما قدم النبي ﷺ المدينة حتى قرأت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سُور من المُفَصَّل»[4]**.**

---

(١) ينظر: «سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٣٢)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣١٥)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣)، والتحرير والتنوير (٣٠/ ٢٧١).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤١٨)، و«صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧١).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٣٩٢٥، ٤٩٤١).

٣- «سورة سبِّح»، ومنه قول الفقهاء: يقرأ في الجمعة بـ«سبح» و«الغاشية»[١].

* عدد آياتها: (١٩) آية باتفاق العلماء[٢].

* توقيت النزول:

الجمهور على أنها مكية، والدليل على ذلك: حديث البراء المتقدِّم، وقد ذكر أكثر العلماء أنها السورة الثامنة من حيث النزول.

ومما يؤكِّد مكيَّتها: الموضوعات التي تناولتها؛ فإن فيها الحديث عن تسبيح الله، والإيمان به، والوعظ الذي يَكثُر في السور المكية.

وذهب بعضهم إلى أنها مدنية، أو أن فيها آيات مدنية، ويُنْسَب هذا لأبي سعيد الخدري ﷺ وغيره، وأنهم قالوا في قوله سبحانه: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى:١٤-١٥]، أن المقصود: زكاة الفطر وصلاة العيد، وهاتان الشعيرتان لم يكونا إلَّا بعد الهجرة.

والصحيح أن السورة مكية كلها، حتى على فرض أن المقصود بالآيتين صلاة العيد وصدقة الفطر، فهذا لا يلزم منه أن تكون السورة مكية؛ لأن هذا قد يكون مما تضمَّنته الآيات من المعاني، لا أنها نزلت في مشروعيتها[٣].

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٢٢) -وفيه: «سورة سبح الأعلى»- و«تفسير ابن فورك» (٣/ ١٩٨)، و«زاد المعاد» (١/ ٢٠٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٧)، و«تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص ٦١٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٥٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٥١٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣١٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٩)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٧١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٣٧)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٧)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٧٠-٣٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٥١٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧١-٢٧٢).

* ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى:١]:

هذا أمر للنبي ﷺ، والتسبيح لفظ معروف متداوَل في القرآن الكريم، وغالبًا ما يُطلَق على مجمل التعبُّد، كما في قوله سبحانه: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤]؛ فقوله: ﴿ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ معناه: من الذاكرين الله والمستغفرين ونحو ذلك.

والتسبيح لفظ عربي معروف المعنى، وقيل: إنه من اللسان العبراني، ولكنه عُرِّب، ولا بأس بهذا، **فلفظ التسبيح هنا يشمل أربعة معانٍ**(١):

١- تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به، مما نَسَبَهُ إليه المشركون أو الجاهلون، فننزِّه عن الصاحبة والولد، والعجز واللغوب والجهل، وكل معاني النقص، وهو ما يمكن أن يُطلَق عليه السَّلب، أي: نفي صفات النقص، لكن نفي صفات النقص لا يلزم منه بمجرده إثبات الكمال.

٢- إثبات صفات الكمال لله عز وجل، فنثبت لله أسماءه الحسنى وصفاته العليا، وكماله المطلق، وجلاله وجماله، وعظمته ومجده وسلطانه، وعلمه وقدرته، وحكمته ورحمته، وكل ما ورد في مُحْكَمَات النصوص من معاني الكمال.

٣- أن يكون المقصود: نزِّه اسم الألوهية عن أن يُطلَق على الأوثان، كما كانت العرب تطلق على اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألفاظ الألوهية، وتمنحها شيئًا من ذلك؛ أي: نزِّه ربَّك أن تطلق اسمه الشريف العظيم المقدَّس على غيره من الأوثان.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٩-٣١٠)، و«مشارق الأنوار» (٢/ ٢٠٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤)، و«لسان العرب» (٢/ ٤٧١)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٥)، و«إرشاد الساري» (٧/ ٤١٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧٣).

وهذا الذي ذكره الطبري وابن حزم والرازي وكثير من أهل العلم(١)، وأخذوه من قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، فقالوا بأن ذكر الاسم معناه: لا تطلق هذا الاسم على غير الله عز وجل.

٤- أن تنزِّه الله تعالى عن أن تتسبَّب في سبِّه سبحانه وتعالى، وهذا معنى لطيف، وإن لم يكن ظاهرًا في الآية، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨]، فنهى الله تعالى المؤمنين أن يسبُّوا آلهة المشركين؛ لئلا يتجرَّأ المشركون فيسبُّوا ربنا سبحانه وتعالى عَدْوًا بغير علم.

فينبغي للمؤمن أن يتفطَّن إلى أن عليه أَلَّا يأتي بابًا من أبواب الخير، إذا كان سيترتب عليه مفسدة أعظم، ولعل هذا مرتبط بقوله تعالى في آخر السورة: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩]، وسنزيد الأمر إيضاحًا عند تلك الآية الكريمة.

وذكر بعضهم أن لفظة ﴿ٱسْمَ﴾ في الآية تُعَدُّ صلة، كما نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وأن معنى قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾: سبِّح ربَّك(٢)، ويستدلون بقول لَبِيد الشاعر:

إلى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكما ... ومَن يَبْكِ حولًا كاملًا فقد اعتذرْ(٣)

وقصده: ثم السلام عليكما، ولكن يُؤتَى بهذا اللفظ على سبيل الصلة، وقد يقول البعض: إنه لفظ زائد، لكنهم يكرهون أن يطلقوا الزيادة على شيء من القرآن الكريم؛ لأن القرآن ليس فيه شيء زائد.

---

(١) ينظر: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٥/ ١٩)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٦)، و«تفسير ابن عطية» (١/ ٥٦)، (٢/ ٤٢٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣).

(٣) ينظر: «ديوان لبيد» (ص٥١).

وقد جاء في آية أخرى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة:٧٤] بزيادة الباء، وعدل عن أن يقول: (سبح اسم الله)، لأن «الربَّ» مختصٌّ بالتربية والعناية والرعاية والعطف واللُّطف، وهذه من أعظم الإفضالات والإنعامات التي يجود بها على العباد عامة، ففضله عامٌّ للخلق، وخاصٌّ للبشر، وهو للمؤمنين أخصُّ، أما الأنبياء فلهم من مقامات الصفاء والتكريم والعناية واللطف ما لا يقدر قدره إِلَّا هو سبحانه.

وقد ناسب أن يذكر اسم «الرب» هنا؛ لأن المقام مقام ثناء على عطاء ربنا تعالى وعلى نعمه وإكرامه، فلفظ الربوبية أليق؛ لأن الرب يُطلق على الخالق، ويُطلق على المالك المتصرِّف، ويُطلق على المُنْعِم.

ولفظة: ﴿ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وردت في القرآن في غير هذا الموطن في قصة موسى ﷺ: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [طه:٦٨]، وهذا دليل على أن لفظ «الأعلى» لا يختص بالله.

فالأسماء التي تختصُّ بالله تعالى، ولا تُطْلَق على غيره: «الله»، و«الرحمن».

و﴿ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ مأخوذ من العلوِّ، ومثله ﴿ ٱلْعَلِيُّ ﴾: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فاسم الله هو ﴿ ٱلْعَلِيُّ ﴾، و﴿ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ في معناه، ولكنها صيغة مبالغة تدل على كمال العلوِّ، ونحن نؤمن لله تعالى بالعلو من جميع وجوهه، فالله تعالى له العلوُّ في ذاته، حيث استوى على العرش، وهو فوق السماوات: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠]، وهو معنى قررته الشريعة، ودَلَّت عليه الفطرة، ودلَّ عليه العقل، من غير أن نسمح لعقولنا بتصوُّر كيفية لذلك؛ وله سبحانه علوُّ القهر والغلبة والسلطان على عباده، وله علوُّ القَدْرِ والمكانة[1].

---

(١) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص١٦٣-١٦٤).

و﴿ ٱلْأَعْلَى ﴾: صفة للرب، وليس صفة لـ﴿ ٱسْمَ ﴾ لأنه قال بعدها: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [الأعلى:٢] فالذي خلق وسوَّى هو ﴿ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾.

ولا بأس أن يكون المقصود الاثنين معًا، فيكون وصفًا للاسم بالعلو، ووصفًا للرب تبارك وتعالى بالعلو؛ لأن الاسم مَردُّه إلى الله عز وجل، فالمقصود أسماء ربك العليا، أي: سبِّح ربك بأسمائه العليا؛ لأن العبد إذا أُمِر بتسبيح خالقه، فلن يسبِّحه إلَّا بذكر أسمائه الحسنى، فإن الأصل أن يُثني العبد على الله بأسمائه وصفاته وأفعاله التي وردت في القرآن والسنة، ولا يخترع أشياء من عنده.

ولو أن الإنسان وصف الله سبحانه وتعالى بأمور من عنده، فلا تردُّ مطلقًا، ولكن ننظر: فإن كانت مما ورد معناه في القرآن والسنة، فلا بأس بوصف الله بها، من غير أن تكون أسماء؛ لأن الأسماء توقيفية، فلو قال أحد مثلًا: «ربنا هو وجدان المحرومين، ونصير المظلومين، وأمان الخائفين، ودليل التائهين». فلا بأس بذلك؛ لأن هذه كلها معان صحيحة، والإمام أحمد كان من دعائه: «يا دليل الحائرين، دُلَّني على طريق الصادقين»[1].

فلا حرج أن تُقال على سبيل الخبر أو على سبيل الوصف، دون التسمية؛ لأن الأسماء توقيفية، لا تزاد ولا تنقص، وإنما يقتصر فيها على ما ورد[2].

والذكر الذي يملأ القلوب بالإيمان والسكينة والطُّمأنينة، ويقرِّب إلى الله، ويحقِّق ما أمر به سبحانه؛ هو الانهماك في التسبيح، والثناء على الله والتقرُّب إليه، وليس أن ننخرط في جدال: هل الاسم هو عين الْمُسمَّى، أو هو غيره؟ وهذا مما طرحه بعض المفسِّرين، في هذه الآية، وخاضوا في مجادلات تَحْرِمهم لذة الاستمتاع بالنصِّ وتدبُّره

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣٨٦)، (٢٢/ ٤٨٣).

(٢) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للسعدي (ص ١٥٩)، و«القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى» لابن عثيمين (ص ١٣)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٣٨).

وتأمُّل معانيه الجميلة، وتلطيف وهج النفس وصخب الحياة بدلالاته وآياته.

إن لله تعالى الأسماء الحسنى، كما قال النبيُّ ﷺ: **«إن لله تسعةً وتسعين اسمًا مائةً إلا واحدًا، مَن أحصاها دخلَ الجنةَ»**(١).

وقد قرَّرنا في غير هذا الموضع(٢) أن الحديث لا يعني حصر الأسماء الحسنى، وإنما المقصود أن من أسمائه تسعة وتسعين اسمًا مَن أحصاها دخل الجنة، وإلَّا فإنه لا يحصي أسماءه إلَّا هو سبحانه، حتى رسول الله ﷺ، كما في حديث الشفاعة إذا طلب الناس منه الشفاعة لفصل القضاء، يأتي فيخرُّ ساجدًا تحت العرش، قال: **«ثم يفتحُ اللهُ عليَّ، ويُلْهِمُني من محامِدِه وحُسنِ الثناءِ عليه شيئًا لم يفتحْهُ لأحدٍ قبلي»**(٣).

ولله تعالى من المحامد ما لم يعلمه النبي ﷺ حتى في ذلك المقام، على جلالة قَدْره ﷺ! فإن الله تعالى له الكمال المطلَق الذي لا يحيط به إلَّا هو.

جاء في الحديث: أنه لما نزلت هذه الآية ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، قال النبيُّ ﷺ: **«اجعلوها في سجودِكم»**(٤).

لأن الآية عبَّرت بالعلوِّ، فقال: **«اجعلوها في سجودِكم»**. وهذا مناسب؛ لأن السجود هو المقصود الأعظم في الصلاة، وما قبله فهو كالتهيئة له، فالقيام ثم الركوع كالتحية، ثم السجود هو نهاية المطاف وذروة التعبُّد لله سبحانه وتعالى؛ فهنا اختار النبي ﷺ لفظ: **«سبحان ربي الأعلى»** للسجود، إشارة إلى أن الإنسان في هذا المقام يقرُّ لله

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٩٢)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص٣٦-٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الطيالسي (١٠٩٣)، وأحمد (١٧٤٥٠)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وابن خزيمة (٦٧٠)، وابن حبان (١٨٩٨)، والطبراني في «الدعاء» (٥٨٤)، والحاكم (١/ ٢٢٥)، (٢/ ٤٧٧) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. وينظر: «إرواء الغليل» (٢/ ٤٠)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ١٨٧).

سبحانه وتعالى بالعظمة والمجد، والكمال والفضل، ويقرُّ لنفسه بالعبودية والضعف.

فكلما زاد الإنسان ذلًّا، زاد تعظيمًا لعلوِّ الله تبارك وتعالى، وقربًا منه.

وَكَمْ للهِ مِـــن لُـطْــفٍ خَـفيٍّ   يَدِقُّ خَفَاهُ عن فَهمِ الـذَّكـيِّ
وكم يُسرٍ أتى مـن بـعـد عُسْر   ففرَّج كُربةَ القلـبِ الشَّجـيِّ
وَكَمْ أَمْرٍ تُـســاءُ بـه صبـاحًـا   وتأتيـــك المَسَرَّةُ بالعشـــيِّ
إذا ضَاقتْ بك الأحوالُ يومًا   فثِقْ بالواحدِ الصَّمد العلـيِّ(١)

* ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى:٢]:

فهذا فِعْله تبارك وتعالى، وجاء بالاسم الموصول وصلته: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى:٢-٤]، فنلاحظ أنه كرَّر الاسم الموصول؛ إشارة إلى أن المقصود في السياق هو التعريف بالله سبحانه وتعالى.

ولذلك يناسب ذكر ما يدل عليه في مطلع كل آية من الآيات؛ ليرجع إليه الفعل، والخلق، والقدرة، وإخراج المرعى، فالمقصود الإشارة إلى التعريف بالله وذكر بعضٍ مِن نعمه وأفضاله تتناسب مع الربوبية.

بدأ بالخلق؛ لأن الخلق من أول أدلة الألوهية، فعندما تتأمَّل الفرق بين الحي والميت، وبين الإنسان والجماد؛ تجد معنى الألوهية العظيم، ولذلك كان الأنبياء عليهم السلام يستدلُّون على الله سبحانه وتعالى بالخلق، كما قال موسى ؏: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

والنبيُّ ﷺ أول ما نزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾(٢) [العلق:١].

---

(١) ينظر: «النور السافر عن أخبار القرن العاشر» (١/ ٣٨٩)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص٢١٧).

(٢) كما في حديث بدء الوحي. أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة ؓ.

وإبراهيم ﷺ مع ربه: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقال: ﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء:٨١].

فالإبداع والخلق وإيجاد الحياة في الأرض، أو في الإنسان، من أعظم دلالات العظمة الربانية والإبداع والفضل، ولذا قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، وأيضًا لم يقل: (وسوَّى)، بل جاء بالفاء التي تدلُّ على الاتصال القوي بين الخلق والتسوية.

والمقصود بالتسوية هنا أن يكون خلقه حسنًا، كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]، ولذلك قال بعض المفسرين: إن المعنى: خلق الإنسان. وقال بعضهم: خلق آدم. وقال بعضهم: خلق الأحياء(١).

والصواب أن نقول: خلق كلَّ شيء فسوَّاه، حتى السموات، والأرض، والجمادات، وغيرها، كما يدل لذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك:٣]، فخلقه سبحانه وتعالى وتسويته شاملة لا تقتصر على خلق آدم، أو الإنسان، أو الحيوان؛ بل تشمل خلق كل شيء.

وإذا كان المقصود بالتسوية أن يكون الخلق حسنًا، فذلك يشير إلى أن الخلق كما هو آية من آيات الله فالتسوية هي آية أخرى، وهي الجمال في الخلق والإبداع، والحسن والنظام الذي يجده الإنسان في مخلوقات الله.

والفاء في قوله: ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ تشير إلى أن الأمر الثاني مقصود مثل الأول، أو أشد؛ أي أن التسوية مقصودة مثل الخلق؛ لأنه لو وُجِد خلق بغير تسوية، ربما لم تكتمل به الحكمة ولا النعمة، لكن إذا خلق فسوَّى اكتملت.

فالانتظام والدقة والكمال في الخَلْق في الأجهزة والأعضاء والغرائز.. ثم بين

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣١٥)، و«الوجيز» للواحدي (ص ١١٩٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٥٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١١١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٥١٤)، والتحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧٥).

المخلوقات جميعًا في تكاملها وتسخير بعضها ببعض، وقيام بعضها ببعض.. كله من كمال القدرة والحكمة والرحمة والإرادة

* ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى:٣]:

وهذا جانب آخر من الإعجاز، والذي عليه أكثر المفسرين أن معنى: ﴿ قَدَّرَ ﴾: جعل لكل شيء ما يناسبه، أي أنه سبحانه خلق كل شيء من الطير، والحيوانات، والسباع، والهوام، والنجوم، والسماء، والأرض لما يناسبه، فكل شيء له حكمة في الخلق، كما قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[(١)] [الفرقان:٢].

والجمهور يقرؤون ﴿ قَدَّرَ ﴾ بالتشديد، وقرأها الكِسائي بالتخفيف[(٢)].

وليس المقصود هداه من الضلالة، وإنما المقصود: هداه لما خلقه له؛ فهو سبحانه خلق كل شيء لغاية، ثم هدى هذا المخلوق لما خلقه من أجله[(٣)].

الطفل الصغير منذ ولادته لا يستطيع أن يعبِّر عما في نفسه، لكنه إذا جاع عبَّر عن ذلك بالبكاء، وإلَّا لمات جوعًا دون أن يوجد ما يدل على جوعه، ثم قدَّر له أن يمتصَّ اللَّبَن من ثدي أمه، وهو لا يعرف ولا يدري ما هذا الذي يلتقمه، لكن الله ألهمه أن في ذلك غذاءه!

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥-١٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٢)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص ٣٦٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٧١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٦)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٨٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٩).

حتى عملية الولادة نفسها إنما جاءت نتيجة هداية، فإن الله تعالى هو الذي هدى الذكر والأنثى إلى الاتصال ببعضهما، فهدى آدم إلى حواء، وحواء إلى آدم، وجعل بينهما من الانسجام والعلاقة ما دعا إلى التواصل الجسدي، وعلَّمهما ما يكون به الإنجاب، وهدى الرحم إلى وضعية مناسبة ودرجة حرارة ملائمة واستعداد ليكون بيئة للطفل، ثم هداه ليدفعه إلى الحياة ويسَّر له السبيل.

وهكذا الطيور، والحيوانات، والوحوش، والدواب، حتى إنك تجد عند الحيوانات من الغرائز المدهشة ما تتَّقي به المخاطر وتتعرَّف به على الأعداء، وتحصل به على أقواتها وتحمي به صغارها.

هذه الغريزة أو الفطرة هي الهداية، والله تعالى هو الذي ألهمها كيف تحصل على هذه الأشياء.

أما الإنسان فتميَّز بالعقل والنفس التي بها صار إنسانًا، ولذلك فهو يملك إمكانيات هائلة؛ اللغة والفهم والحوار، والشِّعْر، والنثر، والبيان والإعراب، وهذا تقدير من الله وهداية.

ويملك التفكير للوصول إلى الحقائق وحلِّ المشكلات، والتعرُّف على سنن الله في الكون، والاختراع والاكتشاف، وأين الإنسان اليوم من الإنسان البدائي الذي هداه الله إلى التأمُّل والكشف، فاكتشف النار، واكتشف الزراعة، والصناعة، وأقدره الله سبحانه وتعالى على تسخير هذا الكون، والانتفاع به؟

ولذلك كان من أسوأ ما يفعله الإنسان بنفسه أن يضيِّع ما قدَّر الله تعالى له، فيترك توظيف عقله بسبب التقليد والتعصب والهوى، كالذين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢]، أو يترك طلب الرزق؛ اتكالًا على أُعطيات الناس، أو يترك العمل الصالح؛ اعتمادًا على حسبه ونسبه، وإنما ينجو الإنسان أو يهلك بعمله.

* ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ [الأعلى:٤-٥]:

كأن إخراج ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ نموذج لما سبق، فهذا ربك خلق، ومِن خلقه ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾، وهذا ربُّك قدَّر فهدى، ومِن تقديره وهدايته أنه هدى الحيوانات إلى أن تبحث عن المرعى الجيد فترعاه وتأكله، وإلَّا هلكت.

و﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ يُطلَق على النبات نفسه، فالمعنى: أخرج النبات، كما يقول الشاعر:

وقد يَنْبُتُ المرعى على دِمَنِ الثَّرَى وتبقى حَزازاتُ النُّفوس كما هِيا[1]

ويُطلَق أيضًا على المكان الذي يوجد فيه النبات؛ لأن الغنم ترعاه، وهذا صحيح في اللغة[2]، فتراه أخضر جميلًا يُؤكل، ثم ما هي إلَّا فترة وجيزة حتى ينتهي المرعى ليصبح غثاءً.

و«الغثاء»: هو الشيء التافه اليابس، والهشيم الذي تذروه الرياح؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ [الكهف:٤٥].

ومعنى ﴿أَحۡوَىٰ﴾: يميل إلى السَّواد، ولذلك يُسمَّى الأسمر: آدم، من الأدمة، وهي السمرة، والحُوَّة بنفس المعنى، و﴿أَحۡوَىٰ﴾ مذكر يقال في مؤنثه: «حواء»، أي: تميل إلى السواد أو الخضرة الشديدة، فهذا هو المعنى، ولله سرٌّ في خلق الإنسان بهذه الصفة، والله تعالى أعلم.

فالمقصود أن الله تعالى أخرج المرعى، وما هو إلَّا وقت وجيز حتى اسودَّ؛ بسبب

---

(١) ينظر: «ديوان زفر بن الحارث» (ص٢٥٩).
والدِّمن: ما تلبده الإبل والغنم بأبوالها وأبعارها. والمراد: نظهر الصلح وقلوبنا تخفي غيره، كما ينبت النبات النضر ويخفي تحته ما تخلفه الإبل.

(٢) ينظر: «لسان العرب» (١٤/ ٣٢٦-٣٢٧)، و«تاج العروس» (٣٨/ ١٦٣).

اليبس، وأصبح هشيمًا لا قيمة له[1].

* ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الأعلى:٦-٧]:

الآية الكريمة انتقال إلى موضوع مختلف، وقد ظهر لي أن في ذلك إشارة إلى الفرق الهائل بين الإنسان وبين الحيوان، فلذلك أخرج المرعى للحيوان؛ لأن الحيوانات إنما يهمها أن تأكل وتشرب وتتمتع، ولذلك وصف الله الكافرين بأنهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، في حين أن المؤمن ليست مهمته الشهوة، والمتاع الرخيص، وإن كان هذا كله يتحقق له، بل مقامه أعظم من ذلك، وهو مقام الإنسانية التي اصطفاه الله لها، فيعبد الله، ويسبحه، ويقرأ، ويتعلَّم، ويؤمن ويتذكر، فكل هذه المعاني إشادة بإنسانية المؤمن الذي لا يستغرقه الأكل والشرب، والجمال في الصورة، والغنى والشهرة والسلطان، عن التسبيح لله والاقتباس من نوره.

وفيه معنى المقارنة بين الدنيا والآخرة؛ لأنه هنا قال: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ ﴾، والفاء تدل على التعقيب، إشارة إلى سرعة زوال الدنيا، كما قال: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف:٤٥].

وضرب المثل للدنيا بالمرعى الذي صار غُثاءً أَحْوى، بخلاف الآخرة التي فيها الخلود الأبدي بلا زوال، كما قال في آخر السورة: ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى:١٢-١٣]، وقال أيضًا: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى:١٦-١٧].

فبين أول السورة وآخرها ترابط واضح!

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٢- ٣١٣)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥/ ٣١٥)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤١)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٦٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦- ١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٩).

إن ذكر المرعى، وإن كان على سبيل الإشادة بنعمة من نعم الله سبحانه وتعالى، وأعجوبة كان العرب يرونها ويشاهدونها وهم يتنقَّلون بين المراعي، ويعرفون الفرق بين المرعى الوفير الذي فيه خير وخضرة وخصوبة، وبين غيره؛ إلا أن المقصود أبعد من ذلك، وهو المعنى اللَّطيف في التفريق بين الإنسان والحيوان؛ وكلهم ممن خلق الله تعالى فسوَّى، وقدَّر فهدى.

ولفظ الهداية يدل على أن الناس متفاوتون في هدايتهم؛ للتفاوت في عقولهم، فيتفاوتون في تجاراتهم، وتحصيلهم للخير؛ لأن من الناس مَن هُدِيَ إلى طريق الدنيا فقط، فهذا حصل على نوع من الهداية، ومنهم مَن هُدِيَ إلى طريق الدنيا وطريق الآخرة، وهذا هو الكمال.

وقوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾: وعد وبشارة للنبي ﷺ بأن الله تعالى سوف يُقرئه، وهذه السورة متقدِّمة، فهي ثامن سورة في النزول[1]، وقد وعد الله سبحانه النبيَّ ﷺ بأن يُقرِئه حتى لا ينسى، فكان جبريل عليه السلام يُقْرِئه ويردِّد عليه السور؛ حتى يحفظها ﷺ، وقد كان يستعجل، فيقرأ مع جبريل؛ خشية النسيان، فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾[2].

والمعنى: سوف نقرئك هذه السور وهذه الآيات فلا تنساها، فكان هذا وعدًا وبشارة للنبي ﷺ بأن يرزقه الله حفظ القرآن، ولا ينسى شيئًا منه، وقد تحقَّق هذا الوعد، على رغم تشابه بعض الآيات، ومع أن النبي ﷺ كان أميًّا، لا يقرأ ولا يكتب، إلَّا أنه حفظ القرآن، وأتقنه، وأقرأه أصحابه.

وقد تكفَّل الله تعالى بحفظ القرآن، كما قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، وقد ضُبِطَ برواية الثقات العدول الذين يروي بعضهم عن

---

(١) ينظر ما تقدم أول السورة: «توقيت النزول».

(٢) أخرجه البخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

بعض إلى النبي ﷺ، إلى جبريل، إلى ربِّ العزة جل وعلا، فتوافر في هذا الكتاب -على رغم عدم وجود إمكانيات في ذلك الوقت- من الضبط والحفظ ما هو من آيات الله المعجزة في حفظ هذا الدين، وتحقيق موعود الله تبارك وتعالى إلى اليوم المعلوم.

وذكر الإقراء، وأنه فعل الله سبحانه، فهو الذي أقرأه، وهي إشادة إضافية للقراءة والإقراء زيادة على ما في تفسير سورة العلق، فهذا تأكيد على أهمية القراءة، وأنها من أعظم ما ينفع الإنسان، ويحقق له زكاة العقل والنفس، أن يطلع ويتعلم ما ينفعه، واليوم تجد كثيرين يقرؤون ما لا ينفعهم، فإذا نُشِرَت خصومة بين شخصين في صحيفة، أو مناظرة في قناة فضائية، وجدتَ الناس يتقاطرون عليها ويتابعونها، كما يتجمهرون عندما يحصل صدام في الشارع بين سيارتين، دون أن يكلِّفوا أنفسهم عناء السؤال عما ينتفعون به من ذلك.

لكن الشيء الذي ينتفعون به مما يقوِّي إيمانهم، أو يصحِّح عقولهم، أو ينفعهم في دينهم، أو يعرِّفهم بربهم، أو يعرِّفهم بمصالحهم الدنيوية؛ فربما لا يعيرونه اهتمامًا كاهتمامهم بفضول المعرفة والعلم والاطلاع.

ثم إنه نَسَبَ الإقراء في الآية إلى الله سبحانه وتعالى، ونَسَبَ عدم النسيان إلى النبي ﷺ، فلم يقل: (سنقرئك فلا ننسيك)؛ إشارة إلى أن الصفات الموجودة فيه هي من فضل الله سبحانه وتعالى، ومن ثَمَّ فأثرها ينبغي أن يكون في طاعته، فقوة الذاكرة -مثلًا- نعمة ينبغي أن تُوَظَّف في الخير للإنسان أو لبني جنسه.

وكتب التفسير تُرجِّح أن المقصود بالقراءة هنا: قراءة القرآن[1]، والقرآن مقصود يقينًا، لكن لا مانع من أن يكون المراد بالقراءة أوسع من ذلك، فإن علم النبي ﷺ ليس

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨).

مقصورًا على قراءة القرآن، بل جاء في الحديث: «أَلَا إني أُوتيت القرآنَ ومثلَه معه»[1].

فالنبيُّ ﷺ أُوتي القرآن، وأُوتي من ألوان العلوم العظيمة الكثيرة ما جاء بعضه في السنة النبوية، وتلقته عنه أصحابه، فلذلك فإن الإقراء هنا يشمل القرآن يقينًا، ويدخل فيه غيره من العلوم والفهوم التي منحها الله تعالى نبيَّه محمدًا ﷺ واختصَّه بها.

قوله: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾: هذا خبر وليس نهيًا، أي: سنقرئك حتى لا تنسى، فلا تخف أن تنسى شيئًا من القرآن، وهذا قول جمهور المفسرين.

وقال بعضهم: إن قوله ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ نهي، أي: نحن سنقرئك، وعليك أَلَّا تنسى، فهو نهي للنبي ﷺ عن أن ينسى.

وبقيت الألف هنا مع الجزم من أجل الإطلاق في آخر الآية.

والمعنى الأول هو المختار، أي: سنقرئك حتى لا تنسى[2].

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: هذا استثناء، وهو يحتمل أمورًا:

منها: أن يكون المقصود أن ينسى النبيُّ ﷺ ما نُسِخَ من القرآن، فإن القرآن يُنْسَخ منه ما شاء الله، قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦]، أي: فتنسى ما شاء الله أن تنساه مما أذن الله تعالى أن يُنسخ، وهذا المعنى ذكره جمهور المفسرين، وهو صحيح[3].

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٧٤)، وأبو داود (٤٦٠٤)، والمروزي في «السنة» (٢٤٤)، والآجري في «الشريعة» (٩٧) من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٤-٣١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٩)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٥-٣١٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٩).

ومما استثناه الله تعالى في هذه الآية: النسيان الطارئ المؤقَّت[١]، فإن النبي ﷺ قد ينسى في وقت معين آية، كما في الحديث: كان النبي ﷺ يستمع قراءة رجل في المسجد فقال: «رحِمَهُ اللهُ، لقد أذْكَرَني آيةً كنتُ أُنْسِيتُها»[٢]. ولكن ليس المقصود أنه ﷺ نسيها مطلقًا، وإنما نسيها وهو يقرأ، ولو قرأ من الغد لأتى بهذه الآية.

ومما يمكن أن نقول: إنه استُثني نسيانُ ما هو وراء القرآن، وهو أن ينسى من العلم ما هو غير القرآن الكريم، فهذا أيضًا جائز وممكن، وليس مستحيلًا، وقد نسي النبي ﷺ في صلاته، وسلَّم من ركعتين، كما في الحديث المتفق عليه من قصة ذي اليدين[٣]، وورد عند مالك حديث ضعيف: «إني لأَنْسَى -أو: أُنَسَّى- لِأَسُنَّ»[٤]. أي: لأشرِّع للناس وأعلِّمهم، والله أعلم.

ومن المعاني: أن يكون قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ جاء على سبيل التبرُّك بذكر المشيئة، والإشارة إلى طلاقتها، من غير أن يكون المقصود أنه سينسى شيئًا، فيكون مثل قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]، ومعلوم أن أهل الجنة لا يخرجون منها، ولكن ذِكْر المشيئة على سبيل الإشارة إلى أن هذا الأمر هو بمشيئة الله وإرادته، وأنه هو الذي شاء أن يخلدوا، وليس المقصود أن منهم مَن يخرج، فهكذا هنا[٥].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي: يعلم ما تجهر به من قراءته، وما تخافت، ويعلم ما هو معلوم لديك ومحفوظ، وما أُنْسِيتَه من هذا العلم فخفي عليك، وإن لم

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٣٨)، ومسلم (٧٨٨) من حديث عائشة ﵂.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٢)، و«صحيح مسلم» (٥٧٣) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٤) ينظر: «الموطأ» (١/ ١٠٠)، و«السلسلة الضعيفة» (١٠١).

(٥) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ١٣١).

يكن قد زال بالمرة، فإنه قد يكون موجودًا لكنه خافٍ غير ظاهر، وفي ذلك إشارة إلى حكمة الله تعالى، وأن إثبات شيء أو نسخ شيء هو وفق حكمته وعلمه، فالله تعالى يعلم كل شيء، فإذا أمر بشيء، أو نهى عن شيء، أو نسخ، أو أحكم؛ فذلك لعلمه وحكمته.

والمفعول المتعلِّق بقوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ هو القرآن والإسلام والشريعة، وفيها إشارة إلى أن الله تعالى علَّم نبيَّه ﷺ ذلك كله، كما قال سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء:١١٣]، فهذه هي الشريعة، وقد وقع في أذهان بعض الناس أن الشريعة صبغتها الزجر والمنع والنهي والتشديد والتعسير، حتى صار كثير من الناس يظنون أن فقه العالِم هو في تشديده على الناس، وكثرة التحريم في فتواه، وأن هذا دليل على الورع وعلى التقوى، في حين أن هذه الآية الكريمة تدل على غير هذا؛ لأنه قال: ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ أي: القرآن والعلم والشريعة.

* ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى:٨]:

وفي ذكره التيسير لليسرى إشارة إلى أن الله وإن جاء بهذه الشريعة؛ لينقل الناس عن حكم الهوى والذوق والعادة إلى حكم الله سبحانه وتعالى، لكن حكمه سبحانه السماحة والتيسير، ومراعاة ظروف الناس وأحوالهم، وتَرْك ما يشقُّ عليهم ويعنتهم ويحرجهم، ولهذا قال: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨]، ولهذا يقول سفيان الثوري ومَعْمَر رحمهما الله: إنما العلمُ عندنا الرخصةُ من ثقة، فأما التشديد فيحسنه كل أحد»[1].

ومع ورود التيسير في مواضع كهذه الآية، وفي أحاديث ، مثل: «بُعثتُ بِالحنيفيَّة

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٣٦٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٤٦٧، ١٤٦٨).

السَّمْحَة»[1]، و«يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا»[2]، و«يَسِّرا ولا تُعَسِّرا»[3]، و«إن هذا الدِّينَ يُسْرٌ»[4]؛ إلَّا أنه لم يرد مطلقًا وصف الشريعة بالشدة أو العسر أو بمشتقيهما، أو وجود شيء من ذلك فيها، وهذا عجيب، والغفلة عنه أعجب، حتى عند بعض الفقهاء، ومن الناس مَن يقول: التيسير هو اتباع الدليل! وهذه غفلة؛ فاتباع الدليل حسب رأي المجتهد حق، ولكن لو كان هو التيسير لتساوت النصوص الآمرة باتباع الدليل في معناها مع نصوص التيسير، ولكانت تلك النصوص لغوًا، فهو أمر زائد غير الاتِّباع، والنصوص تؤسِّس لمعنى جديد، هو أن من شأن الشريعة التيسير، وهذا يحفِّز المجتهد إلى اختيار اليُسر والترجيح به في المضايق ومراعاة أحوال الناس في الفتوى، إلى غير ذلك.

وقد وجدتُ أن بعض القراء وبعض المتفقِّهين كلما أَشْكَل عليه شيء أخذ بالأحوط، وشقَّ على الناس.

وأن تأخذ بالأحوط لنفسك، فهذا لا بأس به؛ لكن أن تحمل الناس على الأحوط، فهذا يوقعهم في ألوان من الحرج ومشقَّات عظيمة، وتكون قد احتطت لنفسك بالتضييق على الناس، ولا شك أن تحليل الحرام كتحريم الحلال، وقد كان بعض الحكماء يقول: «مَن قَلَّ فقهُهُ كَثُرَ وَرَعُه». يعني: يكثر احتياطه بسبب عدم معرفته، ولذلك إذا اختلف العلماء في مسألة؛ فمِن الناس مَن يدعو إلى تَرْك الشيء؛ خروجًا من الخلاف، مع أنه قد يكون اختلاف العلماء مما لا يمكن التورُّع فيه؛ لأنك إن وافقت هذا خالفت ذاك، وإن خالفت ذاك وافقت هذا؛ لأن منهم مَن يقول في شيء: إنه واجب. ومنهم مَن يقول في ذلك الشيء نفسه: إنه محرم. فلا تستطيع أن

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٩١) من حديث أبي أمامة ﷺ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٩٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩، ٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤) من حديث أنس ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٣٨، ٤٣٤١، ٦١٢٤)، ومسلم (١٧٣٣) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٩)، والنسائي (٨/ ١٢١)، وابن حبان (٣٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

تحتاط في الحالة هذه؛ لأنك إن وافقت أحدهما ارتكبت خطأ عند الآخر، فينبغي أن نراعي أن هذه الشريعة هي شريعة اليسر.

وقد رأيتُ أن كثيرًا من طلبة العلم يتحدَّثون عن يُسر الشريعة باعتباره مبدأ عامًّا وقاعدة كلية، لكن هذا المعنى يغيب في تطبيقاتهم؛ لأنه يغلبهم حينئذ ما في نفوسهم من الميل إلى الحظر والحجر، فيترتَّب على ذلك أن كل أمر جديد غير مألوف تميل النفس إلى إدخاله في دائرة المنع والحظر، ويغلب على ظن المتسرع أن ذلك الممنوع المحظور، هو باب شر وفتنة، ويسرع خياله إلى تصوّر الناس كيف سيستخدمونه وكيف سيكونون معه، فلا يرى إلا النتائج الوخيمة المردية في ظنه.

وثَمَّ محرمات ظاهرة التحريم بالدليل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة:١١٥].

وثَمَّ أشياء ليس فيها من ذلك شيء، وإنما يقع تحريمها بالاجتهاد، والنظر الذي يتأثَّر بظروف الإنسان ونفسيَّته وثقافته الشخصية وما تربَّى عليه؛ فيترتب على ذلك مشكلات عويصة وكبيرة تتطلَّب من طالب العلم أن يكون متيقِّظًا.

وليس الحلُّ هنا هو الانطلاق من غير زمام ولا معرفة، وإنما التوازن والاعتدال والهدوء في النظر، وألَّا يكون الحكم في الأشياء مبنيًّا على عدم الإلف، أو عدم استحسان الذوق، وإنما يُفَرَّق بين الأشياء المحرَّمة الصريحة، والأشياء التي ليس فيها تحريم صريح، وبين الأشياء التي فيها مصالح للناس أو مفاسد، والأشياء التي يشقُّ الاحتراز عنها؛ لعموم البلوى بها، كما يقول الأصوليون، وهي أشياء يصعب على الإنسان الخلوص منها، وبين أشياء يسهل تجنُّبها والخلاص منها، إلى قواعد يعرفها الفقيه الذي عنده فقه في نفسه ومعرفته، بحيث يكون في دائرة الاعتدال؛ فلا ينساق مع أناس بالتيسير المطلق، ولا ينساق مع آخرين بالتشديد المطلق، ولا يتوقف عند حال معين؛ لأن أحوال الناس تتغير بحسب الأزمنة، وقد يكون بمقدورهم ترك

شيء في وقت ما، ثم يشيع حتى لا يستطيعون الاستغناء عنه ومن ذلك ما نراه من التسهيلات والخدمات والأجهزة والكهرباء والطرقات ووسائل النقل ووسائل الاتصال والتعليم والإعلام وغيرها.

* ﴿ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾ [الأعلى:٩]:

أمر الله نبيَّه محمدًا ﷺ بالتذكير، ثم علَّق الأمر بقوله: ﴿ إِن نَّفَعَتِ ﴾، أي: إن كانت الذكرى تنفع فذكِّر، وقد جعله بعضهم أمرًا بالتذكير مطلقًا دون اعتبار للشرط؛ لأنه لا مفهوم له هنا، وعلى هذا المعنى جمهور المفسرين، فيكون في إيراد الشرط معنى آخر، وهو تهدئة نفس المذكِّر والناصح والواعظ، حتى لا يستغرب عدم قبول الناس وإحجامهم وإعراضهم.

وثَمَّ معنى آخر للآية، ذهب إليه ابن كثير والشنقيطي والسعدي وجماعة[1]: وهو أن الآية على بابها، وأن التذكير واجب إذا كان ينفع، فإذا كان لا ينفع فليس واجبًا، وهذا جيد.

وعلى المعنى الثاني المذكور يكون الشرط معمولًا به، فيكون الأمر بالتذكير مبنيًّا على تقدير حصول المصلحة والمنفعة.

والمصلحة هنا قد تكون منفعة للشخص نفسه، بمعنى أن يكون قابلًا للتوجيه والتذكير فينتفع، كما في أول سورة عبس: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴾ [عبس:٨-٩]، وكما قال هنا: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴾ [الأعلى:١٠].

وقد تكون المصلحة على الناصح نفسه، ونفع الناصح هو براءة الذمة، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴾ [الرعد:٤٠].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٧٠)، «تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٢-١٣٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٠)، و«أضواء البيان» (٨/ ٣٠٥)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢٠).

وهذا حاصل مع الإخلاص والتزام الأدب والخُلق الكريم، ولكن المراد أنه إذا تساوى جانب المصلحة والمفسدة، فقد يترجَّح الفعل؛ لأنه فعل، والفعل أولى من الترك، ولأن فيه براءة ذمة، والله أعلم.

وفي الآية معنى ثالث، وهو: إقامة الحجة، بمعنى أن يكون الإنسان قد بلَّغ وعلَّم، ولذلك كان بعضهم يقول للرسول ﷺ: قد بلَّغتَ، أو: قد أبلغت، فكان ﷺ يقول: «**ذلك أريدُ**»[1]. أي: هذا ما أريد الوصول إليه وبيانه، وكان النبي ﷺ قد قال في حَجَّة الوداع: «**وأنتم تُسْأَلون عني، فما أنتم قائلون؟**». قالوا: نشهد أنك قد بلَّغت وأدَّيت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ويَنْكُتُها إلى الناس: «**اللهمَّ اشهدْ، اللهمَّ اشهدْ، اللهمَّ اشهدْ**». ثلاث مرات[2].

أما إنْ كانت الذكرى تضرُّ، ومضرَّتها ترجح على مصلحتها، فالواجب تركها، ولو اعتذر بعض الدعاة بالرغبة في إبراء الذمة، فإن إبراء الذمة لا تكون إلَّا باتباع الشريعة، فإذا كانت قواعد الشريعة تقتضي ترك الموعظة في موضع ما، فبراءة الذمة بألَّا يفعلها، ولهذا ذكر ابن تيمية وغيره أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجري فيه الأحكام الخمسة، فقد يكون واجبًا، أو مستحبًّا، أو مباحًا، أو مكروهًا، أو حرامًا[3].

وهكذا الدعوة، تجري فيها الأحكام الخمسة.

وقد يعلم الإنسان في حالات أن الذكرى لا تنفع، كما قال الله سبحانه وتعالى لنوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦]؛ وذلك لأنهم قد حقَّت عليهم كلمة ربك، فلا يؤمنون، وهكذا أبو لهب بعد نزول قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٤٤)، ومسلم (١٧٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال (ص١٤، ١٦، ٣٧، ٥٣)، و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لابن تيمية (ص ١٢-١٣).

أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد:١].

قد يكون ذلك بطريق النص، أو بدلالة العقل، وإن كان أمرًا ظنيًّا اجتهاديًّا، لكن الشريعة جاءت بإعمال غلبة الظن، فقد يغلب على ظنك أن الكلام في هذا المكان علاج مناسب، ويغلب على ظنك أنه في ذاك المكان علاج غير مناسب.

وإذا كانت أمراض الناس الجسدية لا بدَّ لها من وصفات علاجية تناسب الصحة، وتترك إذا كان المريض مصابًا بمرض آخر قد يزيده هذا الدواء، فكذلك العلاجات المعنوية والروحية، تحتاج إلى مراعاة ظروف الزمان والمكان والإنسان.

وقد يُدرك ذلك باليقين والمعرفة التامة بالمشاهدة، أو بالتجربة أو الاعتبار بتجارب الآخرين.

ومسألة الدعوة وتبليغ الأمر والنهي ليس أمرًا عفويًّا، بمعنى أنه في كثير من الحالات قد يستجمع الإنسان عزيمته لنصح أحد، ويحرج نفسه حرجًا كبيرًا في ذلك، وهو يعلم في قرارة نفسه أن مجال قبول النصح هنا غير مناسب، وأنه لن يثمر؛ لأنه دواء في غير محله، والظروف تدل على أن المصلحة في ترك ذلك.

* ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى:١٠]:

أي: سينتفع بالموعظة والذكرى مَن يخشى الله تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿ مَن يَخْشَىٰ ﴾ يحتمل أن المقصود المؤمنون، كما قال سبحانه في الآية الأخرى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات:٥٥]، وهذا ظاهر؛ فإن المؤمن هو الذي يخشى الله، والفقيه -كما قال الحسن البصري وغيره- هو الذي يخشى الله[1].

---

(١) ينظر: «الزهد» لأحمد (٢٢١٧)، و«شرح مشكل الآثار» (٤٠١٧)، و«فوائد تمام» (٧٦٤)، و«الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٤١)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٧٠)، و«تعظيم الفتيا» لابن الجوزي (٤٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٠).

ويحتمل أن يكون المعنى: أنه سيقبل التذكير مَن كان عنده قابلية وصفاء في قلبه واستعداد للخشية؛ لأننا وجدنا أن من الكفار مَن ذُكِّر فأسلم، وحينئذ تكون الذكرى قد نفعته فأدخلته الإسلام، فبالتذكير ترتفع عنه الجهالة، وتشرق أنوار الحق في قلبه[1].

فقوله: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ يشمل المؤمن الذي يخشى الله تعالى، كما وصف الله عبدَ الله ابنَ أم مكتوم ﷺ في سورة عبس: ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾[2] [عبس:٨-٩]، ويشمل الذي لديه استعداد فطري للقَبول، وليس عنده تعصب ولا هوى، ولا تحجُّر ولا جمود، ولا جاهلية، ولا منافع دنيوية يخشى عليها فتمنعه من قبول الحق، ولذلك قال سبحانه في بعض أهل الكتاب: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة:٨٣].

* ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾ [الأعلى:١١]:

الضمير في ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ عائد إلى الذكرى، ومعنى ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾: يترك جانبها، أي: يعرض عنها، والتجنب والاجتناب في القرآن يُوحي بأنه ليس القصد أن تترك الشيء فقط، بل أن تترك الشيء وما حوله، كما قال تعالى في الخمر وغيرها: ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة:٩٠]، فمعناه ألَّا تشرب الخمر، وألَّا تجلس مع قوم يشربون الخمر؛ لأن الراعي الذي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه[3]، فكذلك

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٣)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٨٥).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة عبس».

(٣) كما في حديث النعمان بن بَشِير ﷺ مرفوعًا: «إن الحلالَ بيِّنٌ، وإن الحرامَ بَيِّنٌ، وبينهما مشتبهاتٌ، لا يعلمُهُنَّ كثيرٌ من الناس، فمَنِ اتَّقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومَن وقعَ في الشبهات وقعَ في الحرام، كالرَّاعي يرعى حولَ الحِمى، يُوشِك أن يرتَعَ فيه...». أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

والحِمى: المحمِي، وهو المحظور على غير مالكه.

هنا، فالأشقى لا يحب الموعظة ولا يأنس بها ولا يجالس أصحابها، وينفر قلبه منها، كما قال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر:٤٩]، وقال عن المشركين: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فمن عنده صفاء فطري إذا سمع الذكر والخير لم ينفر منه، حتى وإن لم يكن عنده معرفة وإيمان، وليس من الضرورة أن يقبله من أول وهلة، بل يسأل ويبحث حتى يصل إلى الحق، أما المتشبع بالهوى فإنه ينفر من الذكر والعلم، ولا يزيده استماعه إلا بعدًا.

ورد في آيات أخرى وصف (شقي)، كما في قوله: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود:١٠٥]، فسماه شقيًا، لكن اختار هنا لفظ: ﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾، أي: الأكثر شقاوة؛ لأنه يتكلَّم عمَّن يتجنب الذكرى فلا يستمع.

وقد تكون الإشارة هنا إلى شخص معين، كما جرت العادة عند علماء التفسير أنهم ينزلون هذه الآيات على رجال من كفار قريش، كأمية بن خلف أو أبي جهل أو أبي لهب أو غيرهم[(١)]؛ لكن الآية مطلقة، والمعنى أنه يتجنب التذكرة مَن غلبت عليه الشقاوة، قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾ [المؤمنون:١٠٦]، وفي قراءة: (شقاوتنا)[(٢)]، فمَن غلبت عليه الشقاوة صار هو الأشقى.

* ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [الأعلى:١٢]:

ولم يقل: (يدخل)، بل قال: ﴿ يَصْلَى ﴾، لأنها أبلغ وأقوى؛ لأن الصَّلْيَ دليل

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢١٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٧، ٨٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ١١٧)، و«الحجة للقراء السبعة» (٥/ ٣٠٢)، و«حجة القراءات» (ص ٤٩١)، و«جامع البيان في القراءات السبع» (٣/ ١٣٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٢/ ١٥٣).

على معاناة العذاب ومقاساة الحرارة، وقد قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ [مريم:٧٠].

و﴿ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ في قوله: ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾، صفة للنار، وهذا إما أن يكون بالقياس على عذاب الدنيا، كما قاله جماعة من المفسرين، أي أن فيه إشارة إلى أنه في الدنيا قد وجد عذابًا ووجد نارًا؛ كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة:٢١]، ويحتمل أن يكون المقصود أن ﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾ وهو الأكثر شقاوة ﴿ يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾، فيكون هناك تناسب بين النار الكبرى وبين وصفه بالأشقى.

والنار دركات، كما أن الجنة درجات، فبين مراتب الجنة تفاضل، وبين دركات النار تفاوت، فكلما نزلت كانت أشد عذابًا، فقد ذكر الله أن المنافقين ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥].

فهنا قال: ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ أي: لشدة شقاوته، وهذا دليل على اختلاف أهل النار في دركاتها، وأنهم ليسوا في مقام واحد، وأن الإنسان كلما كان أشد كفرًا كان أشد عذابًا، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل:٨٨]، فزيد عليهم من العذاب فوق العذاب على الكفر؛ لأنهم يصدون عن سبيل الله.

وقال عن فرعون: ﴿ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦].

وقد جاء عن النبي ﷺ في حال عمه أبي طالب أنه قال: «هو في ضَحْضَاح من نار، ولولا أنا لكان في الدَّرْك الأسفل من النار»[1]. وفي الحديث الآخر: «إن أهونَ أهل النار عذابًا يوم القيامة، لرجلٌ تُوضع في أَخْمَصِ قدميه جمرتان، يغلي منهما دماغُه»[2]،

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩) من حديث العباس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٦٢)، ومسلم (٢١٣) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

فذكر النبيُّ ﷺ تفاوت واختلاف أهل النار في دركاتها ومقاساة حرها.

* ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى:١٣]:

هذا المعنى، وهو عدم الموت وعدم الحياة ورد في القرآن في مواضع أخرى، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه:٧٤]، فذكر أن المجرمين لا يموتون ولا يحيون في جهنم.

فمن أهل التفسير مَن قال: المعنى أنه لا يحيا حياة ينعم فيها كما يحيا أهل الجنة، أو لا يحيا كما كان يحيا في الدنيا متنعمًا فيها ببعض النعيم، ولا يموت فيستريح[1]، ومما يعزِّز هذا المعنى ويقوِّيه: قوله سبحانه في موضع آخر: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر:٣٦].

فهذا أحد المعاني، وهو أنه لا يموت فيرتاح، ولا يحيا حياة التنعم كما كانت حياته في الدنيا، ولكنه حي كميت!

وثَمَّ معنى آخر ذكره الطبري، والرازي وجماعة من المفسرين، وهو أن الآية على ظاهرها، وأن أهل النار هم بالصفة التي ذكر الله عز وجل، فلا هم أموات ولا هم أحياء، ولذلك قال الطبري: «إن نَفْسَ أحدهم تصير في حلقه، فلا تخرج فتفارقه فيموت، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا»[2]. وذلك من شدة العذاب الذي يعانونه ويقاسونه. وهذا القول وجيه.

وقد ذكر النبيُّ ﷺ أن الكافر من أهل النار لا يموت فيها ولا يحيا، فقال: «أما

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٧٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٣، ١٥٩)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٣٨٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٨).

أهلُ النارِ الذين هم أهلُها، فإنهم لا يموتونَ فيها ولا يَحْيَوْنَ..»[1]. وأما المؤمنون فقال: **«فيخرجون من النار وقد امْتَحَشُوا[2]، فيُصبُّ عليهم ماء الحياة، فينبُتُون منه كما تنبُتُ الحِبَّةُ في حَمِيل السَّيْل»**[3]. أي: يظهرون شيئًا فشيئًا حتى يحيوا ويدخلوا الجنة، وهم الذين يقال لهم: «الجَهَنَّميون».

وعلى كلٍّ، فلا بأس أن تُؤخذ الآية على ظاهرها، فيقال: إن نَفْس أحدهم تكون في حلقه، لا تصل إلى بدنه فيحيا ولا تخرج فيموت ويرتاح؛ وذلك لأن أمور الآخرة لا يصح قياسها على أمور الدنيا.

فإذا قال قائل: كيف لا يموت ولا يحيا؟ فنقول: هذا إلى الله سبحانه وتعالى، وهذه حال لا يمكن قياسها على أمر الحياة الدنيا، ولكنه حال ذكرها الله تعالى في كتابه، وهو معنى صحيح جاء في السنة النبوية، وربما لا يعرف الناس في هذه الدار إلا صنفين؛ حياة أو موت، أما في الآخرة فلا يمكن إجراء نواميس الحياة الدنيا عليها.

وهي حياة مختلفة ليس لدينا شيء في الدنيا نقيسها عليه، فتبقى من شأن الآخرة.

وبينما أنت تتأمَّل حال الأشقى تتخيَّله مَصْليًّا بالنار الكبرى، وهو لا يموت فيها ولا يحيا، يفجؤك السياق نقلة إلى مشهد آخر، وهو في غاية المفارقة والمضادة للمشهد الأول.

* ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى:١٤-١٥]:

﴿ قَدْ ﴾: يعرفها أهل اللغة بأنها حرف تحقيق، أي أن فيها معنى التوكيد، فهي تفيد التأكيد على الفلاح، ثم عبَّر بالفعل الماضي، الذي فيه الإشارة إلى أن الفلاح متحقِّق لمَن تزكَّى.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥) من حديث أبي سعيد ﷺ.

(٢) أي: احترقوا.

(٣) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقوله: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ مأخوذ من التزكِّي، والزكاة والزكاء يحمل كل منهما معنى الزيادة والفضل والتطهُّر؛ لأن الزكاة تبارك المال وتطهِّر القلب من الضغائن.

ولم يقل: (قد أفلح مَن زكَّى)، أو: (زكَّى نفسه)، فزيادة التاء في الغالب تدل على شيء من المعاناة والمعالجة، أي أن في الآية إشارة إلى أن التزكِّي عملية فيها المعاناة، والمشقة، ولكن يأتي العون من الله سبحانه وتعالى لمَن يريد ذلك ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

وهنا لفتة مهمة وهي أن التزكِّي يتطلَّب مجاهدة ومصابرة، فكم من إنسان تنازعه رغبة في الخير والاستقامة، وتوجُّه صادق للتوبة، وسرعان ما تفتر همته وتسقط عزيمته وتخور قواه وينقطع صبره، وتلوح له الجواذب والنوازع فيميل إليها ويترك الخير، أو تقف عقبات أمامه في الطريق فيتوقف عندها.

والتزكِّي درجات كما تفيد الآية، كما أن الشر دركات، وعلى المؤمن أن يستمسك بالحبل الذي يوصله إلى الجنة، وهو حبل الشهادة والإيمان بالله.

حتى لو أنه زل أو عثر، فهذا لا يدل على أنه ترك التزكِّي؛ لأن أصل التزكِّي ولبَّه هو زكاة القلب بالتوحيد، وألَّا يكون مشركًا بالله، وهذا حاصل لكل مؤمن، ومع ذلك فقد لا يحصل له كمال التزكِّي، فلديه عيوب وأخطاء وشهوات تغلبه، فتغلبه عينه بنظرة، ويغلبه لسانه بكلمة، وتغلبه محبة المال، ويغلبه قعود أو رغبة في مأكل أو مشرب أو نوم أو أهل أو ولد، فيقع عنده التقصير؛ فهذا لا يعني أنه أفلت من التزكِّي كله.

وهكذا الطاعات التي يترك، والمعاصي التي يقارف؛ فلو أنه يقع في المعصية كل يوم، فلا ييأس ويقول: هذه معصية لا مَخْلَص لي منها، بل عليه أن يحدِّث نفسه بالتوبة والإنابة والاستغفار، فعسى أن يَمُنَّ الله عليه فيتوب عليه، وهذا جزء من معنى قوله: ﴿تَزَكَّىٰ﴾.

كما أن في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ إشارة إلى أن التزكِّي والتزكية من أعظم مقاصد البعثة النبوية وبعثة الأنبياء جميعًا عليهم الصلاة والسلام.

والتزكِّي يكون بصفاء النفس والقلب؛ لأن القلب إذا صفا أشرقت عليه المعاني الطيبة، فلا يصدر منه غالبًا إلَّا الطيب من القول والفعل، فيجب أن يكون من مقاصد التعليم والدعوة تزكية الناس، وليس فقط حشد المعلومات، بل العلوم يُفرح بها لأنها تزكِّي، فكلما كان الإنسان أكثر علمًا، فالمفترض أن يكون أكثر تزكية.

أما إذا كانت مجرد معلومات مختزنة في الذهن، وليس لها تأثير في حياة المرء وسلوكه؛ فقد تتحوَّل إلى المفاخرة والمباهاة، وإذا كان الإنسان في منصب فربما ينسى كثيرًا من الأشياء التي كان يقول بها ويدعو إليها.

وقول النبي ﷺ: «إنما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق»[1]. يتطابق مع هذه الآية الكريمة؛ لأن المقصود من مكارم الأخلاق أخلاق الظاهر وأخلاق الباطن، فأخلاق الظاهر بالابتسام والكرم وحسن العلاقة مع الناس، وأخلاق الباطن بأن يكون القلب مشتملًا على الإيمان والسماحة والصدق والصفا والطيبة، متخليًا عن أضدادها.

ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾: «مَن تطهَّر من الشرك»[2].

وذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن معنى ﴿تَزَكَّىٰ﴾: أخرج زكاة الفطر، و﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾: صلاة العيد، ونُقل هذا أيضًا عن ابن مسعود رضي الله عنه[3].

وهو معنًى صحيحٌ، ولكن لا ينبغي قصر دلالة الآية عليه، لا سيما أنها نزلت في

---

(١) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، والحاكم (٢/ ٦١٣)، والبيهقي (١٠/ ١٩١-١٩٢)، وفي «شعب الإيمان» (٧٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٥٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٧٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٦٨).

(٣) ينظر ما تقدم أول السورة: «توقيت النزول».

مكة قبل أن تفرضَ زكاةُ الفطر، وقبل أن تفرضَ الصلاةُ على الناس، فهو داخل في عموم الآية، وليستِ الآيةُ خاصَّةً به.

وقيل: معنى ﴿تَزَكَّىٰ﴾: اتقى[1]. وهو قريب من الأول.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ فعطف هذه الآية على الآية السابقة بالواو، ثم عطف الصلاة على الذكر بحرف الفاء، فقال: ﴿فَصَلَّىٰ﴾، ولم يقل: (وصلَّى). وفي هذا إشعار بقوة اتصال الصلاة بالذكر، كما يُشعر بذلك قولُه تعالى لموسى ﷺ: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤]، وفي الحديث المتفق عليه: «مَن نسي صلاةً، فَلْيُصَلِّها إذا ذَكَرَها، لا كفارةَ لها إِلَّا ذلك»[2].

وهي إشارة إلى أن الذكر متلبِّس بالصلاة؛ فالصلاة ذكر، بل هي أعظم الذكر؛ وأيُّهما أفضل؛ الذكرُ أم الصلاةُ؟ الصلاة أفضل؛ لأن الصلاة مشتملةٌ على الذكر، والقرآن، والتسبيح، والاستغفار.

وفيه إشارةٌ إلى أن الصلاة مبنية على ذكر الله، وفيها معنى عظيم، وهو أن مقصود الذكر هو الذكر بالقلب؛ لأن أكثر الناس يظنون أن حقيقة الذكر لا تجاوزُ ذكرَ اللِّسانِ، وهذا خلاف دِلالة الآية.

وقد بحث العلماء مسألة الأجر على ذكر اللسان دون حضور القلب؛ هل يثْبُتُ أم لا؟

فذهب النووي إلى أنه يؤجر، لكن دون أجر الذاكر المستحضر؛ وذلك لأن مَن ذكَرَ اللهَ سبحانه وتعالى بقلبه ولسانه حصل له أثر الذكر وثمرته، بل مَن ذكر اللهَ بقلبه دون أن يتحرك لسانُه، فهو أفضل ممن يَذكرُ باللسان دون القلب[3].

---

(١) ينظر: «تفسير التستري» (ص ١٩٢)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «الأذكار» للنووي (ص ٩).

والذكر بالقلب إذا لم يصحبه ذكر باللسان، قد يفضي إلى نوع من التيه والضياع، كما حدث لبعض المتصوفة الذين اقتصروا على الذكر بالقلب ولم يَصحب ذلك ذكرُ اللسان، فلم تنضبط لهم معاني الذكر والحضور، ووقعوا في بعض الشَّطَحِ، كما وقعوا فيما يسمى بالفناء والغَيْبة وما أشبه ذلك.

وإذا ذَكرَ الإنسانُ ربَّه بقلبه، وواطأ هذا الذكرَ باللسان، حصل الانضباط بمعرفة الأسماء الحسنى، ومعرفة عظمة الله سبحانه وتعالى وتنزيهه عما لا يليق به، وأن يحفظ مقامات الشرع.

* ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأعلى:١٦]:

و﴿ بَلْ ﴾ للإضراب، والمعنى أنه يضرب عن شيء؛ لينتقل إلى معنًى آخر، وهذا الإضراب يكون أحيانًا لإنكار المعنى الأول، مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [المؤمنون:٧٠].

وأحيانًا يكون بقصد الانتقال إلى معنى آخر جديد كما في هذه الآية.

وكأن ذلك بيان للسبب الذي جعل الناس يعرضون عن تزكية نفوسهم وذِكْرِ الله سبحانه وتعالى، وعن الصلاة والتسبيح، إلى ما يضرُّهم ولا ينفعُهم.

وإيثار العاجلة من أعظم أسباب الانحراف في حياة الناس؛ لأن حقيقة إيثار الدنيا هو الزهد في الآخرة وما فيها من نعيم مقيم.

وإيثارُ الحياة الدنيا على الآخرة من أسباب الضلال المبين، والمقصود هنا الإيثار المطلق، ولذلك وصف الله المشركين في مواضع بأنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٣]، وإلا فإنه قد يقع للمؤمن أن يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة في موقف خاص، ويكون ذلك ذنبًا لا كفرًا! وذلك كما لو قَصَّر إنسان في إخراج الزكاة المفروضة، فهذا منه إيثارٌ للدنيا على الآخرة يقينًا، ومع ذلك فلا نقول:

إنه كافرٌ بعدم إخراج الزكاة؛ لأن الصحيح أنه لا يكفر، والنبي ﷺ يقول- كما في حديث أبي هريرة ﷺ-: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يُؤَدِّي منها حقَّها، إلَّا إذا كان يومُ القيامة صُفِّحَتْ له صفائحُ من نار، فَأُحْمِيَ عليها في نار جهنم، فيُكْوَى بها جنبُهُ وجبينُهُ وظهرُهُ، كلَّما بَرَدَتْ أُعِيْدَتْ له في يومٍ كان مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقْضَى بين العباد، فَيُرَى سبيلُهُ إما إلى الجنة، وإما إلى النار»[1]. فدلَّ ذلك على أنَّه لا يَكْفُرُ بهذا.

وكذلك الإنسان الذي يقع في المعصية وهو يدري أنها معصية، فإنه يكون قد آثر الحياة الدنيا وشهوتها على ما عند الله في الآخرة.

فهذا آثر الحياة الدنيا في هذا المقام، لكن لم يُؤْثِرْها مطلقًا في حياته كلها، ولذلك فهو يصلِّي، ويذكر الله ويستغفر؛ ففرق بين المؤمن الذي آثر الحياة الدنيا في بعض الأحوال، وبين الكافر الذي آثر الحياة الدنيا على الآخرة إيثارًا مطلقًا.

* ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى:١٧]، أخبر عن الآخرة بوصفين:

١- أنها خير، أي: أحسن، وأحسن بما لا يُقاس؛ لأن الجنة ليس فيها مما في الدنيا إلا الأسماء[2]؛ ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[3]، وفيها من النعيم المقيم ما لا يقدِّر قدره إلا الله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧]، لكن هذا مما طُوي عن العباد.

٢- أنها أبقى، أي: أطول منه، والتفضيل هنا للإيضاح، وإلا فلا مقارنة بينهما؛ لأن الدنيا محدودة، والآخرة غير محدودة، بل هي أبقى.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٢)، ومسلم (٩٨٧).

(٢) كما قال ابن عباس ﷺ: أخرجه هناد في «الزهد» (٣، ٨)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٨٨).

(٣) كما في حديث أبي هريرة ﷺ. أخرجه البخاري (٣٢٤٤، ٧٤٩٨)، ومسلم (٢٨٢٤، ٢٨٢٥).

فالجنة خير من الدنيا، وحتى لو فَرضنا استواءَهما في المدة، بأن تعيش في الدنيا مائة سنة في طاعة الله، وتعيش في الآخرة مائة سنة فقط؛ لكانت الآخرة في هذه الحالة خير، فكيف إذا إنضاف إلى هذه الصفة صفةٌ أخرى وهي أنها أبقى؟! ويدخل في ذلك ما أريد به الآخرة فإنه أعظم أجرًا وأبلغ في تحقيق الرضا النفسي والسعادة في الدنيا والأجر والمثوبة في الآخرة.

* ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الأعلى:١٨]:

﴿ هَٰذَا ﴾ اسم إشارة، والمُشار إليه هنا ما سبق ذكره في السورة الكريمة من المعاني المذكورة[١].

وقال بعضُهم: إن المقصود هو ما ذكر بقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٤-١٧]، فقالوا: هذا هو المذكور في الصحف الأولى[٢].

* والأقرب أن المذكور السورةُ كلها، وأنها مما تضمنته ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى:١٩].

وهي من الدِّين العام الجامع، أي: من محكمات الشريعة وأصولها التي اتفق عليها الأنبياء؛ لأن الدين الجامع هو ما اتفق عليه الأنبياء جميعًا عليهم الصلاة والسلام.

فيشمل ذلك أصولَ الاعتقاد، وأصولَ الأوامر والنواهي العامة التي أطبق عليها الأنبياء، فهذه المعاني: من ذكر الجنة والنار، والتزكي، وأسماء الله تعالى، وعبادته

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (٢/ ٧٥٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٦٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٧٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٤١٩)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٢-٣٨٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٧٦-٣٧٩).

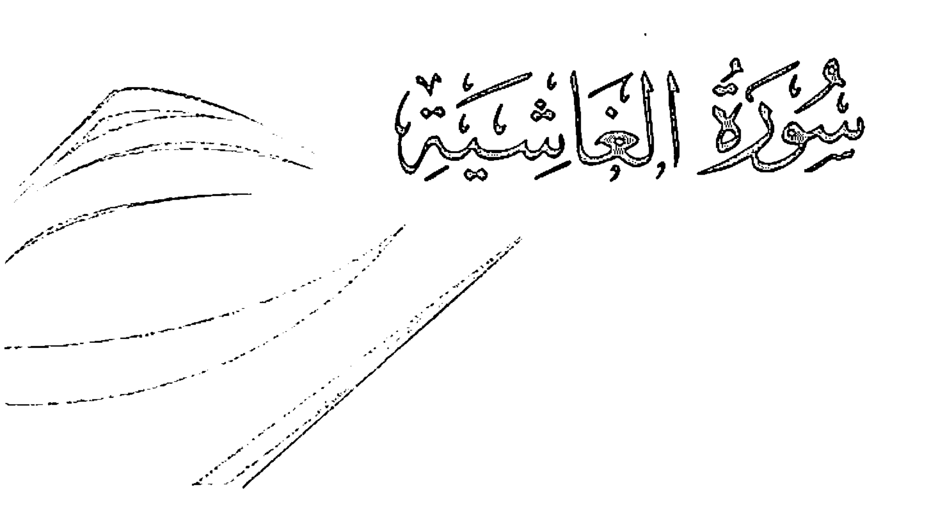
(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٧٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٢-٣٨٣).

موجودة في صحف إبراهيم وموسى.

وإنما ذكر صحفَ إبراهيم وموسى بخاصة؛ لأنهما من أولي العزم من الرسل، ولأنهما من أفضل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ولأن آثار ثبوتها باقية عند اليهود وعند العرب في مكة.

○ ○ ○

سُورَةُ الغَاشِيَةِ



سورة الغاشية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾
تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا
يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ
فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ
﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ
﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ
مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية:١-٢٦].

* تسمية السورة:

١- اسمها في المصاحف وكتب التفسير والحديث: «سورة الغاشية»[1].

٢- وسماها البخاري: «سورة ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝﴾»[2]، وورد هذا في «الموطأ»، و«صحيح مسلم»[3].

٣- وسماها بعضهم: «سورة ﴿هَلْ أَتَىٰكَ ۝﴾»[4]، وذلك على سبيل الاختصار.

* عدد آياتها: ست وعشرون آية باتفاقهم[5].

* وهي مكية، على رأي جمهور المفسرين، كابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، وابن كثير، وغيرهم[6]، ولم أجد من ذكر غير هذا.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٢٤)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٢٠)، و«سنن النسائي الكبرى»، كتاب التفسير (١٠/ ٣٣٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٢٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٩٣).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٢٣).

(٣) ينظر: «الموطأ» (١/ ١١١)، و«صحيح مسلم» (٨٧٨).

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٩٣).

(٥) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٢).

(٦) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٤)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٤)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٨٠).

* ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ [الغاشية:١]:

الأقربُ أن ﴿هَلْ﴾ بمعنى: «قد»، وأن السؤال تقرير، بمعنى: قد أتاك حديث الغاشية.

وفيه إشارة إلى أن تفاصيل يوم القيامة مما لا يمكن للإنسان معرفته إلا عن طريق الوحي، مع أن الإنسان قد يدرك بالعقل والفطرة حقيقة البعث والنشور، لينالَ فيها المحسن جزاءه، ويُقتص فيها للمظلوم من الظالم، وتتجلَّى فيها الحكمة الربانية من الخلق.

ولذلك جاءت الرسالات لتحدِّد وتوضح وتفصِّل ما تؤمن به الفِطَرُ السليمة والعقول المستقيمة، من حقائق البعث والنشور والجنة والنار، فجاء «حديث الغاشية» و«حديث القيامة» في القرآن والسنة مفصَّلًا.

والحديث يطلق على الكلام أو الخبر أو القصة، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [يوسف:١١١].

و﴿ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ صفة لموصوف لم يُذكر، وقد اختلف المفسرون في معناها على ثلاثة أقوال، أشهرها وأصحها: أنها القيامة، وقيل: هي النار؛ لأنها تغشى وجوه أصحابها، وقيل: صيحة البعث، لكن الراجح أنها القيامة؛ لأنه ذكر بعد الغاشية ما يقع فيها، وذكر أحوال أهل الجنة وأهل النار، فهي تغشى الناس جميعًا، ولا مخلص لأحد منها(١).

* ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ﴾ [الغاشية:٢]:

في السياق مناسبة بين قوله: ﴿وُجُوهٌ﴾، وبين: ﴿ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾؛ لأن الغاشية

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص ٥٣٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٢٦-٣٢٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٧)، و«الكشاف» (٤/ ٧٤١)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٧٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٩٤).

غالبًا ما يَبِينُ أثرُها على وجه الإنسان؛ لأن ما في قلب الإنسان من الخوف أو الحياء أو الارتباك يظهر أثرُه على وجهه، ولهذا ناسب أن يعبِّر بـ﴿ وُجُوهٌ ﴾، وإن كان المقصود بالوجوه أصحابها.

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يعني: يوم الغاشية، يوم القيامة، فهذه الأوصاف لهم في الآخرة.

وفي ذلك ثلاثة أقوال:

١- أن هذه أوصافهم في الآخرة، فوجوههم خاشعة ذليلة، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى: ٤٥].

* وعليه، فقوله: ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ [الغاشية:٣]، يعني: في الآخرة أيضًا، فهم في الموقف من ركضهم وذهابهم وإيابهم وقلقهم وحركتهم يعملون وينصبون ويعذبون، ويكلفون أحمالًا[1].

٢- أنها أوصاف لهم في الدنيا، وبناءً عليه قال: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾، أي: من الخشوع، وهذا يعني أنهم كانوا يعبدون الله على غير هدًى، كعبادة الرهبان، أو عبادة الخوارج الذين عندهم خشوع في ظاهر الأمر من العبادة، ولكنه على غير هدى.

وهكذا هم يعملون أعمالًا في الدنيا، لكنها لا تنفعُهم في الدار الآخرة، وهي كذلك: ﴿ نَّاصِبَةٌ ﴾ أي: من النصب، وهو التعب[2].

٣- أن تكون صفات مشتركة، بعضها في الدنيا وبعضها في الآخرة، فالخشوع

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨٢)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٤٢٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٦٥)، (٢٠/ ٢٧)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٣٧)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٨٢).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٦٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٣٧)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٨٢).

في الدنيا، والعمل والنصب في الآخرة، أو العكس[1].

والمختار الأول: أن هذه الصفات لهم في الدار الآخرة، وليست في الدنيا، وبناءً عليه، فمعنى: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ أي: ذليلة من هول ما ترى.

وقوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، أي: في الموقف بما يقع لها من الحيرة والذهاب والإياب، كما ورد في مجيئهم إلى الأنبياء وتردُّدهم عليهم[2].

وأيضًا: حينما يصيرون إلى النار؛ فإنهم ينصبون ويتعبون فيها تعبًا شديدًا، كما قال تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر:١٧].

* ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية:٤]:

أي: هذه الوجوه وأصحابها، ولا شك أن أشد ما تَصْلَى النار من الإنسان وجهه، وكونهم يتقون النار بوجوههم هو من أشد ما يكون عليهم؛ لأن الحرق لو كان في رِجل الإنسان أو في يده، لكان أهون بكثير من أن يكون في وجهه، فإنه يجد في وجهه من أثر الحر وألمه الشيء العظيم.

ولم يقل: (تكوى)، وإنما ﴿تَصْلَىٰ﴾ فكأن النار هي مسكنهم، والعرب يعبِّرون بالصَّلْيِ، إذا قالوا مثلًا: شاة مَصلِية، فإنهم يحفرون حفرة، ويضعون فيها جمرًا شديدًا، ثم يضعون فيه الشاة أو اللحم الذي يريدون شَيَّه أو إنضاجه، وهذا أشد ما يكون، والكي يكون عابرًا ويزول بخلاف الصَّلْي.

وقال: ﴿نَارًا﴾، وهذا تنكير للنار، وفيه إشارة إلى عظمتها وهولها، وأنها وإن

---

(١) ينظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٤٢٠)، و«تفسير القشيري» (٨/ ٧١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٠٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٣٧)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٨٢).

(٢) كما في حديث أبي هريرة ﷺ في الشفاعة. ينظر: «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).

كانت تشبه نار الدنيا من حيث الأصل، إلا أنها شيء آخرُ مما يعلمه الله ولا يتصوره البشر قط، وكل صورة تخطر في بالك عن نار الآخرة فالأمر أشد من ذلك، وليس في الآخرة مما في الدنيا إلا الأسماء[1].

ووصف النار بأنها: ﴿حَامِيَةً﴾ مع أن هذه الصفة لازمة، فما من نار إلا وهي حامية.

وهذا إما أن يكون إشارة إلى أنها لا تَفتُر ولا تبرد، فليست كنار الدنيا، التي تستعر ثم تخبو، وإنما تَتوقَّد وتتلهب أبدًا.

وإما أن يكون زيادة على حرها وسعيرها، فهي تتغيَّظ على هؤلاء الكافرين.

وهذا المعنى صحيح، ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك:٨] يعني: تتقطع من شدة غضبها وحَنَقِهَا[2] على الكافرين.

وقال بعضهم: إنها سبب في الحماية، بمعنى أن النار هذه تحمي الإنسان من الوقوع في المعاصي؛ لأنه إذا تذكَّر النار امتنع عن الذنوب، وهذا بعيد، فالأقرب والله أعلم المعنيان الأولان[3].

* ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية:٥]:

كأن السامع تصوَّر هذا المعذَّب وهو يُصلَى بالنار، فتذكَّر الماء الذي يطفئ النار، ويروي الظمأ؛ ليخطئ هذا الوهم؛ فشأن الآخرة ليس كشأن الدنيا، فذكر ما

---

(١) كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: أخرجه هناد في «الزهد» (٣، ٨)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٣٢)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢١٨٨).

(٢) أي: شدة الغيظ.

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨١٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٥٨)، و«تفسير العز بن عبد السلام» (١/ ١٣٣٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٩٦).

يشربون، وهي عين من الماء، لكنها: ﴿ءَانِيَةٍ﴾، أي: شديدة الحرارة، كما في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن:٤٣-٤٤]، و«الحميم» هو الماء الحار، و«الآن» هو البالغ في الحرارة منتهاه، وليست كحرارة مياه الدنيا، فهذا شرابهم إذا استسقوا، ولهذا قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩]، فمن شدة حرارته يشوي وجوهَهم قبل أن يشربوه، فكيف إذا شربوه؟! ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]، والإنسان إذا تقطعت أمعاؤه في الدنيا يموت، أما في الآخرة، فهم بين الموت والحياة؛ لأنه لو كان في الآخرة موت، لماتوا بمجرد دخول النار، ولكن أمر الآخرة لا يقاس بنواميس الحياة المعروفة.

* وبعد أن ذكر شرابهم بيَّن طعامهم، فقال: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية:٦]:

و«الضريع» على قول جمهور أهل اللغة والتفسير: نوع من نبات الصحراء سَامٌّ شوكِيٌّ، تأكله الإبل، وتسمِّيه العرب: الشِّبرِق، فإذا يبس سمِّي: ضَرِيعًا، وقد تأكله الإبل فلا ينفعها ولا يسمنها[1].

* ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية:٧]:

وفي هذا مزيد عذاب لأصحاب النار، فيعذَّبون بالجوع والعطش، ويشربون الماء الحميم، ويأكلون الضريع.

وقد ذكر القرآن الكريم تسمية طعام أهل النار بغير ذلك، فسماه: «الزقوم»، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ

---

(١) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٥٢)، و«المفردات» للراغب الأصبهاني (ص٢٩٥)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ٢٦٠١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٥٨)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٢٩٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٠٨).

كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٥﴾ [الدخان:٤٣-٤٦]، وسماه: «الغسلين»، قال تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة:٣٥-٣٧].

وللجمع بين هذه الأسماء الأخرى وبين قوله هنا: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ﴾ نقول: إما أن هذه أسماء لمسمى واحد وهي أنواع داخلة تحته، أو أنها حسب مقام الإنسان في النار، فلكل دَرْكةٍ نوع من الطعام، أو يقال: إن هذا في أحوال مختلفة، والله تعالى أعلم، والمقصود الوعيد.

* ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ [الغاشية:٨]:

أي: يوم الغاشية التي هي القيامة، وقوله: ﴿نَاعِمَةٌ﴾ من النعيم، كما قال: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين:٢٤].

* ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية:٩]:

أي: أنها رضيت سعيها في الدنيا، فلما رأوا المصير حمدوا سعيهم واجتهادهم وصبرهم، وكما قيل: «عند الصباح يحمد القوم السُّرَى»[١].

ويحتمل أن يكون المعنى: راضية لنتيجة سعيها وثوابه وجزائه في الدار الآخرة، فحصل منهم كمال الرضا، والرضا هنا معنى قلبي، فلما كان النعيم والنعومة في الوجه، كان الرضا في القلب.

* ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية:١٠]:

والعلو هنا علو حسي، بارتفاعها وعظمتها وسعتها، فإن الجنة في السماء، والنبي ﷺ قال: «**إن أهلَ الجنة ليَتَرَاءونَ أهلَ الغُرَف من فوقهم كما يَتَرَاءونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ في الأُفُق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم**». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**لا والذي نفسي بيده، بل رجالٌ آمنوا بالله**

(١) السُّرَى: سير الليل.

وصدَّقُوا المرسلينَ»[1]. وقال: «إن في الجنة مائةَ درجة أعدَّها اللهُ للمجاهدينَ في سبيله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»[2].

فتلك نار حامية، وجمرٌ وكَيٌّ، وعقوبة وصَلْي، وهذه جنة عالية، وهو سبحانه وتعالى يتحبَّب إلى عباده ويصبر عليهم ويحلُم، ولا يعاجلهم، بل يقيم عليهم الحجج، ويظهر لهم آياته، وربما عصى العبد فأمهله، وربما سلَّط عليه بعض مصائب الدنيا وأعراضها، من مرض أو فقر أو جوع أو دَيْن أو همٍّ أو غمٍّ؛ حتى يتطهر من ذنوبه قبل أن يلقى ربه.

وعلو الجنة علوٌّ معنويٌّ كذلك بارتفاع رتبتها، وكونهم في جِوار ربهم تبارك وتعالى، وما فيها من رفعة المنزلة، ورفعة الخلق والشأن.

* ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية:١١]:

وهذا من العلو المعنوي؛ أي: لا يُسمع في الجنة كلمة فيها لغو، وأصل اللغو هو الكلام الذي ليس له معنى، كما قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ [القصص:٥٥]، وقال: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور:٢٣].

فمن باب أولى أنه ليس فيها الكلام الفاحش أو البذيء أو المحزن، وإنما كلام أهلها خير وَبِرٌّ، حتى جاء أنهم: «يُلْهَمُونَ التسبيحَ والتحميدَ كما تُلْهَمُونَ النَّفَسَ»[3]. فكلامهم ذكر وبر وشكر وحمد وثناء، فقد قال تعالى: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الحج:٢٤]، يعني: من غير تكلف؛ لأن الجنة ليس فيها تكلُّف أصلًا، بل هي تجري منهم كما يجري النَّفَسُ، وهو جزء من النعيم الذي يتلذَّذون به.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد ﵁.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٣٥) من حديث جابر بن عبد الله ﵄.

* ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية:١٢]:

بدأ السياق يتحدَّث عن مجالسهم ومطاعمهم ومشاربهم.

و﴿عَيْنٌ﴾ هنا: اسم جنس بمعنى: عيون[١].

وعيون الجنة تجري على أرضها، وعلى ظاهرها، من غير أن يكون لها أخاديد تمشي فيها أو سَوَاقٍ، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد:١٥]، فهذه الأشياء تجري على الأرض، ويجريها الإنسان كيف شاء، ومن غير حاجة إلى أن يكون للنهر دفتان؛ لأن هذه قوانين المادة في الدنيا، في حين أن الجنة شيء آخر، فهذه العين جارية مُطَّرِدة ساعية.

* ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية:١٣]:

السرير معروف، ووصفه بأنه مرفوع، ومَن تعوَّد على سرير في الدنيا، توقع أن السرر المرفوعة بحجم ما يعرف من القياسات، لكن الشيء الذي في الآخرة لا تستطيع أن تتخيله، فرفعته ربما أرفع من قدر الأرض، وأرفع من قدر السماء، وأرفع مما يعلم الناس؛ ولهذا يكفي أن الله تعالى وصفها بأنها ﴿سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾.

وفي الآية إشارة إلى رِفعتها المعنوية؛ لأنها أُعدَّت للأطهار الأبرار الذي نقَّوا فروجهم عما لا يحِل، وطهروها احتسابًا لذلك اليوم.

ومن معاني ذلك: أن مَن على السُّرُر هن النساء الطاهرات المطهَّرات المكتملات في الهيئة والشكل والظاهر والباطن والخَلْق والخُلُق.

---

(١) ينظر: «تفسير القشيري» (٨/ ٧٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٥٨)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢١).

* ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ [الغاشية:١٤]:

يقول علماء اللغة والتفسير: إن الكوب هو الإناء أو الكوز الذي ليس له مِقْبَضٌ أو عُرى، ولا يكون له أيضًا مَصبٌّ يصب منه الماء[١].

وذكر الرافعي أن لفظ «الكوب» استُعمل في القرآن مجموعًا، ولم يأت به مفردًا؛ لأنه لا يتهيّأ فيه ما يجعله في النطق من الظهور والرقة والانكشاف وحسن التناسب كلفظ «أكواب» الذي هو الجمع[٢].

ووصفها بأنها موضوعة في مقابل ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾، أي: قريبة منهم وفي متناولهم.

ومن معانيها: أنها مقدَّرة، مصنوعة بمقدار يناسب كل حال، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان:١٥-١٦]، فهي مقدَّرة ومناسبة، وفيها من أسباب النعيم والسرور والبهجة، والترف ما لا يخطر على بال.

* ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ [الغاشية:١٥]:

«النمارق»: جمع نُمْرُقَة -بضم النون والراء، وفتحهما، وكسرهما- وهي الوسائد، فهي مصفوفة بعضها إلى جنب بعض، لقعودهم ومُتَّكَئِهم.

* ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية:١٦]:

«الزَّرابي»: جمع: زِرْبِي أو زُرْبِي، وهي البُسط، ويقول بعض المحققين: إن أصل كلمة زرابي مأخوذة من «أذربي»، يعني: أذربيجان اختصارًا، ومؤنثها: (أذربية)، فصاروا يقولون: زَرْبِيَّة؛ فقد قيل: إن الذال ليست في لغة الفرس[٣]، لكن الله تعالى

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٤١)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ١١٦)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ١٩٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦)، و«الدر المنثور» (١٣/ ٢٢٩)، و«روح المعاني» (٢٥/ ٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٥/ ٢٥٥).

(٢) ينظر: «إعجاز القرآن» للرافعي (ص١٦٠).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٠٣).

عندما يقول عن الجنة أن فيها هذا اللون، فإن هذا فقط من باب تقريب المعنى لعقل السامع بذكر ما يعرف الناس نعومته وجمال شكله.

* ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية:١٧]:

وخلق الإبل مدعاة للتعجب والاعتبار في خِلقته وقوته، وصبره واحتماله للجوع والعطش، وقدرته على حمل الأثقال، وسهولة انقياده؛ ولذلك اختار الله الإبل هنا، مع أنه توجد في الحيوانات ما هو أقوى منه أو أشد منه، كالفيل أو الأسد أو التمساح أو النمر، لكن الله تعالى ذكر الإبل، لعَجبِ خلقها أولًا، ولأُنسيَتِها، وكونها قريبة من الإنسان، مألوفة لناظريْهِ يخالطها ويستخدمها.

وهذا لا يمنع ولا يعارض أن يكتشف العلماء من دقائق المعاني في خلق الإبل ما لم يكن يعرفه الناس.

* ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ [الغاشية:١٨]: أي: إلى هذه القبة الزرقاء.

* ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ [الغاشية:١٩]:

فيرى الإنسان هذه الجبال وما فيها من القوة والرسوخ، إضافة إلى ما فيها من حفظ الأرض؛ فإن الله تعالى جعل الجبال أوتادًا تحفظ الأرض ويستقر بها توازنها.

* ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية:٢٠]:

وفي الآية إشارة إلى أن الأرض هُيِّئَتْ لاستخدامات الخَلْق، من مشي ونوم وعمران وعمل وزراعة، ولا ينفي ذلك كروية الأرض، كما ظن بعض مَن أخطأ الفهم، ونسبوه إلى القرآن، فكرويتها قطعية عند علماء الإسلام وعند علماء الفلك، حتى قبل أن يشاهدها العلم وهي كرة تدور في الفضاء العظيم.

* ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]:

أي: لست بمتغلِّب أو متسلِّط، وهذا معنى عظيم؛ فإن الله سبحانه يقول لمحمد

ﷺ: ذكِّر هؤلاء بالقرآن ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق:٤٥].

و﴿ إِنَّمَآ ﴾ للحصر، فحصر عمله ورسالته في التذكير، فأنت مذكِّر فحسب، فلست ذا سلطانٍ فتَقْهَرَهم، ولا حاكمًا متغلِّبًا فتأخذَهم بالقوة، وإنما أنت نبي مبلِّغ، وهذا معنى عظيم فيه التأكيد على أن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ليست قهرًا وإلزامًا، وإنما أصلها قائم على الحرية في اختيار الناس، ويشبه هذا المعنى ما جاء في سورة الكهف: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾.

فأصل المخاطبة بالإيمان لا يقوم على أساس القهر والإلزام، وإنما يقوم على أساس التذكير والإقناع: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف:٢٩].

وقد غفل كثيرون عن هذا المعنى، فتجد الأَبَ يربِّي أولاده على الخوف منه أكثر مما يربيهم على الخوف من الله، وتجد بعض الدعاة يربُّون الناس على الخوف من المجتمع وعين الرقيب، ويعوِّلون في إصلاحهم وتربيتهم على السلطة التي تقهر الناس على الخير وتمنعهم من الشر، ويغفلون عن مخاطبة قلوب الناس بالخير والتذكير والتخويف بالقرآن حتى يحيا وازع الخوف من الله ومراقبته في قلب العبد، واليوم بعد أن غلبت العولمة وتقدمت وسائل الاتصال ضعفت السلطة وصار من المهم التربية على الرقابة الذاتية التي تعني مخافة الله وتعظيم حرماته.

ولا يعني هذا إلغاء جانب المسؤولية للأب أو الزوج أو المعلِّم أو الحاكم، وإنما المقصود أن يكون الاعتماد على الإيمان الذي في القلوب، وهنا تأتي مسؤولية الرقابة والحذر التي تؤدِّي دورًا وقائيًّا، وإلَّا فمَن لم يكن عنده إيمان لو منعته من الشر فلن يفعل الخير، وبمقدوره أن يصل إلى ما يريد دون علمك وإذنك، حيث يظن بعضهم أن الرسل بعثوا للجهاد، فصار الجهاد في نفسه غاية ومقصدًا لا بد من إقامته وتحقيقه مهما كانت الظروف! وهذا خطأ، والجهاد وسيلة وليس غاية،

والرسل بُعِثوا للهداية، وأكثرهم لم يبعث بقتال أصلًا، والقتال إنما يُشرع في ظروف خاصة، لا لأجل التوسع ولا جِباية الأموال، وإنما لإزالة الظلم ونصرة الحق ومقاومة الباغين والمعتدين وحماية الحق وشريعة الله.

* ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ [الغاشية:٢٣]:

استثناء منقطع، أي: بمعنى «لكن»، أي: لكن مَن تولى وكفر فشأنه إلى الله تعالى؛ حيث الوعيد: ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ [الغاشية:٢٤].

وقال بعضُهم: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾: هذا استثناء، والمقصود أن الله يسلِّطك عليهم بأن تعذِّبهم بالجهاد، كما في قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [التوبة:١٤].

وهذا معنى ضعيف؛ لأن المستثنى هو المستثنى منه، والله سبحانه وتعالى لما قال: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾، يعني: لست على الكفار بمسيطر، فكيف يستثني ويقول: إلا الكفار. وهذا لا يستقيم في الكلام الفصيح، وإنما المقصود من السياق معنى جديد مستأنف.

* ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ [الغاشية:٢٤]:

يعني: أمره إلى الله، ليس إليك، وإنما أنت مذكِّر، فالداعية يجب أن يستحضر معنى كونه مذكِّرًا، وليس بمتسلِّط على الناس ولا متفوق عليهم، ولا يقهرهم ولا يأخذهم، وإنما يدعوهم إلى الله تعالى، فمَن تولَّى وكفر ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾.

وسمَّى عذابه في الآخرة: ﴿ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾، كما ذكر في أول السورة: ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾؛ وذلك لأنهم عُذِّبوا عذابًا أدنى في الدنيا، فيحصل لهم ألوان من العذاب: من المصائب والأمراض والشرور والفتن وغيرها مما يقع عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة:٢١].

* ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ [الغاشية:٢٥]:

فلا تعجل عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧]، فأمر الدنيا يسير ومهما طال فهو قصير، وإلى الله تعالى إيابهم ورجوعهم.

* ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية:٢٦]:

أي: فيحاسبهم الله تعالى بما عملوا، والمعنى: ليس عليك من حسابهم من شيء، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٥٢].

وهذه دعوة إلى المؤمنين أن يكفُّوا عن محاسبة الناس والحكم عليهم بالكفر والنار، وترك ذلك لأهله، والاشتغال بإصلاح النفس والقلب والعقل، والسعي في إصلاح الآخرين وهدايتهم، والإحسان إلى العباد، وكف الشر عنهم، أما حسابهم والحكم على نواياهم وعلى مصيرهم، فإلى الحَكَم العدل الذي لا يُظلَم عنده أحد، ولا يُشْرِك في حكمه أحدًا!

○ ○ ○

سُورَةُ الفَجْرِ



سورة الفجر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلۡفَجۡرِ (١) وَلَيَالٍ عَشۡرٖ (٢) وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ (٣) وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ (٤) هَلۡ فِي ذَٰلِكَ
قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ (٥) أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ (٧) ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا
فِي ٱلۡبِلَٰدِ (٨) وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ (٩) وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ (١٠) ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ
فِي ٱلۡبِلَٰدِ (١١) فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ
لَبِٱلۡمِرۡصَادِ (١٤) فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ (١٥)
وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ (١٦) كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ (١٧)
وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ (١٨) وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا (١٩)
وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا (٢٠) كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا (٢١) وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ
صَفّٗا صَفّٗا (٢٢) وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ (٢٣)
يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ (٢٦)
يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ (٢٨) فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي (٢٩) وَٱدۡخُلِي
جَنَّتِي (٣٠) ﴾ [الفجر: ١-٣٠].

* تسمية السورة:

اسمها في المصاحف وكتب التفسير والحديث: «سورة الفجر»[1].

* عدد آياتها مختلف فيه، بحسب المكي والمدني والبصري والشامي، فقيل هي: (٣٢) آية، وقيل: (٣٠)، وقيل: (٢٩)[2].

* وهي مكية، وأكثر المفسرين على ذلك ولم يذكروا غيره، ولكن نُقل عن علي ابن أبي طلحة أنها نزلت بالمدينة، وكذلك نقل ابن عطية عن أبي عمرو الدَّاني أنها مدنية، والقول الأول هو الصحيح[3].

وهذه السورة لا يُعرف لها سبب نزول، والذي يظهر أنها نزلت في وقت شدة على النبي ﷺ، وكان فيه محتاجًا إلى أن يُذَكَّر بمعنيين:

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٢٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٢٢)، و«جامع الترمذي»، كتاب التفسير (٥/ ٣٩٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٤٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣١١).

(٢) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٣)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣١١).

(٣) ينظر: «فضائل القرآن» لأبي عبيد (٦٦٢)، و«البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٣)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٧٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٧)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٨٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣١١).

١- نعمة الله تعالى عليه بالنبوة وخلافة الأنبياء، وأن وعد الله تعالى له بالنصر والتمكين آت لا محالة.

٢- عقاب الله تعالى للمعاندين والمكذِّبين والظالمين، وأنه مهما أبطأ فسوف يأتي، فالنصر لك ولدينك وأهل ملتك، والعقوبة على الظالمين المكذِّبين: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم:١٣-١٤].

* ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ [الفجر:١]:

هذا قَسَم، والمفسرون وأهل اللغة والقُرَّاء يقولون: إن المقصود من القسم هو توكيد حقيقة عظيمة، فإذا كان المقسم به هو الله تعالى كان الأمر أكثر توكيدًا وإلحاحًا.

وهذه الأشياء المقسم بها على أي وجه فُهمت فهي من آيات الله، ولذلك ذكر الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ أن المقسم عليه هو المقسم به[1].

وهذا كلام بديع، لم أجده لغيره، يعني: أننا لا نحتاج إلى أن نبحث: على ماذا أقسم الله تعالى؟ بل يكفي أن نقول: إن الله أقسم بهذه الأشياء؛ لتوجيه النظر إليها، والإشارة إلى بديع صنعه فيها، وإلى عظيم نعمته على عباده.

وثَمَّ قدر مختلف فيه، وهو المتعلِّق بتحديد ماهية المقسم به، وحين تستعرض الأقوال تجد كثيرًا منها صحيحة المعنى ووجيهة، فالأمر فيها واسع؛ لأنه لا يتعلق بها حكم عملي، وإنما هي ألوان من اللطائف والمعاني والأسرار التي يتميز الناس بها بحسب قوة فهمهم، ودقة إدراكهم.

﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ أقسم بالفجر، وهو: الفجر الصادق، أي: حينما يبزُغ النهار وتزول

(١) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٩٢٣).

ظُلْمة الليل، وهو وقت صلاة الفجر على ما هو متفق عليه عند العلماء[1].

وأقسم في موضع آخر بالصبح، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير:١٨]، وهو هنا أشار إلى الفجر؛ لانفجار النهار، كما تقول: انفجر الماء. والمقصود: وقت الصبح؛ إشارة إلى ما يكون في وقت الفجر من الفضيلة، فهو وقت زوال النوم، وخروج الناس من الموتة الصغرى إلى حالة اليقظة والانطلاق في طلب المعاش والعبادة ومصالح الحياة.

والله تعالى يُقسم بالشيء وبنقيضه، وفي هذا إشارة إلى أن كلًّا منهما نعمة؛ فالنوم بقَدْر نعمة، واليقظة بقَدْر نعمة، وإذا زاد أحدهما عن القَدْر المطلوب يصبح حالة تحتاج علاجًا واستشفاءً.

فأقسم بـ«الفجر»، ثم أقسم بضده، وفي هذا بيان الحكمة والرحمة في خلق الأضداد؛ فإنه سبحانه خلق الليل والنهار، والنوم واليقظة، والذكر والأنثى، وجعل الزوجية في مخلوقاته.

وعرَّف «الفجر» بـ(ال)؛ لأن المقصود الفجر المعروف، والوقت الفاضل، الذي جعله تعالى ظرفًا لإحدى الصلوات الخمس، كما قال الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودًا ﴾ [الإسراء:٧٨]، ولذلك كان النبي ﷺ يطيل صلاة الفجر[2].

وفيه إلماحة -والله أعلم- وتنبيه للنبي ﷺ إلى منة الله عليه بمناجاته ربه، وقربه منه، وخاصة في الأوقات الفاضلة، كوقت السَّحر الذي هو وقت النزول الإلهي، وأنسام الرحمة، فيصلِّي، ويتلو كتاب الله في هذا الوقت المشهود.

(١) ينظر: «الأوسط» لابن المنذر (٢/ ٤٣٧).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٤١)، و«صحيح مسلم» (٤٦١).

* ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ [الفجر:٢]:

انتقل من التعريف إلى التنكير، فلم يقل: (والليالي العشر)، والتنكير قد يكون للتعظيم.

وأقوى ما قيل فيها: إنها ليالي عشر ذي الحِجَّة، وقد نُقل هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة وغيرهما، وذهب إليه أكثر المفسرين[١].

وقيل: هي العشر الأواخر من رمضان؛ لأن فيها ليلة القدر[٢].

وقيل: العشر الأُوَل من رمضان[٣]، والقول الأول أرجح.

وعشر ذي الحجة قد ورد فيها فضل عظيم، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «ما من أيام العملُ الصالحُ فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيام». يعني: أيام العشر. قالوا: يا رسولَ الله، ولا الجهادُ في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهادُ في سبيل الله، إِلَّا رجلٌ خرج بنفسه وماله، فلم يرجع من ذلك بشيء»[٤].

وقد شرع الله فيها التسبيح والتهليل والتكبير والحج والهدي والأضحية والأعمال الصالحة، وهذه المناسك مأثورة عن الأنبياء، وعن إبراهيم عليه السلام.

وهذا فيه توجيه للنبي ﷺ إلى حفظ الله تعالى له ورعايته، وإلى وراثته لما كان عليه الأنبياء من قبل، وأن دين الله تعالى منصور، فكما نصر الله تعالى دين الأنبياء على

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٦٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٩٦، ٣٩٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٩٩-٤٠٠).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣٩)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٤٨٦)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٤٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٠٢)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢٣).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤١٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩١)، و«روح المعاني» (٣٠/ ١٢٠).

(٤) أخرجه أحمد (١٩٦٨)، والبخاري (٩٦٩)، وأبو داود (٢٤٣٨).

الوثنية والشرك، فكذلك سوف ينصر دينَك، ويقيِّض له مَن يقوم به.

وفيه: تطييب لخاطر النبي ﷺ أن الله شرع له في أماكن إقامة العبادة والنسك والذكر والقرآن وأزمنتها ما يَقْوَى به قلبُه.

ولعل من معاني التنكير في قوله سبحانه: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: الإشارة إلى تحريف الجاهلية للشهور، وتبديلهم لها؛ فيما عرف بـ ﴿ٱلنَّسِىٓءُ﴾، وهو أنهم كانوا إذا احتاجوا إلى انتهاك حرمة شهر من الأشهر الحرم جعلوا مكانه غيره، فترتب على ذلك أن اختلطت الشهور، ولم يكن وقت الحج في الجاهلية هو وقته في الشرع.

حتى كان العام الذي حج فيه النبي ﷺ حجة الوداع، فصادف أن استدار الزمان، وانطبق التاريخ على ما هو على الحقيقة، فكان العام الذي حج فيه النبي ﷺ حجة الوداع هو العام الذي تطابقت فيه أزمنة الحج ومناسكه، مع ما يعلم الله تعالى أنه هو الحق من يوم خلق السماوات والأرض.

وأما قبل ذلك فكان الناس يَحُجُّون ويقفون ويَبِيتُون في غير الوقت المحدَّد؛ بسبب اضطراب التاريخ عندهم الناتج عن النَّسِيء الذي كان يعمله أهل الجاهلية.

وقد كانت الليالي العشر زمن الجاهلية غير محدَّدة، وهكذا في أول الإسلام قبل الهجرة، حتى وقت نزول هذه السورة.

وكانت الليالي العشر لا ينطبق الواقع عليها، فلذا نكَّرَها إشارة إلى أنه سيأتي تعريفها من الله تعالى بالفعل، وذلك عندما حج النبي ﷺ، ولهذا قال في حجَّة الوداع: «**إن الزمانَ قد استدارَ كهيئته يوم خَلَقَ اللهُ السماوات والأرض...**»[1].

* ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر:٣]:

«الشفع» ضد «الوتر»، و«الوتر» هو: المفرد، و«الشفع» هو المثنى أو الزوج،

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦٢)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة ﷺ.

وأصلها الأعداد[1]، يعني: أن «الشفع» اثنان و«الوتر» واحد. وقد جاء في الشفع والوتر أكثر من عشرين قولًا، ذكرها الرازي وابن الجوزي والقرطبي وغيرهم[2]، فمنهم مَن قال: إن الشفع هو المخلوق، والوتر هو الله الخالق، كما في الحديث: «إن الله وِترٌ يحبُّ الوترَ»[3]. والأقرب أن الشفع والوتر هو كل شفع ووتر متعلق بالسياق.

وما دام الحديث عن العبادات وعن المناسك وعن الليالي العشر من ذي الحجة؛ فإن من معاني الشفع: يوم النحر؛ لأنه هو اليوم العاشر، والوتر: يوم عرفة؛ لأنه هو اليوم التاسع، وهذا معنًى صحيح.

ومن معاني الشفع: اليومان اللذان يأتيان بعد العيد؛ لأنه مَن تعجَّل بعد يوم العيد في يومين فلا إثم عليه، فهذا هو الشفع، ومَن تأخر إلى اليوم الثالث فأصبح وترًا فلا إثم عليه لمَن اتقى، وهكذا كل ما يصلح أن يكون شفعًا أو وترًا مما له تعلُّق بالمناسك وأيام العيد.

﴿وَٱلْوَتْرِ﴾ فهو بفتح الواو وكسرها: «الوَتر» و«الوِتر»، وكلاهما قراءتان سبعيتان، ولغتان فصيحتان صحيحتان، كما ذكر الطبري، فـ«الوَتر» بفتح الواو قراءة الأكثرين، ولغة كثير من قبائل العرب، وبالكسر لغة بني تَمِيم، وهي قراءة ثابتة متواترة أيضًا، والمعنى واحد[4].

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٠٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٩٧-٤٠٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٤٧، ١٤٨)، و«زاد المسير» (٩/ ١٠٢-١٠٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣٨-٤٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٠٣-٤٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٥٦)، و«السبعة في القراءات» (ص ٦٨٣)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص ٣٦٩)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٧٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٣٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣١٥).

❁ ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ [الفجر:٤]:

و﴿ يَسۡرِ ﴾ أصلها: «يسري»، حذفت الياء للتخفيف ولرعاية فواصل السورة، وبعضهم أثبتها فقرأ: (والليل إذا يسري)[١].

والسُّرى أصله في الليل، وجمهور المفسرين يقولون: إن (يسري) هنا فعل الليل نفسه، أي: إذا يُقبل؛ لأن الإنسان إذا مشى أول الليل يقال عنه: سَرَى، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ [التكوير:١٧] على أحد التفسيرين[٢].

وقد أقسم الله بالليل بوجوه مختلفة، فمرة أقسم بالليل فقط، ومرة أقسم بـ «الليل إذا يغشى»، ومرة بـ «الليل إذ أدبر»، يعني آخر الليل، وهنا أقسم بـ«الليل إذا يسر»، وفي إقسام الله تعالى بالليل على صور عديدة إشارة إلى تنوع أحواله، فأول الليل عبرة وأوسطه عبرة وآخره عبرة، ولكل وقت من الليل ميزة ليست لغيره.

وقد أقسم بـ «الفجر» وبـ «الليل إذا يسر»، ولا مانع هنا أن يكون من معاني الليل إذا يسر ليلة خاصة، مثل ليلة مزدلفة[٣]؛ لتعلق الأمر بالمناسك.

❁ ﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴾ [الفجر:٥]:

هذا تقرير، و﴿ هَلۡ ﴾ بمعنى: «قد»، ففي هذا القَسَم قَسَم (لذي حِجْر)، يعني: لذي عقل؛ لأن الحِجْرَ هو الذي يحجُرُ على صاحبه ويمنعه، أو يعقله، وكما يقال: إن فيه لآيات لأولي النهى؛ لأنه ينهى صاحبه عما لا يجوز وما لا يليق.

وهذا ليس تحديدًا لمهمة العقل أنه يحجر ويمنع فحسب، بل لعله إشارة إلى أن

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢٠٦)، و«حجة القراءات» (ص ٧٦١).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٠١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤١٧)، و«زاد المسير» (٩/ ١٠٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤٢)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٤١).

العقل مسلَّط على كل شيء، إلا ما استثني وحُجر مما لا جدوى منه، أو ما دل العقل على أنه فعل فاسد، وأن هذا الحمى الممنوع ما لم يجتنب يكون سببًا في ضياع العقل وذهاب منفعته، وإلا فالعقل يكتشف ويرتاد ويبدع ويخترع وينجز، ودوره ليس مقصورًا على المنع والحجر والنهي.

والخطاب هو لذوي العقول، وهذا تأكيد على أن الإسلام دين يخاطب العقل البشري، ويحترمه ويبني مهمة التكليف على وجوده.

والعقول السليمة والفطر المستقيمة تدلَّان على كثير مما جاءت به الشريعة.

فمعنى الآية: في ذلك قَسَم لذي عقل يتأمل ويعقل، ويلاحظ ويفهم خطاب الله تعالى.

* ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر:٦]:

هذا خطاب للرسول ﷺ، وهو وإن كان حديثًا عن العقوبات، إلا أنه موجَّه للنبي ﷺ، وهو لم ير هذا الفعل، ولذلك نقول: إن الرؤية هنا علمية، والمراد: «ألم تعلم» عبَّر بالرؤية عن العلم؛ لأنه من الأمور اليقينية القطعية المعلومة بالضرورة، فكان العلم بها كرؤيتها.

كما نلحظ أن القَصص الثلاث التي ذكرها عن عاد وثمود وفرعون لها آثار مادية محسوسة، ويمكن رؤية آثار العذاب الذي حاق بهم.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أضاف لفظ الربوبية إلى ضمير المخاطب، وهو النبي ﷺ، إشعارًا بحمايته لك وخذلانه لأعدائك.

و«عاد» اسم شخص، ثم تحول إلى اسم قبيلة، كما نقول: تميم أو بنو تميم، وعاد كانوا في جنوب جزيرة العرب، في حضرموت، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١]، والأحقاف هي: جبال من

رمل أو تراب، الواحد منها: «حِقْفٌ»، فهي مناطق رملية[١].

* ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ [الفجر:٧]:

الأقرب أن ﴿ إِرَمَ ﴾ هو: اسم جَدِّ عاد، فهو اسم قبيلة من عاد نفسها، وهو هنا بدل، وهو المقصود بعاد الأولى المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [النجم:٥٠]، التي جاءها الهلاك، وثَمَّ قبيلة أخرى من عاد، لكنها كانت موجودة في وسط الجزيرة العربية ممن لم يصبهم الهلاك، وهم من عاد، لكنهم ليسوا من عاد الأولى ولا من إرم.

وقال بعضهم: إن ﴿ إِرَمَ ﴾: اسم مدينة، وهذا قول مشهور[٢].

وقوله تعالى: ﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ أي: أنها مدينة لها أعمدة، وقد يكون المقصود: الأبنية التي يُجعل لها أعمدة، وعليه، فهي مدينة مطمورة بالرمل، ويحاول الكثير من المنقبين البحث عن آثار لتلك المدينة التاريخية، ويُنشر أحيانًا صور يزعم بعضهم أنها التقطت لها من تحت الأنقاض.

أو يكون المقصود أنها ذات القوة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ [الأعراف:٦٩]، فكانوا أقوياء وأشداء في طولهم، وفي بعض كتب التفسير مبالغة في ذكر أطوالهم بما لا يدل عليه دليل، وهذا مما ينبغي رده، ولكن لا شك أنهم كانوا أقوياء، قد استكبروا في الأرض، وبلغ بهم الاستكبار أن قالوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥].

وقد يراد بذلك القوة، سواءً قوة البدن أو قوة البناء:

---

(١) ينظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٢/ ١٨٨)، و«غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٥٥١)، و«مختار الصحاح» (ص ١٦٧).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤٦، ٤٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٦١)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ١٥٤)، (٨/ ٣٩٥).

* ﴿ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [الفجر:٨]:

وفي قراءة: (لم نخلق مثلَها)[١]، وهذا يحتمل الرجوع إلى عاد بخلقهم وشدتهم، أو إلى بنائهم وأعمدتهم[٢].

وقد أرسل الله إلى عاد هودًا عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف:٦٥]، وهود أخوهم في النسب، وسماه الله تعالى أخًا لهم؛ لأنه من القبيلة نفسها.

* ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ [الفجر:٩]:

أما «ثمود» فقد أُرسل إليهم أخوهم صالح عليه السلام، وقد كانوا يسكنون في شمال جزيرة العرب، فيما يسمى بـ «مدائن صالح»، أو: «وادي القُرى»، أو: «الحِجْر»، وهي منطقة فيها زرع وجبال؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾.

ومعنى: ﴿ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ ﴾ أي: قطعوا الصخر، وهذا هو المعنى الصحيح، كما يقال: جاب الشيء، يعني: قطعه، وسمي الجيب كذلك؛ لأنه مشقوق، وهكذا الجوبة، كما في حديث أنس رضي الله عنه: «صارت المدينة مثل الجوبة»[٣]. حين وصف السحاب.

وقوله: ﴿ بِٱلْوَادِ ﴾: «الواد» هو: وادي القُرى، والوادي في الأصل هو: المنحدر بين الجبلين، ثم أصبح يطلق على منطقة ثمود ووادي القرى، ولا يزال إلى اليوم يسمى بهذا.

والمعنى: نحتوا من الصخر بيوتًا، كما قال تعالى: ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٤٠)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٣٨)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٤٢٠-٤٢١).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٩٣٣)، ومسلم (٨٩٧).

بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴾ [الشعراء:١٤٩]، وكان العرب يعرفون قصتهم، وتكذيبهم لنبيهم، وعقرهم للناقة وما نزل عليهم من العذاب، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر:٧٦]، فهم كانوا بطريق العرب في أسفارهم، وقد كانوا يرون هذه الآثار عند مرورهم عليها.

والنبي ﷺ رأى هذه الآثار هو وأصحابه حين مروا بمدائن الحِجْر، وقد غطَّى النبي ﷺ وجهه وأسرع المشي، وقال لأصحابه: «**لا تدخلوا مساكنَ الذين ظلموا أنفسهم، إِلَّا أن تكونوا باكينَ؛ أن يصيبكم ما أصابَهُم**»(١).

كما أمر النبي ﷺ بالماء الذي استقوه من البئر أن يصب، وأمر بالعجين أن يعلف للدواب(٢)، وتجاوز هذه المنطقة.

والظاهر -والله أعلم- أنه يكره، بل أطلق بعضهم التحريم- أن يذهب الإنسان إلى مثل هذه الأماكن، إلا أن يكون معتبرًا؛ لقوله ﷺ: «**إِلَّا أن تكونوا باكينَ**». يعني: معتبرين.

* ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ [الفجر:١٠-١١]:

«فرعون» هو الذي بُعث إليه موسى وهارون عليهما السلام، وهو حاكم مصر، وقد ذكر الله قصته كثيرًا في القرآن، وجاءت هاهنا مختصرة.

وقد اختلف المفسرون في ﴿ ٱلْأَوْتَادِ ﴾: فقيل: هي الأوتاد التي كان فرعون يعذب بها مَن لا يستجيبون لسلطته وطغيانه، وقد عذَّب امرأته نفسها، كما جاء في بعض الروايات: «أن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٠)، ومسلم (٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٣٧٩).

(٣) ينظر: «جامع معمر» (٢٠٤٤٥)، و«مصنف عبد الرزاق» (٣٦٠٤)، و«مسند أبي يعلى» (٦٤٣١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٧٢)، و«شعب الإيمان» (١٥٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٦).

وقيل: هي الجيوش والجنود التي كانت تحمي قوته ودولته وسلطانه[1].

وقيل: هي أعمدة كان فرعون يضعها من أجل اللعب في المناسبات والأعياد أيام الحفل وغيره[2].

ولعل المقصود بالأوتاد هنا: الأهرامات الموجودة إلى اليوم في مصر، والتي بناها الفراعنة، وورثها فرعون صاحب موسى عمن قبله[3]، وقد يكون أقام شيئًا منها، وهذا المعنى قريب؛ لعدة اعتبارات:

١- لأن الله تعالى سمى الجبال في القرآن: ﴿أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٧]، فليس غريبًا أن تسمى كذلك، والأهرامات تشبه الجبال.

٢- لضخامتها وشدة بنائها وقوتها.

٣- لبقائها عبرة يراها الناس، فهي من أولى ما يطلق عليه ﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾.

ولقد ذكر الله تعالى ثلاث قصص لثلاث أمم كلها لها آثار مشهودة:

فهناك «عاد» وما بنوه من المدن والأبنية الهائلة، التي هي من مقتضى قوتهم وشدتهم؛ فقد ذكر الله تعالى عن عاد في القرآن هذا المعنى في قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء:١٢٨] وهذا دليل على شدتهم في البناء.

أما «ثمود»؛ فقد كانوا ينحتون الصخور، ويبنون منها بيوتًا ما زالت موجودة إلى اليوم.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٠٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩٧)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٠٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦٩)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٥٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤١٤).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٧١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦٩)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤١٤).

وأما «الفراعنة» فمن أعظم آثارهم الأهرامات.

وهنا نلاحظ أن الله تعالى ضرب الأمثلة بثلاث حضارات لثلاث أمم كان لها قوة في البناء، وقوة في السلطان، وقوة في الجيش، وقوة في الاقتصاد، ثم انظر: كيف فعل ربك بهم؟!

لم يكن توبيخه وعتابه سبحانه لهم لأنهم بنوا، فالبناء بذاته ليس هو المذموم، ولا لأنهم جابوا الصخر، ولا لأنهم وضعوا الأوتاد، فهذا الفعل بمجرده ليس هو المذموم، وإنما طغيانهم وغرورهم.

ويُشعر بهذا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾، فليست المشكلة في امتلاك القوة والجيوش والاقتصاد، وامتلاك العلم والحضارة، فهذا بحد ذاته عنصر إيجابي، بل المذموم الطغيان والاستخفاف بالناس.

والطغيان حالة نفسية يكبر معها الإنسان في عين نفسه، ويرى ذاته، ويزدري غيره، ويكفُر بربه، ويغتر بقوته.

* ﴿ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴾ [الفجر:١٢]:

وفي ذلك إشارة إلى أن الطغيان سبب في كثرة الفساد.

وهذا الفساد، منه: الفساد الأخلاقي، بالفجور والخمر والفواحش والموبقات.

ومنه: الظلم الذي يقع على العباد، وهو أشد من الأول؛ لأن الأول الجناية فيه على صاحبه في الغالب، أما الفساد الأعظم الذي يكون به هلاك الدول والأمم فهو الظلم وانتهاك الحقوق وبَخْس الناس واستعبادهم؛ ولهذا جعل الله تعالى العقاب مقرونًا بالظلم، كما قال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢]، والقرى هي: البلاد، والنبي ﷺ يقول: «**إن الله**

لَيُمْلي للظَّالِم، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ»[1].

ومنه: الاختلاف؛ فإذا اختلفت وتنازعت صارت أهواءً شتَّى وضعفت قوتها، وأسرع إليها الانهزام.

* ﴿ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر:١٣]:

«الصبُّ» يستخدم غالبًا للماء والسوائل، وهذا مقصود هنا، وهو إشارة إلى شدة المباغتة والسرعة، فلا ينجو منه أحد، وهو مع سرعته سيَّال يتخلل كل مكان، ولا يُكِنُّ منه شيء مهما كان ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود:٤٣].

وهذا ملاحظ في عقوباته عليهم، فقوم عاد كانت عقوبتهم الريح، وثمود الصيحة، وفرعون الغرق، وهذه كانت أشياء مفاجئة، أتتهم بغتة فأهلكتهم.

وربك الذي تعبده، وتدعو إليه، هو الذي عذَّبهم، فهو إذن حاميك وناصرك.

و﴿ سَوۡطَ ﴾ نكرة؛ لأنه قليل مما عند الله، ومع ذلك فهو بالنسبة لهم ساحق ماحق.

ولذلك قال الحسن البصري: «كم عند الله من سِياط العذاب، وإنما صب الله عليهم منها سوطًا واحدًا»[2].

* ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾ [الفجر:١٤]:

و«المرصاد» من الرصْد، فإذا كان الناس في ساحة يلعبون ويركُضون، ولها طريق واحد للخروج؛ وعلى هذا الطريق حراس وجنود ينتظرونهم، فهم الرصد، وهذا هو المرصاد.

والآية تفيد أن الله سبحانه وتعالى بالمرصاد لكل طاغية وظالم، فدعهم يعبثوا ويتمتعوا، فسواء طال الزمن بهم أم قصر، فلن يفلتوا من عقابه.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ١٥٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٠).

وكثيرون يستغرقون في اللحظة الحاضرة من مشاهدة العدوان والقوة، ويظنون أن التاريخ انتهى، وأن الأمر توقف، لكن لو تذكروا هذه الآية لعرفوا أنها سنة الله؛ يلعبون لعبتهم في الميدان، لكن إذا أرادوا الخروج فـ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾، فهي فترة إملاء وإمهال، وإذا أخذهم لم يفلتهم.

والله تعالى أقسم في أول السورة بقوله: ﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾، ثم لم يذكر تعالى الشيء الذي أقسم عليه، وإنما انتقل القسم إلى قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾، وهذا ليس من الأمور التي يكثر استخدامها عند العرب، ولكنها -والله أعلم- من مبتكرات القرآن العظيم التي تهزُّ الضمير والوجدان هزًّا، ولو أن أحدهم أقسم لك بالله العظيم القوي العزيز ثم سكت وانتقل إلى موضوع آخر، لتساءلت: هذا القسم على ماذا؟

وهنا يبدأ عقل الإنسان في البحث عن المقسم عليه، وهذا أبدع وأبلغ مما لو أعطيته جواب القسم مباشرة.

والظاهر أن القسم -والله أعلم- هو على ما تضمنه السياق، يعني: كأن الله تعالى أقسم بقوله: ﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ أي: لنهلكن الظالمين.

* ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ [الفجر:١٥]:

وهنا نحتاج أن نربط بين الآيات وما قبلها، حيث كان السياق عن الأمم السابقة، وأن الله أعطاهم السلطان والعلم والقوة والمال، فكفروا، فكانت العاقبة أن أهلكهم، فدل هذا القدر على أن العبرة ليست بملكية الأشياء؛ فقد يملك البشر الأشياء ظاهرًا، وفي الحقيقة أنها هي التي تملكهم، وإنما العبرة بحسن الاستخدام وحسن التصور وحسن الشكر وحسن الصبر.

والمقصود هنا الإنسان، الكافر أو العاصي، إذا ابتلاه ربه بالعطاء والمال والصحة والقوة وملذات الدنيا، قال: ما أعطاني هذه النعم التي حُرِمها كثيرون إلا لرضاه

عني ولكرامتي عنده.

وقد جاء في القرآن آيات أخرى في معنى هذه الآية، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت:٥٠]، وقوله سبحانه: ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ [الحج:١١]، وهذا صنف من الناس، وإذا أُعطي من الدنيا ظن أن هذه كرامة عند الله يستحقها؛ لأنه جدير بها!

وفي قوله: ﴿ أَكْرَمَنِ ﴾ قراءة عند الوقف بسكون النون، وفي قراءة بالياء، وفي قراءة تحذف الياء عند الوقف، وتثبت عند الوصل، وهكذا في قوله: ﴿ أَهَٰنَنِ ﴾، ثلاث قراءات: بحذف الياء، وبإثباتها مطلقًا، وبإثباتها عند الوصل وحذفها عند الوقف، وكلها قراءات متواترة[١].

* ﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ [الفجر:١٦]:

«قَدَرَ» أي: ضيَّق، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ [الطلاق:٧]، وعلى هذا فقوله: «قَدَرَ عليه رزقه»، يعني: أعطاه بقدْر أو بقدَر، يعني: شيئًا قليلًا، وفيها قراءة أخرى: (فقدَّر عليه رزقه)، وهي بالمعنى ذاته[٢].

﴿ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾، أي: لم ينزلني المنـزلة التي أستحقها، ولم يعاملني بما أستحقه، فجعل معيار الإكرام والإهانة هو العطاء الدنيوي.

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٨٤-٦٨٥)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٢٢)، و«تحبير التيسير» (ص٦١٢)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ١٦٤)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٤٢٢).

(٢) ينظر: «الحجة في القراءات» (ص ٣٧٠)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٣٢٣)، و«معجم القراءات» لعبد اللطيف الخطيب (١٠/ ٤٢٤).

وفي الآيات إشارة إلى إبطال معيار الكرامة والإهانة الذي اعتبروه؛ فـ«**إن الله تعالى يعطي الدنيا مَن يحب ومَن لا يحب، ولا يعطي الآخرة إلا مَن يحب**»[1].

وعطاء الله تعالى إنما هو لِحِكَم وأسرار يعلم العباد بعضها، ويجهلون الكثير منها، ومَن حاول أن يستقصي، ربما آل به الأمر إلى الجحود والكفر، وبمثل هذا ضل ابن الرَّاوَنْدي، فكان يقول[2]:

كم عالمٍ عالمٍ ضاقتْ مذاهبُـــه   وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقَا
هذا الذي جعَلَ الأذهانَ حائرةً   وصيَّر العالمَ النِّحرير زِنْديقَـا

إن المسلم مأمور بالرضا والإيمان والتسليم، على الحال الذي وصفه النبي ﷺ في قوله: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمرَهُ كلَّهُ له خيرٌ؛ إن أصابتْهُ سراءُ شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابتْهُ ضراءُ صبر؛ فكان خيرًا له**»[3].

* ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧-١٨]:

﴿كَلَّا﴾ يعني: ليس الأمر كما زعم هؤلاء، و﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وزجر ونفي لما ادعوه.

---

(١) كما في حديث ابن مسعود ﷺ: أخرجه أحمد (٣٦٧٢)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٢٠٩)، والبزار (٢٠٢٦)، والحاكم (١/ ٣٣)، (٢/ ٤٤٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٦٦)، (٥/ ٣٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٣٦) مرفوعًا.
وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٥٤٥، ٣٤٥٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٦٥) موقوفًا. ورجَّحه الدارقطني وغيره. ينظر: «علل الدارقطني» (٥/ ٢٦٩)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٧١٤).

(٢) ينظر: «الأمل والمأمول» المنسوب للجاحظ (ص٤)، و«غرر الخصائص الواضحة» للوطواط الدمشقي (ص٧٠)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (٤/ ٢٣٢)، و«معاهد التنصيص» للعباسي (١/ ١٤٧)، وفيها اختلاف في الرواية، وفي النسبة بين أبي العلاء المعري، وابن الراوندي، وغيرهما.

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومي ﷺ.

وفي قوله: ﴿كَلَّا﴾ نفيٌ لمعنًى آخرَ ظنوه وتوهموه، وهو: أن من طَبْعِ الإنسان أنه يظن الحال التي هو عليها حالًا ثابتة مستقرة، لا تتغير ولا تتبدل.

فإن من الناس مَن إذا كان في حالة من الفقر ظن أنه لن يغتني، وإن كان في حالة من الغِنى استطرد وظن أنه لن يفتقر، وإن كان مريضًا ظن أنه لن يتعافى، وإن كان معافىً ظن أنه لن يمرض!

ومن هنا ندرك قوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾؛ لأن الإنسان الذي يكرم اليتيم هو المؤمن الذي لا يقول: «أكرمني.. أهانني»؛ لأنه يعرف أن العطاء والمنع من الله، وأنه لحكم وأسرار، وأنه إن أعطاك اليوم فقد يمنعك غدًا، وإن منعك اليوم فقد يعطيك غدًا، ولذلك يعرف أن للناس حقًّا في عقله وفي لسانه وفي سمعه وبصره وقواه وماله.

وقوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ فيه معنى الاستنكار، أي: لماذا لا تكرمون اليتيم، مع أنكم أغنياء ولديكم أموال؟ فإن الإنسان يقول: هذا أوتيته على علم عندي، وربي أكرمني بهذا؛ لأني جديرٌ وخَلِيق، ومن هنا يتضح الربط بين قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ﴾ مع قوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾. و«اليتيم»: من فقد أباه قبل البلوغ، وقيل: يستمر اليتم إلى حال استغنائه عن الناس، خاصة مع ضعف حديث: «**لا يُتْمَ بعد احتلام**»[1]. وهذا قول صحيح.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٧٣)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٦٥٨)، والبيهقي (٦/ ٥٧) من حديث علي رضي الله عنه.

وأخرجه الطيالسي (١٨٧٦)، والبيهقي (٧/ ٣١٩) من حديث جابر رضي الله عنه.

ورُوي عن غيرهما، وفي أسانيدها ضعف. ينظر: «الضعفاء» للعقيلي (٤/ ٤٢٨)، و«علل الدارقطني» (٤/ ١٤١-١٤٢)، و«تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (١/ ٢٧٥-٢٧٨)، و«التلخيص الحبير» (٣/ ٢١٧-٢١٨)، و«إرواء الغليل» (١٢٤٤)، و«السلسلة الصحيحة» (٣١٨٠).

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ وفي قراءة سبعية: (تحضُّون)[1]، أي: لا تحضون الآخرين، أو لا يحض بعضكم بعضًا؛ ووصف المسكين إذا أطلق يعم المسكين والفقير.

و﴿طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ يحتمل أن يكون معناه: إطعام المسكين، فيكون مصدرًا، ويحتمل أن يكون المقصود الطعام الذي هو المطعوم، يعني: لا تحاضُّون على بذل الطعام للمسكين من غداء أو عشاء أو سواه.

- لا يكرمون اليتيم.
- ولا يتحاضُّون على إكرام اليتيم.
- ولا يطعمون المسكين.
- ولا يتحاضُّون على طعام المسكين.

والخلاصة: أنهم لا يفعلون هذه الأشياء بأنفسهم، ولا يحرِّضون ويحثون الآخرين على فعلها، فنفى عنهم القول والفعل.

والإنسان قد يكرم بالقول، أو بالفعل، والإكرام بالفعل كأن يعطيه طعامًا وشرابًا، أما الإكرام بالقول، فقد لا يستطيع أن يعطيه لعجزه، لكن قد يحرِّض غيره على ذلك، ويكون شافعًا للفقير والمسكين عند أصحاب الغنى والكرم.

والأصل في المجتمع المتراحم أن تكون الأعمال الإغاثية والتطوعية أعمالًا جماعية يتحاض الناس عليها ويتنافسون فيها، وفي هذه الآيات لفتة إلى أن مراعاة حقوق الناس وحاجاتهم وإصلاح حالهم من القضايا الكبيرة التي جاءت بها رسالة الإسلام، وأن الأمر بذلك والحض عليه جاء في الآيات المكية وفي أوائل ما نزل من القرآن.

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٨٥)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٧٠)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٤٢٥-٤٢٦).

* ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴾ [الفجر:١٩]:

﴿ٱلتُّرَاثَ ﴾ هو: المال الموروث من الموتى، و«أكل التراث» هو: الاستيلاء عليه بغير وجه حق وحرمان الوارث منه، لا سيما إذا كان امرأة أو يتيمًا[١].

وقد يكون المقصود به: أكل الطعام، وهذا احتمال؛ لأنه من مقاصد التملك.

والأقرب -وهو الأكثر في استعمال القرآن- أن المقصود: الاستحواذ والانتهاب من غير وجه حق، فهو من أكل أموال الناس بالباطل، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ [النساء:١٠].

* ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر:٢٠]:

والحب معنًى قلبيٌّ، وهذا يعني: أن قلوبهم معلَّقة بالمال وحب تملكه بكل سبيل، وأحسن ما قيل في الزهد: أن يكون المال في يدك وليس في قلبك[٢].

وقد يملك الإنسان المال، ولكن ليس عنده الحب الشديد له، ولذلك لا يبخل به، بل ينفقه ويتصدق منه.

و«الجمُّ» في الأصل هو: الكثير، كما يقال: جم الماء، إذا كان كثيرًا في عين أو بئر، وإذا بدأ الماء يتجمع شيئًا فشيئًا في أسفلها، فإننا نقول: إن الماء بدأ يجم[٣]، والمعنى: حبًّا كثيرًا ينمو ويزيد.

* ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ [الفجر:٢١]:

﴿كَلَّآ ﴾ أعادها مرة أخرى، و﴿كَلَّآ ﴾ الأولى كانت إشارة إلى واقعهم في الدنيا، أي أن ادعاءكم أن ربكم أكرمكم، أو أن ربكم أهانكم، بناءً على ما أعطاكم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٠١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٥٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٨٠).

(٢) ينظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٤).

في الدنيا ليس صحيحًا.

ثم جاءت ﴿كَلَّآ﴾ الثانية لتنقلَهم إلى عالم الآخرة، أي: أن الدنيا ليست نهاية المطاف، وهب أنك بَقِيْتَ في الدنيا سالمًا غانمًا معافًى إلى وقت الموت، فماذا ينفعك هذا عند الحساب؟

و«الدك» ورد في مواضع أخرى؛ كما في سورة الحاقة: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة:١٤] وهنا قال: ﴿دَكًّا دَكًّا﴾، وليس المقصود التعدد أو التثنية، بل التوكيد أو التفصيل، كما أقول: إنني أخذت الكتاب فقرأته حرفًا حرفًا. وهذا معناه: أنني استوعبته تمامًا، وليس معناه أنني قرأته مرتين، أو كما أقول: عرضت الحساب على فلان رقمًا رقمًا وبابًا بابًا، وهذا معناه: أنني انتقلت معه بالتدريج إلى المسائل كلها، والله أعلم.

وكثير من النصوص تبين دك هذه الأرض التي فيها الجبال والعمران والمنخفضات، والتي أقمنا عليها العماد، وتحركنا فيها، والتي يمشي الإنسان فيها متبخترًا متكبرًا بخُيَلاءَ وفخرٍ، وهو يظن أنه لا يموت ولا يزول، ولا ينطوي ملكُه، وينسى مَن قبله، وينسى ما بعده، فهذه الأرض كلها سوف تُدَكُّ وتكسَّر وتفتَّت، فكيف بما عليها؟

* ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢]:

هذا مشهد مهيب، ومن المتكلمين مَن يقول: إن هذا محمول على المجاز؛ لأن المجيء في حقيقته انتقال، والانتقال لا يكون إلا للأجساد؛ والله تعالى منزه عن التجسيم[١].

والأولى باللبيب أن يتدبر الآية، ويتذكر ذلك الموقف المهيب، ولا يشغل نفسه في تأويلها، وكيف يصرفها عما تدل عليه؟!

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٥٤).

ولو أننا أبقينا القرآن على جماله ورونقه، ووضوحه وظاهره، لكان هذا الأجدر بالهداية الربانية، ولذلك كان من طريقة السلف: «أَمِرُّوا النصوص كما جاءت».

ومن مذهب السلف ﷺ: أن كل ما يخطر في الذهن عند قراءة هذه الآية ونحوها خيال بعيد عن الواقع؛ والله منزه عنه، كما قالوا: «كل ما خطر ببالك فالله ليس كذلك».

فإذا قرأت قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾، وتخيلت أن كرسيًّا يُنْصَب، وأن مَلِكًا يقعد عليه، فإن هذا الخيال الذي في ذهنك مما يجب أن يُنـزَّهَ عن الله، ولذلك نقول: مَن قال: إن الظاهر غير مراد. فإن قصد بالظاهر هذه الصورة الخيالية التمثيلية التي ارتسمت في أذهاننا ونحن نقرأ السورة فهو صحيح؛ لأن هذا غير مراد، ولكننا نقول أيضًا ببقاء السياق والنص على ظاهره، ولا نقول: إنه مجاز وغير حقيقي، بل نقول: يأتي الله سبحانه وتعالى ويجيء. من غير تكييف؛ لأننا لا نعلم كيف هو، فلا نعلم كيف أفعاله، ولا كيف صفاته، ولا يعلم ذلك إلا هو سبحانه، لكننا ندري أن الموقف مهيب؛ لأنه إذا كان مجيء ملوك الدنيا من المواقف المهابة، فكيف بمجيء الرب العظيم الكامل في أسمائه وصفاته، وعظمته ومجده، وقدرته وسلطانه؟!!

ومع ذلك يأتي إلى عباده؛ لفصل القضاء بينهم، ونصر المظلوم من الظالم، وإعادة الحق إلى أصحابه، وثواب المطيعين المؤمنين الصابرين، وعقاب الكافرين المعاندين!!

فهذا المشهد مشهد عظيم مَهِيب تَوْجَلُ له القلوب.

ثم الملائكة يُصَفُّون صفوفًا بعضهم خلف بعض، وورد أنهم يصفون سبعة صفوف، وهم محيطون بالبشر، ولهذا: ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة:١٠-١٢][1]، وهذا من معاني المرصاد!

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨٩).

* ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر:٢٣]:

«جهنم»: اسم من أسماء النار، وقد جاء في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ: **«يُؤْتَى بجهنمَ يومئذٍ لها سبعونَ ألفَ زمام، مع كل زمام سبعونَ ألفَ مَلَك يجرونها»**. فهذا مما يدل على رهبة المشهد وعظمته.

والحديث ورد موقوفًا ومرفوعًا، وكأن الموقوف على ابن مسعود ﷺ أشبه، فقد رجَّحه غير واحد، واستدركه الدارقطني على الإمام مسلم في رفعه(١).

ويُؤْتى بالجنة، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾ [التكوير:١٣]، يعني: قرِّبت من أهلها، وإنما ذكر جهنم فقط؛ لأن المقام مقام تهديد ووعيد.

﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾: هذا الإنسان هو الذي كان يقول: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ إن مُنع المال والدنيا، وكان يقول: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ إن أعطي المال والدنيا، ففي ذلك الموقف يستعيد ذكرياته، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ لفظ استفهام، معناه: الإنكار أو الاستبعاد، يعني: أنى له أن ينتفع بالذكرى؟! وإلا فهو قد تذكر فعلًا، والمعنى أنه لا يستفيد من الذكرى؛ لأن وقت العمل قد ذهب، وجاء وقت الحساب.

* ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤]:

إما يقولها بلسانه أو يقولها بقلبه، وهما سِيان، يعني أن الذي مُتِّع في الدنيا، وأُعطي ونُعِّم فيها حتى أسرف على نفسه، واشتغل بملذاتها عن فعل الفرائض

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٢٨٤٢)، و«جامع الترمذي» (٢٥٧٣)، و«مسند البزار» (١٧٥٤-١٧٥٦)، و«علل أحاديث صحيح مسلم» لابن عمار الشهيد (ص ١٥٠-١٥١)، و«الضعفاء» للعقيلي (٣/ ٣٤٤)، و«علل الدارقطني» (٥/ ٨٦)، و«الإلزامات والتتبع» (٩٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٩).

والقيام بحق الله، وشك في اليوم الآخر، سوف يأتي يوم القيامة متحسِّرًا أعظم التحسر على التفريط في جنب الله قائلاً بلسانه أو بقلبه: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ وسيوقن أن الحياة الحقة هي في الآخرة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤] أي: لهي الحياة الحقة.

* ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ [الفجر: ٢٥-٢٦]:

وفي قراءة: (لا يُعَذَّب عذابَه أحدٌ، ولا يُوثَق وثاقه أحدٌ)[1]، أي: أن عذاب الله في الدار الآخرة لا يشبهه عذاب أحد من الناس إطلاقًا، وكل ما تعرفونه من ألوان العذاب فهو مختلف.

و«الوثاق» هو: القيد، كما في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤]، ولا أحد يوثِق مثل وثاق القيد الذي يجعله الله تعالى للكافرين، كما قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٢]، ومَن قرأ هذه الآيات فإنه يتخيل سلاسل الحديد الموجودة في الدنيا، ودوائرها الضيقة، وحتى الذراع؛ يتخيل الذراع الذي يعتاده، ومن ثَمَّ يقع عند الإنسان شيء من التشبيه، ولهذا قال هنا: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾، وأن ما عند الله تعالى من العذاب ومن النعيم لا يخطر على بال، ولا يستطيع أن يتصوره خيال.

ويحتمل أن يكون المعنى: لا يعذِّب اللهُ تعالى عذابَ هذا الكافر أحدًا غيره، أي: لا يتحمل أحد عن أحد عذابه ولا وثاقه، فعذاب كل إنسان يتحمله هو، ولا يعذَّبه أحد غيره.

وقد ذكر الله تعالى في هذه السورة القوة والشدة والوعيد والتهديد والعقوبات

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٩١)، و«السبعة في القراءات» (ص ٦٨٥)، و«الحجة في القراءات» (ص ٣٧١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٦٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٦).

الدنيوية للأمم الكافرة، وأما العذاب الحقيقي فهو في الآخرة؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾.

وذكر الوِثاق هنا قد يكون مناسبًا -والله أعلم- مع ما يذكر عن فرعون وغيره من أنهم كانوا يوثِقون ويقيِّدون ويحارِبون مَن لا يوافقهم من المؤمنين.

* ثم ختم تعالى السورة بهذا الختام اللطيف الدال على رحمته وفضله وكرمه وعطائه ولطفه: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر:٢٧].

والسورة فيها مقامان:

١- مقام التنبيه للنبي ﷺ على فضل الله عليه ومنَّته.

٢- مقام الإشارة إلى أعدائه وما سيصنع الله بهم.

ومن هنا ناسب أن يقول: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾، وهذا خطاب للنبي ﷺ ونفسه المطمئنة، وهو خطاب لكل الصالحين، ولذلك نقول: إن النفس هنا هي كلُّ النفوس المطمئنة، والمطمئنة صفة، والمقصود: الثناء على تلك النفوس بأنها مطمئنة.

وهنا هي مطمئنة بذكر الله عز وجل؛ فإن ذكر الله طمأنينة للقلب، كما في قول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

وهي أيضًا مطمئنة بالنظر وإعمال العقل والفكر في ملكوت السماوات والأرض، وفي آيات الله الكونية المخلوقة، وفي آيات الله الشرعية المنزلة، ويدل على هذا المعنى قول الله عز وجل حاكيًا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة:٢٦٠]، يعني: أنه كان يريد مزيدًا من الطمأنينة، وهي تكون برؤية الملكوت، وتكون برؤية الله عز وجل في الآخرة، وتكون بمحض الفضل من الله، كما في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠]، فهذه النفس المطمئنة تنال الأمن والبشارة.

ومن معاني المطمئنة: المنخفضة، كقولنا: هذه أرض مطمئنة، يعني: غير مرتفعة؛ فمن معانيها: التواضع، فهي متواضعة لعظمة ربها تبارك وتعالى(١).

ومن معاني المطمئنة: استواء المشاعر من حيث التسليم والرضا بالمقدور في حال الشدة والرخاء والغنى والفقر والخوف والأمن.

وأولئك كانوا إذا أصابهم المال والغنى قالوا: ربُّنا أكرَمَنا. وإذا أصابهم الفقر والجوع والمرض قالوا: ربُّنا أهانَنا. وهذا يدل على أن نفوسهم لم تكن مطمئنة.

وهنا نلاحظ التوافق والتناسب بين أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [الفجر:١٥] وبين الخاتمة هنا في قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾، وهذا استثناء للنفوس المؤمنة بربها المطمئنة إلى وعد الله تبارك وتعالى، فهي مطمئنة بمواقفها ومشاعرها في حال الخوف والأمن، والشدة والرخاء، والسَّعة والضيق، والغنى والفقر، والمرض والعافية، والكثرة والقلة، والعزة والذلة.

وهي راضية بقضاء الله، ذاكرة له، وهي ممتلئة من الإيمان والتدبر والتأمل في كتاب الله المشهود «الكون»، وفي كتاب الله تعالى المنزَّل «القرآن».

وقد قسَّم بعض العلماء النفوس إلى ثلاثة أقسام(٢):

١- النفس المطمئنة.

٢- النفس اللَّوَّامة.

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٠٢).

(٢) ينظر: «قوت القلوب» (٢/ ٤٠٦)، و«إحياء علوم الدين» (٣/ ٤)، و«تفسير الخازن» (٣/ ٢٩٠).

٣- النفس الأمَّارة بالسوء.

وهذه الأقسام هي أحوال للنفس؛ فإن الإنسان الواحد قد يكون في حال مطمئنًّا، وفي حال أخرى لائمًا لنفسه، وفي حال أخرى تكون نفسه أمَّارة بالسوء.

* ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر:٢٨]:

فالمعنى فيه على قولين:

١- ارجعي إلى الله، وهذا هو الذي عليه جمهور المفسرين، وهو الصحيح[١].

وقد جاء في أثر عن بعض السلف أنه سُئل: كيف القدوم على الله؟ فقال: «أما المحسن، فكالغائب يقدم على أهله مسرورًا، وأما المسيء، فكالآبق يقدم على مولاه محزونًا»[٢].

والرجوع هنا كأنه اختياري لها وبطوعها، وقد جاء في «الصحيحين»: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ اللهُ لقاءَهُ، ومَن كره لقاءَ الله كره اللهُ لقاءَهُ**»[٣].

فالكافر يُساق سوقًا، وقد ورد في حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما الطويل في قصة النزع والاحتضار أن نفسَ الكافرِ وروحَه تتفرَّق في جسده، فتنتزعها الملائكة كما تنتزع السَّفُّود من الصوف المبلول، وتنزعها من كل أنحاء الجسد نزعًا، وأما المؤمن؛

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨٩-٣٩٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٨١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٠٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧٢)، و«الكشاف» (٤/ ٧٥٢)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٨٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٨)، و«البحر المحيط» (١٠/ ٤٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٠٠)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢٤).

(٢) ينظر: «مسند الدارمي» (٦٧٣)، و«المجالسة» (٨/ ١٤٩) (٣٤٥٦)، و«حلية الأولياء» (٣/ ٢٣٤)، و«تاريخ بغداد» (٦/ ٦٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦٧)، و«إحياء علوم الدين» (٢/ ١٤٧)، و«تاريخ دمشق» (٢٢/ ٣٠)، و«المنتظم» (٨/ ٣٣).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٥٠٧، ٦٥٠٨)، و«صحيح مسلم» (٢٦٨٣-٢٦٨٦).

فإنه عند النزع والاحتضار تخرج نَفْسُه وروحه كما تخرج القطرة من فيِّ السقاء(1)، يعني: بسهولة ولين، وكما في الحديث الآخر: «**المؤمنُ يموتُ بعرق الجَبين**»(2).

فالنفس المطمئنة هي التي تطمئن في حال الفقر والغنى، والصحة والمرض، والأحوال المتقلبة المختلفة، وترجع إلى ربها راضية مرضية، كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [البينة:8]، فتحقق لها هذا كلُّه.

2- أن المقصود بقوله: ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: صاحبك؛ أي: إلى الجسد الذي كنت تعمرينه في الدنيا، وهذا قول مرجوح(3).

* ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:29-30]:

أي: فادخلي في عبادي الصالحين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:9]، أي: ضمن عباد الله الصالحين.

﴿وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾، فانظر إلى هذا الفضل العظيم، وإلى هذا العطاء الجزيل، وإلى هذا الختام الجميل؛ اللائق بفضل ربنا وكرمه جل وتعالى.

○ ○ ○

---

(1) أخرجه الطيالسي (789)، وأحمد (18614)، وأبو داود (4753، 4754)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2628).

(2) أخرجه الطيالسي (846)، وأحمد (22964)، والترمذي (982)، وابن ماجه (1452)، والنسائي (4/6)، والحاكم (1/ 361) من حديث بُريدة ﷺ.

(3) ينظر مصادر القول الأول.

سُورَةُ الْبَلَدِ



سورة البلد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا
ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾
أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ
﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى
مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟
بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ
ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴾ [البلد:١-٢٠].

* تسمية السورة:

١- المشهور في كتب التفسير والمصاحف: «سورة البلد»[1].

٢- وسماها البخاري في «صحيحه»: «سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾»[2]، وهذا يشتبه مع سورة القيامة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:١]، وفي بعض التفاسير: «سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾»[3].

٣- وذكر الفيروزآبادي في «بصائر ذوي التمييز» أن من أسمائها: «سورة العقبة»[4]؛ لأن الله تعالى قال فيها: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ [البلد:١١]، وهو مناسب؛ لأن هذا الاسم يميزها عما سواها.

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٠١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٠٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٢٥)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٨٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٤٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري»، كتاب التفسير (٦/ ١٦٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٣٨)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٢٣٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤٥).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص ٧٢٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٢٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٣٣).

(٤) ينظر: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (١/ ٥٢٠).

* عدد آياتها: عشرون آية باتفاقهم[1].

* وقد نزلت بمكة، ولم يذكر أكثر المفسرين كالقرطبي وابن الجوزي وغيرهما إلا هذا، ولكن ذكر ابن عطية والرازي قولًا آخر: أنها مدنية، وقيل: إن أولها مكي. وهذا ضعيف.

والراجح أن السورة مكية، كما هو قول الجمهور، وحُكي إجماعًا[2].

* ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد:١]:

يعتبر هذا جمع من المفسرين نفيًا للقَسَم، أي: أن الله لم يقسم.

والراجح: أن هذا قَسَم، وهو كثير التكرار في القرآن الكريم، كقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥]، وقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة:١]، وقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥].

وهو جارٍ على لغة العرب، بل يظهر أن القسم بلفظ الفعل بصيغة المتكلم لم يرد في القرآن إلا مقرونًا بـ ﴿لَآ﴾، فلا تجد في القرآن «أقسم»، وإنما تجد: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾؛ و﴿لَآ﴾ ليست نافية، وإنما هي حرف صلة، وبعضهم قد يقول: زائدة، ولا يقصدون زيادتها في المعنى، وإنما يقصدون زيادتها في الإعراب[3].

ويبدو أن ﴿لَآ﴾ هنا يصلح أن تكون حرف استفتاح، مثل كلمة: «ألا»،

---

(١) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٤٩).

(٢) ينظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص ٢٧٤)، و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٤٨٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٦٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٣٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٤٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤٥).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ١٨٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٩)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ٢٥١٠، ٢٦١٠)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢١٤).

وتأتي للأهمية أو التوكيد أو التطويل في القَسَم لما يقتضي زيادة القَسَم[1]؛ فكلمة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ أقوى من كلمة: «أقسم»؛ لأن فيها القسم، وفيها زيادة الاستفتاح.

فهذا قَسَم، لا سيما أن الله تعالى أقسم بهذا البلد، فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين:١-٣]، فكيف يقسم الله به ثم يقال: إنه لا يقسم به، أو لم يقسم به؟!

فالراجح الذي عليه الأكثر: أن الآية هنا قَسَم مؤكَّد، وليست نفيًا.

و«هذا» اسم الإشارة، واللافت للنظر في القرآن أن كلمة ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾ غالبًا ما تأتي في القرآن مسبوقة باسم الإشارة، كما هنا، وكما في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين:٣]، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [النمل:٩١]، فالإشارة فيها تقوية وتعزيز وإشهار وإظهار، وهذا يؤكِّد أن الآية قَسَم؛ لأن قَسَم الله بشيء فيه تعظيم له.

وفي هذا القَسَم تحديد للمقصود؛ حتى لا يلتبس، فليس المقصود بالقَسَم أي بلد، وإنما هذا البلد خاصة، وهو مكة، وفي ذلك إشارة إلى تعظيم الله تعالى لهذه البقعة المباركة التي اختارها واصطفاها، وجعل من أرضها وتربتها المكان المقدَّس يوم خلق السماوات والأرض، والكعبة التي حجَّها الرسل والأنبياء وطافوا بها، وأمَّها المسلمون في صلاتهم، ولا زالوا يَؤُمُّونها إلى يوم الدين.

وهذا القدر كان معروفًا عند الأنبياء السابقين وعند الأمم السابقة، لكن في هذا القَسَم إشارة إلى مرحلة جديدة من القوة والظهور لهذا البلد، بحيث يكون مركزًا للعلم والدعوة والإيمان والنصر والفتح، وهذا ما لم يكن موجودًا آنذاك، ولكن عُرف فيما بعد.

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٠١)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٨).

وفي ذلك إعجاز رباني وإلماح إلى ما سيقع.

ويقول كثير من الجغرافيين: إن مكة في مركز الكرة الأرضية. وتاريخيًّا هي كذلك[1].

ولها من التأثير والعظمة شيء يطول منه العجب، فإن أكثر من مليار وخمسمائة مليون إنسان يستقبلون هذا البلد بصلاتهم، ويقصدونه بحجهم، حتى أنهم يتنافسون في فرص أداء الحج والعمرة؛ حيث صارت بالقرعة في بعض بلاد المسلمين، ولو فُتح لهم الطريق لضاقت بهم شعاب مكة وفجاجها.

* ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد:٢]:

وهذا خطاب للرسول ﷺ، أي: وأنت يا محمد، وهذه الآية يمكن أن تكون جملة معترضة، ليست تبعًا للقَسَم، ويمكن أن تكون حالية بمعنى: أقسم بهذا البلد حين تكون -يا محمد- حلًّا به.

وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿حِلٌّ﴾ على معانٍ:

١- أن هذا البلد الذي حرمه الله، وأصبحت فيه الطيور تأمن، والوحوش والهوام والدواب والحمام، إلا أن قريشًا قد استحلت عرضك ودمك في هذا البلد الأمين[2].

٢- أن المعنى: وقد أحللنا لك هذا البلد، كما قال ﷺ: «وإنما أُحلَّت لي ساعةً من نهار»[3]. يعني: في فتح مكة، وهذا يشكل عليه أن الإحلال كان متأخرًا والسورة

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٠١)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ٢٥١٠، ٢٦١٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٩).

(٢) ينظر: «البحر المحيط» (١٠/ ٤٨٠)، و«الدر المصون» (١١/ ٥)، و«اللباب» (٢٠/ ٣٣٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٣٣)، ومسلم (١٣٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

مكية، وليس له وجه ظاهر في السياق.

٣- وهو مشهور، ذكره ابن كثير وابن القيم وجماعة[١]، وهو أن المعنى: ﴿ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾، يعني: وأنت حالٌّ مقيم بهذا البلد، أي: ساكن.

وهذا المعنى هو الأجود والأجمل، وإن كان هناك من اعترض عليه، كالشيخ الطاهر ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، حيث قال: إنه لا يعرف في لغة العرب أنهم يقولون: فلان حل، بمعنى: مقيم أو ساكن.

والمعروف أن لغة العرب واسعة، والاستعمال معروف عندهم، وإن كان نادرًا؛ كما في «بصائر ذوي التمييز»، وذكره غير واحد، فإنهم يقولون: حل بهذا المقام، يعني: أقام به، فهو حال وحل، وكما يقال: محرم، إذا دخل في الحرم، كذلك يقال: حل إذا دخل في الحل زمانًا أو مكانًا، ومنه حل به: أي أقام به، أو كان ظرفًا له[٢].

فالمعنى المختار: أنك مقيم بهذا البلد، فهذا تشريف وافٍ، يعني: يقسم الله تبارك وتعالى بهذا البلد الذي هو شريف، وزاده شرفًا مقامُك فيه يا محمد! ولاحظ كيف أن الله سبحانه وتعالى كرر كلمة «هذا البلد» مرتين في آيتين، ومع ذلك تجدها من أجمل وأفضل ما يكون، ولا يحس الإنسان بثقل ترديد العبارة، أو تكريرها، بل كلما كررها أحس فيها بروح الجمال والبلاغة والجودة.

* ﴿ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴾ [البلد:٣]:

هذا القَسَم الثاني، و«الوالد»: هو آدم عليه السلام وأولاده. وقيل: إبراهيم وذريته.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٠٢)، و«التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص٢٤).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ١٦٣)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ٢٦١٠)، و«الدر المصون» (١/ ٥٨١٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧٤)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٦٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤٨).

وقيل: كل والد وما ولد[1].

وإن نظرنا إلى مناسبة البيت والبلد قلنا: ربما يكون اختيار إبراهيم عليه السلام أنسب؛ لعلاقة إبراهيم بالبيت العتيق؛ ولأن محمدًا ﷺ من ولد إبراهيم، وهو الذي عمَّر هذا البيت بالإيمان، وجدَّد ملة إبراهيم عليه السلام.

وإن نظرنا إلى السياق العام في السورة قلنا: لا مانع أن يكون المقصود كل والد وما ولد، ويدخل في ذلك آدم وولده، وإبراهيم وذريته، وغيرهم من الناس، فيكون أقسم بالوالد وما ولد.

ولم يقل: (ومَن ولد)، مع أن «مَن» تستخدم للعاقل، وإنما قال: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ إشارة إلى معنًى خاص، وهو نوع من الوصف لما ولد، إما لكثرة مَن ولد، وذلك إشارة إلى كثرة البشرية وامتدادها وتنوعها، أو إشارة إلى الفضل والتعظيم، وكأنه يقول: انظر إلى صفات مَن ولد، كإبراهيم ومحمد ﷺ وغيرهما.

* ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد:٤]:

هذا جواب القَسَم، والأقرب أن المقصود كل إنسان، فيشمل المسلم والكافر، والذكر والأنثى.

و﴿فِى﴾ ظرفية، واختلف العلماء في تفسير: «الكبد» على أقوال، أهمها:

١- المشقة والتعب والعناء، وهذا الأقرب والأشهر، حتى إنه يتوارد إلى الذهن من دون مراجعة لكتب التفسير.

٢- في استقامة وانتصاب، خلقه الله قائمًا على قدميه، قوي البنية، كما في قوله

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٣٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧٥)، و«زاد المسير» (٩/ ١٢٧-١٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٦٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٦١-٦٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٧٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٣٧، ٤٣٨).

تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]، وكما في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤][1].

والأول أقوى؛ فقد جعل «الكبد» وعاء للإنسان، وأصل كلمة ﴿كَبَدٍ﴾ مأخوذة من الكبد؛ فالإنسان إذا أصابه وجع في كَبِدِه يقال: كَبَد فلان، وإذا واجهه ما يؤلمه، قال: هذا فَتَّ كبدي وفراه.

فالإنسان عادة يعبِّر بما يصيب الكبد عما يواجهه وما يعانيه، ومن هنا أخذ الكبد والمكابدة، فيقال: يكابد الإنسان العمل والتعب والعناء، فهذا المعنى قريب من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

ومع ذلك جعل الله في الحياة معاني أخرى، حتى إن الإنسان الذي لا يفكر قد يتعجب من الجمع بين ما يشبه النقيضين في الحياة، فمع أن في الحياة كبدًا، إلا أن الله تعالى جعل فيها من السرور والرضا والنعيم وقرة العين ما لو أن الإنسان أدام النظر في هذا الجانب وتأمَّله لنسي أنه قد خُلق في كبَدٍ، وظن أن الحياة هي النعيم والسرور وقُرة العين.

ومن عجائب الحياة أن بالكبد تُستلذ المتع والراحة وملذات الدنيا، فالذي يحس الجوع يستلذ الشبع غاية الاستلذاذ، والذي يحِس التعب يستلِذُّ الراحة غاية الاستلذاذ، وربما تطاولت النِّعَمُ بالمرء فأنساه ذلك لذَّتها وذهب بذلك طعمُها الذي وجده أول استطعامِه لها.

زرتُ جارًا لي أصيب بالسرطان في القولون، وعنده تورم في بطنه، وكان يعاني من آلام مبرحة، ويُعطى جرعات من المسكن، ومع ذلك يظل يعاني الألم ويتلوَّى منه، فكان يقول لي: سبحان الله! إذا هدأ الألم عني أشعر بلذة ما أعرِفُها طولَ حياتي

(١) ينظر: «تفسير التستري» (ص١٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/٤٠٨-٤١١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٠٣).

لمجرد إحساسي بالراحة من الألم!

والمرأة تجد كبدًا في الحمل والولادة؛ ولعل هذا من معاني الربط في قوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد:٣]؛ لأن في الولادة مكابدة، وفي الولد مكابدة، يعني: يُبتلى الأب بولده، ويُبتلى الولد بأبيه؛ ولذلك تجد كثيرًا من الآباء يشتكي من ولده، وكثيرًا من الأبناء يشتكي من أبيه، وتجد الأب يتلذَّذ بولده، من النظر إليه، وشمه، وذكره، والابن مثل ذلك يعتز بأبيه، فالحياة ليست لونًا واحدًا، لكن قدَّر الله سبحانه وتعالى أنها لا تستقيم للإنسان إلا بقدر من المكابدة والتحمُّل.

وهذا معنًى عام حتى في العبادة، كما كان بعض السلف يقول: «كابدتُ قيام الليل عشرين سنة، وتنعمتُ به عشرين سنة أخرى»[1].

وقد قال الله تعالى لمحمد ﷺ في الحديث القدسي: «إنما بعثتُكَ لأبتليَكَ وأبتليَ بك»[2]. فقد ابتُلِي النبيُّ ﷺ بالكفار والمشركين والمنافقين والمؤذين وضعفاء الإيمان، وابتُلِي به الناس ليَعْلَم مَن يؤمن ومَن يكفر، وابتُلِي به الأعداء أيضًا في النكاية بهم.

وهذا يعطي الإنسان العبرة ويربيه على معايشة الحياة بأسباب:

١- الطمأنينة والرضا والتسليم بقدر الله وقضائه.

٢- الشعور بضرورة استخراج السَّعادة من براثن الشقاء؛ فالإنسان يستطيع أن يسعَدَ، ويهنَأَ، لكن يحتاج إلى أن يتدرَّبَ على ذلك وأن يكابِدَ في طريقه.

وفي الحياة ألوان من المتعة، منها: المتعة بالعبادة.. المتعة بالحياة.. المتعة بالمال.. المتعة بالزوجة.. المتعة بالولد.. المتعة باكتشاف المعلومات.. المتعة بالإنجاز، لكن

(١) ينظر: «قوت القلوب» (١/ ٧١)، و«حلية الأولياء» (٢/ ٣٢٠)، (١٠/ ١٠)، و«سير السلف الصالحين» لقوام السنة (ص ٧١٧)، و«تاريخ الإسلام» (٨/ ٥٦)، (١٠/ ٣٤٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٢٤، ٣٥٥)، و«لطائف المعارف» (ص ٤٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ.

تحتاج هذه المتعة إلى شيء من مكابدة براثِن الشَّقاء[1]، فينبغي أن يتدرب الإنسان على كيفية قطف هذه المتعة.

ومن المهم هنا أن نعتبر بأن القناعة الذاتية عامل مؤثِّر في مسألة استشعار السعادة، فالإنسان الذي يقتنع أنه سعيد، وأنه يجب أن يكون سعيدًا، سيجد السعادة، حتى لو كان في جو شقاء، والإنسان الذي يستشعر الشقاء ويقوله ويكثر من اللوم، ولو كان عنده المال والصحة والفراغ والعافية والشباب والقوة، إلا أنه سوف يشعر بالتعاسة والحسرة.

* ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد:٥]:

أي: هل يظن الإنسان أنه لن يُبعث ولن يقدِرَ الله عليه؟ فإن الله خلقه، وحين أصبح إنسانًا قائمًا قويًّا نسي مَن خلقه، وصار يدَّعي أنه لن يُبعث؟!

فهذا عتاب للإنسان الجاحد الذي نسي خلقه الأول، وظن أنه تعالى لن يقدر عليه!

* ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ [البلد:٦]:

«اللُّبَد»: هو الكثير، بعضه فوق بعض، وقد وردت الكلمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]، وهي بضم اللام وبكسرها، فهذا الإنسان يتكلم ويدعي ويفتخر ويقول: أنا أهلكت مالًا كثيرًا في الإنفاق والبر والجود والإطعام والعطاء، وعبَّر بكلمة: ﴿أَهْلَكْتُ﴾ إشارة إلى أنه مال ضائع هالك.

* ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [البلد:٧]:

بلى، فإن الله سبحانه وتعالى يراه، كما قال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾

---

(١) البراثن: المخالب، والمراد: شوكة الشقاء وشدته.

[العلق:١٤]، فيعلم صدق دعواه بالإنفاق من كذبها، ويعلم قصده من الإنفاق، وأنه أراد به الفخر والادعاء، ولذا صار يتبجَّح به في المجالس ويقول: إنه أنفق وأنفق، أو يعبِّر بالإهلاك؛ لأنه لا يرجو ثواب ذلك العمل.

* ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:٨-١٠]:

هذا المخلوق الذي جعل الله له حرية واختيارًا، فلا هو مثل الشيطان الرجيم، ولا هو مثل المَلَك الكريم، وإنما هو قابل لهذا وهذا، وهذا جزء من كَبَدِه في البحث والمجاهدة، والوصول إلى الحق ولزومه.

والاستفهام هنا استفهام تقرير، يعني: قد جعلنا، ومن معانيه: الإشارة إلى ما يعتقده الإنسان من أنه لن يُبعثَ قط، وكيف لا يبعث والله تعالى زوَّده بالسمع والبصر واللغة، وهداه طريق الخير أو طريق الشر. قال عز وجل: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة:٣٦-٣٩]، فآخر سورة القيامة يوضِّح هذه السورة، فخِلقة الإنسان وجبلَّته تدل على أنه سيبعث، هذا معنى.

المعنى الآخر: أن الله تعالى يمتن عليه بأن خلق له الوسائل التي تعينه على معرفة الحق واتباعه، ومن ذلك العين واللسان والعقل والفهم الذي به يعرف النجدين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

وفي الآية معنى ثالث: أنه إذا كان الإنسان قد جَعل الله له عينين ينظر بهما، ولسانًا ينطق به، وعقلًا يميِّزه، أفيظن بربه الذي خلقه أنه لا يرى ولا يعلم؟! فالله أولى بالكمال؛ ولهذا كان من قواعد الصفات: أن كل كمال في حق الناس فالله أولى به، وكل نقص فالله تعالى أولى بالتنزه عنه.

و«النجدان»: مثنى نجد، وهو الطريق المرتفع.

والنجد مناسب للكبد، فهو طريق لا يخلو من المشاق، وفيه إشارة إلى أن كلًّا

من طريق الخير والشر لا ينفك عن الصعوبة والكبد، والبعض يظن أن طريق الشر سهل ممتع، وهذا ليس دقيقًا، صحيح أن فيه لذَّات وشهوات ومغريات، لكن فيه صعوبات، حتى الشهوة والمعصية التي يريدها الإنسان أحيانًا يتعب ولا يظفر بها، فترى العاصي قد اتصل بعشرات الفتيات، وعاكس وواعد واجتهد، ولم يحصل على ما يحب ويتخيل ويحلم! وبعد حصوله يجد الأمر محفوفًا بكثير من المزعجات والمنغِّصات المادية والمعنوية والمخاوف الصحية والاجتماعية والآلام النفسية واحتقار المتعة بعد الحصول عليها، وقد يشعر أنه تورط، ويتمنى الخلاص، ثم يتملك قلبه الهمُّ والغمُّ والقلق، والذكريات المؤلمة والتأنيب، فهذا كله عناء وكبد ومشقة، لكن كبد الطاعة ومشقتها محفوف بلطف الله، وكل عمل يعمله الإنسان فله ثمن، لكن ثمن الطاعة قبلها من الجهد والمكابدة ثم يعقبها الرضا والرَّوح والسرور، وثمن المعصية بعدها من الهم والغم وتأنيب الضمير والمعاناة النفسية والحسية.

* ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد:١١]:

أي: لم يقتحم العقبة، ولاحظ تناسق السورة هنا؛ لأن الاقتحام أمر صعب وفيه مخاطرة ويتطلَّب قوةَ قلبٍ وصبر، وهو مناسب للكبد، ومناسب للنجدين.

و«العقبة» هي: الطريق بين جبلين؛ طريق مرتفع ضيق، والعقبة معروفة، تقول: أريد أن أُنجِزَ هذا العمل لكن أمامي عقبات -يعني: صعوبات- فيتطلب الأمر إقدامًا وصبرًا؛ ولذلك قال الحسن البصري وغيره في تفسير الآية: إنه مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس(١).

وفي الآية إشارة إلى أن أغلب الناس لا يَقْتَحِمون العقبة، فهم يؤثِرون الرخاوة

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٢٩)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٦٧)، و«تفسير النسفي» (٤/ ٢٧٥)، و«اللباب» لابن عادل (٢٠/ ٣٤٧)، و«تفسير النيسابوري» (٧/ ٣٤٣)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٣٩٤).

وعدم الاقتحام؛ ولذلك يفشلون في الاختبار، والمطلوب منهم خلاف هذا.

* ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴾ [البلد:١٢]:

قال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كلُّ شيء قال الله تعالى فيه في القرآن: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ ﴾ فقد بيَّنه لنبيه محمد ﷺ، وكل شيء في القرآن قال الله فيه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فإنه لم يبيِّنه له[1]، وهذا تفريق لطيف ينبغي مراعاته في سائر المواضع.

* فقوله: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴾ سؤالُ تفخيم وتهويل، أي: ما هي؟! وقوله: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [البلد:١٣]: تعريف للعقبة واقتحامها.

و«الرقبة» معروفة، فهي: تُطلق على العبد الرقيق، وكان الإسلام حتى وهو في الفترة المكية يتشوَّف إلى عتق الأرِقَّاء وتحريرِهم، وإعادتهم إلى ما كانوا عليه في أصل خِلقتهم، فإن الله خلقهم أحرارًا ولم ينزل مع آدم عبد من السماء، بل كلُّهم بنوه، وإنما طرأ الرِّقُّ عليهم، وهذا دليل على أن الإسلام لا يتشوف إلى استرقاق الناس، بل إلى الإعتاق، وجعل الله تعالى العتق في كثير من الكفَّارات، وجاء من النصوص في فضل عتق الرقيق الشيءُ الكثيرُ، حتى قال بعض أهل العلم: إن أفضل أنواع الصدقة أن يعتق الإنسان رقبةَ رقيق.

* ﴿ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴾ [البلد:١٤]:

«المسغبة»: هي الجوع الشديد؛ لأن المقام مقام اقتحام، ومقام عقبة، ومقام كبد؛ ناسب أن يذكر الإنفاق في أشد حالاته، وأشقِّها على النفس، وهو في اليوم الشديد المسغبة وهي المجاعة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان:٨].

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٤٣٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٥)، و«تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٧)، (٢٠/ ٦٨)، و«اللباب» لابن عادل (١٩/ ٣١٣)، (٢٠/ ٣٤٨)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٢٦٦، ٣٩٤).

* ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد:١٥]:

يعني: إطعام الطعام ليتيم، و﴿يَتِيمًا﴾ هنا مفعول به منصوب معمول المصدر ﴿إِطْعَـٰمٌ﴾.

و«اليتيم» هو الصغير الذي فقد أباه قبل بلوغه، وقد يستمر اليتم بعد البلوغ بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية[1].

و«المقربة»: القرابة، والأقربون أولى بالمعروف.

* ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد:١٦]:

أي: إطعام مسكين محتاج لا شيء عنده، فهو ذو مَتْرَبة، لازق بالأرض من شِدَّة المسكنة، ولهذا إذا صار الإنسان فقيرًا قيل: يداه في التراب، والعرب كانت إذا دعت على إنسان قالت: تربت يداك، أو تربت يمينك، وهذا دعاء عليه، وأحيانًا لا يقصد حقيقته، وإنما هو دعاء جارٍ على الألسنة[2].

فالأمر الأول -الذي ذكره الله تعالى في اقتحام العقبة- هو ما يتعلق بالتحرر من سطوة المال والتعلُّق به، وإنفاقه في سبيل الله، بخلاف أولئك الذين لا ينفقون، ويقول أحدهم: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ [البلد:٦]، أو ينفقون القليل، ويدعون أنهم ينفقون الكثير.

لم يعتمد الإسلام على جانب واحد في حماية حقوق الفقراء والمساكين والأرِقَّاءِ، بل وضع نظامًا تكامليًّا من أربعة محاور:

١- الوعظ والترغيب الأخلاقي بكافة أشكاله، والوعد الدنيوي بالعوض

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الفجر» عند قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾.

(٢) ينظر: «الاستذكار» (١/ ٢٩٥)، و«التمهيد» (٨/ ٣٤٠)، و«تفسير غريب ما في الصحيحين» للحميدي (ص ٣٢١)، و«شرح السنة» للبغوي (٧/ ٢٣٥).

والخلف، والأخروي بالمثوبة والأجر والرضوان؛ مما يحفز المؤمنين إلى البذل وإيثار ما عند الله، والتغلب على شح النفس.

٢- تشريع الأحكام الملزمة لكل المؤمنين بأنواع الكفارات والزكاة والنذور وسواها، مما يترتب عليه الإلزام الشرعي بإخراج المال للفقير والمسكين.

٣- الإلزام العام للمجتمع بكفالة فقرائه ومحاويجه وأيتامه، وهذا إيجاب للإنفاق على الموسرين بما يحقِّق ذلك، ودعوة إلى بناء المؤسسات والفرق الطوعية التي تحقق ذلك، فلا تترك حقوق الناس لمجرد التقوى أو الإيمان؛ لأنه يوجد من الناس من لا إيمان عنده ولا تقوى، فيفترض أن توجد جهات ومؤسسات ولجان وجمعيات وأجهزة تَحفَظُ حقوقَ الأطفال والنساء والأيتام والفقراء والغرباء وعامة الناس، وفي العالم الغربي أصبحت هذه صناعة وثقافة وأعرافًا سارية، وقوانين محكمة، ولها أصول وقواعد وتنافس، أما في العالَم الإسلامي، فإهدار وإطاحة بالحقوق على مستوى الحاكم والمحكوم، والزوج والزوجة، والأستاذ والطالب، والداعي والمدعو، والعالِم والمتعلِّم، حتى أصبحت بلاد العالَم الإسلامي في وضع لا تُحسد عليه، ولا يتشجع الناس للدخول في هذا الدين الذي لم يجدوا النموذج الحسن في أهله وأتباعه.

٤- حث المساكين والفقراء والأيتام على العمل والكدح والسعي؛ للاستغناء عن الناس، ولذلك جاءت قصة صاحب الفأس الذي علَّمه النبي ﷺ جمع الحطب وأشرف عليه حتى حقَّق النجاح[1]، وجاءت أحاديث الوعيد في المسألة من غير

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٢١٣٤)، و«سنن أبي داود» (١٦٤١)، و«جامع الترمذي» (١٢١٨)، و«سنن ابن ماجه» (٢١٩٨)، و«سنن النسائي» (٧/ ٢٥٩)، و«الحث على التجارة» للخلال (١١٧)، و«سنن البيهقي» (٧/ ٢٥)، و«الترغيب والترهيب» (١/ ٣٣٥)، (٢/ ٣٣٣)، و«نصب الراية» (٤/ ٢٢).

حاجة، خاصة من القوي القادر ، كما في قول النبي: «لا تحلُّ الصدقةُ لغنيٍّ، ولا لذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»[1].

* ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد:١٧]:

كلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ في الأصل للعطف والترتيب، فهل الإيمان يأتي بعد الإطعام أو قبله؟

الجواب: قبل الإطعام. وقد أخَّر الله تعالى الإيمان هنا لأسباب:

١- الإشارة إلى علو الرتبة، ولا شك أن رتبة الإيمان والتواصي بالصبر والمرحمة والإيمان أعلى رتبة وأقدم مما قبلها، بل ما قبلها فرع عنها.

٢- إن صاحب الفطرة السليمة الكريمة الباذل المعطاء قد يمن عليه بالإيمان والعمل الصالح، كما في قصة حَكِيم بن حِزام رضي الله عنه لما قال: أي رسول الله، أرأيتَ أمورًا كنتُ أتحنثُ بها في الجاهلية من صدقة أو عَتاقة أو صلة رحم، أفيها أجر؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير»[2].

أي: لمَّا آمنتَ كُتبت لك أعمالك الصالحة.

فمن معاني قوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾: أن أناسًا قبل الإسلام كان عندهم أخلاق طيبة، ولم يكن عندهم إيمان، ثم لما جاء النبي ﷺ أصبحوا من: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾، فكُتبت لهم أجورهم، وربما كان إيمانهم بسبب ما أسلفوا وسبق لهم من الخير؛ ولهذا نقول:

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢٢٧١)، وأحمد (٦٥٣٠، ٨٩٠٨)، وأبو داود (١٦٣٤)، والترمذي (٦٥٢)، وابن ماجه (١٨٣٩)، وابن خزيمة (٢٣٨٧)، وابن حبان (٣٢٩٠)، والحاكم (١/ ٤٠٧)، والبيهقي (٧/ ١٣) من حديث عبد الله بن عمرو وأبي هريرة رضي الله عنهما، وينظر: «إرواء الغليل» (٨٧٧).
والمقصود بقوله: «ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»: القوي على الكسب والعمل.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣).

إن الإنسان إذا أسلم وحسن إسلامه فإنه يكتب له ما كان يعمله قبل الإسلام من الأعمال الصالحة.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ متناسب مع قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد:٤]، والكبد يهوِّنه على الإنسان الصبرُ؛ ولهذا قال عمر ﷺ: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر»(١).

فبالصبر تطيب الحياة، ويتحول الكبد إلى لذة، والمكابدة والمعاناة للصيام أو الصلاة أو طلب العلم أو بر الوالدين أو الأعمال الصالحة، تتحول إلى لذة.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ وهذه متناسبة مع سياق السورة؛ لأن هناك من الفقراء والجياع مَن يكابدون شَظَف العيش، ويحتاجون إلى مَن يُشفق عليهم؛ وهناك مَن يدَّعي أنه بذل وأنفق وأهلك مالًا لبدًا، وهناك مَن ينفقون المال في فك الرقاب، والإطعام في المساغب، بل ومَن لا يكتفون بمجرد العطاء والبذل، حتى يُوصُّوا به غيرهم، وهنا نجد طريقين، فمَن يهلك المال لبدًا وهو يحسب أن لم يره أحد، ومَن ينفق المال في فك رقبة، وإطعام في مسغبة، وتواصٍ بالمرحمة.

* ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد:١٨]:

أي: أصحاب اليمين الذين تجري أمورهم على اليسر والتوفيق، وهذا من معاني اليمين واليُمن، فهم يُعطون كتبهم باليمين، وهم أصحاب الجنة.

* ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [البلد:١٩]:

جعل الله تعالى الكفر هنا عنوانًا لكل شر، كما قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، فالكافر هو الذي يجحد البعث والنشور، وهو الذي يبخل بالمال، وهو الذي يكفر نعمة الله عليه، وهو الذي لا يصبر إذا أصابته مصيبة، وهو الذي لا

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦٣٠)، ووكيع في «الزهد» (١٩٨)، وأحمد في «الزهد» (٦١٢)، والبخاري (٨/ ٩٩) -معلقًا- في كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٥٠)، وابن حجر في «تغليق التعليق» (٥/ ١٧٢).

يرحم اليتيم والمسكين، قريبًا كان أو بعيدًا.

و﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ من الشؤم، والمقصود بها: الشمال، يعني: هم ممن يُؤتى كتابه بشماله، وهم أصحاب الشمال[1].

وقد جرت أعراف الناس ولغاتهم وعاداتهم على أن اليمين مما يتفاءل به، وأن الشمال مما يتشاءم به، حتى اليَمَن سُمِّيت يمنًا تفاؤلًا، والشَّام سُمِّيت شامًا عندهم تشاؤمًا، فجاء الإسلام لينفي هذا المعنى، فقال ﷺ: «اللهمَّ بارك لنا في شامنا»[2]؛ ليبيِّن أن هذا الأمر لا يُعبأ به.

فـ«المشأمة» تعني: الشؤم على أنفسهم، بأعمالهم الفاسدة.

* ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ [البلد: ٢٠]:

ختم السورة بالإطباق والإغلاق عليهم، وقُضي الأمر، و«الوصيد» هو: الباب[3]، لا تُفتح لهم أبدًا، وفي ذلك إشارة إلى أن الذين كفروا لا يخرجون من النار، بخلاف عصاة الموحدين، فإن الله يعذِّب مَن أراد عذابه، ثم يخرجون منها برحمة الله، والله تعالى أعلم.

○ ○ ○

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٨٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٩١)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٨)، (٢٠/ ٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) ينظر: «العين» للخليل (٧/ ١٤٥)، و«الجيم» لأبي عمرو الشيباني (٣/ ٣١٣).

فهرس المحتويات

○ ○ ○